



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة "ابن خلدون" تيارت
كلية الآداب واللغات
قسم: اللغة والأدب العربي



معمارية السورة في القرآن الكريم

مقاربة للمعمار الأسلوبية في سورة هود عليه السلام

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة والأدب العربي

إشراف الأستاذ الدكتور:

أحمد عرابي

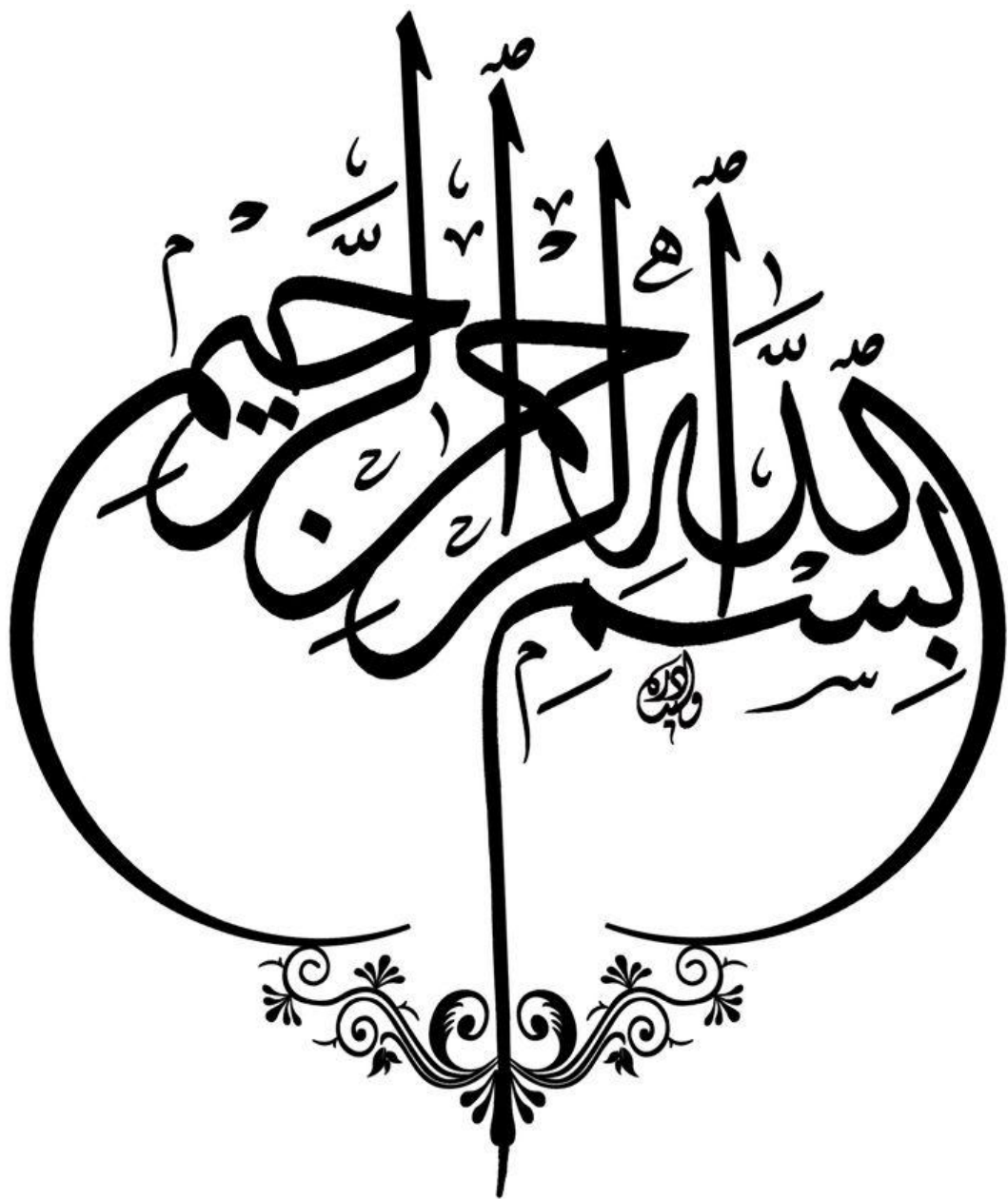
إعداد الطالب:

محمد عايش

لجنة المناقشة

| الاسم و اللقب | الرتبة | الصفة | الجامعة |
|-------------------|-------------------|---------------|-------------------------|
| أ.د بلحسين محمد | أ. التعليم العالي | رئيسا | جامعة تيارت |
| أ.د عرابي أحمد | أ. التعليم العالي | مشرفا ومقررا | جامعة تيارت |
| أ.د بن شريف محمد | أ. التعليم العالي | عضواً مناقشاً | جامعة تيارت |
| أ.د. بومدين بلخير | أ. التعليم العالي | عضواً مناقشاً | جامعة تلمسان |
| أ.د. عثمان بلخير | أ. التعليم العالي | عضواً مناقشاً | جامعة تلمسان |
| د. غربي بكاي | أستاذ محاضر أ | عضواً مناقشاً | المركز الجامعي تيسمسيلت |

الموسم الجامعي: 1438-1439 هـ / 2017 - 2018 م.



شكر وتقدير

أحمد الله - تعالى - وأشكره على ما أنعم عليّ به من توفيق وسداد، ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: 19).

أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان، ووافر التقدير لجامعة ابن خلدون بتيارات، التي أتاحت لي هذه الفرصة العظيمة، وإلى جميع القائمين على العمل بها. وأخص بالشكر والتقدير أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور أحمد عرابي، مدّ الله في عمره ومثّعه بالصحة والعافية، على ما أولانيه من نصح وإرشاد وتوجيه علمي سديد. وهو الذي أنعم عليّ مرتين أولاًهما: كان في مرحلة الماجستير، والأخرى الأشراف على بحث الدكتوراه، فأسأل الله أن يؤتبه أجره مرتين، وأن يجزيه خير الجزاء وجزاء الخير. ثمّ الشكر موصول إلى لجنة المناقشة على ما تكبدته من مشقة قراءة البحث، وما ستقدمه لي من نصح وتوجيه.. فشكر الله لكل من أعان على هذا البحث - ولو بالكلمة الطيبة- جزى الله الجميع عني خير الجزاء.

والحمد لله أولاً وآخراً.

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب متماسكةً كلماته في آياته، وآياته في سُورِهِ، وسُورُهُ في جملة، فكان ذلك دليل إعجازه، وأنه من عنده وحده، والصلاة والسلام على أفصح العرب قاطبة، سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أَمَّا بَعْدُ:

إنَّ من أجَلِّ النِّعم التي أنعم الله بها علينا أن أرسل رسولاً كريماً بكتاب كريم، ويزيد هذا الأمر جلالاً أن الكتاب الذي أرسل به محمد "صلى الله عليه وسلم" يحمل سمة "المطلق" فجاء من جهة كونه: الحق، والصدق، والإعجاز.. فهو ما أوحى به الله - عزَّ وجلَّ -، وما بلغ به الأمين جبريل، وما تلفظ به الحبيب محمد "صلى الله عليه وسلم" على أسماع كتبة الوحي، وما تناقلته الشُّفاه الطاهرة جيلاً بعد جيلٍ، إلى أن وصلنا كما هو: مبراءً من آية زيادة أو نقصان!...

إنَّ القرآن الكريم يُعتبر أمراً غير عادي في حياة البشر، فإعجاز القرآن لا يقع على قدر معين منه فحسب؛ بل نجد ذلك الإعجاز في أصوات حروفه، ووقع كلماته، كما نجده في الآية والسورة، فهو منظومة متسلسلة من أوله حتى آخره، وهذا التسلسل ينطبق على الآيات القرآنية في كل سورة على حدة، كما ينطبق على ترتيبها جميعاً من سورة الفاتحة حتى سورة الناس، ذلك ما جعل المتلقي منصاعاً لسطوة بنائه وهيئته، وعظيم مغزاه وفنيته.

ولا شكَّ أنَّ هذا يستدعي الانتباه إلى حقيقة غاية في الأهمية؛ وهي أن إعجاز القرآن الكريم، لم يقتصر فقط على الحقائق الموضوعية التي يطرحها، ولا في قدراته البلاغية وحسب، بل في تمتُّعه كذلك بإعجاز غير عادي حتى على مستوى تناسق حروف الكلمة الواحدة!. وقد أدرك القدماء هذا النمط من الكلام، وجلالته وإعجازه، وربانيته، وأنه فوق طاقة البشر، لذلك تناولوه من جوانب مختلفة، فكان لهم النصيب الأوفر في مقاربة النص القرآني، وذلك بتوظيف كثير من العلوم والآليات والأدوات التي تحيط بالنص الكريم، حاولوا على تفاوت بينهم، أن يدركوا معانيه ومقاصده، وأن يفهموا أساليبه وتراكيبه، فنشطت أمة العرب من ثم في تحليل نسق بنائه، وطرائق نظمه، وأساليب معماره، حتى يُثبتوا لنا صفات الكمال والإعجاز والتماسك والانتظام في النص القرآني؛ لأن القرآن الكريم بناء محكم واحدٌ ونظمٌ متفردٌ واحدٌ؛ ذلك أن القرآن واحدٌ في داخله فأصبح بهذه الخصائص ينتظم حروفه وكلماته وآياته في سلك واحد، ومن حيث الأهداف والمقاصد والغايات حتى يبدو في ذلك -كله- كما لو كان كلمة واحدة، أو

جملة واحدة، فهو من أوله إلى آخره نصٌّ واحدٌ كامل متكامل متماسك مُؤتلف، وكانت الرغبة مُلحّة للإضاءة على نموذج من هذا التماسك والتكامل؛ لتوضيح ذلك البنيان المرصوص الجوانب الذي تمت الإشارة إليه؛ باختيار سورة من الذكر الحكيم يتتبع فيها البحث البناء المعماري ودوره الإعجازي فيها، وهي سورة هود، ولذلك حدّدتُ عنوان بحثي:

معمارية السورة في القرآن الكريم - مقارنة للمعمار الأسلوبي في سورة هود؛ فكان كلٌّ مكوّن أسلوبي في السورة الكريمة رافداً إعجازياً مقصوداً، جاء بفتيةً متنّت نسيجها، وشدّت نظّمها، في تماسك عجيب لوحدها الموضوعية، فتجلّت الإعجازية في بنائها.
ومن الأسباب التي دفعني إلى اختيار هذا الموضوع:

- كتاب النبا العظيم، لمحمد عبد الله دراز، حينما تحدّث عن الانتقال بين أجزاء السورة الواحدة "كما تنتقل بين حُجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرّة واحدة لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع: في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق"، هذا الذي استدعى وقوفي على فكرة معمارية السورة، في كتاب وصفه واضعه "جلّ في علاه" بقوله: (الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)، وعلى هذا آثرتُ أن أتناول سورة هود انطلاقاً من الحديث الشريف: "شبيّني هود وأخواتها..". لمعرفة جانباً من جوانبها المعجزة وهو الجانب (البنائي الجمالي).

- جدة هذا الموضوع وقلة المؤلفات الشاملة التي تتناوله. فبرغم ما كُتب فيه قديماً وحديثاً من الكتب والدراسات والأبحاث القيّمة فإنّ التحدي في موضوع بنائية السورة لا يزال مفتوحاً لمزيد من التدبّر وبذل الجهود من طرف العلماء والمفسرين والباحثين ووضع الضوابط والقواعد والأسس حتى يُصنح علم الوحدة البنائية علماً مُستقلاً قائماً بذاته.

وبما أنّ القرآن الكريم يتألف من مجموعاتٍ سُورِيّة معلومة، تؤكد أنه بناءٌ مُحكم دقيقٌ معقد، إنّ في صورته الكلية المتمثّلة في السُور، وإنّ في صورته الجزئيّة المتمثّلة في الآيات والكلم، فهذا البناء المحكم في السورة والعلاقات ذات التلاحم والتداخل، والقضايا المتنوعة التي تدفع الدارس إلى التساؤل عن سر ذلك التناسق والتناغم في دقائق أجزائها وكلّيات مقاطعها، فجاءت الإشكالية كالآتي:

فإذا كانت أسرار المدن تضم مكونات معمارية مُتناغمة مع متطلبات الحياة البشرية. فما طبيعة البناء المعماري في السورة القرآنية؟ وماذا تفيد نظرية المعمار إذا كان؟ وما تجلياته في سورة هود "عليه السلام"؟.

وتكتسي الدراسة أهمية خاصة من عدة نواح:

- تبرز أهمية البحث في محاولة المزج بين فاعلية الأنساق كما هي في النص القرآني متشابكة متكاملة.

- تغطية جانب هام من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم، وهو الإعجاز البنائي.

- بيان وتأکید أنّ معمارية السورة من أعظم مظاهر الإعجاز والجمال في القرآن الكريم، وسورة هود واحدة من روائع سور القرآن.

- معرفة سر من أسرار القرآن وهو معمارية السورة وأهمية الوحدة البنائية للنص من خلال النسق، النظم، الاتساق، النظام، التابع، الترتيب، التجانس... الخ.

- الاستعانة على فهم القرآن بتلك النظرية (المعمار) التي تعين على أنّ أخذ السورة آية آية وتفسيرها على أنها مُنفصلة دون النظر إلى السلك الجامع الذي تنتظم فيها حبات عقدها فإنه يُفوّت على المفسر إدراك جملة من هدايات القرآن ولطائفه ومظاهر إعجازه. وبيان أنّ معرفة الوحدة المعمارية في القرآن الكريم خطوة أساسية في التفسير بنوعيه التحليلي والموضوعي واستخراج لطائف القرآن وأسراره وكنوزه.

- البحث يأخذ بمنهج الأسلوبية في دراسة المعمارية من خلال منظور عملي تطبيقي تجاوز فيه فلسفة الأسلوبية وصلتها بالفكر الغربي والعلمانية واعتبرها أداة للتّعرف على جمالية التّعبير في القرآن الكريم بعد أن أدى الدرس البلاغي دوره في اكتشاف هذه الجمالية.

وللوصول للغاية وتحقيق النتيجة المرجوة، استعنت بمجموعة من الدراسات السابقة، ونظراً لأن بعض هذه المؤلفات لها علاقة بموضوع هذا البحث، كان من الواجب أن أذكر هذه المؤلفات التي أنارت لي الطريق في معالجة هذا الموضوع، فمن تلك المؤلفات أذكر:

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين البقاعي، وهو تفسير كامل للقرآن، يحقق فيه المؤلف بيانه التناسب بين آياته وسوره من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس. والإمام البقاعي من بين العلماء الذين سوف أتحدث عنهم في هذه الدراسة.

-تناسق الدرر في تناسب السور، للإمام السيوطي، وهو تطبيق عملي في بيان تناسب السور القرآنية، ولذا ستكون جهود السيوطي في تحقيق التناسب عبر هذه الدراسة ضمن مجموعة من كتبه المختلفة.

-النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ل محمد عبد الله دراز، حيث توخى بيان حسن التأليف في السورة الواحدة، التي تتنوع فيها الموضوعات باعتباره أحد وجوه الإعجاز، وأن تدبر أيّ سورة يوقفك على جليل الالتحام وبديع التناسق.

-في ظلال القرآن و التصوير الفني في القرآن، ل سيد قطب، الغنية عن التعريف، والتي لا يستغني عنهما أي باحث يسعى إلى تذوق براعة النسق وجمال التصوير الفني في القرآن.

-التفسير البنائي، لمحمود البستاني، وهو تفسير طبق فيه صاحبه المنهج البنائي في الربط بين المحاور والموضوعات داخل السورة الواحدة، بصفة أنه يتناول (بناء) السورة القرآنية الكريمة من حيث كونها هيكلًا عضويًا يتماثل في وظيفته مع العمارة الخاضعة لهندسة خاصة أو الجهاز الجسمي في تواسج أعضائه: بعضها مع الآخر.

-الوحدة البنائية للقرآن المجيد، ل طه جابر العلوني، الذي أراد بها أن القرآن الكريم بكلّ سوره وآياته وأجزائه وأحزابه وكلماته كأنه جملة واحدة في بناء متكامل.

-المعمار القصصي في سورة مريم (دراسة بنائية جمالية تطبيقية)، للباحثة كليثم سعيد ناصر الخاطري، وهو بحث قُدّم للحصول على درجة الماجستير، إشراف: عبد الباسط عطايا، كلية الدراسات العربية والإسلامية بدبي، 2012م، وقد برعت فيه صاحبتة في تطبيق المعمار على قصص سورة مريم، هذه الدراسة وضّحت لي خطوات ومعالم دراسة المعمار في السورة، كما أنارت طريق الوصول إلى بعض المراجع التي يتطلبها البحث.

اقتضت طبيعة البحث أن تشتمل خطته على: مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، ومضى البحث على النحو الآتي:

الفصل الأول بعنوان: الوحدة المعمارية لسور القرآن؛ المفهوم والمسار: من حيث معرفة المقصود بمعمار النص القرآني الذي بات خارقاً للمألوف في الإنتاج البشري للنص الإبداعي، ليتم بعد ذلك تقديم صورة عامة عن الفهم البنائي للسورة القرآنية عند المفسرين وعلماء الدراسات القرآنية عبر مسار تطور مفهوم البنائية من خلال أقوال العلماء القدماء والمحدثين؛ كالمؤلفات في

إعجاز نظم القرآن ونسقه، والمناسبات بين الآيات والسور. لينتهي هذا الفصل التمهيدي إلى معرفة أهم أشكال الربط وآلياته داخل السورة القرآنية، وأهم الضوابط التي يجب أن تقيدها بالدراس لعمارة السورة وبنائها.

وَدَرَسَ الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود "عليه السلام": وخصصته لمعرفة سورة هود من حيث تسميتها وفترة نزولها وعدد آياتها، ثم الأهداف والمقاصد المتعددة لهذه السورة العظيمة، وهذا عبر الوحدة الموضوعية التي استهدفها السياق القرآني داخل السورة، ومدى انسجامها وتواشجها جميعاً مع عمارتها، لينتهي هذا الفصل إلى معرفة أوجه الإرتباط داخل السورة من جهة، ثم موقعها بين السور من حيث التناسب لما قبلها وما بعدها من جهة أخرى.

وتطرق الفصل الثالث إلى: الهيكل المعماري للسورة ووحدته العضوية: وكان التركيز في هذا الفصل يُفضي إلى جملة هياكل في السورة الكريمة، عبر بيان علاقات الآيات والمقاطع والموضوعات والقصص المتنوعة ومدى تناسبها بعضها مع البعض، هذا الأمر يؤدي بنا إلى بيان الترابط والتلاحم البنائي في هيكلية السورة من خلال أجزائها المتمثلة في (الابتداء، العرض، القصص، التناسق وحسن الانتقال، الخاتمة)، وهذه الأجزاء جاءت كلّها في ترابط متين مع موضوع السورة ومقاصدها.

ثم خصصت الفصل الرابع للحديث عن: أدوات المعمار الأسلوبي وخصائصه في سورة هود؛ وذلك لأن السورة القرآنية توظف مختلف الأدوات الأسلوبية والجمالية بهدف الإعجاز التأثيري، فكان كلّ مكوّن أسلوبي في السورة رافداً إعجازياً مقصوداً، فجاءت هذه السمات الفنية للقول القرآني لتخدم مقاصده وأهدافه داخل المعمارية. وتلك الأدوات التعبيرية الجمالية التي قوامها البيان الإلهي، إنما تتجلى في عقْدٍ جمالي ناتج عن تآلف الأدوات اللغوية والجمل القرآنية بعضها ببعض، في لوحات أو مشاهد جمالية تأثيرية بالغة الروعة غاية في التلاؤم والتناسق والانسجام مع موضوع السورة وأهدافها.

أما الخاتمة: فكانت بذكر أهم النتائج التي تم التوصل إليها بعد هذه الدراسة.

وقد اعتمدت في عرض مادة هذه الفصول على (المنهج البنائي) الذي عُرف قديماً بمسميات مشهورة ومتعددة مثل "علم المناسبات" لما لفضل هذا المنهج في القدرة على كشف سر تلاحم واتصال أجزاء السورة الواحدة التنوع والمتعددة وتآلفها مع بعضها.

كما استعنت بالمنهج التاريخي، وذلك من خلال تتبع معنى المعمار عند القدماء والمحدثين. كما انتهجت الدراسة منهجاً وصفيّاً استقرائياً وتحليلياً لمضمون السورة. من خلال تتبع مواطن الشواهد لإثبات وجود الوحدات الثلاث الموضوعية والعضوية والفنية في السورة الكريمة، إضافة إلى التحليل الشواهد في الدراسة الجمالية في الفصل الرابع من البحث.

ولعلي أذكر من الصعوبات التي اعترضت طريقي بعض العناء الذي وجدته في إعداد البحث: -جِدِيَّةُ البحث في التناول البنائي الدقيق الذي يستدعي من المُتدبِّر أن يبحث بأناة وتفكير عميق بحثاً كلياً شاملاً للسورة، وتتبع ارتباط آياتها، ومعاني جملها، بهذا الموضوع، أو بما تفرَّع عنه من عناصر، وما اتَّصل به من موضوعات جزئية، للوصول إلى سرّ التلاحم بين البنيات المكوّنة للمعمارية داخل السورة الكريمة.

-قلة المراجع التي تتبني الدراسة البنائية المنهجية للسورة القرآنية، وإن وُجدت فهي قليلة تتطلب المزيد من الجهد والوقت للحصول عليها؛ خاصة وأن أغلب الدراسات تقوم على تطبيق البنائية على الأعمال الأدبية مثل النماذج الشعرية أو النثرية وتعتمد بالدرجة الأولى على المنهج البنيوي الذي يُجزئ النص إلى بنيات متعددة يعالجها بعيدة عن سياقها وعن واضعها.

وفي الختام أتوجه بالشكر إلى المولى "عزّ وجلّ" على نعمه ومعونته في إتمام هذه الرسالة التي أسبق تقديم اعتذاري لكل مُطلِّع عليها يلمس فيها هفوات أو أخطاء فما الكمال إلاّ لله وحده، كما أخصّ بجزيل الشكر الأستاذ الفاضل الدكتور أحمد عرابي المشرف على هذه الرسالة، فقد وجدت منه كل معونة وكل خير، فجزاه الله عني خير الجزاء، وجعل أعماله الصالحة دُخراً للإسلام. والشكر موصول لأعضاء لجنة المناقشة لهذه الرسالة الذين تجشّموا الصّعب في قراءة هذا البحث ومناقشته، فجزاهم الله خيراً.

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد عايش: تيارت يوم: 9 أكتوبر 2017.

الفصل الأول

الوحدة المعمارية لسور القرآن، المفهوم والمسامر

تمهيد .

المبحث الأول: مفهوم معمار النص .

المبحث الثاني: بدور القول بالوحدة البنائية .

المبحث الثالث : حقيقة وحدة السورة ، مسوغاتها الفكرية وضوابطها .

المبحث الرابع: أشكال الربط وآياته في السورة القرآنية .

تمهيد:

نزل القرآن الكريم على أمةٍ بضاعتها اللغة، حيث بلغت شأواً بعيداً من الإجداد والإتقان لفنون القول والأداء، وامتلاك ناصية البيان، مع نباهة العقل، وصفاء الذهن، ممّا مكنهم من معرفة مخارج الكلام ومدخله، وتمييز جيده من رديئه، ممّا يتوقف على تذوق واستبطان لطرائق التركيب العالي للكلام، فتناولوا من خلال ذلك بناء النصّ القرآني بكافة مستوياته، فدرسوه على مستوى الآية، وعلى مستوى السورة، ثم على مستوى النصّ القرآني ككل، وتبينوا كيفية التلاحم والترابط بين الأجزاء، وكشفوا وظائف العلاقات الرابطة بين تلك الأجزاء داخل السورة القرآنية أو لنقل داخل النصّ القرآني ككل.

لو أخذنا السورة القرآنية الواحدة باعتبارها نصّاً قائماً بذاته تتوافر فيه كلّ العناصر التي تجعل منه كلاماً واحداً مترابطاً بين الأجزاء مُتسق المعاني، وعلى الرغم من اختلاف سور القرآن من حيث طولها وقصرها أو تعدد القضايا التي تُظهرها السورة واختلاف نزولها، سواء أكان ذلك النزول دفعةً واحدة أم كان نزولها مُتجزئاً بحسب الحوادث والواقع؛ فالسورة الواحدة تُشكّل - بحد ذاتها - نصّاً مُتكاملاً مُنظماً.

المبحث الأول: مفهوم معمار النص:

المطلب الأول: تعريف المعمار لغة واصطلاحاً:

المعمار لغة: مأخوذ من الفعل (عَمَرَ) بفتح العين وكسر الميم وفتح الراء؛ والاسم (العِمَارَةُ) بكسر العين؛ وهي القبيلة العظيمة، ويقال: عَمَّرَ النَّاسُ الْأَرْضَ عِمَارَةً وهي عَامِرَةٌ مَعْمُورَةٌ؛ والمصدر (العِمْرَانُ)، والمعمورة: الدار المبنية والدار المسكونة⁽¹⁾. وفي التنزيل: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: 61).

وجاء في المعجم الوسيط: «العِمَارَةُ نقيض الخراب، والعِمَارَةُ: البنيان، وفنُّ العِمَارَةِ: فنُّ تشييد المنازل ونحوها وتزيينها وفق قواعد معينة»⁽²⁾.

المعمار اصطلاحاً: المعمار والعمارة على الرغم من استخدامه في مجال معين من البناء والتشييد والنسيج بمقصوده المادي المُحَسَّن، لذلك تُعرَّف العمارة بأنها الفن العلمي لإقامة أبنية تتوفر فيها عناصر المنفعة والمتانة والجمال والاقتصاد وتُفِي بحاجات الناس المادية والروحية في حدود أوسع الإمكانيات وبأحسن الوسائل المتوفرة، وهي طريقة في العمل بتفكير ومنطق سليم⁽³⁾. وبما أن البناء يمثل الجانب المادي في العمارة الذي يُنقل الفكر المعماري إلى حالة التحقق ويتكوّن البناء من مواد بناء وطريقة إنشاء حيث يُكوّنان معاً وحدةً واحدةً⁽⁴⁾.

والأمر نفسه ينطبق على النص الأدبي؛ لأن «وصف المعاني كوصف المباني يضعها البناء لبنةً لبنة، ويضع بين اللبّات ما يربط بعضها ببعض ثم يعود عليها كلّها بما يُغطي أحادها ويُظهرها

¹ - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت - لبنان، (د.ط.)، (د.ت.)، مادة (عمر)، ج 4، ص: 604، 606. وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط.)، 1979م، مادة (عمر)، ج 4، ص: 141.

² - شعبان عبد العاطي عطية وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ومكتبة الشروق الدولية، مصر، ط 4، 2004، مادة (عمر)، ص: 627.

³ - ينظر: رثيف مهنا، نظريات العمارة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط.)، 1992، ج 1، ص: 108، 109.

⁴ - ينظر: محمد نوبي، نظريات العمارة، مطبعة الأوفست الحديثة، أسيوط - مصر، (د.ط.)، 2001، ص: 95.

كالسبيكة الواحدة، ثم يُكرَّرُ أخرى يُزيل ما خرج عن سمتها أو نبا عن حدِّها، وعلى قدر إتقانه للبناء تكون مهارته»⁽¹⁾، فبقدر الإحكام والإتقان في التَّشييد للبناءات، تكون المهارة في بنائية النص الأدبي؛ لأن «الكاتب أو المؤلف وهو "يكتب" كلماته أو "يؤلف" بينها "يني" عوالم نصه وفق كيفية ما: مُحاكياً بناءات موجودة، أو مُبدعاً، في نطاق الممكن النوعي، طرائق جديدة في "تنظيم" بنياته النصية التي يتشكَّل منها النص الذي "يبدع" وفق رؤيته لعمله الإبداعي أو تبعاً لضرورات تشكيل المعنى»⁽²⁾.

ومعمار النص الأدبي كما يُعرِّفه سعيد يقطين بقوله: «إنَّ "ترصيف" الكلمات و"تنضيد" الجمل، واصطفاف البنيات اللفظية عملية بناء، وبحسب نوع العمليات المختلفة يمكننا الحديث عن "معمار النص". ولعله لهذا الاعتبار، كان العرب القدماء يوظفون مفاهيم تتصل بالمكان وفي تشخيصهم للكلام وطرائق بنائه: البيت، العمود، البناء، الفصل...

إذا تجاوزنا المعمار تثيرنا طبيعة البنيات المترصفة والمصطفة والمرصفة... فتأمل علاقاتها، هل نقول "تفاعلها" و"تألفها" لإضفاء طابع خاص يتمثل في كفاءات "تأثير" فضاء النص "وتوزيع" مكوناته "وترتيبها"⁽³⁾.

وكما يتضح من قول سعيد يقطين، فإنَّ المعمار في النص مثله مثل المعمار أو الهندسة بما هي فن بناء صرح ما؛ فهو «كالبيت المُقسَّم، لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها»⁽⁴⁾، وهذا المعمار؛ يتطلب التناسق والقدرة باستخدام مواد وأساليب مختلفة لتشييد البناءات عن طريق هندسة مُتقنة البناء والإحكام، فهذه «العمارة التي يقوم النص الأدبي عليها بصفته مجموعة من

¹ - فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، خصائص القرآن الكريم، مكتبة التوبة الرياض - السعودية، ط 10، 2000، ص: 40.

² - سعيد يقطين، تقديم لكتاب عبد الحق بلعابد، عتبات جيران جنينيت من النص إلى المناص، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت - لبنان، ط 1، 2008، ص: 14.

³ - المرجع نفسه، ص: 15.

⁴ - بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي، دار المريخ للنشر، الرياض - السعودية، (د.ط)، 1984، ص: 85.

الأفكار والموضوعات تخضع لتخطيط خاص في صياغتها، من حيث ارتباط كل جزء منها بالآخر، أي ارتباط أول النص ووسطه ونهايته بعضها مع الآخر، وارتباط كل موضوع بما سبقه ولحقه من الموضوعات، ثم تجانس العناصر اللفظية والإيقاعية والصورية وتجانسها مع الموضوعات والأفكار المشار إليها وهذا يعني أن النص الأدبي هو وحدة فنية تنتظمها مجموعة من الموضوعات والأساليب، تخضع لبيكل خاص من الصياغة⁽¹⁾.

ولهذا؛ فإن معمارية السورة: بمعنى الإجابة المراد بها حسن الصنعة التي تتمتع بها صياغة السورة من حيث الإحكام والإتقان؛ فعمارة السورة القرآنية للدلالة على عظمة بنائها والنظام الذي يحكمها، وما تضم في داخلها من عناصر ومكونات تقوم عليها هندستها.

ومن الواضح جداً أنه لم تكن لدى القدماء وعلماء السلف مصطلح "المعمارية" بهذا الاسم، أما من حيث المفهوم، فقد خاض الباحثون غمار الكشف عن أصول هذا المنهج؛ وسبروا أغواره، ونقبوا عن مكنوناته، حتى وجدوا أن أصول الفهم البنائي للنص القرآني - بشكل عام - متأصلة في فكر القدماء، عند علماء الدراسات القرآنية من مفسرين وأدباء وبلاغيين وباحثين في نواتج دراستهم، وفوائد تفاسيرهم وإشارتهم وملحوظاتهم في علم المناسبات، وعلم النظام وعلم مقاصد السور، ونظرياتهم في الوحدة الموضوعية والعضوية والبنائية والفنية، وكذلك في أحاديثهم عن التناسق والتناظر والتداعي والتقابل وغيرها من المصطلحات التي زخت بها صفحات تفاسيرهم بشتى أنواعها، وباختلاف أشكالها، والتي تصب جميعها في جعبة واحدة تحمل معنى البنائية والوحدة والإحكام للسور القرآنية⁽²⁾؛ بحيث جاء هذا الفهم منتشرًا في مصنفاتهم وما

¹ - محمود البستاني، القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، مؤسسة الآستانة الرضوية المقدسة، مشهد - إيران، ط 1، 1414 هـ، ص: 313، نقلًا عن شيماء مهدي منصور، عناصر بناء السورة القرآنية عند الدكتور محمود البستاني: دراسة من خلال تفسيره البنائي، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، المجلد 21، العدد 88، 2015، ص: 295.

² - كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم: دراسة بنائية جمالية، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، إشراف: عبد الباسط عطايا، طبع بدعم من المكتب الخاص لسمو الشيخ ماجد بن محمد بن راشد آل مكتوم، الإمارات العربية المتحدة، 2012، ص: 23، 24.

جادت به أقلامهم، إلا أنهم تناولوه ودرسوه تحت مسميات عديدة، هذا لا يعني أنها نشأت كمفهوم مكتمل عند المتقدمين؛ بل سنجد بذورها وبرعمها لدى البلاغيين، وأصحاب البيان الذين التقطوا تلك الموجهات القرآنية، وسنتبع تلك الولادة الخاصة بالوحدة المعمارية أو الوحدة البنائية والنشأة البطيئة لها في كنف "نظرية النظم" و"فلسفة النحو" و"دلائل الإعجاز" و"النظر الموضوعي" و"علم المناسبة" وخواص القرآن ومزاياه، فتلك الأقسام هي التي تحتضن بذور "الوحدة المعمارية".

المطلب الثاني: القرآن من الوجود إلى البناء:

يتميز القرآن الكريم بخصائص تنبع من بنائية القرآن المطلقة، «وتكتسب هذه الصفة من البعد الإلهي للنص، لا من حيث مصدره فحسب إنما من حيث استمرارية الحفظ الإلهي له وطابعه المهيمن»⁽¹⁾، يقول منذر عياشي: «القرآن لغةٌ، ولكن لغته هي لغة الأصيل لا لغة البديل، ولذا كانت في تمثيلها له هي لغة الوجود والبناء، وأما عالم الأشياء، فلغته لغة البديل لا لغة الأصيل. ولذا كانت في تمثيلها له هي لغة الصورة، والعلامة، والأثر. وكذلك، فإن لغة القرآن هي لغة الوجود المركب، ولغة النسق. وأما لغة عالم الأشياء، فهي لغة الوجود المفكك، وبالتالي ليس لها نسق يجمعها في كل واحد متماسك ومتآلف ومنسجم. فلا عجب، إذن، أن يمثل القرآن وهو نص لغوي، عالم الحقيقة الأولى، وعالم الوجود المركب، وعالم النسق، وعالم الفعّال الفاعل، وأن يمثل عالم الأشياء، وهو جمع من العلامات (جمع سيميائي)، عالم الحقيقة الثانية، والعالم المنفعل المفعول»⁽²⁾.

من هنا يمكن القول على أنّ «القرآن نصٌّ مفارق في وجوده، على صعيد الحدث، لكل أنواع النصوص الأخرى، وما كان قاطعاً رحمٍ وصلة معها، إلا لأنه يقوم في وجوده على غير ما يقوم به عالم الأشياء، وغير ما يقوم به عالم النصوص، وتكمن سمة هذه المفارقة في كونه نصاً

¹ - عبد الرحمن حللي، المدخل إلى دراسة المفهومات القرآنية، ص: 9.

² - منذر عياشي، القرآن من بناء النص إلى بناء العالم، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق - سوريا، ط1، 2015م، ص: 109، 110.

لغويًا لا تتطلب قراءته استحضاراً مسبقاً لنموذج المعمار، كما في عالم الأشياء، ولا استحضاراً مسبقاً لنموذج لساني لبنية الجمل، كما في عالم النصوص واللغات، وأما لم كان ذلك، فلا تته سيميائي الوجود وعلاماتي الحضور، ولذا، فهو متعلق نموذجاً وتحققاً لغويًا في آنية لا تسمح بأي تفكيك. ولقد نرى هذا التعالق قد بلغ درجة من التلازم لا يمكن أن نرى معها أن نموذج سابق في وجوده على وجود تحققه، كما تقدم اللغات نفسها في تحققها⁽¹⁾.

وهذا يعني «أن القرآن من حيث هو نص لغوي، موجود معاً: نموذجاً وتحققاً بأن واحد. وأنه بكليته الوجودية هذه، يُشكّل لغة نصّ مفارق للغة البشر، وأنه يُشكّل بهذه المفارقة نسقاً يتماسك فيه النموذج والتحقق حدّ الاندغام، بحيث إذا انفصلا، على نحو ما هو معهود في نصوص اللغات جميعاً، فسدت هذه الكليّة الوجودية، ومن هنا، فإنّ القرآن بهذه الخصوصية، مفارق ولا يدخل ضمن صفوفه الأنساق الأخرى للغة النصوص»⁽²⁾، فالنص القرآني بما هو نص إلهي وله لغة خاصة تسمو على لغة العرب التي نزل بلسانها فهو أثرى النصوص جميعاً.

وهو أمر يجب أن نعيه لإثبات مخالفة القرآن لكلام البشر^(*)، وهو ما يكتبه البشر يحمل الطابع البشري، وهذا ما لا نجد في أسلوب القرآن الكريم ومضمونه الذي يحمل روعة الأسلوب، فهو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، نُظمت حروفه وكلماته، ونُسقت جملة وآياته، وجاء آخره مُساوفاً لأوله، وبدأً أوله مُواتياً لآخره، كما قال الله في مُحكم تنزيله: ﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (هود: 1)، قال الزمخشري

¹ - منذر عياشي، القرآن من بناء النص إلى بناء العالم، ص: 110، 111.

² - المرجع نفسه، ص: 111.

^(*) - «يختص النص القرآني عن غيره من النصوص بكونه يُنسب إلى لغة البشر دون أن يتقيد بنسبها، فلغة القرآن وبنائه التركيبي والبلاغي له صفة الإطلاق بحيث لا يمكن أن يحصر فهمه بتاريخية معينة سواء كانت لغوية أو اجتماعية أو ثقافية، دون أن ينفي ذلك أنّ الإحاطة بمعطيات تاريخ عصر النزول شرط معرفي للفهم، فإطلاق المعنى القرآني ينبع من صفة الإلهي، وهذه الإطلاقية لا يمكن مقاربتها من قبل البشر إلا من خلال تنزيلها في قوانين التواصل البشري (اللغة)، فالإعجاز القرآني يتجلى من خلال تضمين معنى إلهي في قالب لغوي يفهمه البشر، فكانت بنائية اللغة القرآنية من جميع وجوها تتسم بالإطلاقية التي هي صفة الإلهي مصدر النص»، عبد الرحمن حللي، المدخل إلى دراسة المفهومات القرآنية، ص: 9.

(ت538هـ) في تفسيره لهذه الآية: «أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ» نُظِّمَتْ نظاماً رصيناً مُحْكَمًا لا يقع فيه فيه نُقْصٌ ولا خللٌ كالبناء المحكم المرصف»⁽¹⁾، وهذا يسود القرآن من أوله إلى آخره، إذ لا يستطيع البشر الإتيان بمثله.

فالأسلوب الأدبي للقرآن الكريم أسلوب رفيع عالٍ يفوق أيّ أسلوب من الأساليب العربية الأخرى، سواء كانت قصيدة أم نثراً مسجوعاً أم غير مسجوع، أو شعراً، فلغة النبي -صلى الله عليه وسلم - تدل على رصانة ألفاظه وقوة فصاحته وبلاغته، فقد أوتي جوامع الكلم وهو ما بدأ واضحاً في الأحاديث الشريفة، ومع ذلك كله لا يمكن أن يصل لمستوى القرآن الكريم⁽²⁾، فكلام الله -تعالى - مُعْجَز عجزت الجن والإنس أن يأتوا بمثله ولن يستطيع أحد الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وبالمقارنة بين البيان الإلهي وفنون القول العربي يتضح الفرق بين الأسلوب الإلهي الذي يدل على روعة النظم القرآني، وبين الأسلوب البشري.

وهذا ما يُقَرُّ به أدونيس حينما يقول: «نجد أنفسنا أمام نصٍّ لا يُسمَّى، أو لا تسمح معايير الأنواع الأدبية بتسميته. إنه نصٌّ لا يأخذ معياره من خارج، من قواعد ومبادئ محدّدة، إنما معياره داخليٌّ فيه. سيكون، إذن، اسمه الوحيد الاسم الذي سمى به نفسه وهو: الكتاب؛ أي أن الكتاب هنا اسمٌ إلهيٌّ، أو هو اسمه لغةً وكتابةً، ومعنى ذلك أنه مُطلق: لا يُدرك معناه، ولا يبدأ ولا ينتهي. وهو، بوصفه مُطلقاً يتجلّى في زمان ومكان، متحرّكٌ الدلالة، مفتوحٌ بلا نهاية. إنه الأدبية المترمّنة. إنه ما وراء التاريخ الذي نستشفّه ونقرؤه عبر التاريخ»⁽³⁾.

وبالنسبة إلى قضية أن القرآن الكريم نصٌّ مفتوح بالمعنى الذي تذهب إليه بعض الاتجاهات الحديثة، فيُجيب "محمود البستاني" عن هذه النقطة الهامة فيقول: «ينبغي التفرقة بين أنماط النص: فهناك نص مفتوح (من حيث اللغة الجمالية ولكن أيضاً ليس بالنحو المطلق الذي تجنح إليه

¹ -الزحشيري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعلق ودراسة: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1998، ج3، ص: 181.

² -ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، حققه واعنتى به: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، ط1، 1995م، ج1، ص: 71.

³ -أدونيس، النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت -لبنان، ط2، 2010، ص: 29، 30.

الاتجاهات العابثة كالتفكيكين وسواهم)، كما أنّ هناك نصاً مفتوحاً بالنسبة إلى الدلالة المطروحة في بعض أنماطها التي تُمثّلُ بعداً إنسانياً مشتركاً وليس بالنحو المطلق، ... مقابل ذلك: ثمة نصوص (مغلقة) بحسب تحديدها الشرعي الذي توفر النص الشرعي عليها حيث ورد النهي عن التفسير الشخصي حيالها، مما يعني أنّنا نتعامل (نسبياً) مع النص القرآني الكريم⁽¹⁾.

ويضيف محمود البستاني مُعللاً: «أنّ النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يلق الإنارة التفسيرية على جميع آياته، وهذا أمر ينسحب على مُطلق النصوص الشرعية ولا يخص النص القرآني الكريم وحده، وذلك لأسباب ترتبط بطبيعة المهمة العبادية التي أوكلتها السماء إلى البشرية حيث أخضعتهم إلى (التجربة) أو (الاختبار) أو (الابتلاء) بما يُصاحب ذلك من (فعاليات متنوعة، ومنها: فعالية (القراءة) حيث تركت نصوصاً (مفتوحة) في مجال العقائد والأحكام والأخلاق، وإلاّ كان من الممكن أن تُقدّم السماء لنا (أفكاراً أو قوانين) جاهزة، وتحسم المشكلة»⁽²⁾.

ومسألة النص المفتوح نلاحظ أنّها انسحبت عملياً على القراءات المتعددة للنصوص الفلسفية والأدبية التي أفرزتها مناهج الحداثة الغربية⁽³⁾، «وهو أمر إذا كان المناخ الأوربي يتحمل إثارته، فإنّ مناخنا الإسلامي لا يتألف البتّة مع هذه الاتجاهات، التي ترى أنّ أية قراءة للنص هي: إساءة قراءة، وأنّ القراءة تظل مفتوحة لا نهاية لتأويلاتها، وهو أمر يتسق مع الانحراف العقائدي للمجتمعات، أي عدم رسوها على يقين في المرجعية المعرفية. والحق أيضاً، أنّ مسألة النص المفتوح والقراءة المتعددة أو التأويل المتعدد للنصوص تظل (إذا سلخناها من الأجواء المنحرفة

¹ - محمود البستاني، الفهم المتجدد لآيات الكتاب المجيد في ضوء منهج التفسير البنائي، مجلة التقريب نت، مجلة شهرية - إلكترونية: (<http://www.altaghrib.net/002/index.htm>)، العدد 2، ذي الحجة، 1433هـ، المصادف شباط، 2003م.

² - المرجع نفسه.

³ - الحداثة الغربية في تعاملها مع النصوص تعني أنّه: «لا نص ولا دلالة ثابتة، لا تفسير نهائي للنص، لا تفسير مفضل أو موثوق به، اللعب الحر للغة، كل القراءات إساءة قراءات... إنّ الواقع الثقافي العربي، يرفض هذا الترف الفكري، يرفض أن تسحب مظلة الحداثة، بمفاهيمها الغربية والمدارس أو المشاريع النقدية التي أفرزتها، على النصوص الدينية بصفة محددة في محاولات لأنسنة الدين. إذ إن تطبيق مقولات البنيوية والتفكيك على نص ديني بما يعنيه ذلك من القول بالانص، واللعب الحر للغة بمفهوم دريدا، وبانتفاء التفسير المفضل والموثوق، أو التفسير النهائي، وبتعدد التفسيرات بصورة لا نهائية، يوقعنا في محاذير ربما لا نقصدها»، عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 232، أبريل، 1998، ص: 35، 36.

الأخيرة) تراثاً معروفاً في المناخ الأوربي وفي مناخنا الإسلامي أيضاً، كل ما في الأمر أنّ السياقات المتفاوتة تفرض حيناً ضرورة القراءة متعددة التأويل، أي إمكانية ترشح النص بإحساء متنوعة، ليس في ميدان اللغة الجمالية فحسب، بل حتى في نطاق (المعرفة الإنسانية والطبيعية وغيرها...)»⁽¹⁾.

وفي هذا السياق الخاص بتعامل النسبي مع المطلق يقول طه جابر العلواني: «لقد كانت أكبر الأزمات الإنسانية مع ما أنزل الله من كتاب إلى البشر ليست في رفض تلك الكتب أو عدم الإيمان بأنّها من عند الله، فذلك أمر لا تصعب معالجته. ولكنّها تكمن في تعامل من أنزلت إليهم معها تعاملًا بشرياً محكوماً بما تعارفوا عليه فيما بينهم من مألوف لسانهم، وأنه ليس شيئاً سوى ذلك وتجاهلهم للفرق الكبير بين اللغة حين يستعملها الإنسان للتعبير عن مكنوناته، واللغة حين يستعملها خالق الإنسان ليضمّن فيها نوره وهداياته لخلق»⁽²⁾، فلا يجب اعتماد منهج النسبية في التعاطي مع آيات القرآن؛ «لأن القرآن الكريم مطلقٌ، والنّاظر فيه وأدوات النظر كلُّ أولئك نسبيٌّ، وليس من شأن النسبيّ أن يحيط بالمطلق، أو يحصر صفاته وخصائصه المطلقة»⁽³⁾، كما لا يجب إخضاع القرآن الكريم كظاهرة لغوية إلى نفس المعايير والمقاييس التي تخضع لها موادّ الدرس الأخرى.

وعند الحديث عن السورة القرآنية في بنائها المفارق للغة التصوّر الأخرى يقول أدونيس: «وانطلاقاً من القول إنّ خصوصيّة الصنيع الأدبي هي في شكله، هو أنّنا لا نقدر أن نسمّيها، أو أنّ علينا أن نبتكر لها اسماً أدبياً خاصاً. فنحن لا نقدر أن نقول عنها إنّها نثر، لأنّ فيها خصوصية بناء وتعبير، تميّزها عن جميع أنواع النثر، بحيث لا ينطبق عليها اسم أيّ نوع من أنواعه. ولا نقدر أن نسمّيها شعراً، إذ ليس فيها أيّ استخدام للأصول التي تجعل منها شعراً، على الرّغم من أنّها تستخدم مختلف أنواع التعبير المجازي، ومختلف أشكال البيان والبلاغة. نضيف إلى ذلك أنّ في بناء بعض السور، وفي صيغها التعبيريّة حريّة عجيبة وكلّية لا تجعل تصنيفها وحده داخل نوع أدبيّ أمراً

¹ - محمود البستاني، الفهم المتجدد لآيات الكتاب المجيد في ضوء منهج التفسير البنائي، مجلة التقريب نت، العدد 2.

² - طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن الكريم، ص: 18.

³ - عبد الرحمن بودرع، الخطاب القرآني ومناهج التأويل: نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، ص: 104، 105.

متعدّراً، وإنّما تجعل فهمها، هو الآخر أيضاً، أمراً متعدّراً⁽¹⁾، لهذا وصف النص القرآني نفسه بأنه "قرآن عجب" كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (الجن: 1).

يقول محمد عبد الله دراز: «أمّا ما يبدو فوق طاقة البشر حقاً في الأسلوب القرآني، فهو لا يخضع للقوانين النفسية التي بمقتضاها نرى العقل والعاطفة لا يعملان إلا بالتبادل وبنسب عكسية؛ بحيث يؤدي ظهور إحدى القوانين إلى إخفاء الأخرى. ففي القرآن لا نرى إلا تعاوناً دائماً في جميع الموضوعات التي يتناولها بين هاتين النزعتين المتنافرتين. وبالإضافة إلى الموسيقى الخالدة التي تلو الأسلوب المتنوع. نرى أن الكلمات ذاتها بمعناها المجازي سواء أكانت وصفاً أو استدلالاً أو سنّ قاعدة في القانون أو في الأخلاق تسعى بقوة وتجمع في نفس الوقت بين التعليم والإقناع والتأثير، وتمنح القلب والعقل نصيبه المنشود، وعلاوة على ذلك فإن هذا الكلام الرباني وهو يؤثر على هذا النحو، في قوانا المختلفة، يحتفظ دائماً وفي أي موضوع بهيئة مدهشة وبجلالة قوية لا تتأرجح ولا تضطرب»⁽²⁾.

المبحث الثاني: بدور القول بالوحدة البنائية:

يذكر طه جابر العلواني أنّ جيل التلقّي شغل بالتعلّم للعمل والتطبيق، وشغل جيل الرواية بتتبع الروايات وتمحيصها، وشغل جيل الفقه بإنتاج الفقه للإستجابة لمستجدات الحياة، وانتشر مع مناهج الفقهاء النّظر الجزئيّ في الآيات والمسارعة إلى الدليل الجزئي⁽³⁾.

وإذا تجاوزنا هذا الفريق من العلماء إلى "المفسرين" الذين كان شغلهم الشاغل هو تفسير القرآن المجيد، وبالرغم من اقتناعهم بأنّ القرآن يُفسّر بعضه بعضاً، لم يؤدّ انشغالهم بالتفسير إلى الكشف عن الوحدة البنائية، وكان من الممكن أن يقود هذا الخيط الرفيع إلى الكشف عن "الوحدة البنائية" لو جرى الإمساك به وتبعه، وتعمق النّظر فيه، لكن ما حدث جاوز ذلك، وصار الحديث

¹ - أدونيس، النص القرآني وآفاق الكتابة، ص: 28.

² - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، عرض تاريخي وتحليل مقارن، ترجمت عبد العظيم علي، مراجعة السيد محمد بدوي، دار القلم، الكويت، (د.ط)، 1985م، ص: 117.

³ - ينظر: طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن الكريم: المفهوم والمسار، مجلة الترتيل في القرآن المجيد: منهج وبناء، مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - المغرب، ع1، رجب 1434هـ، يونيو 2013م، ص: 43،

فيه حديثاً يضاف إلى فضائل القرآن، لا إلى محدداته المناهجية، كما هو الحال مع أصحاب مدارس "التفسير الموضوعي" حيث عني الفقهاء في هذا الجانب بجمع وتحديد آيات الأحكام المتعلقة بقضية محددة أو موضوع واحد، لكن لم يُلفت ذلك الأنظار إلى الروابط المتينة بين ذلك الموضوع وآيات سور الكتاب الكريم الأخرى⁽¹⁾.

ونظريّة الوحدة البنائية كما يقول عبد الرحمن بودرع: «لا تقلُّ خطراً عن نظرية النّظم، وهما معاً حجرُ الزّاوية في المنظومة الداخلية للكتاب المجيد، التي تحفظه وتجمع أجزاءه من الداخل، أمّا الوسائل الخارجية الحافظة ففي مقدمتها علوم المقاصد، وهي التّوحيد والكلام والتّفسير والفقه وأصوله وعلوم الحديث. لكن كثيراً من المتكلمة تجادلوا في اليقينيّات العقديّة فصارت هذه مادةً جديدةً للجدل، فبدأ علمُ الكلام يُفكك الأُمَّة التي بناها القرآن ليُجعل منها فرقةً وشيعاً، واستعملت الأحاديث الضعيفة الموضوعية لتأصيل الأحوال الشاذة، وأقاموا علماً جديداً سمّوه علمَ المِلل والنّحل، واقتطعوا آيات من القرآن عن سياقها وبرروها من نظمها ووحدتها ونسّقها ليتخذوها موضعَ شاهدٍ، وليحملوها على ما أرادوه»⁽²⁾.

والحقيقة من كلِّ هذا: «أنه لا مخرجَ من هذا التراث المعطوب المُفكك إلا بعرضه كاملاً على القرآن في وحدته البنائية»⁽³⁾.

وسأتناول بعد هذا العرض تطور الدراسات العلمية التي تخدم وتؤكد نظرية الوحدة المعمارية عبر تاريخها الطويل.

¹ - ينظر: طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن الكريم: المفهوم والمسار، ص: 47، 48. وينظر: عبد الرحمن حللي،

المدخل إلى دراسة المفهومات القرآنية، دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع، حلب - سوريا، ط1، 2011م، ص: 52.

² - عبد الرحمن بودرع، الخطاب القرآني ومناهج التأويل: نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة - مركز الدراسات القرآنية،

الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - المغرب، ط1، 2013م، ص: 69.

³ - المرجع نفسه، ص: 69.

المطلب الأول: البذور الأولى لنظرية الوحدة البنائية:

وتتمثل البذور الأولى للوحدة البنائية في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وآثار السلف التي تدل على أن القرآن الكريم وحدة متكاملة.

فأمَّا الآيات القرآنية، فمنها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 82)، وقوله تعالى: ﴿الرَّكِيبُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1)، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ (الزمر: 23).

أما الأحاديث فقد روى الإمام مسلم، بسنده عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: 82)، شقَّ ذلك عن أصحاب رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- -: «ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: 13)»⁽¹⁾، فهذا دليل على أن الرسول "صلى الله عليه وسلم"، ينظر إلى القرآن الكريم كوحدة واحدة متكاملة، إذ إنه يفسر بعضه بعضاً، وفي ذلك قال ابن كثير (ت 774هـ): «إنَّ أصحَّ الطُّرُقِ في ذلك أن يُفسَّرَ القرآنُ بالقرآنِ، فما أُجْمِلَ في مكانٍ فإنَّه قد فُسرَ في موضعٍ آخر»⁽²⁾.

وأضف إلى ذلك أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" كان يهتم بترتيب القرآن، رغم نزوله مُفرقاً حسب الحوادث والوقائع المختلفة، وتدل الأحاديث على أن ترتيب القرآن الكريم توقيفي عن النبي، وقد كان "صلى الله عليه وسلم" كلما نزلت عليه آية -كما ورد في بعض الروايات كقول عثمان "رضي الله": إن رسول الله "صلى الله عليه وسلم"، كان يأتي عليه الزمان تنزل عليه

¹ - مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، وقف على طبعه، وتحقيق نصوصه وترقيمه: محمد فؤاد عبد الباقي، باب صدق الإيمان وإخلاصه، رقم الحديث: 124، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، توزيع دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1991، ص: 114.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفى السيد محمد، ومحمد فضل العجاوي وآخرون، مؤسسة قرطبة، للطباعة والنشر والتوزيع، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، جيزة - مصر، ط 1، 2000، ج 1، ص: 6.

السور ذوات عدد فكان إذا أنزل عليه الشيء يدعو بعض من كان يكتبه فيقول: «ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا كذا» وتنزل عليه الآية فيقول: «ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا كذا»⁽¹⁾. كان يؤم الناس في صلواته، وكان يقرأ القرآن حسب الترتيب المجمع عليه الآن⁽²⁾. ومن الطبيعي أن يكون القرآن الذي يتم ترتيبه بتوقيف من الله محكم البناء متناسق الآيات والسور. ومن هذه البذور -أيضاً-، طبيعة القرآن المعجز في نظمه وتأليفه وتناسق آياته وسوره، وقد كان يتحدى العرب -وهم أساطين البلاغة وروّادها- جعلهم يقفون عاجزين أمام بديع نظمه وعجيب تأليفه وخروجه عن مألوف خطابهم⁽³⁾. لإدراكهم بسليقتهم أنّهم أمام كلام ليس بشعر ولا قول كاهن، كلام متماسك في وحداته، متلاحم في بناء الدلالية، يُشكّل وحدة لا ينفصل جزء منها عن نظيره، بأي حال من الأحوال، وشاهدُه قول الوليد بن المغيرة: «إنّ لقوله حلاوة وإنّ عليه لطلاوة وأنّه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وأنّه يعلو ولا يُعلَى عليه»⁽⁴⁾. فتحداهم بأن يأتوا بمثله أو بمثل سورة منه، ولكنهم عجزوا مع طول الفرصة والزمان، ولقد «سجّل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن، وما أوردراك ما عصر نزول القرآن، هو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوات التهذيب اللغوي»⁽⁵⁾.

فكان يتحدى أهل مكة، وجاء التّحدي في سورة يونس وهي مكّيّة، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَدْعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: 38) وجاء

¹ - الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، مع تضمینات الإمام الذہبی فی التلخیص، دراسة وتحقیق: مصطفی عبد القادر عطا، کتاب التفسیر، رقم الحدیث: 4/2875، دار الکتب العلمیة، بیروت - لبنان، ط2، 2002، ج2، ص: 241.

² - ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص: 202 وما بعدها.

³ - ينظر: أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط2، (د.ت)، ص: 50، 51.

⁴ - ابن الجوزي، زاد الميسر في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1422هـ، ج4، ص: 361.

⁵ - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، نشر وتوزيع دار الثقافة، الدوحة - قطر، ط1، 1985، ص: 83.

التحدي في سورة هود وهي مكية أيضاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: 13)، فقد تحدى النبي "صلى الله عليه وسلم" - بأمر الله تعالى - كافة الإنس والجن بالإتيان بمثل هذا القرآن أو بسورة من مثله فعجزوا عن ذلك، و«أيُّ شيء أكبر من العجز شهادةً على الإعجاز»⁽¹⁾.

وقد ذكر المحققون من العلماء أن من وجوه إعجاز القرآن تألف كلماته وجُمَلِه في آياته وتناسب آياته في سوره؛ فالسورة القرآنية «تُشكّل وحدة مترابطة متناسقة متينة التركيب وبالوقت نفسه نجد بين سور القرآن جميعاً رابطاً عاماً وصيلّة تصلها فإذا بالقرآن يتراءى وحدة واحدة عظيمة البنيان والانسجام»⁽²⁾، إذ إته جاء محكم البناء، متلائم الأجزاء.

المطلب الثاني: العلماء ونظرية الوحدة البنائية، خطوات على الطريق:

هناك مؤلفات كثيرة ألفها السّابقون - على مدار التاريخ - وُجِدَتْ في طيّاتها بذور القول بمصطلح البنائية من خلال اهتمامهم بموضوع التناسب بين الكلمات والجمل والآيات والسور القرآنية، كالمؤلفات في إعجاز نظم القرآن، والمناسبات بين الآيات وبين السور وما إلى ذلك، وهنا عرض تاريخي موجز لتلك الجهود الطيبة:

- عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، الذي أكمل طريق سابقيه في الاستدلال على الإعجاز فتوصّل من خلال دراسته إلى أنّ الارتباط داخل سور القرآن إنما هو من الإعجاز، فهو كامن في نَظْمه الداخلي الذي لا يتحصّل بمجرد توالي الألفاظ في النطق، بل في تناسب دلالاتها وتلاقي معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل. وفي كتابه (دلائل الإجاز) عند تعريفه لمصطلح النظم، والذي يشير فيه إلى أهمية مراعاة العلاقات الكبرى في الكلام بصورة منتظمة، من خلال حُسن تأليف الكلمات والجمل، التي تترتّب معانيها وتناسب دلالاتها، على حسب ما يقتضيه علم النحو، فيقول: «واعلم أن ليس النّظم إلا أن تضعَ كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو

¹ - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص: 83.

² - مصطفى محمد زكي الدباغ، وجوه من الإعجاز القرآني، مكتبة المنار، الزرقاء -الأردن، ط1، 1982، ص: 36.

وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتَحْفَظَ الرَّسُومَ التي رسمتُ لكلكَ، فلا تُخلُ بشيءٍ منها، وذلك أن لا تعمل شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجه كلِّ باب وفُروقه»⁽¹⁾.

وقوله: «واعلم أنك إذا رجعتَ لنفسك عِلْمَتَ عِلْمًا لا يعتربه الشكُّ، أن لا نُظْمَ في الكَلِمِ ولا ترتيباً، حتى يُعلّقَ بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتُجْعَلَ هذه بسببٍ من تلك هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس. وإذا كان كذلك، فبنا أن ننظر إلى التعلّيق فيها والبناء، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبها، ما معناه وما محصوله؟»⁽²⁾.

هذا هو البناء الذي يُسمّى أحياناً النّظم عند عبد القاهر، ونظراً لهذه الجهود العظيمة التي قام بها عبد القاهر الجرجاني، ولنظريته الفريدة في النّظم اعتُبرَ القرن الخامس العصر الذهبي للإعجاز فكانت «نظرية النّظم من التّنظيرات المُبكرة للنّظر الكلّي، بالتركيز على الأنساق والروابط بين أجزاء النّص وتراكيبه»⁽³⁾، فإذا غابت العلاقات والروابط تفكّك النّص ودخله الغموض والاضطراب وفقد شرط البناء اللغوي.

يقول طه جابر العلواني عن مسيرة النّظم والوحدة البنائية: «لقد كان المفهوم العام لدلالة "النّظم القرآني" على الإعجاز في الأجيال الأولى التي من الله - تعالى - عليها بأن تكون في جيل التلقي، ثم جيل الرواية، معنى قائماً في العقول والقلوب والنّفوس لم يتداول بحيث يتم إنضاجه ووضعه في إطار المصطلحات والمفاهيم الفنية، شأنه شأن سائر الأمور المعرفيّة الكبرى»⁽⁴⁾.

ثمّ يضيف: «وعِلوم القرآن - مثل غيرها من علومنا ومعارفنا الإسلاميّة - أصابها التوقف. فلم تأخذ مدياتها واستمراريتها التي كان من الممكن أن تمنحها الامتداد والتوسع، واستعاب

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط5، 2004، ص: 81.

² - المرجع نفسه، ص: 55.

³ - عبد الرحمن حللي، المدخل إلى دراسة المفهومات القرآنية، ص: 50.

⁴ - طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن الكريم، مجلة الترتيل في القرآن المجيد: منهج وبناء، ع1، ص: 59.

العصور اللاحقة كما استوعبت ما سبقها. و"الوحدة البنائية" للقرآن المجيد لو أتيح لها من يبلورها في تلك المرحلة، وما يمكن أن تنعكس عليه من أمور لفتحت من العلم الإسلامي أبواباً كثيرة، وعادت عليه وعلى علوم القرآن - خاصة - بفوائد منهجية جليلة، ولحسنت كثيراً من الغُبش الذي دار حول التنزيل، وأصلحت كثيراً من الخلل، فما يستقيم مع القول بالوحدة البنائية التسليم بأي نوع من أنواع النسخ المدعاة لمناقضته للوحدة البنائية⁽¹⁾. والمقصود من هذا؛ كثرة الآراء ولم تستطع الأمة أن تعالج اختلافها بآيات الله، ممّا جعل بعض الفرق من آيات الله أسلحة تضرب بعضها ببعض، ولم تستطع الفرق الكلامية الناشئة أن تعالج فرقتها واختلافها بآيات الله، بل على العكس من ذلك صارت هذه الفرق تُردّد أنّ القرآن حمّال أوجه، ونسوا وتناسوا أنّ الإنحراف في فهم القرآن الكريم كان في انحرافهم عن التّشبُّث به، وعدم الالتزام به كان هو السبب الأساسي وراء فرقتهم، وظل الأمر كذلك وظلت الانشطارات بين الأمم تتوالى.

وإنّ الناظر لهذا الكون، يجد فيه مظاهر تدل على أنّه وحدة واحدة حيث يتناسق كل شيء فيه مع غيره تناسقاً دقيقاً، فلا ينفك بعضها عن الآخر؛ «فالقرآن في بنائته الحرفية يماثل البنائية الكونية بحيث إذا تفلّت نجم عن موقعه اختلّ النظام الكوني كلّهُ، ولهذا قابل الله بين البنائية الحرفية للقرآن و (مواقع) النجوم، فلم يُقسِم - سبحانه - بالنّجم ولكّنه أقسَم بمواقعها في سياق تعريفه بخصائص القرآن البنائية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة : 75، 80)، فليس من أحد يستطيع ضبط الصياغة القرآنية على مستوى الحرف المماثل لصياغة الكون غير الله فلكل حرف وظيفته (الألسنية البنيوية) في الإنشاء القرآني الذي ليس هو مجرد بلاغة فقط، فالاستخدام الإلهي للمادة اللغوية والأبيّ مادة في الكون يختلف نوعياً عن الاستخدام البشري مع وحدة خصائص المادة⁽²⁾.

¹ - طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن الكريم، مجلة الترتيل في القرآن المجيد، ص: 59، 60.

² - محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية: أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 2003، ص: 96، 97.

«كما أنّ الوحدة البنائية في الكون هي التي مكّنت العقل البشري - بعد اكتشافها - من تأسيس كل العلوم التي يمكن أن نصطلح على تسميتها: علوم التسخير، وهي علوم قد تمّ تطويرها إلى حد بلورة المنهجية التوحيدية بين التخصصات، والتي أعطت الفكر العلمي مدداً قوياً، وفتحت أمامه إمكانات في غاية الكثرة والتنوع والوظيفة»⁽¹⁾، هذا يعني أنّ ظاهرة الوحدة الكونية تؤكد على أنّ سنة الله في هذا الوجود تقوم على أساس الوحدة والتعاون بين أجزائه.

ولهذا فإنّ الوعي بالوحدة البنائية للقرآن الكريم «من شأنه يُحقّق للإنسان وحدة معرفية تُلمِّم شتاتهُ المعرفي، وتوحّد بين زوايا إدراكه، بما يُشبهه إكسابه جهاز تنسيق معرفي يُمكنه من الخروج من التفرّع الإدراكي ومرحلة الشركاء المتشاكسين إلى صيرورته سلماً لربّ العالمين فيطفق في السير سوياً على صراط مستقيم»⁽²⁾.

- أبو بكر بن العربي (ت 543هـ)، في (سراج المريدين) يشير إلى معنى البناء المنظم المتسق في تعليقه على أهمية علم المناسبات، قائلاً: «ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني مُنظمة المباني علم عظيم»⁽³⁾. ومعلوم من هذا الرأي أنّ قوله "ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة"، يقصد به التماسك بين عناصر النص؛ فالترابط يعني في مجمله التماسك.

- فخر الدين الرازي (ت 604هـ)، احتفل بهذا النوع في تفسيره أيّما احتفال، فقد عني بتوضيح أسرار التقديم والتأخير وأنّ عباراته وموضوعاته متألّفة لا تناقض بينها، فقد كانت له في "تفسيره الكبير ومفاتيح الغيب" وقفات بارعات عند الكثير من الآيات، حتى أنّه كان يُورد في تناسب بعض الآيات أكثر من وجه. وقد أفصح عند تفسيره لخواتم سورة البقرة بأنه أحد وجوه الإعجاز وعاب على المفسرين غفلتهم عنه فقال: «ومن تأمّل في لطائف نظم هذه السورة وفي

¹ - أحمد عبادي، افتتاحية: ورتل القرآن ترتيلاً، مجلة الترتيل في القرآن المجيد: منهج وبناء، ع 1، ص: 10.

² - المرجع نفسه، ص: 10.

³ - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص: 36.

بدائع ترتيبها عِلْمَ أَنَّ القرآنَ كما أَنَّهُ مُعْجَزٌ بِحَسَبِ فَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ وَشَرَفِ مَعَانِيهِ فَهُوَ، أَيْضاً، مُعْجَزٌ بِحَسَبِ تَرْتِيبِهِ وَنَظْمِ آيَاتِهِ. وَلَعَلَّ الَّذِينَ قَالُوا أَنَّهُ مُعْجَزٌ بِحَسَبِ أَسْلُوبِهِ أَرَادُوا ذَلِكَ، إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ جَمْهَورَ المُفَسِّرِينَ مُعْرِضِينَ عَنِ هَذِهِ اللَّطَائِفِ غَيْرَ مُتَّبِعِينَ لِهَذِهِ الْأُمُورِ...»⁽¹⁾.

- أبو إسحاق الشاطبي (ت 790هـ)، في حديثه عن نسق السورة القرآنية وأوجه ارتباطها، يُبَيِّنُ أَنَّ السورة - وإن تعددت قضاياها - كلامٌ واحدٌ متّصلٌ من أوله إلى آخره، ويشير إلى أنّ موضوعاتها ما يكون بمنزلة التمهيد للمقصود الأساس، ومنها ما يكون مُكَمِّلاً لبعض جزئياته ومنها ما يكون بمنزلة الخاتمة التي تؤكد ما تقدّمها، ويضرب لذلك مثلاً بأطول سورة في القرآن فيقول: «سورة البقرة مثلاً كلامٌ واحدٌ باعتبار النّظم، واحتوت على أنواع الكلام بحسب ما بُثِّت فيها، منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو المؤكّد والمتمم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب منها، ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت، وما أشبه ذلك»⁽²⁾.

- بدر الدين الزركشي (ت 794هـ)، في حديثه يذكر معنىً مقارباً في كتابه (البرهان في علوم القرآن)، حينما يوضح فائدة علم المناسبة بعبارة مُجَبَّدة إلى حدّ ما، ويحدّد أنماطاً عدّة من وجوه المناسبة التي يمكن أن يجدها الإنسان في القرآن بقوله: «المناسبة علم شريف تُحَرِّزُ بِهِ الْعُقُولَ وَيُعْرِفُ بِهِ قَدْرَ الْقَائِلِ فِيمَا يَقُولُ... وَفَائِدَتُهُ جَعَلَ أَجْزَاءَ الْكَلَامِ، بَعْضُهَا آخِذاً بِأَعْنَاقِ بَعْضٍ، فَيُقَوِّي بِذَلِكَ الْإِرْتِبَاطَ، وَيَصِيرُ التَّأْلِيفَ حَالَهُ حَالَ الْبِنَاءِ الْمُحْكَمِ، الْمُتَلَائِمِ الْأَجْزَاءِ»⁽³⁾، كما يُشِيرُ إِلَى أَنَّ سَبَبَ طَبِيعَةِ هَذَا الْعِلْمِ الصَّعْبَةَ، أَهْتَمَّ عَدَدٌ مُحَدُودٌ جَدّاً مِنَ الْعُلَمَاءِ بِهِ: «وَقَدْ قَلَّ اعْتِنَاءُ الْمُفَسِّرِينَ

¹ - فخر الدين الرازي، تفسير الفخر الرازي المُشْتَهَرُ بِالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط 1، 1981، ج 7، ص: 139.

² - أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، ضبط نصّه وقدم له وخرّج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسان آل سلمان، دار ابن عفان، (د.ط)، (د.ت)، ج 4، ص: 267، 268.

³ - البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص: 36 - 37.

بهذا العلم لدقته⁽¹⁾، من بين هؤلاء العلماء الذين أشار إليهم، أبو جعفر ابن الزبير أستاذ أبي حيان الذي ألف كتاباً حول هذا الموضوع^(*)، وأبو بكر بن العربي (ت543هـ) الذي اشتكى من نُقص اهتمام الناس بعلم المناسبة، وأبو بكر النيسابوري^(**) (ت324هـ) الذي انتقد علماء بغداد لتجاهلهم هذا العلم، وفخر الدين الرازي (ت604هـ) الذي رأى أن ترتيب القرآن مَلِيءٌ بالدلالات الدقيقة " أكثر لطائف القرآن مُودعة في الترتيبات والروابط"، وقام بشكل مُنظم بشرح الروابط في تفسيره⁽²⁾.

فهذا العلم كما يقول البقاعي: «يُوقَفُ على الحق من معاني آيات حَارَ فيها المفسرون لتضييع هذا الباب من غير ارتياب..»⁽³⁾. فاستحق هذا العلم بتجليته لكيفية ارتباط الكلام ببعضه ببعض، وما أعطاه من فكرة عن السورة؛ بتبيان غرضها ومقصودها، إضافة لِمَا أفاده في حل بعض مُشكلات التفسير.

1 - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص: 36.

^(*) - اسم الكتاب (البرهان في مناسبة ترتيب القرآن) كما ذكره السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، من إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، (د.ط)، (د.ت)، ج3، ص: 322.

^(**) - يُعد أبو بكر النيسابوري (ت324هـ) أول من أظهر علم المناسبات؛ حيث إنه كان غزير العلم في الشريعة والأدب، وتلاه من بعده علماء من أبرزهم: الشاطبي (ت790هـ) في كتابه (الموافقات)، والبقاعي (ت885هـ) في كتابيه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، والسيوطي (ت911هـ) في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور) و(أسرار ترتيب القرآن)، ومن المعاصرين: عبد الله محمد الصديق الغماري في كتابه (جواهر البيان في تناسب سور القرآن)، ومحمد عبد الله دراز (ت1958م) في كتابه (النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن)، ينظر: مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق - سوريا، ط3، 2000، ص: 66 - 67. وينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التراث، القاهرة - مصر، (د.ط)، (د.ت)، ج1، ص: 36 - 38.

2 - ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص: 36. وينظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص: 322.

3 - برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ج1، ص: 13.

-برهان الدين البقاعي (ت 885هـ)، ولِمَا يُبْدِيهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ لَطَائِفِ تُدْهِشُ النَّظَرَ

وَتُحَيِّرُهُ فِي قَضَايَا الْإِعْجَازِ الْبِنَائِيِّ وَالتَّرْكِيبِ مَا قَامَ بِهِ "البقاعي" فِي عَمَلِهِ لِلْقُرْآنِ كُلِّهِ عَلَى فِكْرَةِ الْمُنَاسِبَاتِ^(**) وَيَبَيِّنُ فِيهَا مَنَاسِبَةَ اسْمِ السُّورَةِ لِمَا غَرَضُهَا الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهِ سَائِرُ مَعَانِيهَا، فَنَجِدُهُ يَقُولُ عَنِ الْمُنَاسِبَاتِ: «هُوَ سِرُّ الْبَلَاغَةِ؛ لِأَدَائِهِ إِلَى تَحْقِيقِ مُطَابَقَةِ الْمَعَانِي لِمَا اقْتَضَاهُ مِنَ الْحَالِ... وَبِهَذَا الْعِلْمِ يَرْسُخُ الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ وَيَتِمَكَّنُ مِنَ اللَّبِّ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَكْشِفُ أَنَّ لِلْإِعْجَازِ طَرِيقَيْنِ: إِحْدَاهُمَا نَظْمُ كُلِّ جُمْلَةٍ عَلَى حِيَالِهَا بِحَسَبِ التَّرْكِيبِ، وَالثَّانِيَةُ - وَهِيَ الْأَهْمُ - نَظْمُهَا مَعَ اخْتِهَا بِالنَّظْرِ إِلَى التَّرْتِيبِ»⁽¹⁾، وَيَسْتَطِرِدُ قَائِلًا: «وَبِهِ يَتَبَيَّنُ أَيْضًا أَسْرَارُ الْقِصَصِ الْمُكْرَّرَاتِ، وَأَنَّ كُلَّ سُورَةٍ أُعِيدَتْ فِيهَا قِصَّةٌ فَلَمَعْنَى أَدْعَى فِي تِلْكَ السُّورَةِ، اسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِتِلْكَ الْقِصَّةِ، غَيْرِ الْمَعْنَى الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ فِي السُّورَةِ السَّابِقَةِ..»⁽²⁾.

وبخصوص بناء السورة وتعانق موضوعاتها خدمة لتحقيق مقصدها العام يقول البقاعي:

«فإن كل سورة لها مقصد واحد يُدارُ عليها أولها وآخرها، ويُستدلُّ عليه فيها، فتترتب المقدمات

^(**) - وهذا ما يُعرف بعلم التَّنَاسُبِ أو علم المناسبات، وهو علم يُعرَفُ مِنْهُ عِلْلُ التَّرْتِيبِ، وَمَوْضُوعُهُ أَجْزَاءُ الشَّيْءِ الْمَطْلُوبِ عِلْمُ مَنَاسِبَتِهِ مِنْ حَيْثُ التَّرْتِيبِ، وَثَمَرَتُهُ الْإِطْلَاعُ عَلَى الرُّتْبَةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا الْجُزْءُ بِسَبَبِ مَا لَهُ مِنْ رِوَايَةٍ وَمَا أَمَامَهُ مِنَ الْإِرْتِبَاطِ وَالتَّعْلُوقِ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ اسْمَ كُلِّ سُورَةٍ مُتَرْجَمٌ عَنْ مَقْصُودِهَا، وَمَقْصُودُ كُلِّ سُورَةٍ هَادٍ إِلَى تَنَاسُبِهَا. يَنْظُرُ: بَرَهَانَ الدِّينِ الْبِقَاعِيَّ، نَظْمُ الدَّرْرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسُّورِ، ج 1، ص: 5.

وفي هذا المقام نجد هناك من يرفض فكرة المناسبات والربط بين السور والآيات، وفي ذلك ما قاله الشيخ محمد بن عبد الله الغزنوي (ت 1296هـ) في حاشيته على تفسير "جامع البيان في تفسير القرآن" للشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الحسيني الحسيني الشيرازي (ت 905هـ)، من بين ما قاله الغزنوي: «واعلم أن كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم متكلف وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الأهم من التأليف كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه ومن تأخره...»، محمد بن عبد الرحمن الشيرازي، جامع البيان في تفسير القرآن ومعه حاشية محمد بن عبد الله الغزنوي، تحقيق: عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2004، ج 1، ص: 42 وما بعدها.

¹ -برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج 1، ص: 10، 11.

² -المرجع نفسه، ج 1، ص: 14.

الدالة عليه على أنَّقن وجهه وأبدع نهج، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل استدلال عليه، وهكذا في دليل الدليل، وهلم جرا، فإذا وصل الأمر إلى غايته ختم بما منه كان ابتداءً، ثم انعطف الكلام إليه وعاد النظر إليه على نهج آخر بديع، ومرقى غير الأول منيع... وآخر السورة قد وصل أولها كما لاحم انتهاؤها كما بعدها، وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرة كبرى مُشتملة على دوائر الآيات الغر، البديعة النظم العجيبة الضم...»⁽¹⁾.

- جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، وعلى هذا النهج سار السيوطي في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور)، وفي ذكره لأنواع المناسبات تفصيل بعض السور لِمَا أُجْمِلَ في بعضها يقول في ذكره لمناسبة سورة البقرة لسورة الفاتحة: «قد ظهر لي بحمد الله وجوه من المناسبات: أحدهما: أن القاعدة التي استقرتُها من القرآن: كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له وإطناج لإيجازه، وقد استمر ذلك في غالب سور القرآن طوبلها وقصيرها، وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مُجمَلات الفاتحة»⁽²⁾.

ولو تجاوزنا العصور السابقة إلى أقوال المحدثين، لكي نُقارب مدلولاتهم في معاني المعمار والبناء فإننا نجد وصفاً دقيقاً للسمات المعمارية في السورة القرآنية؛ إذا تُعدُّ السورة في تركيب مقاطعها وآياتها كالبنيان الواحد المركب من بُنَيَاتٍ مُترابطة ومُتماسكة إلى درجة التلاحم، فنجد:

- عبد الحميد الفراهي الهندي^(*) (ت 1930م)، الذي جعل الكشف عن وحدة السورة القرآنية وبيان محورها، وغرضها، هدفاً في كتابه: "دلائل النظام" و"نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".

¹ - برهان الدين البقاعي، مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1987، ج 1، ص: 149.

² - جلال الدين السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1986، ص: 65.

^{*} - هو الإمام عبد الحميد (حميد الدين) الفراهي من أهالي إحدى قرى مديرية (أعظم كره) بالهند، ولد سنة 1280هـ نال العلوم الابتدائية والفراسية على الشيخ مهدي حسكما أخذ العلوم العربية الابتدائية والمتوسطة على الشيخ شبلي النعماني ثم ذهب إلى العلامة الأديب فيض الحسن السهارنفوري، فأصبح مُتضلعاً من العربية وراغباً في التَّفكُّر في القرآن، تعلَّم اللغة الإنجليزية ونال العلوم الجديدة على المستشرق توماس أرنولد (ThomasArnold) وأما العربية فقد تعلَّمها على المستشرق =

فهو يرى أنّ السورة الواحدة لها نظام واحد ذو فاتحة وخاتمة وعمود يُعتبر الشيء الجامع الذي به رباط السورة كلّها ولهذا قال: «المراد بالنظام أن تكون السورة كلاماً واحداً، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتالي قبلها أو بعدها على بعد ما... وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأوّل إلى آخره»⁽¹⁾. وقال كذلك: «فلو لم يكن هناك أمرٌ واحدٌ، ومنهجٌ كاملٌ تتمُّ السورة بتمامه لجُعِلَ القرآن كله سورة واحدة»⁽²⁾.

وبحسب عبد الحميد الفراهي كلُّ سورة لها موضوع مركزي، يدعو (عمود السورة)، وكلُّ الآيات في أيِّ سورة مُرتبطة بشكل متكامل مع عمودها، ولا تكشفُ هذه الآيات عن كامل معناها إلا عندما نكتشف عمودها، ونتعرف مركزيتها بالنسبة إلى السورة. فعلى سبيل المثال: إنّ عمود سورة الذاريات هو الجزء الإلهي، مع تأكيد الجوانب العقائبة للجزء، كلُّ الأقسام السبعة التي قسّم إليها الفراهي سورة الذاريات، تتعامل مع ذلك الموضوع، فالقسم الأول يُصرّح به، والأقسام الأخرى تُقدّم الأدلة على هذا الموضوع⁽³⁾.

=الألماني جوزف هورفتش (Joseph Horovits) الذي تعلّم عليه العربية. كان له إلمامٌ تامٌ بالصُّحف السماوية الأخرى واطلاع واسع على العلوم الإسلامية والحديثة، وانقطع إلى التدبر في القرآن فصار إماماً في التفسير، استفاد منه العلامة مناظر أحسن الغيلاني وأبو الكلام آزاد والعلامة السيد سليمان الندوي، اشتهر بكتبه حول نظام القرآن من آثاره القيمة: "دلائل =النظام" و"تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" و"إمعان في أقسام القرآن" و"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" و"مفردات القرآن" و"جمهرة البلاغة"، اعترف بعلو كعبه في العلوم وفصاحته في البيان علماء جزيرة العرب والعالم الإسلامي كله، توفي سنة 1349هـ / 1930م، ينظر: سيرته التامة في كتابه "إمعان في أقسام القرآن"، طبع على نفقة جمعية دار المصنفين، المكتبة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349هـ، ص: ب.

¹ - عبد الحميد الفراهي الهندي، دلائل النظام، المطبعة الحميدية، الهند، 1388هـ، ص: 75.

² - عبد الحميد الفراهي الهندي، تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الأحمديّة، الهند، ط1، 2008، ص: 46.

³ - ينظر: عبد الحميد الفراهي الهندي، المرجع نفسه، ص: 119، 120، 121.

- محمد عبد الله دراز (ت1958م)^(*) يؤكد في كتابه "النبا العظيم" على هذا التلاحم الذي تفنن في التّدليل على أنّ السور القرآنية كلّ لا يتجزء، ووحدة كلية تحوي من المعاني والمباني الجليلة، من خلال تفصيله لوحدة النسق والهندسة البنائية لسور القرآن واستدلّ لها وأطنب في إثباتها وعمد إلى إبراز تطبيقاتها من خلال سورة البقرة، حيث توخّى بيان حُسن التّأليف في السورة الواحدة التي تتنوّع فيها الموضوعات باعتباره أحد وجوه الإعجاز فيّين أنّ القرآن كان يُنزّل مُنجمًا حسب الوقائع والدواعي المتجدّدة، وأنّ الانفصال الزمني بينها واختلاف دواعيها كان داعيَيْن إلى ضعف التّرابط وعدم الانسجام، ومع ذلك فإنّ تدبّر أيّ سورة يُوقفك على جليل الالتحام وبديع التّناسق، وقد صورَ تماسك بناء السورة فقال: «إنّك لتقرأ السورة الطويلة المُنجمة يحسبها الجاهل أضغاثًا من المعاني حُشيت حشواً، أوزاعاً من المباني جمعت عفواً، فإذا هي تولدت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أُسس وأصول، وأقيم على كلّ أصل منها شُعبٌ وفصول، وامتدّ من كلّ شعبة منها فروع تقصّر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية ببيان واحد، وقد وضع رسمه، مرّة لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى أحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام، وكل ذلك من غير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلًا، والمختلف مؤتلفًا..»⁽¹⁾.

^(*) - محمد عبد الله دراز: فقيه متأدب مصري أزهري، كان من هيئة كبار العلماء، له كتب قيّمة منها: (النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن)، وكتاب (مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن)، توفي عام 1377هـ الموافق لـ 1958م. ينظر: لمحة عن حياة المؤلف في مقدمة كتابه، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن.

¹ - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص: 155.

وهذه السمات في صميم الدراسة المعمارية، لما احتوته من وجود (وحدة عضوية)^(*)، جمعت آيات السورة الواحدة تحت هذه الخصائص والمميزات، وإن كان هذا المصطلح يستعمل في القصائد الشعرية حديثاً، وليس هنا مجال مقارنة مع كلام الله، الذي لا يُدانيه أحدٌ من الخلق.

- سيد قطب^(**) (ت1966م): يُنظر سيد قطب إلى القرآن كوحدة واحدة وأن هذه الوحدة القرآنية لم تتحقق في تناسب آياته وسوره، بل تتحقق أيضاً في أسلوبه بما فيه من ألفاظ وجمل وتراكيب، وصور، وظلال، وغير ذلك، ولهذا فقد أبرز نظريته التي أسماها "التناسق الفني" في كتابه (التصوير الفني في القرآن)، وذكر فيه أن علماء البيان السابقين قد تناولوا ألواناً ونماذج للتناسق في أسلوب القرآن، ومن هذه الألوان ما تنبه إليه بعض الباحثين في بلاغة القرآن، مثل: التناسق في تأليف العبارات، والتناسق بين الإيقاع الناشيء من تخير الألفاظ ونظمها، والتناسق في العرض البلاغي البياني، والتناسق في التسلسل المعنوي، والتناسق في التأثير النفسي، مع إقراره بأن كل ما كُتب فيه قابل للعرض في ضوء جديد...، قاصداً بذلك التناسق الفني الذي بقي بعيداً عن آفاق بحثهم - على حد تعبيره -⁽¹⁾.

كما يُناقش بشكل مُتكرر في "تفسيره الظلال"، في مقدماته للسورة المفردة، ما يدعوه بالمحور (الأطروحة المركزية)، والمعنى الحرفي للمحور هو (الفكرة الرئيسية)، أو (المرتكز) للسورة. والاختيار الدقيق لهذه الكلمة يعني من وجهة نظر سيد قطب، أن كل سورة تدور حول

^(*) - تُعرّف (الوحدة العضوية) في القصيدة بأنها: بنية حية، وبناءً متكاملًا وعملاً فكرياً وشعورياً متنامياً، وليست خواطر مبعثرة أو أفكار متفرقة، ينظر: داود غطاشة، حسين راضي، قضايا النقد العربي قديماً وحديثاً، دار القدس للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 1989، ص: 135.

^(**) - سيد قطب (1324هـ - 1386هـ / 1906م - 1966م): زعيم مشهور من زعماء الإخوان المسلمين في مصر، نُفذت فيه الحكومة المصرية حكم الإعدام بسبب اتهامه بالفتنة. يحمل تفسيره اسم (في ظلال القرآن) 6 مجلدات، ويحظى هذا التفسير الذي يحمل بعض الخصائص الأدبية الفريدة، بشُعبه واسعة في العالم العربي والإسلامي، إضافة إلى كتابه الشهير (التصوير الفني في القرآن).

¹ - ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة - مصر، ط16، 2002، ص: 87، 88، 89. وينظر: ص: 29.

فكرة رئيسية، وأنه يجب فهم السورة في ضوء هذه الفكرة^(*).

فقد بنى سيد قطب بشكلٍ علمي تطبيقي تفسيره "في ظلال القرآن" حيث يؤكد ويبرز أن لكل سورة شخصيتها المستقلة ومحورها الخاص بها. فقد استشعر أن السورة وحدة متلاحمة، قد تتعدد مواضيعها وتتنوع مقاصدها ولكنها تُشدُّ في النهاية إلى محورٍ واحدٍ هو غايتها ومآلها، فيقول: «إنَّ لكل سورة من سور القرآن شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي يميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يُظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو»⁽¹⁾، فكان في أثناء تفسيره لكل سورة من القرآن بعرض خطوطها العريضة وموضوعاتها البارزة بحيث يُبين انسجامها مُنبهاً إلى الغرض المحوري الذي تدور عليه.

إنَّ سورة الفرقان، على سبيل المثال، -حسب سيد قطب -تُواسي الرسول (إيناس لرسول الله) في صراعه ضدَّ قريش، التي وجَّهت اتهاماتٍ مؤلمة له، حيث قال على سبيل الملاحظة، في القسم الأوَّل من تفسيره لهذه السورة، بعد ذكر أمثلة عن هذا الإيناس: «هذه هي ظلال السورة، وذلك هو محورها الذي تدور عليه، وموضوعها الذي تعالجه، وهي وحدة مُتصلة يصعب فصل بعضها عن بعض»⁽²⁾، ومن ثم قام بتقسيم آيات السورة إلى أربعة أقسام (أشواط) يقدم القرآن في هذه السورة، من خلال نقده لقريش، عزاءً وسلواناً للرسول. ثمَّ في القسم الأوَّل إظهارُ عقائد قريش بأنها هشة لا تقبل الدفاع عنها، وذلك من أجل جعل انتقادات قريش للرسول حين تذكر في هذا القسم مباشرةً بعد ذلك، تُفقد قوَّة تأثيرها. ويصبُّ القسم الثاني أيضاً في مصلحة

^{*} - لا يستعمل سيد قطب، في بعض الأحيان، كلمة (محور) ويستعمل بدلاً منها، أوصافاً أخرى تُثقل الفكرة نفسها، على سبيل المثال أحياناً يستعمل (موضوع هذه السورة الرئيسي هو...).

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط32، 2003، المجلد 1، ج1، ص: 28.

² - سيد قطب، المرجع نفسه، المجلد 5، ج19، ص: 2546.

فكرة مواساة الرسول، وذلك من خلال روايته لانتقاد قريش لله - تعالى - لأنه لم يُرسل البراهين التي طالبت بها، ومن خلال ذكر العقاب الذي يُدخّره الله لقريش؛ حيث إنّ القُرَيْشِيَّين المُفْتَخِرِينَ بِذَاتِهِمْ، في الحقيقة يَتَحَدَّثُونَ الله الذي يعرف كيفية التعامل معهم، والذي يعلم من يقف مع الرسول في صراعه مع قريش. أمّا القسم الثالث فهو يظهر سبب وَفَرَةَ الأدلّة النَّاقِدة لِحُجَجِهِمْ والموجودة في الطبيعة، كم هي عبثية عقائد قريش الوثنية. ويتحدّث المقطع الأخير الذي يُقصد به - أيضاً - تسليّة للرسول من بين أشياء أخرى، أنّ الله - تعالى - لا يُبالي بهوان البشرية عليه التي تتحداه⁽¹⁾، وهنا يُعلّق سيد قطب بقوله: «وفي هذا الهوان تهوين لما يلقاه منهم رسول الله.. فهو يتفق مع ظلّ السورة وجوّها، ويتفق مع موضوعها وأهدافها على طريقة التناسق الفني في القرآن»⁽²⁾.

- محمود البستاني (ت2011م)^(*)، في كتابه "التفسير البنائي للقرآن الكريم" و"المنهج البنائي في التفسير" حيث التمس النظرة الجديدة في تناوله للسور القرآنية، قائلاً في تعريفه لهذا المنهج: «هو دراسة النص القرآني من خلال السورة، بضمّها (وحدة) لغوية لها بناؤها الخاص المتمثل في نصّ تتربط آياته وموضوعاته وعناصره وأدواته بعضها مع الآخر»⁽³⁾، وقد طبّق هذه البنائية على كلّ السور القرآنية في كتبه المختلفة ومحاضراته، ومما يؤكد عليه البستاني في بداية تفسيره البنائي: «ينبغي أن نشير إلى أنّ عمارة آية سورة كريمة لا تخضع بالضرورة للتسلسل الزمني أو الموضوعي بقدر ما

¹ - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد 5، ج19، ص: 2546، 2547.

² - المرجع نفسه، المجلد 5، ج19، ص: 2547.

^(*) - محمود البستاني: من مواليد النجف بالعراق 1937م، تخرج من كلية دار الفقه في النجف 1964م، ماجستير في كلية دار العلوم بالقاهرة 1969م، ودكتوراه في البلاغة والنقد الأدبي من نفس الكلية 1973م، توفي في مدينة (قم) بإيران سنة 2011م، له مؤلفات عدة منها: (في النظرية النقدية، في التعبير القرآني، القصص القرآني دلاليًا وجماليًا، الإسلام والفن، المنهج البنائي في التفسير، التفسير البنائي في القرآن الكريم)، ينظر: محمود البستاني، المنهج البنائي في التفسير، دار الهادي، بيروت - لبنان، ط1، 2001، ص: 239.

³ - المرجع نفسه، ص: 13.

تخضع للزمان النفسي؛ أي أن: الدلالات التي تنتظمها إنما تتحدد بقدر انعكاساتها في ذهن المتلقي وما تجرّه من (تداعيات) لهذه الدلالة أو تلك»⁽¹⁾.

فعلى سبيل المثال: فإن سورة الفاتحة موضوعها العام هو (التعامل مع الله تعالى)، وهذا التعامل يتوزع في ثلاثة أقسام: (الثناء على الله) (العبادة لله تعالى) (الاستعانة بالله تعالى وطلب الهداية منه)، والحمد أو الثناء أو الشكر.

في القسم الأول هو عملية (تقويم)، وأن هذا التقويم يتجه إلى ظاهرة لا مثيل لها (الله رب العالمين) وهذه السمة تُلخّص لنا الدلالة الذهنية إلى أن التقويم هو لِمُسَيِّطِرٍ على الكون كله (رب هو لكل المخلوقات)، وسِمَةُ (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) تُلخِّصَان مفهوم (الخير) بمستوياته غير المحدودة؛ فالأولى رحمة عامة للمخلوقات والأخرى خاصة بالمؤمنين. وعن الرابطة الدلالية بين (الهيمنة والرحمة) وبين (مالكية الدين)، فهو يُداعي من جانب إلى ما يعنيه (اليوم الآخر) مقابل الاختيار أو الامتحان الدنيوي. وجانب آخر فإنّ انتخاب عبارة (يوم الدين) دون سواها من العبارات المشيرة إلى اليوم الآخر، يتداعى بالذهن من خلالها إلى الإختيار العبادي القائم على دلالة دينية. فتكون العبارة العبارة مُجَانِسَةً لِمَا تَقَدَّمَتْهَا.

والقسم الثاني الخاص بالدلالة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) ولماذا جاءت متأخرة بالقياس إلى (يوم الدين)؛ وذلك تأكيداً على المُهمَّة العبادية بصفقتها هدفاً أساسياً.

أما القسم الثالث الذي تمثله (الاستعانة) التي شكّلت لنا دلالة مُجَمَّلة ليبدأ بتوضيحها في عبارة (اهدنا الصراط المستقيم) وأن طلب الهداية اقترن بعبارة (الصراط المستقيم) وبدلالتين (غير المغضوب عليهم) التي تتناول الجانب العملي من السلوك و (ولا الضالين) التي تتناول البعد الفكري منه⁽²⁾.

¹ - محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، مؤسسة الطبع التابعة للأستانة الرضويّة المقدّسة، مشهد - إيران، ط1، 1422هـ، ج1، ص: 13.

² - ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص: 13 - 18.

- طه جابر العلواني^(*) (ت2016م)، ومن الدراسات الجادة التي سَعَتْ إلى وضع تصوُّر منهجي لقراءة القرآن الكريم وفَهْمه الفَهْم السَّليم الذي يُوافق مُرادَ مُنزلِه، ما قام به "جابر العلواني" في كتابه (الوحدة البنائية للقرآن المجيد) وهو كتاب دعا فيه صاحبه إلى معالجة نصوص القرآن الكريم من جهة كونه وحدة بنائية بكل سورة وآياته وأجزائه وأحزابه وكلماته، كالجملَة الواحدة أو البناء المحكم الذي يُمتنعُ اختراقه لمتناته وقوَّته، وبذلك نستشف معنى البنائية المحكمة شكلاً ومضموناً بقوله: «أما وحدته البنائية فقد أردنا بها أنه بكل سورة وآياته وأجزائه وكلماته يعتبر كأنه جملة واحدة. وأما وصفنا لهذه الوحدة بـ (البنائية) أو إضافة هذه (الوحدة) إلى البنائية فقد أردنا به الإشارة إلى ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1)، فالإحكام - هنا - من إحكام البناء بحيث يمتنع أي اختراق له لمتناته وقوته... وعلى هذا يكون المراد بالمركب (الوحدة البنائية) للقرآن: أن القرآن المجيد واحد لا يقبل بناؤه وإحكام آياته التعدُّد فيه أو التَّجزئة في آياته، أو التَّعضية بحيث بعضه يرفض بعضه الآخر، كما لا يقبل التناقض أو التعارض وغيرها من عيوب الكلام فهو بمثابة الكلمة الواحدة أو الجملة الواحدة أو الآية الواحدة، وإذا كانت قد تعددت آياته وسوره وأجزاؤه وأحزابه...»⁽¹⁾.

^(*) - طه جابر العلواني: (ولد عام 1935م، في العراق) وشغل منصب رئيس المجلس الفقهي بأمريكا منذ عام 1988م ورئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية (SISS) بفرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، حصل على الدكتوراه في أصول الفقه من كلية الشريعة والقانون بالأزهر في القاهرة بمصر، عام 1973م، عمل أستاذاً في أصول الفقه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالمملكة السعودية، في عام 1981م، شارك في تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في أمريكا، كما كان عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وعضو مجمع الفقه الإسلامي الدولي في جدة، هاجر إلى أمريكا في عام 1983م، من مؤلفاته: (الاجتهاد والتقليد في الإسلام. أدب الاختلاف في الإسلام. أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة. الأزمة الفكرية ومنهج التغيير. الوحدة البنائية في القرآن المجيد)، ينظر: الموقع الإلكتروني: (وكيبيديا، الموسوعة الحرة):

(https://ar.wikipedia.org/wiki)، وملتنقى أهل التفسير: (http://vb.tafsir.net/tafsir46572/#.V-). (76d_k97IU).

¹ - طه جابر العلواني، الوحدة البنائية في القرآن المجيد، دار الشروق، القاهرة - مصر، ط1، 2005، ص: 10، 11.

فلولا هذه الوحدة البنائية لما استوعب القرآن " خبر ما بعدنا " حيث استوعب مستقبل البشرية. وبمنهج التعامل بهذه الوحدة البنائية لن نستطيع أن نهتم بجانب من جوانب القرآن الكريم كالأحكام الفقهية والفوائد البلاغية، ونهمل الجوانب الأخرى؛ لأن معاني الآيات لن تُسفر عن وجهها حتى تُقرأ في سياقها وموقعها وبيئتها، وتُدرَك العلاقة بين الآية والقرآن الكريم كله؛ لأن القرآن بناءً مُحكم واحد، ونظم مُتفرّد واحد، تُسري فيه كله روحٌ واحدة تُحوّله إلى كائن حيٍّ يخاطبك كفاًحاً ويشتبكُ معك في جدلٍ شاملٍ يُجيبُ به عن أسئلتك⁽¹⁾.

وبعدَ سرد الأقوال السَّابقة لهؤلاء العلماء الأجلَاء الذين أشرنا إليهم مثلاً لا حصراً، يمكن الوقوف على معنى واضح لمفهوم "المعمار" الذي يُقصد به «ذلك البناء المحكم للسورة القرآنية بما احتوته من (أبنيةٍ مميزة) جامعة لأبنية صُغرى لغوية وإيحائية، ذات ترتيب وتناسق عجيب، تحت أبنية تركيبية كُبرى، منتظمة الأفكار والمعاني، مُتسقة الأجزاء والمقاطع، لها هيكلتها البنائية الهادفة، ووظيفتها الجمالية المؤثرة، التي تتشكّل جميعها فكرياً وفنياً لخدمة مقاصد الشريعة والدين بالدرجة الأولى، وتتباين بإعجازها ونظمها عن غيرها من أبنية كلام البشر القاصرة»⁽²⁾.

المبحث الثالث: حقيقة وحدة السورة، مسوغاتها الفكرية وضوابطها:

المطلب الأول: المسوغات الفكرية والفنية لدراسة معمارية السورة:

إن الدراسة المعمارية للنص القرآني ومقاربتها أسلوبياً، ذات أهمية كبيرة في دراسة السورة القرآنية، وخطوة جديدة للنهوض بعلم المناسبات وعلم النظام، يقول محمود البستاني: «إن القرآن الكريم يُنظم في شكل خاص أو وحدة لغوية خاصة هي (السورة) وليس عبارات منتشرة هنا وهناك (كانتشار الأحاديث مثلاً)... والمؤسف أن الغالبية تغفل عن إثارة السؤال المتقدم [بماذا يفترق التفسير البنائي عن الدراسات التجزيئية والموضوعية التي يعتمدها المفسرون الآخرون؟]، أي: سبب انتظام النص القرآني في (سور)، وحتى في حالة إثارة من مثل هذا السؤال، فذاك منحصر في

¹ - ينظر: طه جابر العلواني، الوحدة البنائية في القرآن المجيد، ص: 12، 13، 14.

² - كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم: دراسة بنائية جمالية تطبيقية، ص: 27.

الإشارة إلى المناخ العام للسورة^(*) لا (سببية) ذلك... هذه الفجوة أو الشرخ الذي نلاحظه في الدراسات القرآنية يحمل الباحث على محاولة تلافيه، وهو ما يضطلع به المنحى البنائي في الدراسة...⁽¹⁾.

ويقول: «ومما لاشك فيه، أن سرّاً خاصاً يكمن وراء طرح الأفكار (الفكر) ضمن (سور) وليس ضمن فقرات متناثرة، حيث لا يمكن التفسير التجزيئي أن يفسر لنا مثلاً: لماذا تتكرر الموضوعات في السورة، حيث يكفي تناول الآيات بمعزل عن الارتباط العضوي بينها، كما لا يستطيع التفسير الموضوعي أن يفسر لنا ذلك لأنه بصدده ما يطرحه من محاور: يغض النظر عن تكرارها وعدمه، بينما يستطيع التفسير البنائي أن يوضح الأسرار الكامنة وراء ذلك...»⁽²⁾.

وهذا الأمر هو الذي يتجاهله بعضهم، من أمثال بعض المستشرقين الذين يعتقدون أنه لا توجد علاقة بين ترتيب الآيات ومعانيها، فأدى بالضرورة إلى أن يقف ذلك عائقاً عن فهم القرآن فأودى بهم إلى أن يتوصلوا إلى استنتاجات خاطئة، من قبيل أن القرآن كتاب غير مفهوم، أو غير منظم، أو غير محكم، وأدى ببعضهم إلى محاولة إعادة ترتيب القرآن بحسب الترتيب النزولي الزمني، في مسعى منهم لمحاولة فهمه، وهذا يعود لجهلهم ببلاغة اللغة العربية وأسرارها وطرق التعبير والأساليب فيها، وهذه المحاولات ليست مقتصرة على المستشرقين وحدهم بل تكاد تعم

^(*) - الفرق بين المناخ العام للسورة وبين البناء العضوي كما يوضحه محمود البستاني في قوله: «دراسة المناخ العام للسورة، وهي تختلف بطبيعة الحال عن دراسة البناء العضوي لها؛ لأن المناخ العام للسورة ينحصر في تبين المحور أو المحاور الفكرية التي تتناولها السورة، أما البناء العضوي فيتناول الصلة العضوية بين المحاور المذكورة، أي الرابطة (السببية) بين عناصر السورة جميعاً، سواء أكانت موضوعاً واحداً ذا جزئيات أو موضوعات مختلفة، أو عناصر ثانوية... الخ، وثمة دراسات أخرى هي: الدراسة أو التفسير الموضوعي، حيث يقتصر هذا النمط من الدراسة على المحور الدلالي الخاص بهذا الموضوع أو ذلك، من خلال اقتناصه من النصوص القرآنية بنحو عام، وهو بدوره يدرس الظاهرة منعزلة عن استقلالية الهيكل العام للسورة القرآنية...»، محمود البستاني، الفهم المتجدد لآيات الكتاب المجيد في ضوء منهج التفسير البنائي، مجلة التقريب نت، مجلة شهرية - إلكترونية (<http://www.altaghrib.net/002/index.htm>)، العدد 2، ذي الحجة، 1433 هـ، المصادف شباط، 2003 م.

¹ - محمود البستاني، الفهم المتجدد لآيات الكتاب المجيد في ضوء منهج التفسير البنائي، مجلة التقريب نت، العدد 2.

² - محمود البستاني، المرجع نفسه، مجلة التقريب نت، العدد 2.

الكثير من المسلمين أنفسهم، وبخاصة حديثي العهد بالإسلام منهم⁽¹⁾، ومن بين تلك الآراء التي قال بها المستشرقين ومن تبعهم أنّ القرآن يتميز ب⁽²⁾:

- تعدد مواضيع السورة الواحدة.
- تكرار المواضيع نفسها عبر سور مختلفة، دون هدف.
- اختلاف ترتيب الترتيل عن ترتيب التنزيل.
- العلاقة بين السور، والعناوين علاقة اعتباطية.
- كثرة الفجوات بين الآيات، بسبب الانتقال المفاجيء⁽³⁾.
- تناقض المحتوى بين بعض الآيات والسور.

فليس في القرآن -بزعمهم - «نص مترابط ولا منسجم بل لا يوجد ذلك حتى في السورة الواحدة على الرغم من المحاولات الجادة لبعض الدراسات حول التفسير الموضوعي للقرآن

¹ - ينظر: محمد فاروق الزين، بيان النظم في القرآن الكريم، الربع الثاني من سورة الأعراف حتى سورة الكهف، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط 1، 2003، ج 1، ص: 9.

² - نوال الخلف، الانسجام في القرآن الكريم - سورة النور أمثودجا، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، إشراف: محمد العيد رتيمة، كلية اللغات والآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 2007، ص: 12.

³ - يقول عبد الرحمن بودرع بخصوص هذا الافتراء: «يحلّو لبعض الباحثين المعاصرين أن يُنفوا عن القرآن الكريم كلّ مظاهر النصية الموحّدة للقرآن الكريم، وأنه ليس نصاً منسجماً بالمعنى الحديث، الذي يستلزم درجة كبيرة من الترابط في مستوى التأليف اللغوي، فليس في القرآن -بزعمهم - نصّ مترابط ولا منسجم بل لا يوجد ذلك حتى في السورة الواحدة على الرغم من المحاولات الجادة لبعض الدراسات حول التفسير الموضوعي للقرآن، والدراسات الجادة في المناسبة الموضوعية بين السور، بل ذهب هؤلاء الباحثون أيضاً إلى أن القرآن الكريم مجموعة من المدونات كمدونة العقيدة ومدونة الشريعة ومدونة الوعظ ومدونة الغيب ومدونة القصص، ولكل ومدونة أسلوبها وعبارتها، وباستثناء مدونة الشريعة، يمكن أن نتصور درجات من الغموض الدلالي تُتيح للتأويل مكاناً في فهم النص والاجتهاد فيه».

ثم يضيف مُفنداً هذه المزايم بقوله: «وهذا الرأي يفتقر إلى الأدلة التي تثبتُ خلوّ النصّ القرآني من عناصر التماسك والانسجام النصيين، وهي عناصرُ اجتهاد علماء البلاغة وعلوم القرآن لإثباتها والبرهنة عليها بالشواهد الكثيرة من الآيات والسور، وبسطها وبيانها في كتبهم» عبد الرحمن بودرع، نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، العدد 154، ربيع الأول 1434هـ / فبراير 2013م، ص: 51، 52. والخطاب القرآني ومناهج التأويل؛ نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، سلسلة دراسات قرآنية معاصرة (1)، مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - المغرب، ط 1، 2013، ص: 129.

والدراسات الجادة في المناسبة الموضوعية بين السور، بل ذهب هؤلاء الباحثون أيضاً إلى أنّ القرآن الكريم مجموعةٌ من المدونات كمدونة العقيدة ومدونة الشريعة ومدونة الوعظ ومدونة الغيب ومدونة القصص، ولكلّ مدونة أسلوبها وعباراتها⁽¹⁾.

وأفضل رد على هؤلاء هو الرجوع إلى جهود العلماء في دراساتهم القرآنية واللغوية والبلاغية الخاصة بتناسب وتماسك أجزاء النص، وهي عناصر اجتهد علماء البلاغة وعلوم القرآن لإثباتها والبرهنة عليها بالشواهد الكثيرة من الآيات والسور، التي تُجَنَّب النص القرآني القراءة التجزيئية، وتُقدِّم قراءة جامعة تُنظِّم فيه الكلمات والآيات والسور في سلك واحد، وتُنظِّم فيه المعاني والدلالات والمقاصد في أصل واحد، «ففي النصّ القرآني الكلمة الجامعة والجمله الجامعة والنص الجامع: وهكذا نستطيع أن نتحدث هنا عن الكلمة الجامعة، والجمله الجامعة، والآية الجامعة، القليلة الحجم ذات المعنى الجمّ، ممّا يقصُرُ العقلُ عن إحصائه واستيفائه، وعن النصّ الجامع^(*)»⁽²⁾.

فجمال النص القرآني في كونه جملةً موحّدة تقوم على قاعدة التّناسق، وقد بيّن سيد قطب هذا الأمر في كتابه "التصوير الفني في القرآن" فذكر أنّ جمال القرآن الكريم ليس في كونه أجراً وتفاريقاً، وإنّ كان للأجزاء جمالاً وسحراً، ولكنّ جماله في كونه جُملةً موحّدةً تقوم على قاعدة

¹ - عبد الرحمن بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، ص: 29.
^(*) - يمكن استعارة مصطلح "جامع النص" [Architexte] الذي أطلقه الباحث الفرنسي (جيرار جينيت) وأراد به مجموع الخصائص العامة أو المتعالية التي ينتمي إليها كل نص على حدة. ومن بين هذه الأنواع: أصناف الخطابات، وصيغ التعبير، والأجناس الأدبية في كتابه، Introduction à l'architexte, Ed. du Seuil, Collection Poétique, Paris 1979، وقد ترجم الكتاب إلى العربية: عبد الرحمن أيوب، بعنوان (مدخل لجامع النص)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، دار توبوقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب (د.ط)، (د.ت). ينظر: جيرار جينيت، مدخل لجامع النص، ترجمة: عبد الرحمن أيوب، ص: 5.

² - عبد الرحمن بودرع، الخطاب القرآني ومناهج التأويل؛ نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، ص: 127، 128.

خاصة فيها من التناسق العجيب ما لا يُدركه إلا من عرف قيمته وعانى قراءته ومُدارسته، ووقفَ على صميم النسق القرآني الذي هو منبع التأثير والسحر⁽¹⁾.

فيبدو النص القرآني بهذه القاعدة الخاصة كُله قطعة واحدة يكون فيها الكلام مُنحدرًا كتحدُّر الماء المنسجم، سهولة سبكِ، وعذوبة ألفاظٍ، وجمع معانٍ، وهذا الجامع بين الأجزاء الذي سمَّاه برهان الدين البقاعي (ت885هـ) بالأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن⁽²⁾، «وهو أنك تنظرُ الغرض الذي سيقَت له السُّورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرضُ من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القُرب والبُعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حُكم الرَبط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تَبَيَّن لك إن شاء الله وجهُ النَّظم مُفصَّلًا بين كل آية وآية في كلِّ سورة سورة»⁽³⁾.

هذا العلم الذي يقول فيه برهان الدين البقاعي: «وعلم المناسبات الأهم من مناسبات القرآن وغيره علم تُعرَفُ منه عِللُ التَّرتيب، وموضوعه أجزاء الشَّيء المطلوب علم مناسبته من حيث التَّرتيب، وثمرته الاطلاع على الرُّتبة التي يستحقها الجزء بسبب ماله بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كُلُّهمة النَّسب»⁽⁴⁾.

وكما يقول عبد الرحمن بودرع: «فإنَّ العناية بالنَّسق والنَّظام والعلاقات التي تُربط أجزاء النَّص بعضها ببعض، ليست وليدة هذا العصر، عَصَرَ اللسانيات والعلوم الإنسانية، ولكنها وُجِدَتْ من قَبْلُ في اهتمامات علماء التَّفْسير وعلوم القرآن، وفي طُرُق تناولهم للنَّص القرآني.

¹ - ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص: 87 وما بعدها.

² - ينظر: برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج1، ص: 18.

³ - برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج1، ص: 18.

⁴ - المرجع نفسه، ج1، ص: 5.

فجاءت علوم القرآن بوصفها آليات معرفية وُضِعَتْ في الأصل لإعادة إنتاج النصوص في التراث وقراءة تلك النصوص بها، وهي آليات متكاملة متفاعلة لا تعرف الحدود الفاصلة بينها⁽¹⁾.

والبحث في هذا العلم، بالمعنى السالف الذكر، لم يكن الاهتمام به كبيراً، وهذا لدقته وخفائه كثيراً كما صرح به فخر الدين الرازي؛ إذا يحتاج إلى كثرة إعمال للفكر وإمعان للنظر حتى يمكن ملاحظة أسرار الترابط بين الآيات والاحتباك بين الموضوعات. وهذا ما أكدّه الزركشي (ت794هـ) ناقلاً عن الرازي قوله: «فقد قلّ اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته، ومِمَّنْ أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، الذي قال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»⁽²⁾. وفي ذلك يقول عبد الله دراز (ت1958م): «والواقع أنه قد يصعب في بعض السور التمييز بين الفكرة الرئيسية والأفكار الثانوية، أو اكتشاف العلاقة بين هذه الأفكار بعضها وبعض أو بينها وبين النواة المركزية للسورة، وقد نجهد حتى الظروف التي استدعت التجميع بينها في سورة واحدة»⁽³⁾.

فإن لم يكن الباحث عالماً بهذه الارتباطات فلزاماً أن تختل موازينه وأحكامه، «وكلمة أخرى تمس حاجة الباحث في هذا النسق إذا أقبل على تلك المناسبات الموضوعية بين أجزاء السورة: وهي أن يعلم أنّ الصلة بين الجزء والجزء لا تعني اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك من الصلات الجنسية فحسب...»⁽⁴⁾.

ويضيف عبد الله دراز: «فلو أنّ ذاهباً ذهبَ يَمْحُو تلك الفوراق الطبيعية بين المعاني المختلفة التي ينتظمها القرآن في سورة منه، إذا جرّده من أولى خصائصه وهي أنّه لا يَسْتَرسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالاً يردّه إلى الإطالة المُملة، كيف وهو الحديث الذي لا يُمل؟ ولو أنّه -من

1 - عبد الرحمن بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، ص: 20.

2 - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص: 36.

3 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن، ص: 122.

4 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص: 160.

أجل المحافظة على اسقلال هذه المعاني - ذهب يُفرِّقها، ويقطع أرحامها، ويُزيل التَّداعي المعنوي والنَّظمي بينها، إِذَا لَجَرَدَهُ من خاصَّته الأخرى، وهي أَنَّهُ لا ينتقل في حديثه انقالاً طَفَرِيّاً يُخرجه إِلى حدِّ المفارقات الضيائية التي تجمع شتى الأحاديث على غير نظام»⁽¹⁾، والتي «لا تدع نفس السامع تستشرف إِلى اختتام كلام العرب وافتتاح كلام كيف هو القول الرصين المحكم؟ كلا، بل الحديث فيه كما علمت ذو شجون، ولكنه حين يجمع الأجناس المختلفة لا يدعها حتى يبرز في صورة مؤتلفة، وحتى يجعل من اختلافها نفسه قواماً لا تتلافها. وهذا التأليف بين المختلفات مازال هو "العقدة" التي يطلب حلها في كل فن وصنعة جميلة، وهو المقياس الدقيق الذي تقاس به مراتب البراعة ودقة الذوق في تلك الفنون والصناعات فإنَّ تقويم النسق وتعديل المزاج بين الألوان والعناصر الكثيرة أصعب مراساً وأشدَّ عناءً منه في أجزاء اللون الواحد والعنصر الواحد»⁽²⁾.

الأمر نفسه بالنسبة (لعلم النَّظام) والذي قال فيه "عبد الحميد الفراهي الهندي" في كتابه "دلائل النظام": «وبالجملة فمرادنا بالنَّظام: أن تكون السورة كُلاً واحداً، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة والأحقة أو التي قبلها أو بعدها على بُعد ما، كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أن الآيات ربما تكون مُعترضة، فكذلك ربما تكون السورة مُعترضة، وعلى هذا الأصل نرى القرآن كُلاً كلاً واحداً، ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأوَّل إلى الآخر...»⁽³⁾.

وما أجمل تلك المعارية للسورة «حينما تأخذ شكلاً وهيئة من حُسن ترابطها وتناسقها وتلاحمها بفضل نَظْمها فذلك كُله يعود إِلى تلك الجمالية المعمارية داخل السورة القرآنية، وكأنها صورة مُشخَّصة، فإذا نظرت إِلى الكلام من هذه الجهة، رأينا ما فيه من الجمال والإيقان والوضاحة، وإذا توغلنا في أعماقه، وذهبنا نُبْحث في بنائه، رأينا من العجب ما يسحر ومن الجمال والروعة ما يبهر في هذا النظام والنسق، الذي تقوم عليه السورة بآياتها، وجمالها، وكلماتها، في

¹ - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص: 160، 161.

² - المرجع نفسه، ص: 161.

³ - عبد الحميد الفراهي الهندي، دلائل النظام، ص: 75.

أصغر بنية فيها وكذلك ما حوته من تشعبات وارتباطات ما تُكوّن به شبكة يُحار الناظر في نظامها ومعمارها»⁽¹⁾.

وتكتسب الدراسة المعمارية أهميتها من أهمية "الوحدة الموضوعية" للنص، وذلك بكونها نتيجة لما أفضى إليه العلماء في دراساتهم لعلم المناسبات وعلم النظام والتفاسير باختلاف أنواعها ويقول محمود حجازي عن جمال الوحدة الموضوعية في القرآن أنك: «لا تحس بنشاز أو نفور، ولا تدرك انقطاعاً أو انفصلاً، بل تجد السورة كأنها صورة رائعة جميلة أو بناء تام متكامل لا نقص فيه ولا زيادة»⁽²⁾. وإذا كان المعمار يبرز لنا أبعاده المضمونية داخل السورة القرآنية، فإنه كذلك له الدور الفاعل في التأثير وجذب النفوس يقول محمود البستاني: «من الحقائق الواضحة في حقل الإدراك أو الاستجابة حيال المعرفة وتمثلها، أنّ الذهن البشري يُدرك الظواهر من خلال (الكل) وهو أمر قد انتبهت إليه بعض الاتجاهات النفسية: كما نعرف ذلك جميعاً، يستوي في ذلك أن يتم الإدراك لـ(الكل) من خلال (جزئياته) أولاً، ثم الانتقال إليه، أو من خلاله أولاً ثم الانتقال إلى جزئياته، وفي الحالتين ثمة إدراك لا ينفصل كله عن جزئه ولا جزؤه عن كله»⁽³⁾.

وعن هذا التقرير تترتب حقيقة مفادها أن النص أياً كان نمطه، بما أنه يستهدف توصيل أفكاره إلى الآخرين، فإن الاستجابة لا تحقق هدفها إلا من خلال تكاتف عدة استشارات عقلية وعاطفية تستلزم معرفة بطرائق الاستجابة، وما يواكبها من العمليات النفسية التي تفضي إلى تحقيق هذه الإثارة المطلوبة، كافتتاح النص بظاهرة ما أو إجمالها أو تفصيلها أو حذفها أو اختزالها أو التدرج أو التصاعد بها أو تواشيحها بعناصر تخيلية أو عاطفية... أو أدوات قصصية أو حوارية⁽⁴⁾.

1 - كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم: دراسة بنائية جمالية تطبيقية، ص: 30، 31.

2 - محمود حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن، دار الكتب الحديثة، مصر، ط1، 1970، ص: 58.

3 - محمود البستاني، المنهج البنائي في التفسير، ص: 15.

4 - ينظر: المرجع نفسه، ص: 15.

وفي ضوء هذه الحقائق يمكننا إدراك أهمية الدراسة المعمارية للسورة القرآنية، «فما دام المتلقي يستجيب للنص من خلال الكل، فسيظفر بحصيلة نهائية مقصودة بعد تلاوته للسورة القرآنية، أي ستترك إنطباعاً أو تأملاً أو معرفة جمالية حتى لو كانت غائمة أو غير متضحة مسيطرة على قلب وعقل المتلقي، وهذا على حسب درجة وعيه وثقافته»⁽¹⁾.

وإن هذه الطريقة من التناول تصور لنا أهمية الأدوات، والعناصر الفنية المتنوعة التي تساعد على التصور الشامل، والنظرة البنائية، وفهم هندسة السورة المرسومة، لإظهار كتاب الله - سبحانه وتعالى - المعجز، وإيضاح قدراته البيانية على التوصيل والتأثير بكل ما احتوته السورة الكريمة من ألفاظ، ومعان، وتراكيب، وأساليب...

ومن أجل ذلك يمكن تقسيم طرق التناول لمعمارية سورة هود "عليه السلام" على النحو

الآتي:

-أولاً: دراسة علاقات الآيات والمقاطع والموضوعات مع بعضها البعض، استناداً على (دراسة علاقات الترابط بين علاقات الألفاظ، وبين التلاحم بين الآيات في علم التناسب، والعلاقات الكلية الكبرى من خلال الجزء للوصول إلى الكل عبر المحاور والموضوعات في علم النظام)، للكشف عن أفكار ومضامين السورة القرآنية، والذي تمثل في الوحدة الموضوعية.

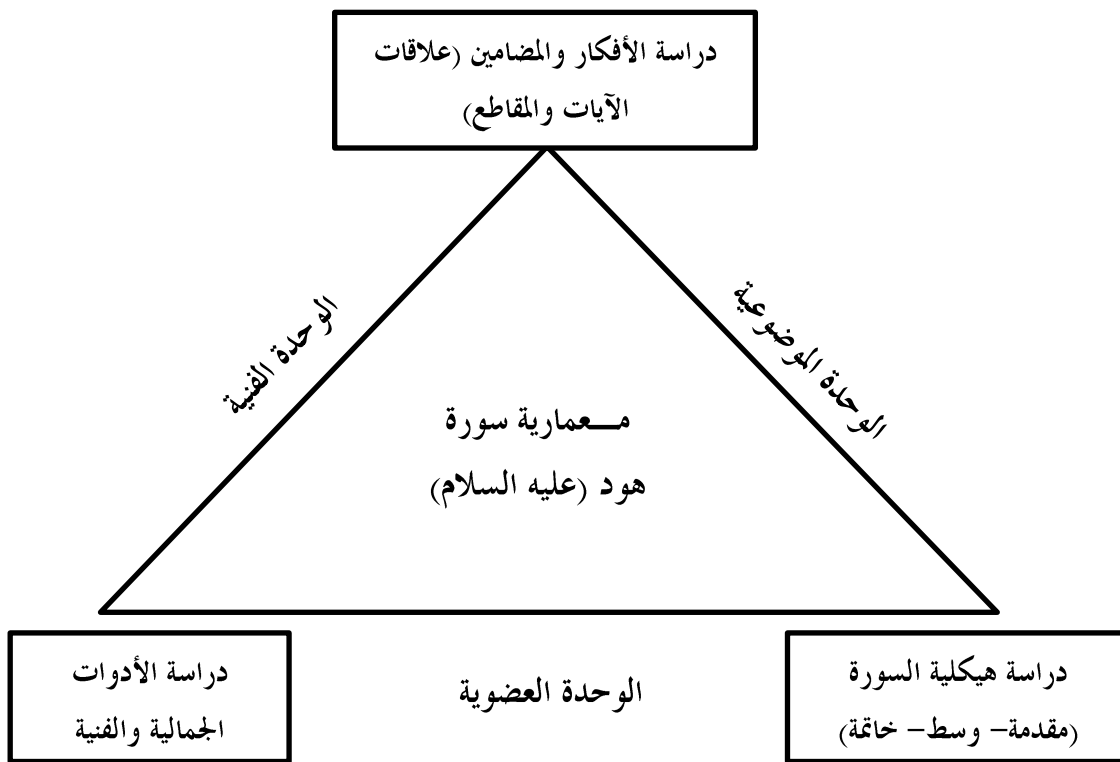
-ثانياً: دراسة هيكلية السورة^(*) من (ابتداء - عرض - قصص - حسن انتقال - خاتمة).

¹ - كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم، ص: 32.

^(*) - هذه المرحلة من دراسة هيكلية السورة تتم عبر تتبع الرحلة التي تقطعها السورة القرآنية وصولاً إلى المحطة الأخيرة؛ أي تتبّع «الرحلة التي يقطعها النص، والمحطات التي يقف عندها، والجهة التي يسير إليها إلى المحطة الأخيرة التي يقف عندها، ومنها: ما يظهر بصورة واضحة في السورة ذات الوحدة الموضوعية الظاهرة حيث جميع أجزائها وتفرعاتها وتنظيماتها تخضع لأهداف النص، وتخضع لتسلسل زمني أو موضوعي أو نفسي واضح في (المقدمة والوسط والخاتمة)، ومنها ما تعددت مواضيعها تحت بناء عام يجتمع في الوحدة العضوية، ويخضع بنائها إلى الزمان النفسي في الغالب، ومن ثم فإن الرحلة التي يقطعها النص تتقاطع أو تتوازي (بدايتها ووسطها ونهايتها) بحسب متطلبات الاستجابة الكلية التي يستهدفها النص في هيكليتها»، كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم، ص: 34.

-**ثالثاً:** دراسة ما يتصل بالسورة من عناصر جمالية وأسلوبية، «ومعرفة سر الربط بين حلقاته والكشف عن طبيعة الوظيفة المسخرة فيه، لإنارة الأفكار والمضامين، وإثارة النفوس والعقول نحو الإحساس بالجمال والتأثر به»⁽¹⁾، وكما قال سيد قطب رحمة الله عليه: «والفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس، وإدراك الجمال الفني دليل استعداد لتلقي التأثير الديني حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع وحين تَصْنُفُ النَّفْسُ لِتَلْقَى رسالة الجمال»⁽²⁾.

ويمكن تمثيل طرق تناول معمارية سورة هود كما في الشكل الآتي:



¹ - كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم، ص: 34.

² - سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص: 144.

المطلب الثاني: حقيقة وحدة السورة في القرآن:

أولاً: تعريف السورة:

بحسب تعريف السورة لغة ضم عدة معانٍ⁽¹⁾:

- فمنهم من يشبهها بسور البناء، أي القطعة منه، أي منزلة بعد منزلة.
- ومنهم من يشبهها بالسور المحيط بالأبنية، وما طال من البناء وحسن، والجمع: أسوار؛ لأن السورة مُحِيطة بالآيات والكلمات والحروف إحاطة السور بما في داخله.
- وقيل: لارتفاعها، لأنها كلام الله.
- وقيل: لتركيب بعضها على بعض، ومن التَّسْوَر بمعنى التصاعد والتراكب، ومنه ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (سورة ص، الآية: 21).

أما اصطلاحاً: فقد عرفها العلماء بعدة تعريفات كلها تؤدي إلى معنى اصطلاحى صحيح، منها أنها: حدُّ السورة قرآن يشتمل على آي، ذي فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات.

- وقيل: الطائفة المترجمة توقيفاً؛ أي المسماة باسم خاص بتوقيف من النبي - صلى الله عليه وسلم - كما قال تعالى عن سورة النور: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور: 1).

ثانياً: وحدة السورة: إن مفهوم المعمار في السورة كما مر معنا؛ إذا يدل على بنائية السورة القرآنية من حيث البحث عن معنى التجانس العضوي والموضوعي للنص؛ «والنص القرآني نص متماسك» تتربط ألفاظه ترابطاً لغوياً نحوياً متيناً، ويُنشئ الترابط نظاماً ومعماراً مُحْكماً لا يقبل التجزيء، حتى قالوا إنَّ القرآن الكريم كله كالسورة الواحدة، يذكر الشيء في سورة ويأتي الجواب في سورة أخرى⁽²⁾.

¹ - ينظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص: 150، 151.

² - عبد الرحمن بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، بحث مقدّم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 2013/2/16، ص: 40.

لوحظ أنّ كل سورة من سور القرآن تتميز باستخدام ألفاظ أو تعبيرات خاصة بها، وهذه وإن كان من الطبيعي أن توجد في غيرها من السور، إلا أنّها تَغَلَّبَتْ في واحدة من سور القرآن على ما عداها، بل لوحظ أنّ بعض تلك الألفاظ قد اختصّت بها سورة ما، ولم تتكرّر في غيرها من سور القرآن؛ فالسورة نفسها نرى فيها التّناسق والتّرتيب والوحدة والتّرابط العظيم المحكم بين الآيات في السّورة الواحدة وبينها والسور الأخر، فهذان شاهدان على أنّ السورة الواحدة تُشكّل وحدة مترابطة متناسقة متينة التّركيب وأنّ القرآن الكريم وحدة واحدة عظيمة البنيان والانسجام، وهذا وجه من وجوه الإعجاز.

ويمكن تخلص حقيقة وحدة السورة كالآتي:

- 1 - كما أنّ لكل سورة أركان أو روابط وقوائم فهكذا السورة، وتتمثل روابط السورة في كلمة أو تعبير يتكرر ذكره فيها إما بنفس اللفظ أو بلفظ مستخرج منه.
- 2 - للسورة رابط رئيسي يتردد ذكره فيها أكثر من غيرها من سور القرآن، ويوجد هذا الرابط في مطلع السورة ويهدي إلى الموضوع الرئيسي الذي تتحدث عنه السورة.
- 3 - يتردد الرابط الرئيسي من مطلعها إلى نهايتها، حيث تشتمل آيات الختام على صدى لهذا الرابط.

إنّ تجلية كل سورة قرآنية تمثل وحدة متكاملة، فهي عبارة عن وحدة موضوعية تتعالق أجزائها وتتعانق لتكون كالكلمة الواحدة، فالسورة تُشكّل وحدة مترابطة متناسقة متينة التّركيب. ويقول في ذلك عبد الحميد الفراهي: «إنّ الكلام الصحيح النّظام لا بد له من عمود يجري إليه الكلام، فلا بد لطالب النّظام أن يتأمّل في مساق الكلام، فإنّك ترى في السورة الواحدة مطالب شتى، ولا تعلم ما هو العمود الذي سيق إليه المعاني؟ ولن تهتدي إلى معرفة اتصال الكلام بعضها

ببعض، دون معرفتك بمساق الكلام، ووجهته التي تسلك إليها أجزاءه، حتى تراها منظومة في سلك واحد»⁽¹⁾.

وبهذا الشكل يبلغ فيها التلاحم والترابط بين نصوصها الدرّوة والمنتهى «وعلى هذا؛ فكلّ كلمة وكلّ جملة وكلّ مقطع وكلّ سورة؛ أي كلّ نص من نصوص القرآن يكون مسبباً لتاليه وتاليه مسبباً في للاحقه، بحيث يغدو البناء كلا متكاملًا متفاعلاً في وحداته بشبكة من العلاقات الدلالية التي تُبقي البناء والنسيج الكلي موحدًا، متكاملًا، فكل واحدة منها تنماز بحسن ابتدائها وحسن انتهائها وتُحسّن الدخول والانضواء في سلك نظيراتها وتتلاقى معها بأضرب من العلاقات الدلالية»⁽²⁾. وبالوقت نفسه نجد بين السور جميعاً رابطاً عاماً وَصِلَةٌ تُصِلُهَا إِذَا بِالْقُرْآنِ يَتَرَاى وَحِدَةً وَاحِدَةً عَظِيمَةَ الْبِنْيَانِ وَالْإِنْسِجَامِ.

لذا فإننا حين نقرأ السورة من أولها إلى نهايتها لها هدف واحد ووسائل متعددة، وذات شخصية واضحة وسمات مميزة، موضوعاً وتعبيراً، تُعالج كل سورة موضوعاً واحداً أو عدة موضوعات، والقصة هي إحدى وسائلها التي تعالج بها موضوعاتها علاجاً فنياً.

المطلب الثالث: حقيقة التوافق بين القرآن الكريم وحياة النبي:

وهو أن القرآن الكريم نزل مُنَجَّمًا بحسب الوقائع والأحداث على مدى ثلاث وعشرين سنة، مُطَابِقًا لحياة وظروف النبي الكريم، مُوجَّهًا لخطوات الحركة النبوية مُتَضَمِّنًا لِعُنَاصِرِ التَّربِيَةِ الْخُلُقِيَّةِ، مُلَبِّيًا لِحَاجَةِ الْمَجْتَمَعِ وَالِدَوْلَةِ وَالشَّرِيعَةِ، فَمِنْهُ مَكِّيٌّ أَنْزَلَ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ وَمِنْهُ مَدَنِيٌّ أَنْزَلَ فِي الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ، فَمِنْهُجَ الْقُرْآنُ بِهَذَا ارْتَبَطَ بِمَرَاكِلِ التَّنْزِيلِ عَلَى النَّبِيِّ⁽³⁾. وهنا يجب الأخذ بعين الاعتبار الوحي باعتباره نصاً مقدساً يعلو على التاريخ، وقد ذهب علي أومليل حين أكد أنّ

¹ - عبد الحميد الفراهي الهندي، دلائل النظام، ص: 76.

² - فخرية غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني: دراسة نصية في السور الموسومة بالعتاق الأول، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد - الأردن، ط1، 2017، ص: 46.

³ - ينظر: صالح الخالدي، القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل إحداه، دار القلم، دمشق، دط، 1998، ص: 115.

المفسرين فتحوا «أفقاً ممتازاً بابتكارهم مبحث "أسباب النزول"، إلا أنهم وضعوا جهازاً كاملاً من التحديدات والمفاهيم الاحتياطية ليقطعوا كل صلة لهذه "الأسباب" بالتاريخ. لقد انطلق مفهومهم لأسباب النزول من أن هناك أسئلة طرحت، وفي ظروف فذة، فجاء الوحي كجواب لها، ليكون تشريعاً قاراً. لقد كان وراء الجواب سؤال، إلا أن الجواب استقل بذاته ليتخذ صفة الشمول والإطلاق»⁽¹⁾.

وبهذا المنظور فإنه «يتم التعامل مع أسباب التنزيل باعتبارها تمثل قرائن حيوية تدخل في فهم النص وضبط معانيه؛ فهي بقدر ما تمثل قرائن سياقية واقعية وتاريخية يبنى عليها النص وتسمح بإيضاح مكوناته تغدو تبعاً لذلك قرائن "فوق تاريخية" تسمح، بعد اكتمال تنزيل النص، بأن تشتق منها معايير فهمه وبيانه؛ ذلك أن وقائع النزول استحالت عند علماء القرآن إلى معايير تفسيرية تعلق على الظرفيات التاريخية للنص، ولم تبق مجرد وقائع يلجأون إليها على نحو ما جرت تاريخياً»⁽²⁾؛ وفي هذا المنحى فإنه «مهما تغيرت أوضاع المفسرين عبر الأزمنة، ومهما تباينت حاجاتهم الفهمية فإن اللجوء إلى وقائع النزول في علوم القرآن والاسترشاد بما تتيحه من معايير يمثلان مدخلاً مرجعياً قوياً إلى الفهم؛ ومن دون اللجوء إلى ذلك يصبح المفسر كما لو أنه أمام نص مفصول عن اعتباراته الإنتاجية والتكوينية المناسبة؛ وهذا ما يقوده إلى الوقوع في شبه التفسير وإشكالاته بحسب تعبير القدماء، وإلى مساوية الفهم بحسب تعبير المحدثين»⁽³⁾.

¹ - علي أومليل، في التراث والتجاوز، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، ط1، 1990، ص: 49، نقلاً عن: محمد الحيرش، النص وآليات الفهم في علوم القرآن، دراسة في ضوء التأويلات المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2013، ص: 200.

² - محمد الحيرش، النص وآليات الفهم في علوم القرآن، دراسة في ضوء التأويلات المعاصرة، ص: 201.

³ - المرجع نفسه، ص: 201.

المطلب الرابع: الضابط للوحدة القرآنية:

النظر في طلب الوحدة المعمارية لا بد أن يتقيد بضوابط أهمها:

- 1 - يقول محمد رشيد رضا (ت1354هـ): «إن القاعدة القطعية المعروفة عن أنزل عليه القرآن - صلى الله عليه وسلم - وعن خلفائه الراشدين "رضي الله عنهم" أن القرآن هو الأصل الأول لهذا الدين وأنَّ حكم الله يُتلمَّس فيه أولاً فإنَّ وجد فيه يؤخذ وعليه يُعوَّل. ولا يحتاج معه إلى مأخذ آخر، وإنَّ لم يُوجد التمسَّ من سنَّة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، على هذا أقرأ النبي مُعَاذاً حين أرسله إلى اليمن وبهذا كان يتواصى الخلفاء والأئمة من الصحابة والتابعين»⁽¹⁾.
- 2 - ضرورة الوحدة للتدبر ويُدرِك «إِنَّه قرآن أراد قائله ومُنزَّلُه - تبارك وتعالى - له أن يُقرأ ويُتدبَّر، ويتفكر فيه، ويعقله العالمون، ويرتِّله المرتلون، ويتلوه التالون، ويتبعه المهتدون؛ فأودع الله - تبارك وتعالى - فيه كلَّ ما يجعله جذاباً لأصناف الخلق كافة، مُستدعياً لهم لقراءته، قادراً على صنع الدوافع والدواعي والإرادات لترتيبه وتلاوته. "ووحده" تمثل الركن الأساس في هذا - كله - ولذلك فإنه مهما اتخذنا من الأساليب في الرجوع إليه فلن نستطيع أن نهتم بجانب من جوانبه ونهمل الجوانب الأخرى»⁽²⁾. لذلك فإنه يستحيل التدبر دون إدراك العلاقات والشائج بين الآيات والسور بعضها مع بعض في القرآن كله.
- 3 - الانطلاق من الإيمان (بوحدة السورة)، «وهو مدخل لا يختلف كثيراً عن مدخل الوحدة البنائية لكن التركيز فيه يكون على سورة واحدة يتخذها القارئ المتدرب بمثابة وحدة متميزة. وهنا ينطلق في تدبره باتجاه البحث عن عمودها، والأعمدة أو الأوتاد الساندة؟، ونعني بذلك: أن لكل سورة موضوعاً أساسياً تأتي آياتها - كلها - لتوضيحه وبيانه، وتجليته ما يتعلق به، وتكون

¹ - محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنار، دار المنار، القاهرة - مصر، ط2، 1947م، ج5، ص: 220.

² - طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن المجيد، ص: 13.

الموضوعات الأخرى دائرة حول ذلك الموضوع الأساسي تعززه، وتزيد في بيانه وتوضيحه، فتكون بمثابة الأوتاد المساندة لعمود البيت ودعامته الكبرى»⁽¹⁾.

4 - أن يدرك أن الوحدة العضوية في القرآن الكريم، تُشكل أحد وجوه الإعجاز، «فكلام الله عز وجل واحد كالقول الواحد والخبر الواحد يتصل أوله بآخره»⁽²⁾.

5 - أن لا يجعل للسورة غرضاً يتفق مع بعضها ويتنافر مع الآخر، فلا بد أن يتناسب الغرض والمحور الأساس الذي يذكره مع موضوعات السورة، ويتنظمها، ولا يلغي بعضها.

6 - أن لا يذكر للسورة غرضاً يُخرجها عن ترتيبها في نظم سور القرآن الكريم، فإنّ ترتيب السور والآيات إنما هو توقيفي.

7 - أن لا يدعي بأنّ الوحدة الموضوعية لها موضوعاً واحداً، وأنها خاصة بالسورة الواحدة، وإنما يعني أنّ موضوعاتها لو تعددت مُلتحمة في نسيج واحد دون تنافر أو تفكّك؛ فالوحدة الموضوعية ليست مخصوصة بألفاظها ولا بالسورة الواحدة، فقد تجتمع مجموعة من السور في تلك الوحدة الموضوعية.

8 - ملاحظة أنّ القرآن إنما هو نص صيغَ بلغة عربية لها قوانينها ومعانيها وأساليبيها، «ولا يستقيم فهم القرآن من غير الأخذ بالاعتبار البُعد النصي والبُعد اللغوي للقرآن، ففي البُعد النصي ينبغي لحظ تكامل النص وإفصاح بعضه عن بعضه، وأثر بُنيته في فهمه، وكيفية صياغة أساليبه وخطابه وفي البعد اللغوي ينبغي لحظ لغة عصر نزوله وما قبلها، ولغة القرآن في علاقته مع هذه اللغة فضلاً عن قوانين العربية ومعاني مفرداته»⁽³⁾.

¹ - طه جابر العلواني، الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، يناير 2006، ص: 36.

² - ينظر: أحمد عبادي: نحو منهجية معرفية للدراسات القرآنية، مجلة الترتيل في القرآن المجيد، عدد1، ص: 24.

³ - مصطفى بن عبد الله، الدراسات القرآنية في عصر العولمة، المؤتمر الدولي حول: دور الدراسات الإسلامية في المجتمع العالمي، كلية الدراسات الإسلامية، جامعة الأميرسونجيكلا فرع فطاني، جنوب تايلاند، 21-23 ديسمبر 2010م، ص: 17، 18.

المبحث الرابع: أشكال الربط وآلياته في السورة القرآنية:

إنّ آية سورة كريمة تشابه إذا صح لنا أن نستشهد بهذا التشابه، أية رحلة تقطع حيث تبدأ هذه الرحلة من مكان معين وتمر عبر محطات متنوعة، لتخط في نهاية المطاف إلى المحطة الأخيرة أو الشاطئ الذي ترسو عليه، وهذا النمط من البناء يتجه في تحديد الاستجابة الكلية للنص التي تترك أثرها عند القارئ للسورة الكريمة، ويمكننا أن نشير إلى تعريف الهيكلية بكونها «المرحلة التي يقطعها النص والمحطات التي يقف عندها، والجهة التي يسير إليها إلى المحطة الأخيرة التي يقف عندها»⁽¹⁾.

ولهذا تعتبر السورة القرآنية عبارة عن علاقات متشابكة فنياً لن ينتبه عليها إلا من كرّس نشاطه الثقافي أو كرّس نشاطه التفسيري أو القرآني في ملاحظة هذه السورة أو تلك، من حيث ارتباط كل آية بما بعدها وبما قبلها ومن حيث ارتباط كل قسم من حيث الموضوعات بما قبلها وبما بعدها، ثم من حيث ارتباط هذه الموضوعات جميعاً إما من خلال خيط يوحد بينها أو من خلال إخضاع كل موضوع مستقل، ولكن في نهاية المطاف ربط هذا الموضوع بخيط يوحد بين الأقسام جميعاً. فإذا تصورنا ذلك استطعنا بعدها تحديد الأشكال الهيكلية التي تظهر فيها السورة، وهي تحديدات تعتبر محاولات وملاحظات قيمة وثرية لبعض الدارسين في العصر الحديث في هذا المجال⁽²⁾.

المطلب الأول: أشكال الربط في السورة:

توصّل بعض الدارسين في العصر الحديث إلى استنتاج هيئات خارجية للسورة تفصح عن أشكال الربط في تعدد موضوعاتها ومدى خضوعها للوحدة العضوية، كما تسهم بنحو أو بآخر في تحديد الاستجابة الكلية تجاه النص القرآني والتي تهدف السورة إلى تحقيقها. ومن هذه الأبنية⁽³⁾:

¹ - محمود البستاني، المنهج البنائي في التفسير، ص: 31، 34.

² - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج 1، ص: 8.

³ - المرجع نفسه، ج 1، ص: 9.

1 - البناء الأفقي، وهو أن تبدأ السورة بموضوع وتختتم بالموضوع ذاته عبر سلسلة من الموضوعات المتنوعة.

2 - البناء الطولي، ويطلق بعض الدارسين على هذا البناء بالعمودي، أو الطولي؛ لأن السورة تبدأ بتناول موضوع معين ثم تواصل معالجته متسلسلاً إلى نهايته⁽¹⁾، وهذا البناء الطولي العمودي - الذي هو أن تبدأ بموضوع وتنتهي بموضوع آخر - هو ما يطبع غالبية السور القرآنية الكريمة، حيث تتشابه وتتنامى وتتلاقى خطوط البداية والوسط والنهاية على وفق هيكل محكم البناء، سواء كانت السورة تتضمن عشرات، بل مئات الموضوعات الرئيسية والثانوية، والفرعية والطارئة والمفترضة⁽²⁾، غير أن النص يُبينها من خلال محور مشترك.

3 - البناء المقطعي، وهو «أن يتكون النص من مجموعة من المقاطع، يُشكل كل مقطع وحدة، لها كيانها الخاص، ويرتبط كل مقطع بالآخر ارتباطاً وثيقاً؛ ليكون بناءً متكاملًا من النواحي العضوية، والمنطقية، والنفسية، وبه تتشكل الصورة الكلية»⁽³⁾، وفي السورة القرآنية هو أن تطرح السورة جملة من الموضوعات، تنهي كل واحدة منها بآية أو أكثر تتكرر في المقاطع جميعاً، مثل ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: 13). وعليه «فإنه وعلى وفق هذا النمط من البناء يتكون النص من مجموعة من المقاطع، يشكل كل مقطع وحدة لها كيانها الخاص ودلالاتها، ويرتبط كل مقطع بآخر ارتباطاً وثيقاً ليكون بناءً متكاملًا من النواحي العضوية، والمنطقية، والنفسية، وبه تتشكل الصورة الكلية»⁽⁴⁾.

وهناك سلسلة الأساليب التي يتم من خلالها ربط آيات السورة الكريمة بعضها مع الآخر، أو ربط الآيات بموضوعاتها، أو ربط الآيات والموضوعات بالعناصر الأخرى، وهي آليات الربط

¹ - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج1، ص: 9.

² - ينظر: سامر عبد الرحمن شوافي، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية، دار الملتقى، سوريا، ط1، 2009، ص: 319.

³ - رائد مصباح الداية، البناءات الجمالية في النص القرآني، رسالة ماجستير في الأدب والنقد، إشراف: كمال أحمد غنيم، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية غزة - فلسطين، 2011، ص: 297.

⁴ - فخرية غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني، ص: 84.

والبناء الفنية التي تربط أجزاء هذه الهيكليات المتعددة في معمار هندسي واحد، فهي متنوعة ومتعددة حسب ما خَطَّته أقلام الدارسين في نوعية العلاقات الفكرية والفنية بين أجزاء السورة الواحدة.

المطلب الثاني: آلية الربط في السورة:

1 - **التمهيد:** نجد أن هذا التمهيد هو الذي يتصدر السورة أولاً، وقد يتخلل مقدمتها، حيث يجمع عدة أفكار تُطرح على نحو مجمل ثم تُفصّل لاحقاً، وفائدة هذه الطريقة بما تُلقّيه من تشويق وإثارة انتباه المتلقي لبيان أهمية الموضوع المطروح منذ البداية، وما تُثيره المقدمة كذلك من محاولة الربط بينها وبين ما طُرح من موضوعات بعدها⁽¹⁾.

2 - **التجانس:** هو أنّ الموضوعات والأفكار التي تتناولها السورة الكريمة يتجانس بعضها مع بعض في خطوطه العامة، وكذلك بالنسبة إلى العناصر التي تستعمل لأجل إنارة فكرة السورة، كعنصر اللفظ والإيقاع والصورة... الخ من عناصر تنظيم النص الأدبي⁽²⁾. ومثالها (سورة الماعون)، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ، فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون: 1-7)، فقد طرحت هذه السورة الكريمة موضوع المكذب بالدين وموضوع الساهي عن الصلاة، مع كون أحدهما غير الآخر، إلا أنهما يتجانسان في سلوك واحد هو عدم الإنفاق وعدم مساعدة الآخرين فالمكذب بالدين لا يحض على طعام المسكين، والساهي في الصلاة يمنع الماعون، وكلا الظاهرتين تمثل سلوكاً اقتصادياً سلبياً⁽³⁾.

3 - **النمو أو التنامي:** هو أن موضوع السورة الكريمة ينتقل ويتحول من مرحلة إلى أخرى كما يتنامى الكائن الحي في مراحل عمره، فيقتطع مراحل متنوعة حتى يصل إلى النهاية من خلال ما

¹ - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج1، ص: 23.

² - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج1، ص: 9، 10.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ج5، ص: 428.

يُعَدُّيه النَّصُّ من أفكار وموضوعات وحُجج وأدوات فنية متعددة⁽¹⁾. ومثالها كما قال محمود البستاني عند تفسير الآية العاشرة من سورة الأعراف وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: 10)، والآية السابعة والخمسين من السورة نفسها وهو قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (الأعراف: 57)، قال: «هنا ينبغي أن لا نغفل بأنَّ النَّصَّ في مقدمة السورة قد طرح موضوع الأرض وإلا أن الله جعلها معاش للناس وهذا يعني من زاوية عمارة النص أن تخصيص الأرض بهذا الحديث من حيث إخراجها للثمرات حيث تعدُّ الثمرات هي المادة الرئيسية للعيش. إنَّما جاء هذا التخصيص مرتبطاً بمقدمة السورة، وإلى أن هذا التفصيل إنَّما هو إنماءً لمقدمتها»⁽²⁾.

4 - **السببية**: وهو أن يجري ترتيب موضوعات السورة القرآنية أحدها على على الآخر على نحو السببية، بحيث يكون كل موضوع سبباً للاحقه، ومُسبباً عن سابقه⁽³⁾، «فكلُّ كلمة وكلُّ جملة وكلُّ مقطع وكلُّ سورة؛ أي كلُّ نصٍ من نصوص القرآن يكون مسبباً لتاليه، وتاليه مُسبباً في لاحقه، بحيث يغدو البناء كلاً مُتكاملاً متفاعلاً في وحداته بشبكة من العلاقات الدلالية التي تُبقي البناء والتسيج الكلي موحدًا»⁽⁴⁾، وهذه علاقة واضحة في آي السورة الكريمة يمكن لدارس السورة أن يكتشفها بيسر دون تكلف أو مشقة.

5 - **التداعي**: هناك طرائق متنوعة في ربط الأجزاء التي تنتظم السورة بعضها مع بعض يتم من خلال التداعيات الذهنية، أي الذهن يتداعى من فكرة إلى فكرة أخرى، ومعنى ذلك أن هذه التداعيات الذهنية تشكل واحدة من طرائق لربط الأجزاء، أو يتم ذلك من خلال نمو مفهوماتها أي بداية الموضوع يطرح بشكل ثم ينتهي منه إلى شكل آخر بحسب تسلسله أو بحسب نمائه كنماء

¹ - ينظر: المرجع نفسه، ج 1، ص: 9.

² - المرجع نفسه، ج 2، ص: 33.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ج 1، ص: 9.

⁴ - فخرية غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني: دراسة نصية في السور الموسومة بالعتاق الأول، ص: 46

إنسان من مرحلة إلى أخرى ، مثلاً أن يعقد التداعي في ذهن المتلقي من خلال أخذ العبرة والعظة مما عرض من أمثال وقصص وأحوال السابقين. أو كأن يحرك الأذهان تلقائياً للربط بين زمانين يتداعى أحدهما من مجتمع سابق إلى مجتمع لاحق ، وهذا يبرز جلياً في قصص الأنبياء والرسل والأمم السابقة⁽¹⁾.

¹ - ينظر: كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم، ص: 79.

الفصل الثاني

المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام .

مدخل إلى المعمار الموضوعي .

المبحث الأول : في رحاب سورة هود الكريمة .

المبحث الثاني : الوحدة الموضوعية في السورة .

المبحث الرابع : موقع السورة بين السور وتناسبها لما قبلها وما بعدها .

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

مدخل إلى المعمار الموضوعي:

إنَّ السورة الواحدة تشكّل وحدة فكرية أو موضوعية تتضمن أجزاءً متناسقة فيما بينها تجتمع هذه الأجزاء وتتشابك لتصبّ في هذه الوحدة، لذا لا يمكن أن ننظر إلى كل جزء أو آية على أنّها مُنفصلة، ولا علاقة لها بالأجزاء الأخرى، وعلاقة هذه الأجزاء جميعاً بوحدة الفكرة والموضوع لأن هذا يجعل النصّ القرآني فاقداً لوحده الفكرية والموضوعية التي استهدفها.

كما أنّ اكتشاف الموضوع الذي تدور حوله السورة القرآنية، إنّما يستدعي من المُتدبر أن يبحث بأناة وتفكير عميق بحثاً كلياً شاملاً للسورة، وتتبع ارتباط آياتها، ومعاني جملها، بهذا الموضوع، أو بما تفرّغ عنه من عناصر، وما اتّصل به من موضوعات جزئية، وأحكام وشواهد..

فالقرآن الكريم تتعاقب آياته وسوره، وتتناسق معانيه ودلالاته، وتُعتبر كلّ سورة فيه وحدة جزئية قائمة بذاتها، ولها دور رئيسي في الكلّ القرآني المتناسق الجميل، والأمر نفسه بالنسبة للسورة الواحدة، ويرى محمد عبد الله دراز أنّ هذا النهج الكلي في دراسة النسق القرآني هو السياسة الرشيدة، التي يجب أن تُتبع «فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلّة الموضوعية بين جزء منه، - وهي تلك الصلّة الماثوثة في مثالي الآيات، مطالعها ومقاطعها - إلاّ بعد أن يُحكّم النَّظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معوّناً له على اليسر في تلك التفاصيل عن بينة، فقدّمًا قال الأئمة⁽¹⁾: (إن الصورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويتراص بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلّق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وإنّه لا غنىَ لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النَّظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية)⁽²⁾.

¹ - يقصد بهم: برهان الدين البقاعي، وأبي إسحاق الشاطبي، أبو بكر النيسابوري، وفخر الدين الرازي، وأبي بكر بن عربي، وغيرهم..

² - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص: 158-159.

وعلى هذا الأساس يمكن التمثيل للسورة الكريمة بجسم الإنسان من حيث ارتباط أعضائه بعضها مع الآخر، وهكذا فإن ارتباط الأجهزة بعضها مع البعض الآخر يساعد دون أدنى شك على توفير الصحة البدنية التي نحرص عليها وكذلك معرفتنا لهذه النظرة الكلية للجهاز الجسمي يُسَعِّفنا في أداء مختلف الوظائف التي نحاول أن نُؤدِّيها بشكل سليم. فلا بد من «جعل النصّ مُتَفَرِّداً بصياغته الكليّة، كَتَفَرُّد كلِّ مخلوق بهيكلٍ وسماتٍ تُمَيِّزه، مُراعاةً للإبداع الاختياري في الأفراد. أمّا الغفلة عن ملاحظة هذا التنوع في أساليب الأداء البياني، فإنها تَحْجِب عن مُتَدَبِّر النصّ القرآني التَّرابُطَ الفكري في موضوع النصّ، فلا يُدْرِكُه إلاَّ وحداتٍ مُجَزَّاتٍ غير مُترابطة، وتَبْدُ عنه بسبب ذلك رَوَائِعَ مَفَاهِيمَ، وقد يقعُ في أغاليط، إذ يُحَاوِلُ أَنْ يَنْزِعَ ارتباطاً من قريبٍ أو بعيدٍ لأدنى مُناسبةٍ، أو شُبُهَةً مناسبةٍ، أو يَخْتَرع من عنده أموراً لا أصل لها ولا دليلَ عليها»⁽¹⁾.

والأمر كذلك إذا أُتِيحَ لنا أن نُنْقُلَ هذه التَّجْرِبَةَ إلى عِمَارَةِ بِنَاءٍ مَثَلًا الَّتِي نَجِدُ فِيهَا سَقْفَ وجدار وركائز يشدُّ بعضها ببعضٍ... والقرآن الكريم من حيث إعجاز سوره المُقْتَنِيَةِ على وَحْدَةٍ هندسية تُماثل تماماً ما نلاحظه في وحدة الأجهزة البدنية عند الإنسان، أو وحدة الأجهزة في هذه العِمَارَةِ أو تلك بحيث يأخذ كل جزء من هذه العِمَارَةِ أو من ذلك الجسم ويؤدي وظيفة خاصة من جانب وتتواشج وتتربط وتتواصل هذه الجزئيات فيما بينها لتؤدي وظيفة عامة من جانب آخر، وهذا كله لا ينبغي أن تكون معرفتنا لهذه الجزئية أو لتلك أيضاً مُنْطَوِيَةً على فائدة ما، إلاَّ أن هذه الفائدة تظل جزئية «فهذا الكتاب المبارك أشبه ببناء ضخمة متناسق في مظهره الخارجي كما يبدو من بعيد، فإذا اقتربت منه وجدت التناسق في طوابقه، وإذا دخلت الطابق وجدت التناسق في حجراته وممراته وقواطعه، فإذا دخلت الحجرة وجدت التناسق في نوافذها وجدرانها ومادة بنائها، فإذا أمعنت النظر في النوافذ والجدران وجدت كلاً منها متناسقة في أقيستها وحجمها ومنظرها!!!»⁽²⁾ فعملية الربط بين جزئيات السورة ومقاطعها لا تحتاج إلاَّ إلى إدراك الموضوع العام لها «إنها كلها

¹ - عبد الرحمن بودرع، الخطاب القرآني ومناهج التأويل: نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، ص: 115، 116.

² - صلاح عبد الفتاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار عمار، عمان -الأردن، ط2، 2000، ص: 157.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

تتجمع على الموضوع والغاية، ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة، وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع وتحقيق هذه الغاية»⁽¹⁾.

يقول عبد الرحمن حَبْنَكَة الميداني: «واستبان لي أنَّ مثل السورة من القرآن كمثل شجرة من الأشجار البديعة المثمرة، أو كمثل كائن حيٍّ من الكائنات الراقية، فالشجرة مهما اختلفت صفاتُ إجزائها مُجمّعة على أصل واحد، ومشتقة منه، والكائن الحيُّ مهما اختلفت صفاتُ أعضائه مُجتمَعٌ على أصلٍ واحدٍ ومشتقٌّ منه»⁽²⁾.

والباحث الدقيق المُتعمِّق في أسرار القرآن الكريم يلاحظ: «أنَّ السورة القرآنية تشتمل على وحدات معانٍ متماسكة تُشبه حَلَقَاتٍ مُترابطة، مَشْمُولَةٌ بحلقة أكبر منها وهي داخلة فيها مُتعلِّقة بها، ولا يُشترط في كل حلقةٍ موجودة على مسار خطِّ النَّصِّ أن تكون مرتبطة بالتي قبلها مباشرة، كما نعرف في حلقات السلسلة التي هي كالحبل، بل قد يكون الارتباط مباشرة بالحلقة الكبرى التي هي أساس الموضوع، أو بحلقة دونها قد سُبِقَتْ، وليست هي الحلقة المباشرة في تسلسل رَصْفِ الحلقات»⁽³⁾.

والمدقق النَّظَر في تماسك السور القرآنية قد يلاحظ كذلك أنَّ: «خفاء الارتباط إنما يأتي من ملاحظة أنَّ وحدة موضوع السورة يُشبه السلاسل المستطيلة كالحبال، إذ يعمل المتدبر على انتزاع ارتباط ضعيف قد يكون وهمياً أحياناً بين كل حلقة والتي سبقتها في الرصف الكلامي؛ مع أنَّ الأمر ليس كذلك، وينبغي له حتى يصل إلى ما ينشد أن يصحَّ أصل تصوره لحقيقة الترابط، ويستطيع أن يقرب ذلك إلى ذهنه بأن يرسم دائرة كبرى ثم يربط بها حلقة، ثم ينظر في الحلقات

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3، ص: 1243.

² - عبد الرحمن حَبْنَكَة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزل وجل، دار القلم، بيروت - لبنان، ط1، 1980، ص: 16، 17.

³ - المرجع نفسه، ص: 17، 18.

التالية، هل يربطها بالحلقة الفرع، أو يربطها بالدائرة الكبرى الأصل، ثم يسير هكذا إلى كل الحلقات، ويبحث عن ارتباطها بالدائرة الأصل أو بالحلقات الفروع»⁽¹⁾.

ولذلك قد نجد أن معظم تفاسير القرآن الكريم تتسم بأنها تُفسر القرآن آية آية بالتجزئة كما يُصرِّح بذلك محمد عبد الله دراز: « وبهذا يُعرف مَبْلُغُ الخطأ الذي يتعرَّض له النَّاطرون في المناسبات بين الآيات حين يعكفون على بحث تلك الصَّلَات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاوزة، غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملتها. فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد؟ وكم ينأى به من أروع نواحي الجمال في النظم»⁽²⁾، وهو الرأي نفسه الذي يُقرُّ به محمد فاروق الزين حينما يقول: «تتسم معظم تفاسير القرآن الكريم بأنها تفسر القرآن آية بالتجزئة، كما لو كانت كل آية من الآيات مستقلة بذاتها عما قبلها وعما يليها، دون كثير اهتمام بترابط الآيات بعضها مع بعض، ودون التركيز على النظم القرآني المحكم، لدرجة أن البعض، في تجاهل واضح للنظم، قد يعتقد أن ليس هنالك من علاقة بين ترتيب الآيات وبين معانيها، ولا شك أن هذا الأمر وقف عائقاً بين بعض المستشرقين وبين فهم القرآن حتى أنهم توصلوا إلى استنتاجات خاطئة من قبيل أن القرآن كتاب غير مفهوم أو غير منتظم أو غير محكم، وأدى هذا ببعضهم إلى إعادة ترتيب القرآن بحسب ترتيب النزول الزمني في مسعى منهم لمحاولة فهمه، وهذه الصعوبة لسيت مقتصرة على المستشرقين وحدهم بل تعم الكثير من المسلمين أنفسهم، ناهيك عن حديثي العهد بالإسلام منهم»⁽³⁾.

وهذا ما يؤكد حَبْنَكَةَ الميداني رحمه الله في قوله: «إنَّ السورة القرآنية من الناحية البيانية والمعاني والدلالات التي اشتملت عليها، بمثابة حَلِيَّةٍ أدبية رائعة فدَّة، فهي ذاتُ موضوعٍ كُلِّي

¹ - عبد الرحمن حَبْنَكَةَ الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ، ص: 18.

² - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص: 159.

³ - محمد فاروق الزين، بيان النظم في القرآن الكريم - الربع الثاني من سورة الأعراف حتى سورة الكهف، مقدمة الربع الرابع من الكتاب، ص: 11.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

واحد، إلا أن وحدة الموضوع في كل سورة قد لا تستبين بالنظرة الجزئية، ولا بالنظرة السطحية التي تمرّ مرّاً سريعاً على آياتها، وقد لا يتنبه لها الكثيرون، تأثراً بالاتجاه السائد عند المفسرين القدماء الذين لم يُوجّهوا عنايةً كبيرةً لهذا الأمر، رغم خدماتهم الجليلة التي قدموها لهذا الكتاب الرباني العظيم⁽¹⁾.

وهو الأمر الذي يقارب هذه الفكرة كما يشير "عبد الرحمن حللي" في قضية الوحدة الموضوعية والتفسير الموضوعي عندما يقول: «ظهر حديثاً ما يُسمّى بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، وغدا يعرف بالتفسير الموضوعي، الذي يسعى إلى تتبع موضوعاً ما في جميع القرآن، واكتشاف المعنى من مجمله لا من أجزائه، لكن معظم المحاولات في التفسير الموضوعي لم تحقق الهدف إذ انطلقت من الجزء إلى الكل من خلال تجميع ما ورد في التفسير التحليلي وتركيبه بما هو عليه، فلم تختلف إلا صورة البحث وقالبه فقط ومكمن ذلك افتقارها إلى المنهجية الشمولية المنضبطة»⁽²⁾.

وهذه الطريقة في اكتشاف المعنى من أجزائه لا ينبغي «أن تمنع وجود خصوصيات للبنى الصغرى في الآيات تميزها، بل إن تلك الخصوصيات هي التي تُسهم في تنمية العمل في إطار البنية الكاملة من خلال وحدتها العضوية، وكل ذلك من أجل تحقيق الأهداف السامية للسورة»⁽³⁾.

ويذكر سيد قطب في أثناء حديثه عن سورة البقرة من حيث ترتيب آياتها وترابط مواضعها مع محاورها، ويؤكد أن كل سورة في القرآن الكريم لها ميزتها الخاصة سواء كان لها موضوع رئيسي أو عدّة مواضيع إلا أنّها مشدودة بنظام كلي إلى محور خاص ممّا يجعلها تتناسق فيما بينها يقول في ذلك: «ومن ثمّ يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سورته شخصية مميزة! شخصية لها روح يعيشها معها القلب كما يعيش مع روح حيّ مميّز الملامح والسمات

¹ - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزل وجل، ص: 18، 19.

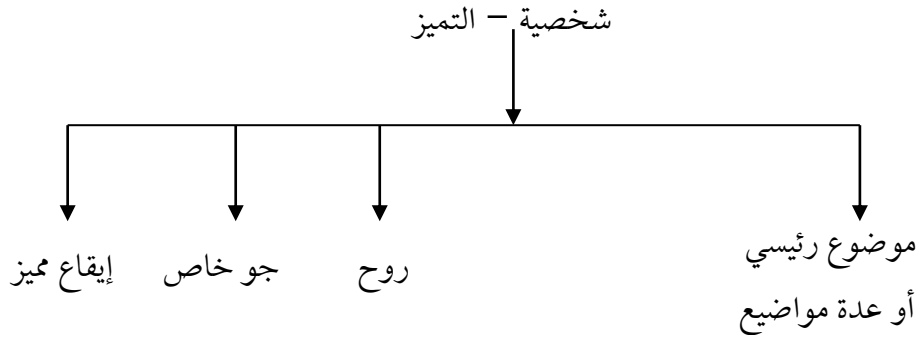
² - المدخل إلى دراسة المفهومات القرآنية، ص: 52.

³ - كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم: دراسة بنائية جمالية تطبيقية، ص: 39.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

والأنفاس! ولها موضوع رئيسي أو عدة مواضيع رئيسية مشدودة إلى محور خاص. ولها جو خاص يُظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو. ولها إيقاع موسيقي خاص إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة... وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً لا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة⁽¹⁾.

إنَّ أهمَّ ما يشدُّ في هذا القول هو ربط هذه السورة بالموضوع. ولئن ذهبنا لنُجسِّدَ ما قاله نحصل على الآتي:



فالجانِب الأول من هذه الشخصية وهو الروح^(*) وله علاقة مع القلب والجانِب الثاني يَمَسُّ الموضوع أو المواضيع وهي ترتبط بمحور خاص، أمَّا الجانِب الثالث فهو الجو الخاص للسورة الذي ينعكس ضلَّه على الموضوعات ليخلق بينها وبين هذا الجو تناسقاً.

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 1، ص: 27، 28.

^(*) - وقد يُقارب هذا ما قال به "ابن طباطبا" في ملاءمة معاني الشعر لمبانيه حيث يقول: «وإذ قالت الحكماء إنَّ للكلام الواحد جسداً وروحاً. فسجده النطقُ ورحه معناه، فوجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعةً متقنةً، لطيفةً مقبولةً حسنةً، مجتلبةً لمحبة السامع له والناظر بعقله إليه، مستدعيةً لعشق التأمل في محاسنه، والمفترس في بدائعه، فيحسه جسماً ويحققه روحاً، أي يتيقنه لفظاً، ويبدعه معنًى، ويتجنب إخراجَه على ضد هذه الصفة فيكسوه قبحاً ويبرزه مسخاً، بل يُسوِّي أعضاءه وزناً، ويعدِّل أجزاءه تأليفاً، ويحسن صورته إصابة، ويكثر رونقه اختصاراً، ويكرِّم عنصره صدقاً، ويفيده القبول رقةً ويحصنه جزالةً، ويدنيه سلاسةً وينأى به إعجازاً، ويعلم أنه نتيجة عقله، وثمره لبه وصورة علمه، والحاكم عليه أوله». ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، مراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 2، 2005، ص: 126.

المبحث الأول: في رحاب سورة هود الكريمة:

سورة هود "عليه السلام" سورة عظيمة كغيرها من سور القرآن الكريم، ويستحب الوقوف بين يديها في عجالة، لاستجلاء بعض الجوانب التمهيدية المهمة، كالإشارة إلى أبرز خصائصها وعلاقتها بما قبلها، ومقاصدها، تهيئة للنفس للعيش في ظلالها، وعوناً للمتدبر على فهم معانيها وتفسير بعض الظواهر الإعجازية والجمالية فيها، والوقوف على هدايات الآيات وفوائدها، لزيادة الإيمان واليقين.

المطلب الأول: اسم السورة وترتيبها وعدد آياتها:

أولاً: اسم السورة: اسم السورة في القرآن الكريم توقيفي منتقاة بدقة، دالة على مُتونها مُفصّحة عن طبيعتها، مُحتوية إيّاهَا، مُحدّدة لها، مُنيئة عن مضمونها، وموحية بقاصدها وأهدافها. والسورة⁽¹⁾، من القرآن مجموعة من الآيات ذات فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات وهما مسماة باسم خاص بتوقيف من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإن خالف في ذلك بعضهم، قال السيوطي (ت911هـ): «وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار»⁽²⁾ ولا تخلو التسمية -وإن تعددت كما هو الحال مع بعض السور كالمائدة والتوبة- من حكمة ووجه اختصاص، ربما ظهر لبعضهم وخفي على آخرين، ما لم يأت نص صحيح يُبينه والعرب كانت تُراعي مثل هذا الأمر في كثير من تسمياتها، فُتسمي الشيء بشيء نادر أو مستغرب يكون فيه، «أو صفة تخصّه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمُسمّى»⁽³⁾ وقد يكون تكرار الشيء في السورة هو المعوّل عليه في التسمية حتى وإن ورد في سورة أخرى وقد يكون⁽⁴⁾ غير ذلك وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز كما يظهر، والله أعلم.

1 - ينظر: في معنى السورة في البرهان للزركشي، ج1، ص: 263، 264، والإتقان للسيوطي، ج1، ص: 52.

2 - جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص: 52.

3 - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص: 270.

4 - ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص: 270.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

وسميت سورة هود - عليه السلام - ، في جميع المصاحف وكتب التفسير ، والسنة : باسم "سورة هود" ، ولا يُعرف لها اسم غير ذلك ، كما وردت هذه التسمية عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في حديث ابن عباس - رضي الله عنه - ذكر أن أبا بكر - رضي الله عنه - قال للنبي الكريم يا رسول الله قد شُبت؟ قال : «شيتني هود وأخواتها» وفي رواية «شيتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت»⁽¹⁾ ؛ وذلك لقوة الكلام فيها في الحث على الاستقامة على طريق الله ومنهجه ، ولقوة سيدنا هود - عليه السلام - في كونه مثلاً على التوازن في الاستقامة والإصرار على الدعوة دون تهوُّر ولا ركون⁽²⁾.

وهي التسمية الشهيرة لقطعة من القرآن المنزَّل في العهد المكي ، والمنتمة إلى السور المفتحة بحروف مُقطَّعة ، تلك الحروف التي اجتمعت في عبارة واصفة لطبيعتها : «نص حكيم قاطع له سر»⁽³⁾ ، وهي ذات طابع مكِّي ثابت في أصوله ومواضعه المتميزة حول العقيدة والتوحيد والاستقامة.

وأغلب كتب التفاسير تُعلل تسميتها باسم هود "عليه السلام" ، لتكرُّر اسمه فيها⁽⁴⁾ خمس مرات ، ولتمييزها عن غيرها من سور القرآن ذوات الافتتاح بـ {الر}. من ذلك محمد الطاهر بن عاشور (ت 1394هـ) بقوله : «وسميت سورة هود لتكرار اسمه فيها خمس مرّات ، ولأن ما حُكي عنه فيها أطول مما حُكي عنه في غيرها ، ولأن عاد وُصِفوا فيها بأنهم قوم هود في قوله تعالى : ﴿أَلَّا

¹ - رواه الترميذي كتاب تفسير القرآن ، باب (12) ، من سورة هود ، رقم الحديث 3297 ، تعليق محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض - السعودية ، ط 1 ، (د.ت) ، ص : 744. وينظر : شهاب الدين الدين الألويسي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ، ج 11 ، ص : 102 ، 103.

² - ينظر : عمرو خالد ، خواطر قرآنية ، الدار العربية للعلوم ، بيروت - لبنان ، ط 1 ، 2004 ، ص : 168 ، 169.

³ - برهان الدين البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ج 1 ، ص : 72. وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج 1 ، ص : 255.

⁴ - ينظر : جلال الدين السيوطي ، الإتيان في علوم القرآن ، ج 1 ، ص : 160.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿هُود: 60﴾، وقد تقدّم في سورة يونس تعليل آخر للتسمية ينطبق على هذه، وهو تمييزها من بين السور ذوات الافتتاح ب: (الر)»⁽¹⁾.

وقد بيّن صاحب التحرير والتنوير هذا الوجه في معرض تقديمه لسورة يونس بقوله: «والأظهر عندي أنّها أضيفت إلى يونس تمييزاً لها عن أخواتها الأربع المفتحة ب: (الر) ولذلك أضيفت كلُّ واحدة منها إلى نبيّ، أو قوم نبيّ، عوضاً على أن يُقال: آل الأولى، وآل الثانية وهكذا... فإنَّ اشتهار السورة بأسمائها أوّل ما يشيع بين المسلمين بأوّل الكلمات التي تقع فيها وخاصة إذا كانت حروفاً مُقطّعة، فكانوا يدعون تلك السورة بآل حم، آل الر ونحو ذلك»⁽²⁾.

أما عن سبب ذكر بعض قصص الأنبياء في هذه السورة وتفرّدّها باسم هود "عليه السلام"، دون غيره يقول في ذلك الزركشي (ت795هـ): «وإن قيل: فقد تكرّر اسم نوح في هذه السورة في ستة مواضع فيها، وذلك أكثر من تكرار اسم هود. قيل لما جرّدت لذكر نوح وقصته مع قومه سورة برأسها فلم يقع فيها غير ذلك كانت أولى بأن تسمى باسمه -عليه السلام- من سورة تضمنت قصته وقصة غيره، وإن تكرّر اسمه فيها»⁽³⁾.

وربما كانت علّة التسمية أكثر إقناعاً مما يراه هؤلاء حين يتغير التفكير نحو سبب وجيه يمكننا من معرفة وجه التسمية لكلِّ السور، هذا ما نجده عن أصحاب التفسير الموضوعي للقرآن فهم يرون أنّ كل سورة تعرض موضوعاً واحداً وأساسياً يتناسب بالضرورة مع اسمها بوجه أو بآخر.

فسورة "هود" يُعَلَّلُ سَبَبُ تَسْمِيَّتِهَا بِاسْمِ سَيِّدِنَا هُودٍ -عليه السلام-، لِمَا يُوْجَدُ فِيهَا مِنْ تَنَاسُبٍ بَيْنِ اسْتِقَامَةِ هُودٍ -عليه السلام- وثباته على الطّريق المستقيم وهو موضوع السورة أو هدفها الذي يتمحور حول الاستقامة والتوازن⁽⁴⁾.

1 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، (د.ط.)، 1984، ج11، ص: 311.

2 - المرجع نفسه، ج11، ص: 77.

3 - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص: 271. والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص: 160، 161.

4 - ينظر: عمرو خالد، خواطر قرآنية، ص: 168.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

لذلك نجد السور القرآنية متميزة بمسميات مُحَدَّدة ونجد كلَّ سورة من سور القرآن تهدف إلى تحقيق غرض مُحَدَّد وموضوع مُحَدَّد.

وقال محمد علي الصابوني: «سميت السورة الكريمة باسمه تخليداً لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله، فقد أرسله الله تعالى إلى قوم (عاد) العُصَات المتجبرين، الذين اغترُّوا بقوة أجسامهم وقالوا من أشدُّ منَّا قوَّة؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (هود: 59)»⁽¹⁾.

ثانياً: عدد آياتها:

فتباينت فيه مواقف العلماء. فقليل: مائة وإحدى وعشرون. وقيل: مائة وعشرون آية عند المكِّيِّين والبصريِّين. ومائة واثنان وعشرون آية في عدد المدني الأوَّل والشامي، بينما عدد سورة هود في العدد الكوفي وأهل حمص فهو: مائة وثلاثة وعشرون آية⁽²⁾.

وأرجح أنَّ عدد آيات هذه السورة الكريمة مائة وإحدى وعشرون آية؛ ذلك لأنَّ هذا العدد صدر عن أقرب النَّاس برسول الله -صلى الله عليه وسلم- مكاناً وزماناً، كذلك هذا العدد يوافق مصاحف الرسم العثماني التي بين أيدينا، والله أعلم.

¹ - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط4، 1981، ج2، ص: 5.

² - ينظر: ابراهيم عمر بن عمر البقاعي، مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1987، ج2، ص: 173، وينظر: محمد بن الصديق الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز تحقيق: محمد علي النَّجار، وزارة الأوقاف، المجلس الإسلامي الأعلى، مصر، ط3، 1996، ج1، ص: 246. وينظر: جلال الدين السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، ج1، ص: 192.

المطلب الثاني : زمان ومكان نزول السورة الكريمة :

أولاً : فترة النزول :

سورة هود هي السورة الثانية من ثلاث سورٍ أُنزلت متتالية بأسماء الأنبياء - صلوات الله عليهم - جميعاً (يونس - هود - يوسف) ، ونزلت بعد سورة يونس ، ونزلت سورة يونس بعد الإسراء ، وهذا يُحدّد معالم الفترة التي أُنزلت فيها ؛ وهي - كما ذكر سيد قطب - من أخرج الفترات وأشققها في تاريخ الدعوة بمكة ، فقد سبقها موتُ أبي طالب وخديجة ، وجُرأة المشركين على مالم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياة أبي طالب - وخاصة بعد حادثة الإسراء وغرابتة ، واستهزاء المشركين وارتداد بعض من كانوا أسلموا قبله - مع وحشة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من خديجة - رضي الله عنها - في الوقت الذي تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته ، وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقصى مداها ، وتجمّد تحركة الدعوة حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد من مكة ومن حولها ، وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلة المسلمة معه بيعة العقبة الأولى ثم الثانية⁽¹⁾.

وفي آثار هذه الفترة وجوها المشحون بأنواع المكر والأذى من جانب قريش وأكابرهم من أسياد القوم ، والحافل بعناء النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن تاب معه ، كانت تنزل آيات سورة هود على قلب النبي ، غذاءً للروح ، وبسماً للجروح ، فتكسب في نفسه الطمأنينة والرضى. والتأمل لآيات سورة هود الكريمة يُستشف من جوها وظلالها وموضوعاتها آثار تلك الفترة العصيبة التي نزلت فيها ، خاصة ما تعلق بثبوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والذين معه على الحق والتسرية عنه مما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغرابة في المجتمع الجاهلي⁽²⁾.

¹ - ينظر : سيد قطب ، في ظلال القرآن ، المجلد 4 ، ج 12 ، ص : 1840 .

² - ينظر : المرجع نفسه ، المجلد 4 ، ج 12 ، ص : 1841 .

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

ثانيا: مكان نزول السورة الكريمة:

والسورة - على ما تشهد به آياتها بمضامينها والاتصال الظاهر بينها - مكيّة بلا استثناء على الأرجح من أقوال أهل العلم، كما رُوِيَ ذلك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في أحد قوليّه، وعن غيره من أئمة السلف كالحسن وعكرمة وعطاء، وإليه ذهب الجمهور⁽¹⁾.

وقال السيوطي (ت911هـ) في حديثه عما استثنى من هود: «استثنى منها ثلاث آيات ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ (هود: 12)، ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ (هود: 17)، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ (هود: 114)»⁽²⁾، ثم قال: «قلت: دليل الثالثة ما صحّ عن عدة طرق أنّها نزلت بالمدينة في حق أبي اليسر»⁽³⁾.

وغير خافٍ ما للقرآن المكي من خصائص تفرّد بها عن المدني^(*)، «فلقد جاءت مضامين القرآن المكي وخصائصه البنيوية الغالبة متميزة على مضامين القرآن المدني وخصائصه؛ فالقرآن المكي

¹ - ينظر: جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ط1، 2003، ج8، ص: 5. وينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن المبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط1، 2006، ج11، ص: 62.

² - جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج1، ص: 40.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص: 40.

^(*) - تباينت وجهات نظر أهل الشّأن في مفهوم المكي والمدني، فنظّر إليه بعضهم من زاوية المكان فقليل: ما أنزل من القرآن الكريم في مكة فهو مكي، وما أنزل منه في المدينة فهو مدني، وثمة فريق نظر إلى المكي والمدني في ضوء خطابه للإنسان، فما كان خطاباً بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو مكي، وما كان خطاباً بـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو مدني؛ لأن الكُفْر كان غالباً على أهل مكة والإيمان كان الغالب على أهل المدينة، وهناك قول ثالث ينظر إلى المكي والمدني باعتبار الزمان، فقليل: ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني، ويمكن القول على - هذّي ما سبق - إنّ معرفة المكي من المدني فوائد لا تخفى، لذلك تلمّس العلماء أنّ معرفة المكي والمدني من سور القرآن يمكن أن يكون من طريقتين هما: طريقة السماع، وطريقة القياس، ينظر: جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج1، ص: 22، 23، وبدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص: 177-179. وغانم قدوري، محاضرات في علوم القرآن، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2003، ص: 77.

وقد وضع العلماء فروقاً لمعرفة القرآن المكي والمدني بعد ملاحظة واستقراء، ولم يكن في خلداهم أنّ ثمة طائفة قادمة، تسعى لتوظيف هذه الفروق لإثبات مقرّر سابق والترويج لأفكار لاحظ لها من الصحة ولا اعتبار - إنهم المستشرقون - لذلك تعدّدت مسالك المستشرقين في الترويج لأفكارهم، وكان من بين الأبواب التي ولجها المستشرقون باب القرآن المكي والمدني، من ذلك ما جاء في الموسوعة البريطانية: «إنّ أسلوب الوحي المحمدي جاء نثراً أو ما يسميه العرب بالسجع وقد استعمل هذا =

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

ينتظمه تفصيل دلالي قائم على الدعوة إلى التوحيد، وبناء كيان الجماعة المسلمة عقدياً وأخلاقياً واجتماعياً. في حين يأتي التَّمفُصُّلُ الدلالي الذي ينتظم القرآن المدني متمحوراً على تنظيم المعاملات وسن الفرائض والحدود»⁽¹⁾.

وما يُمثِّله السياق المكي والسياق المدني من قطبين فضائيين تشكَّلتُ فيهما مضامين الوحي، وهو الأمر الذي «شكَّلَ لِعُلَمَاءِ الْقُرْآنِ ذَلِكَ الْمَجَالَ الَّذِي أُتِيحَ لَهُمْ فِيهِ رَسْمُ خَطَايَةِ فَضَائِيَّةٍ شَامِلَةٍ تَضْبِطُ مَنَازِلَ الْوَحْيِ وَمَوَاقِعَهُ الَّتِي احْتَضَنْتْ أَطْوَارَ تَشَكُّلِهِ وَإِبْنَائِهِ. وَمَا يُمَيِّزُ هَذِهِ الْخَطَايَةَ أَنَّ الْأَمْكَنَةَ الَّتِي تُشِيرُ إِلَيْهَا هِيَ أَمْكَنَةٌ وَاقِعِيَّةٌ مَوْجُودَةٌ فِي الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَمَثِّلُ لِلنَّصِّ أَمْكَنَةَ "مَحَايِدَةٍ" وَذَلِكَ كَمَا لَوْ كَانَتْ مَجْرَدَ فُضَاءَاتٍ جُغْرَافِيَّةٍ لَا تَقِيمُ بِهِ إِلَّا ضَرْبًا مِنَ التَّعَلُّقِ الْخَارِجِيِّ. إِنَّهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ، لِأَنَّ مَضَامِينَ النَّصِّ تَبْنِي عَلَيْهَا وَتَتَّحَدُّ مِنْ خِلَالِ التَّفَاعُلِ مَعَهَا؛ فَالْمَكَانُ هُنَا لَا يَمَثِّلُ مَجْرَدَ سِيَاقٍ فَضَائِيٍّ خَارِجِيٍّ اقْتَرَنْتَ بِهِ أَطْوَارَ النُّزُولِ، إِنَّهُ بِالْأَحْرَى مُقَوِّمٌ حَيَوِيٌّ مِنْ مَقَوِّمَاتِ الْبِنَاءِ الدَّلَالِيِّ لِلنَّصِّ»⁽²⁾.

فسورة هود "عليه السلام" مكيّة، بدليل السِّيَاقِ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَاتُ فَقَدْ وَرَدَتْ فِي السِّيَاقِ الْمَكِّيِّ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ «السُّورَ الْمَكِّيَّةَ نَزَلَ أَكْثَرُهَا فِي إِثْبَاتِ الْعُقَائِدِ وَالرَّدِّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَفِي قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ. وَأَنَّ السُّورَ الْمَدِينِيَّةَ نَزَلَ أَكْثَرُهَا فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَفِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَذَكَرَ الْمُنَافِقِينَ، وَالْفِتْوَى فِي مَسَائِلَ، وَذَكَرَ غَزْوَاتِ النَّبِيِّ»⁽³⁾، فَهِيَ تَتَحَدَّثُ عَنْ أَصُولِ الدِّينِ الْعَامَّةِ وَهِيَ التَّوْحِيدُ، وَالرِّسَالَةُ، وَالْبَعْثُ وَالْجَزَاءُ، وَتَمَيِّزُهَا بِمَا فِيهَا مِنَ التَّشْدِيدِ وَالتَّغْلِيضِ

=الأسلوب سابقاً من قبل الكهنة، ومن قبل المنجمين. فالسور الأولى تتصف آياتها بالقصر وبقوتها الشعريّة وبتعبيرها الحيوي، أمّا السور الأخيرة فجاءت آياتها طويلة، مُفَصَّلَةٌ وَمُعَقَّدَةٌ نَثْرِيَّةٌ فِي مَظْهَرِهَا وَلِغَتِهَا، وَمَا تَسَبَّبَ عَنْهُ فِي تَرْقِيمِ الْآيَاتِ، فَضَّلَ حَسَنَ عَبَّاسٍ، قَضَايَا قُرْآنِيَّةً فِي الْمَوْسُوعَةِ الْبَرِيْطَانِيَّةِ نَقْدَ مَطَاعِنَ وَرَدُّشُبُهَاتٍ، دَارَ الْبَشِيرِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ، عَمَانَ - الأردن، ط2، 1989، ص: 42.

¹ -محمد الحيرش، النص وآليات الفهم في علوم القرآن (دراسة في ضوء التأويلات المعاصرة)، ص: 204.

² -المرجع نفسه، ص: 203، 204.

³ -ابن جزيّ الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، ضبطه وصحّحه وخرّج آياته: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995، ج1، ص: 8.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

للمشركين المُعاندين لِمَا اشتملتُ عليه من قصص الأنبياء السابقين والدعوة الشديدة إلى الاستقامة⁽¹⁾.

وأما أهم خصائص الآيات المكيّة التي اجتمعت في سورة هود "عليه السلام" فهي:

- الدعوة إلى التّوحيد وعبادة الله.

- اثبات الرسالة والبعث والجزاء، والتّفكّر في آيات الله "تعالى"، وقطع دابر خُصومة

المعاندين والمشركين بالبراهين العقلية.

- ذكُرُ القيامة وأحوالها والجنّة ونعيمها والنار وعذابها.

- ذكُرُ قصص الأنبياء والأمم الغابرة وما حلّ بهم من إهلاك للكافرين ونجاة للمؤمنين.

المطلب الثالث: تحديد موضوع السورة:

يتألّف القرآن الكريم من سور مختلفة، لكل منها اسم خاص، أخذ ممّا عاجته السورة وما ترمي إليه، وتظهر وحدة موضوع السورة لكل باحث له بعض عناية بتفسير القرآن وتدبر دلالاته، في قصار السور، وفي المفصّل منها، وفي بعض الطوال، وتُشكّل السورة القرآنية نسقاً فنياً كامل المعالم يدعو إلى التأمل والتدبر، ولا يكتمل المقصد العام، ولا الغرض المطلوب للسورة إلا بمراعات وحدتها الموضوعية ضمن النظم القرآني، وإطارها العام المميز لها⁽²⁾، لذلك نجد السور القرآنية متميزة بسمات مُحدّدة، ونجد كل سورة من سور القرآن تهدف إلى تحقيق غرض محدد وموضوع معين.

إنّ السورة القرآنية الكريمة إنما تُبنى وتصاغ بنحو إعجازي مدهش؛ «ذلك أننا حينما نُباشِر السورة القرآنية، إنما نباشِر معماراً هندسياً قائماً بذاته، تتجلّى فيه السورة وكأنّها كيان حي، يتحرك من مفتتحه إلى خاتمته حركة واحدة، يحكمها سياق خاص، تتنوع فيه الموضوعات التحتية في تفاعل

¹ - ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص: 162.

² - ينظر: الصادق سالم الخازمي، النظم القرآني وأثره في الأحكام، النشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان بطرابلس، ط 1،

1985، ص: 120، 121.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

مستمر بين الماضي والحاضر»⁽¹⁾، وإذا كانت بعض الموضوعات متفاوتة أو مختلفة عن أختها حينئذ لا بد من وجود رابط بين هذه الموضوعات المتباينة بالإضافة إلى ذلك، نجد أن هناك جملة عناصر كالقصة، وكالصور الفنية، وكالإيقاع وغير ذلك عن العناصر التي تتأزر بدورها كما تتأزر أجزاء الجسم الإنساني فيما بينها لتؤدي وظيفة خاصة، و«معظم السور بوثقة تنصهر فيها الخطبة والمثل والنشيد، والحوار والقصص والصلاة، عالم الحضور وعالم الغيب، في نسيج متواصل..»⁽²⁾، فإن هذه العناصر جميعاً تتأزر فيما بينها لتؤدي وظيفة خاصة هي الفكر أو الأفكار التي يستهدفها النص القرآني الكريم.

فالسورة بهذا المعنى «تُشكّل نَسَقاً فنياً كامل المعالم يدعو إلى التأمل والتدبر، ولا يكتمل المقصد العام، ولا الغرض المطلوب للسورة القرآنية إلا بمراعاة وحدتها الموضوعية ضمن النظم القرآني، وإطارها العام المميز لها»⁽³⁾، وبناء على ذلك يقول رفعت فوزي عبد المطلب: «فكثير من سور القرآن الكريم متعدد الموضوعات، وذلك يبدو من النظرة الجزئية لكل موضوع في السور هذه، ولكن النظرة الفاحصة المتأملّة للسورة ككل تضع فكر القارئ للقرآن الكريم أو التالي له عند موضوع واحد تدور حوله السورة، وتشكّل موضوعاتها الجزئية بجوهر هذا الموضوع، وتُسهم في جوانبه ومجالاته يؤدي كل منها إلى غاية واحدة وهدف واحد، وهي غاية هذا الموضوع الواحد وهدفه الذي تدور حوله السورة القرآنية»⁽⁴⁾.

¹ - حبيب مونس، التردد السرد في القرآن الكريم، مقارنة لترددات السرد في قصة موسى عليه السلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1، 2010، الواجهة الخلفية للكتاب.

² - أدونيس، النص القرآني وآفاق الكتابة، ص: 24.

³ - محمد المنتار، من محددات نظرية الترتيل في القرآن الكريم: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، مجلة الترتيل في القرآن المجيد: منهج وبناء، مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - المغرب، العدد 1، رجب 1434 هـ، يونيو 2013م، ص: 67، 68.

⁴ - رفعت فوزي عبد المطلب، الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، دار السلام، القاهرة، ط 1، 1986، ص: 7.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

وإنَّ خصائص السور المكية تُولي أهمية كبيرة لإثبات التوحيد وكمال صفاته، وتعنى بأصول العقيدة، وإثبات نبوة الأنبياء، وإقامة الحجج والبراهين المثبتة للبعث والنشْر، وسورة هود - عليه السلام - كغيرها من السور المكية ترسُم لنا سبيلاً مُضيئاً، وكلُّ آيةٍ من آياتها تُخطُّ لنا درباً مُنيراً، إذ تُعالج موضوعَ العقيدة من بعض زواياه.

والوقوف على موضوع السورة بدقة يتطلب النظر ملياً في آراء وأقوال المفسرين الذين اهتموا بإبراز مواضيع السور وأهدافها - فَبَعْدَ النَّظَرِ فِيهَا، ومُقارنتها ببعضها البعض، نجد أن المحور الأساسي الذي تدور عليه سورة هود - عليه السلام - هو تقرير أصول الدين وهي أحكام القرآن وتفصيله، والدعوة إلى عبادة الله وتوحيده والإنابة إليه، والإيمان بالبعث والجزاء في عالم الآخرة.

فجاءت سورة هود كما يقول الفراهي الهندي: «تخويف أهل مكة حيث قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (هود: 100)، والأمر بالصبر، والقطع من الكفار، ترشيحاً للهجرة والنصر، وفيها إثبات أن الشرك والكفر بالمعاد يجر إلى فساد الأخلاق بالكلية والهلاك، فيهلكون والمؤمنون يُنصرون»⁽¹⁾.

وكما يوضح سيد قطب أن السورة جاءت لتقرير العقائد الإلهية: «وواضح أن قطاعات السورة بجملتها تتعاون وتناسق في تقرير الحقائق الاعتقادية الأساسية التي يستهدفها سياق السورة كله، وأنَّ كُلَّ قطاعٍ منها يُقرِّرُ هذه الحقائق وَفوقَ طبيعته وطريقة تناوله لهذه الحقائق. وهي تختلف بين التقرير والقصص والتوجيه»⁽²⁾.

ومحمد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت 817هـ)، فيؤكد أن «المقصود الإجمالي من السورة: بيان حقيقة القرآن، وإطلاع الحق»⁽³⁾.

1 - عبد الحميد الفراهي الهندي، دلائل النظام، ص: 94.

2 - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ج 12، ص: 1844.

3 - الفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز في الكتاب العزيز، ج 1، ص: 247.

أمّا صاحب الميزان في تفسير القرآن، فيذكر أن السورة تعالج الأساس الذي بُنيَ عليه بنيان الدين وهو توحيده -تعالى- بنحو الإجمال في الآيات الأربع الأولى التي افتتحت بها السورة فهي «تُبين ذلك بنحو الإجمال في هذه الآيات الأربع التي افتتحت بها ثم تأخذ في بيانه التفصيلي بسمه الإنذار والتبشير بذكر ما لله من السنة الجارية في عباده، وإيراد أخبار الأمم الماضية، وقصص أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، وما ساقهم إليه الاستكبار عن إجابة الدعوة الإلهية والإفساد في الأرض والإسراف في الأمر، ووصف ما وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أوعده الله به الذين كفروا وكذبوا بالآيات، وتبين في خلال ذلك أموراً في المعارف الإلهية الراجعة إلى التوحيد والنبوة والميعاد»⁽¹⁾.

وبرهان الدين البقاعي، قد استعان في تحديد موضوع السورة بقوله بأن: «مقصودها وصف الكتاب بالإحكام والتفصيل بما يعجز الخلق لأنه من عند من هو شامل العلم كامل القدرة فهو بالغ الحكمة يعيد الخلق للجزاء، كما يداهم للعمل فوجب إفراده بالعبادة وأن يتمثل جميع أمره، ولا يترك شيئاً منه وجاء إقبال أحد ولا خوف إدباره، ولا يخشى غيره، ولا يركن إلى سواه، وعلى ذلك مضى جميع البينين ودرج سائر المرسلين صلى الله عليهم وسلم أجمعين»⁽²⁾.

وعلي الصابوني، يشير إلى أن سورة هود مكية: «تعنى بأصول العقيدة الإسلامية "التوحيد، الرسالة، البعث، والجزاء"»⁽³⁾.

أما محمد فاروق الزين، فيقول: «تركيز السورة على البينة، وهي الدليل العقلي على الإيمان، ويتلوه الوحي الذي نزل على الرُّسل، كما هي الحال في نزول القرآن الكريم شاهد منه

¹ -محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1997، ج10، ص: 129.

² -برهان الدين أبي الحسن البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج9، ص: 327.

³ -محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج2، ص: 5.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

تعالى على الحقيقة: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (هود: 17) «⁽¹⁾ .

ونستخلص مما سبق في تحيد موضوع هذه السورة الكريمة ما قاله عبد الله محمود شحاتة: «هو تقرير أصول الدين، وإقامة الأدلة عليها ورد الشُّبُه التي كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها، والحديث عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، وهي نفس الموضوعات التي تحدثت عنها السورة السابقة، سورة يونس»⁽²⁾ .

وبهذا نلاحظ أن كل الآراء اعتمدت على إبراز موضوع السورة على صيغ العموم في معالجة محاور العقيدة المتعددة كقضية التوحيد، وبيان حقيقة الوحي وإتباع الحق، والوعد والوعيد..الخ.

ونخلص من هذا كله إلى أن المحور الأساسي الذي تدور حوله هذه السورة الكريمة هو تقرير أصول الدين وهي إحكام القرآن وتفصيله، والدعوة إلى عبادة الله وتوحيده والإجابة إليه، والإيمان بالبعث والجزاء في عالم الآخرة.

وواضح كذلك أنها من نوع القرآن الذي أنزل في مكة قبل الهجرة النبوية واتجاهه في مواجهة مشركي قريش بشهادة القرآن للنبي -صلى الله عليه وسلم- ، بأنه إنما يوحى إليه من ربه وبشهادة الكتب السابقة، وبخاصة كتاب موسى "عليه السلام" وبتصديق بعض أهل الكتاب به، وهذا ما كان في مكة من أفراد من أهل الكتاب، واتخاذ هذا قاعدة للتنديد بموقف المشركين، وتهديد الأحزاب منهم بالنار، مع تثبيت الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، على الحق الذي هو معه، في وجه توقف الدعوة، وعناد الأكثرية الغالبة في مكة وما حولها من القبائل⁽³⁾ .

¹ -محمد فاروق الزين، بيان النظم في القرآن الكريم، الربع الثاني من سورة الأعراف حتى سورة الكهف، ص: 132.

² -عبد الله محمود شحاتة، أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، 1976، ص: 127.

³ -ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد4، ج12، ص: 1839.

المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية في السورة:

إن دراسة نظم القرآن ووحدته الموضوعية من أعظم الأسباب المعينة على دقيق الفهم وعمق التدبر، من خلال تلاحم الآيات والموضوعات، بما يحقق اليقين من خلال مشاهدة قوة البرهان والبيان وحسن النظم وتعانق الكلام. وينبغي علينا أولاً معرفة مفهوم الوحدة الموضوعية والوحدة العضوية ومعرفة الفرق بينهما.

المطلب الأول: الوحدة الموضوعية لغة واصطلاحاً:

1 - الوحدة لغة: تأتي بمعنى: «التَّوْحُدُ، وَتَوَحَّدَ بِرَأْيِهِ تَفَرَّدَ بِهِ، وَالْوَحْدَةُ الْإِنْفِرَادُ»⁽¹⁾.

كما أنَّ الوَحْدَةَ هي «مُقابِل للكثرة والتَّعَدُّدُ أيّاً كان نوع الكثرة، وأيّاً كان إطار التَّعَدُّد، فَكَوْنُ الشَّيْءِ واحداً يعني به: أنه ليس مُتَعَدِّداً، ولا قابل للكثرة أو التَّكْرَارِ، وفي (الوحدة) معنى الثناء، فإن قيل: فلان (واحد الدينا) أو (وحيد عصره). أريد به ذلك، فكأنه رغم انتمائه إلى البشر، وكونه واحداً منهم فإنَّ له من الخِصَالِ والمزايا الحسنة ما يجعله كأنه انفصل عن جنسه الذي يستمتع بتلك الخِصَالِ منه غيره فصار واحداً»⁽²⁾.

والموضوعية لغة: من وضع والوضع أعم من الحط⁽³⁾، «والموضوعُ: المادة التي يبني عليها المتكلم أو الكاتب كلامه»⁽⁴⁾.

أما الوحدة مضافة إلى الموضوعية اصطلاحاً: ويجعلها مُركَّباً وصَفِيّاً معناها: «اتحاد الموضوع الذي ذكر مُتَنَاقِراً، وأنه لا تباين فيه ولا اختلاف بل يؤلف وحدة موضوعية له كاملة، كما نقول

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (وحد)، ج3، ص: 449، 450.

² - طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن المجيد: المفهوم والمسار، مجلة الترتيل في القرآن المجيد: منهج وبناء، العدد1، 2013، ص: 38.

³ - ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت - لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص: 525.

⁴ - شعبان عبد العاطي عطية وآخرون، المعجم الوسيط، مادة: (وَضَعُ)، ص: 1040.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

بعبارة أخرى (وحدة الموضوع) ⁽¹⁾؛ أي: طلب المحور أو الأساس الوحيد الذي يجمع الموضوعات المتعددة في السورة، فهو وحدة الغرض في السورة الواحدة ذات الموضوعات العديدة، وهو المسمى بالوحدة الموضوعية في السورة.

ويؤكد الفكر العلمي الجديد، أن ثمة تلازماً موضوعياً بين طريقة ملاحظة الشيء وبين الشيء المُلاحظ ⁽²⁾، فهناك، إذاً تدخل رئيس بين الطريقة والشيء. ومن هنا فإنَّ طريقة الملاحظة الجديدة إلى القرآن، تلك القائمة على أساس المُؤالفة بين المتباعدات بلحاظ الوحدة، تتلازم تلازماً تاماً مع طبيعة القرآن نفسه، فالقرآن أصلاً يُؤالفُ بين المتباعدات بلحاظ الوحدة موضوعية كانت أم عضوية.

يقول أبو حيان التوحيدي (ت414هـ): «قد يوصف الشيء بأنه واحد بالمعنى وكثير بالأسماء، ويوصف بأنه واحد بالاسم وكثير بالمعنى» ⁽³⁾، ثم يضيف: «وقد نقول في شيء: إنه واحد بالموضوع وهو كثير بالحدود كالتفاحة الواحدة التي يوجد فيها اللون والطعم والرائحة، وقد يكون واحداً في الحد وكثير في الموضوع، كالبياض الذي يوجد في الثلج والقطن...» ⁽⁴⁾، لقد نظر أصحاب التفسير الترتيبي في كثرة الأسماء، وكثرة الحدود وعلى حين ينظر التفسير الموضوعي في وحدة المعنى وكثرة الموضوع، والذي شكل للفريقين نظريتهما المختلفتين، هو: النص نفسه، بلحاظ الظروف التاريخية المسهمة في بروز هذه الطريقة في الملاحظة أو تلك.

1 - محمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص: 33.

2 - ينظر: غاستون باشلار، الفكر العلمي الجديد، ترجمة: عادل العوا، مراجعة عبد الله الدائم، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط4، 1996، ص: 123.

3 - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح عريبه: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ج2، ص: 88.

4 - المرجع نفسه، ج2، ص: 89.

2 - بيان الموضوع القرآني: (بين الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية):

والتفريق بين الوحدة العضوية ووحدة الموضوع هو أنّ وحدة الموضوع غير الوحدة العضوية، فهما مفهومان مختلفان اختلافاً بيناً؛ فالوحدة العضوية مفهوم درامي يصلح للسورة ذات الحدث وفي حدّتها تصاعداً ونمو أي؛ تشمل السورة وحدة الشاعر التي يثيرها الموضوع، ووحدة التصوير الفني تتماسك أجزاء السورة ويكون لكل جزءٍ وظيفته فيها.

أما وحدة الموضوع فمفادها أن يتناول الفصل الدلالي موضوعاً واحداً لا تتجاوزه إلى غيره، وقد سماها "رشيد الحمداوي" الوحدة النسقية للسورة القرآنية عوضاً عن الوحدة الموضوعية مُعللاً أنّها لا تُفي بوصف حقيقة وواقع الخطاب القرآني كما أنّها تُوحى بمشابهة للنصوص الأدبية والفكرية التي يبتدعها البشر⁽¹⁾.

وإذا أردنا أن نعرف الفارق بين وحدة الغرض ووحدة الموضوع فإننا نجد: «أنّ الأولى قد تتحقق مع تعدد الموضوعات التي ترمي كلها إلى هدف وغاية واحدة مع تعددّها، أما وحدة الموضوع فتعني وحدة القضية الذهنية أو المادية التي تعرض لها السورة بحيث تكون أجزاءها كلها فرعاً لهذه القضية وجزءاً منها لا خادماً لها أو داعماً لغرضها فحسب»⁽²⁾.

المطلب الثاني: الفرق بين الوحدة الموضوعية والوحدة الفنية والعضوية:

وحتى لا تتداخل المفاهيم أتناول الفرق بين الوحدة الموضوعية والوحدتين الفنية والعضوية، نجد موضوع (الوحدة الفنية) بشكل بارز في حقل الدراسات النقدية والأدبية الحديثة، فمصطلح

¹ - ينظر: رشيد حمداوي، وحدة النسق في السورة القرآنية: فوائدها وطرق دراستها، مجلة مهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، جدة - المملكة العربية السعودية، العدد 3، جمادى الثانية 1428هـ، ص: 139، 140.

² - سامر عبد الرحمن شوافي، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم - دراسة نقدية، دار الملتقى، سوريا، ط 1، 2009، ص: 291.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

الوحدة الفنية متداول كثيراً في كتب الدراسات النقدية وفي تحليل النصوص الشعرية والنثرية فهي تعني «وحدة الأثر الجمالي الذي يتركه [النص] الشعر على القارئ»⁽¹⁾.

والوحدة العضوية هي «انسجام الأجزاء التي رُكِّب منها البناء العام للنص أو القصيدة... بحيث تكون جميعها وحدة متكاملة... وهذا المفهوم لا يتحقق إلا إذا توفر شرطان: وحدة الباعث أو الدافع، ووحدة الغاية والهدف»⁽²⁾.

ومن ذلك يرى "عناد غزوان" أن الدارسَ للوحدة الفنية في القصيدة يجب عليه: «البحث عن أجزائها ذات السمات الفنية والأسلوبية والصور الشعرية، التي تتوحد في كل عمل فني ذي وحدة ترابطية وانسيابية منطقية تحقق المتعة في نفس المتلقي وهو ينتقل من جزء فني إلى آخر ضمن إطار وحدة الكل»⁽³⁾، وهذا التكامل الذي يتحدثون عنه إنما هو في النص الأدبي فما بالناس بالقرآن الكريم وسوره المحكمة التَّنْزِيل؟.

وبما أنه ما من نص جائر يُحَقِّقُ الجمالية التي تفرَّد بها القرآن الكريم في سحر بيانه وأسلوبه الذي يحقق الوحدة الفنية بشكل يفوق كل فن وجمال^(*)، تلك الجمالية تتجلى في «تذوق آياته من خلال ما يتجلى فيها من انسجام وتناغم وتوازن ووحدة وسمات ومظاهر جمالية يشعر بها

¹ - محمد النويهي، الشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط.)، (د.ت.)، ج2، ص: 437.

² - المرجع نفسه، ج2، ص: 437.

³ - عناد غزوان، دراسات في الشعر الجاهلي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2006، ج2، ص: 43.

^(*) - إنَّ الإحساس بالجمال والميل إليه مسألة فطرية تعيش في أعماق النفس البشرية، فهذه الأخيرة تُألَّفُ كُلُّ ما هو جميل وتَتَقَبَّلُهُ، ويُعرَفُ الجمال على أنه: «ما يثير فينا إحساساً بالانتظام والتناغم والكمال، وقد يكون ذلك في مشهد من مشاهد الطبيعة أو في أثر فني من صنع الإنسان، وأنتا لنعجز على الإتيان بتحديد واضح لماهية الجمال، لأنه في واقعه إحساس داخلي يتولد فينا عند رؤيته أثر تتلاقى فيه عناصر متعددة ومتنوعة وختلفة باختلاف الأذواق، ومعرفة الجمال ليست خاضعة للعقل ومعايره بل هي اكتناه انفعالي..» عبد الكريم هلال خالد، أسس النقد الجمالي في تاريخ الفلسفة؛ دراسة لوجهات نظر بعض الفلاسفة في النقد الجمالي، منشورات قار يونس، بن غازي - ليبيا، ط1، 2003، ص: 24.

الوجدان قبل أن تدركها العقول ، بما يشير قدسيتها وتقديرنا العالي لكلمات الله التّامات التي تُؤسّر الإنسان بكلّ جوارحه لكمال معانيها وتمام لغتها ، وهذا الذي يحدث هو ما نسميه (بالتذوق الفني والجمالي) للقرآن الكريم»⁽¹⁾.

وإذا تحدثنا عن الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم فإنه يُراد منها : البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضع العام الذي نبخته لتحقيق الهدف ، وهو الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم⁽²⁾ ، فهي تُدرّس في إطار «أن يكون العمل الفني متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك ؛ بحيث أن كلّ جزئية تُفضي إلى التي تليها ، ولا يمكن حذف جزئية واحدة ؛ لأن العمل الفني يستغني عنها ، أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها ، وينبغي أن نقرّر ابداءً أنّ القرآن يجمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين : الفنية والدينية ، وأنّ الناحية الفنية وسيلة دائماً للناحية الدينية ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى»⁽³⁾.

إنّ السورة القرآنية الواحدة قد تكون موضوعاً واحداً ، أو مجموعة من الموضوعات التي تتضمن فكرة أو هدفاً ، وهذه الموضوعات والأهداف تشتمل على فروع أو أجزاء أو أقسام ، فالآية الواحدة جزء من الموضوع ، ومثلها بقية الآيات الأخرى ، وهذه الأجزاء والأقسام مرتبة على وفق نظام هندسي بحيث لو غيرنا جزءاً مكان جزء أو حذفنا أو قدمنا أو أخرجنا بعضاً منها مكان آخر سيحدث خلل في الموضوع أو الفكرة التي تطرحها السورة بجمعها ، وعن إنفراد النظم القرآني بهذه الخاصية يقول محمد عبد الله دراز : «فإن كُنْتَ قد أعجبتك من القرآن نظام تأليفه البياني في

¹ - هاني الحسني ، التذوق الفني والجمالي للوحدة في القرآن الكريم ، مجلة كلية التربية الأساسية ، كلية الفنون ، جامعة بغداد -العراق ، العدد 47 ، 2006 ، ص : 276.

² - ينظر : محمود حجازي ، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ، ص : 33.

³ - محمد حسن باجودة ، الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ، تهامة للطباعة والنشر والتوزيع ، جدة -المملكة العربية السعودية ، ط 2 ، 1983 ، ص : 35.

القطعة منه، حيث الموضوع واحد بطبيعته، فَهَلُمَّ إلى النظر في السورة منه، حيث الموضوعات شتى، والظروف متفاوتة؛ لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز⁽¹⁾.

لقد اجتهد علماء الأمة في الكشف عن الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية سواء من خلال النظرة الكلية الجامعة للسورة القرآنية، أو من خلال الاهتداء بعلامات مضيئة داخل السورة القرآنية وذلك «من قبيل النظر إلى فاتحة السورة، أو النظر إلى خاتمتها، أو النظر إلى قصصها، أو النظر إلى قضاياها، أو النظر إلى الألفاظ والتعابير المميزة لها، أو من خلال الاهتداء بالعلامات المضيئة الخارجية للسورة من قبيل النظر إلى الأحاديث الصحيحة الواردة عن السورة، أو النظر إلى بيئة نزول السورة "المرحلة الزمنية لنزول السورة، أو سبب نزولها"، أو النظر إلى محلّ السورة في السياق القرآني العام»⁽²⁾.

وهذا ما يشير إليه السيوطي (911هـ) من خلال النظرة الشاملة الكلية للسورة أو الوحدة الموضوعية قائلاً: «قال بعض المتأخرين: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن، هو أنك تنظر الغرض الذي سيقته له السور، وتنظر ما يحتاجه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر في مراتب إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السماع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيم على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية وفي كل سورة وسورة»⁽³⁾.

¹ -النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص: 144.

² -محمد المنتار، من محددات نظرية الترتيل في القرآن الكريم؛ الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، مجلة الترتيل في القرآن المجيد: منهج وبناء، العدد1، ص: 66.

³ -الإتقان في القرآن الكريم، ج3، ص: 327، 328.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

لنصل بذلك إلى «المقصود بالوحدة الموضوعية للسورة عند أهل الدراسات القرآنية أن كل سورة من سور القرآن لها وحدة معنوية وموضوع رئيس تدور حوله وتتميز به. وقد اختاروا لها أسماء متنوعة، مثل: الموضوع الواحد، أو الموضوع الكلي، أو الموضوع الأساسي، أو الموضوع الرئيسي، أو قضية السورة، أو الفكرة الواحدة، أو الهدف الواحد، أو الهدف الأساسي، أو الغرض الواحد، أو المحور الواحد، أو شخصية السورة، أو المقصد الواحد، أو عمود الصورة، أو محور السورة..»⁽¹⁾.

فالقرآن الكريم كتاب «منفصل عن سائر الكتب المنزلة وغير المنزلة متفوق عليها - جميعاً - بخصائصه ومزاياه، ونظمه وبلاغته وفصاحته، وهو في الوقت ذاته واحد في داخله بهذه المزايا والخصائص ينتظم حروفه وكلماته وآياته وسوره سلك واحد، والقرآن واحد في كونه متفرداً من تلك الحيشية، ومن حيث الأهداف والمقاصد والغايات والآثار حتى يبدو في ذلك - كله - كما لو كان كلمة واحدة، أو جملة واحدة»⁽²⁾.

ولكي نصل إلى هذه الوحدة في سورة هود - عليه السلام - لا بد من معرفة الموضوعات المتنوعة التي صنعتها السورة، ولا بد من معرفة أهم القضايا والمقاصد التي قصدتها السورة لتحقيق الوحدة الموضوعية.

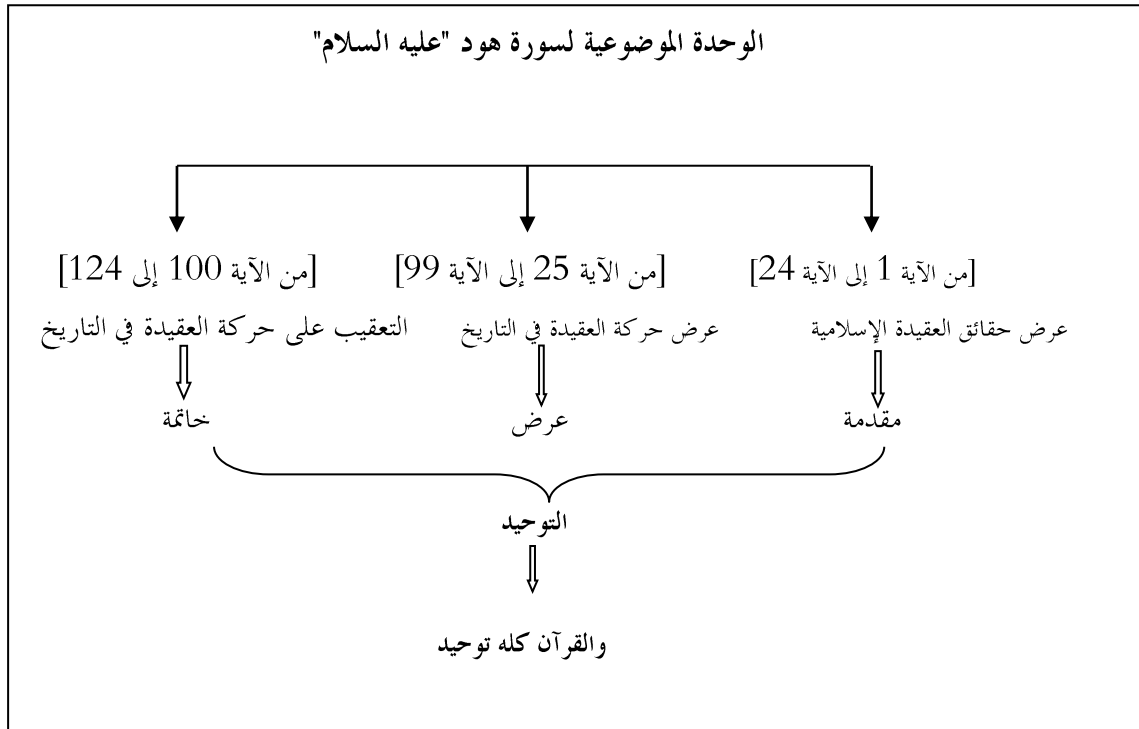
¹ - محمد المنتار، من محددات نظرية الترتيل في القرآن الكريم: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ص: 66.

² - طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن المجيد، ص: 9.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

المطلب الثالث: موضوعات السورة الكريمة:

سورة هود كغيرها من السور جاءت مقسمة إلى العديد من الوحدات، تُعطي للبناء الهندسي للقرآن الكريم خصوصية، ويعتبر ذلك من دلائل الانسجام فيها، لأن تقسيم الخطاب إلى أجزاء، ووحدات يدل على ترتيب، ونوع من النظم وربط خفي، بُني عليه هذا الخطاب، فهناك بناء محكم وتخطيط وتصميم في النص، ولقد تنبه المفسرون قديماً وحديثاً إلى الحكمة من تفسير القرآن آيات وسور، فربطوا ذلك ببنية النص أو الخطاب وكذلك بنية السورة، كما ربطوه أيضاً بدور القاريء. ونلمح في تركيب سورة هود أنها تتكوّن من قطاعات مُتميّزة⁽¹⁾:



- القطاع الأول:** يتضمن حقائق العقيدة في مقدمة السورة ويشغل حيزاً محدوداً.
- القطاع الثاني:** يتضمن حركة هذه الحقيقة في التاريخ ويشغل معظم سياق السورة.
- القطاع الثالث:** يتضمن التعقيب على هذه الحركة في حيز كذلك محدود.

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ج 12، ص: 1844.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

وواضح أن قطاعات السورة بجملتها تتعاون وتتناسق في تقرير الحقائق الإعتقادية الأساسية التي يستهدفها سياق السورة كله، وأنّ كلّ قطاع منها يُقرّر الحقائق وفق طبيعته وطريقة تناوله لهذه الحقائق وهي تختلف بين التقرير والقصص والتوجيه⁽¹⁾.

ولعل من ملامح الوحدة الموضوعية التي ترسمها سورة هود - عليه السلام - الحال الواحدة للرّسل الكرام مع ربّهم، وينقل لنا سيد قطب وحدة التعبير القرآني قائلاً: «والذي يُرجّح هذا عندي هو وحدة التعبير القرآني في السورة -تصوير ما بين الرسل الكرام وربّهم، من بينة يجدونها في أنفسهم معاً أنّ الله هو الذي يُوحى إليهم، ويجدون بها ربّهم في قلوبهم وجُوداً مُستقيماً واضحاً، لا يخلجهم معه شكٌ ولا ريبَةٌ»⁽²⁾.

هذا البناء الموضوعي لسورة هود "عليه السلام" «يهدف إلى إيضاح رسالة محمد - عليه الصلاة والسلام - وهي عبادة الله وتوحيده، وإنذار من لا يؤمنون بالعذاب الأليم ويتخذ من قصص الأنبياء والأمم السابقة مثلاً على صدق هذه الدعوة، وهذا النذير، فجاءت الأمثلة محاذية تماماً من جهة الموضوع للهدف الأصلي من السورة، فأضافت إضافة جديدة إلى السورة، وهي أنّ المحاذاة التامة من القصة المتمثل بها لقصة النبيّ مع قومه تدل على ما سيؤول إليه أمره وأمر من يكذبونه ويكفرون بما أرسل به، وهو نفسه مصير الأمم التي كذبت آنفاً»⁽³⁾، يقول حبيب مونسي موضحاً هذا الجانب: «المواقف تتراسل فيما بينها على نحو عجيب، يحكمها سبب النزول بما يُتيح لها من أسباب التماثل والمثابرة. ومنها نرى كيف كانت كثير من مواقف [الأنبياء - عليهم السلام -] هي ذاتها المواقف التي كان يقفها النبي -صلى الله عليه وسلم - . ولذلك قال المفسرون في القصص القرآني أنّه كان تسليّة لقلب الرسول -صلى الله عليه وسلم - وتثبيتاً وتبشيراً. بل وإمداداً بالحلول للمستجد الطاريء من الأحداث»⁽⁴⁾.

¹ - ينظر: الألويسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 11، ص: 203.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ج 12، ص: 1864.

³ - ينظر: كاظم الظواهري، بدائع الإضممار القصصي في القرآن الكريم، للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1991، ص: 254.

⁴ - حبيب مونسي، التردد السرد في القرآن الكريم، مقارنة لترددات السرد في قصة موسى عليه السلام، ص: 7.

فيكون أثر هذه القصة لطمأنة وتسليّة روح النبي، الذي يُجابه قوى البغي والشرك فيثبت ويصبر كما ثبت وصبر أولو العزم من الرسل، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، (هود: 120)، «ومن أجل أن تتحقق هذه الغاية الموضوعية وجدنا السياق يضع بعض العلامات الدالة على هذه المحاذاة قاصداً بها تئيبه السامعين إلى أن هذا نظير ذلك في مقدماته، فهو نظيره أيضاً في نتائجه، أي أن الذي يسمع محمداً وهو يقول في السياق القرآني ما جاء في أول السورة: ﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ، أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنْ نَحْنُ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ، وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾، (هود: 1، 3)، ثم يسمع نوحاً وهو يُردّد هذه المقالة فيما بعد، لا في موضوعها وألفاظها فحسب وإنما في طريقة الأداء والعرض - إذ حُذِفَ لفظ القول من الآيتين -، يدرك أن مصير من يكذبونه هو ما صار إليه من كذبوا نوحاً من قبل»⁽¹⁾.

أضف إلى ذلك أن قصص الأنبياء سواء ذُكرت في السورة الواحدة مُجمعة أو ذُكرت كقصة مُفردة في عدة سُورٍ «ليست شيئاً مُنفصلاً في وحدات مستقلة وإنما هي جميعاً أجزاء من عرضٍ واحدٍ متواصلٍ، ذلك العرض الذي بدأ بقصة نوح، وما حذف منها من لفظ القول قصداً إلى الحضور الموحى بأن المشاهد الآتية تعرض على السامعين كأنها وقائع حية حاضرة يسمعونها ويرونها، وأن دور الراوي فيها لا يزيد من التقديم بالعبارة المقتضبة الموجزة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، (هود: 25)، في الأول، ثم تزداد اقتضاباً في القصص التالية "وإلى -أخاهم - قال". فهذا الأسلوب يُتمّم التصوّر المطروح للسورة بأنها كالعرض الحيّ لمشاهد من قصص الأنبياء، لتحقيق الهدف الموضوعي من السورة»⁽²⁾.

كما أن الأنبياء -عليهم السلام - كان قد واجهوا نفس المصائر مع أقوامهم، فكان خطابهم لأقوامهم متقارب، فنوح -عليه السلام - يقول لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتُ عَلَيْكُمْ أَنْزَلِمُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾، (هود: 28).

¹ -كاظم الظواهري، بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، ص: 254، 255.

² -المرجع نفسه، ص: 255.

وصالح - عليه السلام - قال الكلمة ذاتها: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنِ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (هود: 63).
 وشعيب - عليه السلام - يقولها كذلك: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا..﴾ (هود: 28).

ويشرح سيد قطب تلك الحال الواحدة للرسل - عليهم السلام - بقوله: «فهو تعبير مَوْحَدٌ عن حال واحدة للرسل الكرام مع ربهم، تُصَوِّرُ حقيقة ما يجدونه في أنفسهم من رؤية قلبية مستيقنة لحقيقة الألوهية في نفوسهم؛ ولصدق اتصال ربهم بهم عن طريق الوحي أيضا.. وهذا التوحيد في التعبير عن الحال الواحدة مقصود قصدا في سياق السورة - لإثبات أن شأن النبي - صلى الله عليه وسلم - مع ربه ومع الوحي الذي تنزل عليه شأن سائر الرسل الكرام قبله؛ مما يُبطل دعاوى المشركين المفترة عليه "صلى الله عليه وسلم"، وكذلك لتثيته هو والقلّة المؤمنة معه على الحق الذي معهم؛ فهو الحق الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً، والذي أسلم عليه المسلمون من أتباع الرسل جميعاً»⁽¹⁾.

إن هذه الحال الواحدة للرسل الكرام مع ربهم يظهر أمامنا في السورة كأنها بناء متكامل تتعاقب فيها أجزاءه وتترابط أركانه، مما يؤكد أن «السورة ليست مجموعة من العاني المنفصل بعضها عن بعض، إنما هي بناء متكامل تنتظمه وحدة عضوية من نوع فريد»⁽²⁾.

ولقد أدرك سيد قطب رحمه الله تلك العلاقة الموضوعية التي تنتظم السورة ولا سيما فيما بين موضوعاتها وقصصها، وأشار إلى المقاربة المقصودة في الألفاظ والمعاني بين ما جاء على لسان النبي - صلى الله عليه وسلم - في فاتحتها وما جاء على لسان نوح، يدعو به قومه وينذرهم في مطلع قصته: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (هود: 25، 26)، ويوضح سيد قطب في أن لفظ القول جاء هنا محذوف

¹ - في ظلال القرآن، المجلد 4، ج 12، ص: 1864.

² - كاظم الظواهري، بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، ص: 253.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

ولم يقل "قال: إني لكم.. " وما حذف منها من مقصود من التعبير القرآني لإحياء المشهد حتى يصير كأنه واقعة حاضرة لا حكاية ماضية وكأنه يقول لهم الآن ونحن نشهد ونسمع⁽¹⁾.

وإذا ما أردنا الوقوف على فاعلية القطاعات الثلاثة المهيمنة في بنائية سورة هود وبيان ترابط أجزائها، لا بد لنا من العودة إلى محاورها الرئيسية، والظفر بمفاعليتها، بوصفها عنصراً بُرُويًا مُهيمنًا عليها، ومن ثمّ هو المحور المركزي الموجه لسيرورة عناصرها في ثلاثة أجزاء وهي:

1 - الجزء الأول يمثل انطلاقة السورة التي امتدّت في الآيات (1 - 24)، وقد بني هذا الجزء من السورة على خطاب الله تعالى للنبي -صلى الله عليه وسلم -، وتقرير صفات الكافرين والمنافقين ومقابلتها بصفات المؤمنين؛ لبيان الفارق بين الطرفين في موازنة خُتمت بمثل جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود: 24). وبهذا تكون السورة قد مهّدت لمجيء الجزء الثاني في بنيتها.

2 - الجزء الثاني من بنية السورة يمثله النسق القصصي الذي امتدّ فيها وغداً بُرُوتها المركزية؛ إذا امتدّ في الآيات (25 - 99)، وحمل في طياته «قصص الأنبياء السابقين وتأريخهم؛ لإيقاظ أفكار المنحرفين، والالتفات إلى الحقائق، وبيان العواقب الوخيمة للمفسدين الفجار، وأخيراً بيان طريق النصر والموفقية»⁽²⁾، إنّ الله -سبحانه وتعالى - : «لَمَّا يُبَيِّنْ مِنْ فَاتِحَةِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ أَنَّهَا كِتَابٌ مُحْكَمٌ الْآيَاتِ مُفَصَّلٌ نَازِلٌ فِي شَأْنِ التَّوْحِيدِ وَتَرْكِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ مِنْ جِهَتِهِ تَعَالَى وَقَرَّرَ فِي تَضَاعِيفِ ذَلِكَ مَالَهُ مَدخُلٌ فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْمَرَامِ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ وَإِلْزَامِ الْمُعَانِدِينَ بِمَا يَقَارِنُهُ مِنَ الشُّوَاهِدِ الْحَقَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى»⁽³⁾.

¹ - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ج 12، ص: 1871.

² - ناصر بن مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط 1، 2002، ج 6، ص: 349.

³ - أبو السعود محمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، (د.ط.)، (د.ت.)، ج 4، ص: 199.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

لذلك شرع - سبحانه وتعالى - «في تحقيق ما ذكر تقريره بذكر قصص الأنبياء صلوات

الله عليهم أجمعين المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحة السورة الكريمة ليتأكد ذلك بطريقتين:

أحدهما: إنّ ما أمر من التوحيد وفروعه مما أطبق عليه الأنبياء قاطبة، والثاني: إنّ ذلك إنما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بطريق الوحي؛ فلا يبقى في حقيقته كلام أصلاً؛ ليسلى بما شاهده من معاناة الرُّسل قبله من أمهم، ومقاساتهم الشدائد من جهتهم»⁽¹⁾.

ولهذا يرى سيد قطب أنّ النسق القصصي جاء على أتم وجه في بنية السورة؛ لأنه يُعتبر قواماً مؤسساً للسورة سيق فيها لتحقيق المقاصد من حيث جوها وموضوعها، وقد تجلّى ذلك في تأكيد الآيات الأولى التي تنسحب على كامل السورة وهي عقيدة التوحيد التي جاء النسق القصصي مصداقاً لها⁽²⁾.

3 - أما الجزء الثالث فيمتد من الآيات (100، 123)، وهو تعقيب على ما حلّ بالأمم السابقة، وبيان فضل الله - تعالى - على رسله وعباده المؤمنين في نصرتهم وإهلاك الأقسام الضالين المشركين.

يتضح من خلال الأقسام الثلاثة المذكورة التي تُشكّل قطاعات سورة هود - عليه السلام -، أن العنصر القصصي السائد في بناء السورة هو ركيزتها الذي يستند عليه موضوعها العام؛ إذ احتل مساحة واسعة من حجم السورة، وقد سبق ما قبله تمهيداً لمجيئه؛ ليكون مصداقاً له؛ من هنا جاء النسق القصصي مُمتدّاً في بنية السورة حتى غداً عنصراً سائداً في أغلب مساحاتها مُتحكماً في بنائها الهرمي وفي ترابط أجزائها، وهذا هو مفهوم الهيمنة بعينه⁽³⁾.

¹ - أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج4، ص: 199.

² - ينظر: في ظلال القرآن، المجلد4، ج12، ص: 1843، 1844.

³ - ينظر: نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب: دراسة معجمية، جداراً للكتاب العالمي، عمان - الأردن، ط1، 2009، ص: 139.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

ثم جاء بعد ذلك العرض القصصي تعقياً على ماورد فيه من دلائل وعظات أشار إليها تعالى بقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِبُ﴾ (هود: 100، 101). وهكذا أصبح النسق القصصي بؤرة النص المركزية التي تجاذبت أجزاءه الآخر، وتحكمت في مسارها في سياقات السورة.

ومن ملامح الوحدة التي قدمتها سورة -هود عليه السلام - ؛ الوسائل الموحدة للأنبياء في الدعوة شأنها شأن كثير من سور القرآن، ولعل أكثر السور قرباً من "سورة هود" هي "سورة الأعراف" التي يبدو بينها، وبين سورة هود تشابه كبير وتقارب عجيب في طريقة عرض القصص، وكتلتها تقوم على بيان «أنَّ وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة، وأنَّ استقبال قومهم لهم متشابه - فضلاً عن أنَّ الدين من عند إله واحد - وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة أيضاً، مكرورة فيها طريقة الدعوة، على ما جاء في سورة هود»⁽¹⁾.

فيقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: 59). ونجد مثله في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (هود: 25، 26).

وقوله في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: 65).

ومثال ذلك في سورة هود: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (هود: 50).

¹ - سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص: 149، 150.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

ويقول في الأعراف: ﴿وإلى ثمود آخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم..﴾ (الأعراف: 73).

وفي سورة هود كذلك قوله: ﴿وإلى ثمود آخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾ (هود: 61).

ويقول في الأعراف: ﴿وإلى مدين آخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم..﴾ (الأعراف: 85).

كقوله في سورة هود: ﴿وإلى مدين آخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره وكأنا نُنقصوا الحكيال والميزان﴾ (هود: 84).

وتبعاً لهذا التشابه الكبير في طرح القصص إنما هو شاهد من شواهد كثيرة للوحدة الموضوعية التي انفرد بها التعبير القرآني.

لقد افتتحت السورة بتوحيد الله، والدعوة إلى عبادته وحده بلا شريك ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (هود: 2). ثم تتابعت في عرض حقائق قصص الأنبياء بالترتيب، «وعرض مواقف الرسل، عليهم السلام، وهم يتقلون الإعراض والتكذيب، والسخرية والإستهزاء، والتهديد والإيذاء، بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق، وفي نصر الله الذي لا شك آت؛ ثم تصديق العواقب في الدنيا - وفي الآخرة كذلك - لظن الرسل الكرام بوليهم القادر العظيم، بالتدمير على المكذبين، وبالنجاة للمؤمنين»⁽¹⁾.

وهكذا انتهت السورة بمثل ما بدأت به من عبادة وحده، والتوجه إليه وحده، والإنابة والرجوع إليه سبحانه في نهاية الأمر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (هود: 123). وقبلها نجد أنها

¹ - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ج 12، ص: 1841.

ذَكَرْتُ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٢٠﴾ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ (هود: 120 - 122). وذلك مما يُثبت الله به فؤاد رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، والاستمرار في دعوة الحق ، لأن سنة الله في النُّبُوتِ الابتلاء والعناد والتأمر عليهم لكن الغلبة في النهاية لهم وفي كل سَيْرِهِمُ الْعِظَةُ وَالْعِبْرَةُ لِلرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وتهديد ووعيد للمكذِبين بأن ينتظروا ليروا لمن تكون العاقبة «وهكذا يتجلى لنا الجانب الحركي في التوجيه القرآني؟ وهكذا نرى القرآن يواجه واقع الدعوة والحركة في كل مرحلة بالتوجيه المكافيء ؛ وهكذا نجد القصص في القرآن يواجه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة ، شأنه شأن بقية السورة التي يجيء فيها ؛ ونجده في الوقت ذاته متناسقا مع سياق السورة وجوها وموضوعها ، متوافقاً مع أهدافها ، مصدقا في عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وإيحاءات تقريرية»⁽¹⁾.

المطلب الرابع: قضايا السورة ومقاصدها:

تُبْرِزُ سُورَةُ هُودٍ خِصَائِصَ وَمَقَاصِدَ الْقُرْآنِيِّ الْمَكِّيِّ ، فنجد أنَّ السورة الكريمة تتناول موضوعات العقيدة بشكل مباشر وغير مباشر ، وتعتني بحركة العقيدة في الأرض ، وقصتها في مواجهة الكُفْرِ ، وكبرياء حاملي لوائه على مدار التاريخ ، تُثَبِّتُ مَصْدَرَ الْقُرْآنِ ، وتؤكد على التوحيد بأنواعه ، تُمَثِّلُ حَالَ وَمَقَالَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ، وتُوصِي النَّبِيَّ الْكَرِيمَ بِاللْتِجَاءِ إِلَى رُكْنِهِ الشَّدِيدِ ، تُصَوِّرُ أَحْوَالَ الْخَلْقِ وَمَشَاهِدَ تِلْكَ الْأَحْوَالِ لَزِيَادَةِ الْيَقِينِ ، نجد موضوعات السورة العديدة تسير في هذا الإطار العام « ولا شك في أنَّ كلَّ واحد من هذه المحاور يقتضي: عَرْضاً وتدللياً ، ومناقشةً وتفصيلاً ، بحيث تنشعب من كلِّ مِحْوَرٍ مَحَاوِرٌ جَزْئِيَّةٌ خَادِمَةٌ ،

¹ - سيد قطب ، في ظلال القرآن ، المجلد 4 ، ج 12 ، ص : 1843 .

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

تُقرّر ذلك الأصل وتُفصّله، وتُشرح أبعاده، بحيث تمتزج كلها وتتداخل في النظم القرآني، على نحو دقيق مركز⁽¹⁾.

ومن خصائص القرآن الكريم أنه لا يُفردُ كلّ سورةٍ من سورهِ لموضوع معين في الغالب، وإنما يُجمَعُ في السورة الواحدة مواضيع متنوعة وأغراضاً مختلفة من عقائد وأحكام ومواعظ وقصص وأمثال وجدل وحكم وينتقل بينها من غير فصل، والسورة القرآنية وحدةٌ متلاحمةٌ قد تعدّد موضوعاتها وتتنوّع مقاصدها ولكنها تُشدُّ في النهاية لمحور واحد هو غايتها، وقد أشار إلى ذلك سيد قطب بقوله: «إنّ لكل سورة من سور القرآن ذات شخصيةٌ متفردة، وذات ملامح، وذات منهج خاص وذات أسلوب معين»⁽²⁾.

إنّ تجلّي بناء السورة القرآنية وإبراز اتساق^(*) عناصرها وانسجام^(**) أجزائها، ينطلق من الكشف عن مقصد السورة أو المحور الفكري الذي تدور حوله سائر فروع معانيها ولا مرية في أنه

¹ - نور الدين علي جمعة مفتي الديار المصرية، التّبراس في تفسير القرآن الكريم، قدم له وخرّج أحاديثه: أسامة السيد محمود الأزهري، الوابل النّصيب للإنتاج والتوزيع والنشر، القاهرة - مصر، ط1، 2009، ص: 20.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد1، ج1، ص: 27، 28.

^(*) - يعرف محمد خطابي الاتساق (coherence) بقوله: «الاتساق ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنصّ ما، ويهتم فيها بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب أو خطاب برمتها»، محمد خطابي، لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 1991، ص: 5. ويُعرف عبد الرحمن بودرع التماسك أو الاتساق بكونه «مفهوم يُعنى بخصائص الربط النحوي بين الجمل والعبارات لتأليف بنية نصية متماسكة، مترابطة، ويعتمد الربط النحوي على الإحالة والتكرار والربط بحروف العطف والفصل والوصل وغير ذلك». عبد الرحمن بودرع، نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، ضمن كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر كل شهر عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر، عدد 154، فبراير 2013، ص: 153.

^(**) - يعد مصطلح الانسجام (cohesion) أحد المصطلحات المحورية، التي تندرج في مجال لسانيات النص، الذي يبحث في تماسك النصوص وتعالقها، ويدخل فيه الترابط الموضوعي للنص، الذي يجعل من النص وحدة دلالية، ومن مظاهره أيضاً اشتمال النص على سيرورة واستمرارية وتطور واتجاه نحو غاية محددة، تضمن له التدرج والانتقال غير المسوّغ. ينظر: عبد الرحمن بودرع، نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، ص: 153، 154.

ويعرّفه السيوطي بقوله: «أن يكون الكلام لخلّوه من الانعقاد منحدرًا كتحدّر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه، وعذوبة ألفاظه أن يسهل رقة، والقرآن الكريم كله كذلك...، وقد جاءت قراءته موزونة بلا قصد لقوة انسجام»، جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج3، ص: 259.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

أمر دقيق يحتاج إلى إمعان النظر في أجزاء السورة، وإجالة الفكر في تدبر معانيها المتشعبة مع القدرة الفائقة على النظر الشمولي إلى هيكلها العام والتميز بين الأغراض الرئيسية والمعاني الواردة على سبيل الاستطراد والتميم⁽¹⁾، إنه الإعجاز الذي «لا يُدرك كُنْهَهُ، يَشيعُ في ثناياه اتساقاً وانسجاماً، وعظمةً، وفخامةً، وصياغةً عجيبةً مُحيرةً، مع تجريدٍ عن المشخصات، وتعالٍ عن الزمان والمكان، وتجدُّدٍ يستوعب به كلُّ مُستحدثٍ، إضافةً إلى التحدي الصريح المفحم، الذي يدل على ثبوت تلك الحقائق»⁽²⁾.

يقول مصطفى مسلم: «أن السورة قد يكون لها هدف واحد أو أكثر تدور السورة حوله لإبرازه وتقريره في الأذهان، وقلنا إن بعض السور المتوسطة أو الطويلة قد تتضمن عدة أهداف وتشكل محاور متداخلة لكنها متعاضة متساندة لا متعارضة متناقضة»⁽³⁾، وهو ما أكده من قبل محمد عبد الله دراز في كتابه "النبا العظيم" من أن لكل سورة في القرآن محوراً عاماً وغرضاً رئيسياً أو أكثر يستخلص من سياقها العام وتكون مقاطعها ذات الأغراض الخاصة في السورة خادمة لهذا المحور العام والغرض الرئيس فتتناسق أوضاعها، وتتألف عناصرها⁽⁴⁾.

ففي سورة هود - عليه السلام - مقصد رئيسي كما ظهر لنا من خلال تناول الموضوعات السابقة وهو «التوحيد والرسالة والبعث عن طريق الحجج العقلية مع الموازنة بين النفوس النافرة منه وقد عرضت لذلك في أربع وعشرين آية يختم بها الربع الأول منها، ثم أخذت سورة هود تتحدث عن جملة من الرسل السابقين بياناً لوحدة الدعوة الإلهية، وتسلياً للرسول - عليه الصلاة والسلام - وإنذار المكذبين»⁽⁵⁾.

1 - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج1، ص: 190.
2 - نور الدين علي جمعة، النبراس في تفسير القرآن الكريم، ص: 20.
3 - مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص: 175.
4 - ينظر: محمد عبد الله دراز، النبا العظيم، ص: 143.
5 - عبد الله محمود شحاتة، أهداف كل صورة ومقاصدها في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط.)، 1976،

اتسمت السورة الكريمة، على مقاصد عامة يندمج تحتها معان جزئية تدخل في صميم نسيج هذه المعاني والمقاصد العامة، وتتكون منها لبناتها، ويتوثق بها ارتباطها، أما المعاني والمقاصد العامة فهي تدور حول القضايا التي يقوم عليها ركائز هذا الدين كقضية العقيدة وقضية الرسالة والرسول، وقضية الحشر وقصص الأنبياء - عليهم السلام - الذين أوردت السورة شيئاً كثيراً منه، وذلك تثبيتاً للرسول - صلى الله عليه وسلم - وإبعاداً للحزن عن قلبه بسبب ما كان يتعرض له من قومه ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ (هود: 12)، وشداً لعزائم المؤمنين، وإنذاراً للمشركين، وتأكيداً لسنة الله في خلقه. فالسورة إنما جاءت من أجل «تخويف أهكل مكة حيث قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (هود: 100)، والأمر بالصبر، والقطع من الكفار، ترشيحاً للهجرة والنصر، وفيها إثبات أن الشرك والكفر بالميعاد يجر إلى فساد الأخلاق بالكلية والهلاك، فيهلكون، والمؤمنون ينصرون»⁽¹⁾.

قال سيد قطب: «أما سورة هود فالقصص فيها هو جسم السورة، وهو وإن جاء شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها؛ إلا أنه يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البشري هو الهدف الواضح البارز»⁽²⁾، وعليه فتذكر السورة قصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح، وقصة لوط، وقصة شعيب، وتشير إشارة وجيزة مقتضبة إلى إبراهيم وموسى - كما اقتضى السياق - ثم جاء التعقيب المباشر بذكر الغاية من سرد هذه القصص والأخبار ألا وهو العظة والاعتبار الزجر للطغاة المتكبرين، وكذلك تثبت قلب النبي - صلى الله

¹ - عبد الحميد الفراهي الهندي، دلائل النظام، ص: 94.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص: 1844.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

عليه وسلم - ثم تختتم السورة بالإشادة بالقرآن الكريم - كما بدأت به - ليتناسق البدء مع الختام في أعظم بيان وأبدع إحكام⁽¹⁾.

فكان الفكر الأساسي في هذه السورة العظيمة هو الدعوة الإلهية ووحدها، وقد جاءت هذه السورة واحدة في البناء، فقد ذكر الله - سبحانه وتعالى - في أول السورة إلى أربع وعشرين آية مبيناً عناصر الدعوة الإلهية وهي التوحيد والرسالة والبعث عن طريق الحجج العقلية مع الموازنة بين النفوس المستعدة للإيمان والنفوس النافرة منه.

ثم أخذت سورة هود تتحدث عن جملة الرسل السابقين بياناً لوحدة الدعوة الإلهية وتسلياً للرسول - عليه الصلاة والسلام - وإنذاراً للمكذبين، فتأتي تلك القصص عن هؤلاء الكرام من نبي الله هود "عليه السلام" ثم قصة نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى لتأكيد وحدة الدعوة الإلهية.

وهكذا تتحقق وتتوضح الوحدة البنائية في هذه السورة، وكان هذا من وجوه إعجاز كلامه - سبحانه وتعالى - حيث لا يأتي بها غيره - تبارك وتعالى - عما يُشركون.

¹ - ينظر: محمد علي الصابوني، قبس من نور القرآن من سورة هود ويوسف والرعد: دراسة تحليلية موسعة بأهداف ومقاصد السور الكريمة: دراسات قرآنية، دار القلم، دمشق - سوريا، ط1، 1988، ج5، ص: 7، 8، 9.

المبحث الثالث: موقع السورة بين السور وتناسبها لِمَا قبلها وما بعدها.

يمثل مبحث التناسب في علوم القرآن أدق مبحث انصرفت فيه العناية إلى بحث الأواصر والترابطات التي تؤلف بين وحدات النص ومكوناته المختلفة، ولهذا الموضوع تعلق بإعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي وجوه إعجازه، فكما أنّ القرآن معجز بحسن ألفاظه، وبلاغة تركيبه، وسحر أسلوبه، وشرف معانيه، فهو معجز كذلك بدقة نظمه وبدائع ترتيبه، وكمال تناسق كلماته وآياته وسوره، ولهذا قال الأصفهاني: «فإن القرآن معجز والركن الأيمن في الإعجاز يتعلق بالنظم والترتيب»⁽¹⁾.

المطلب الأول: ترتيب السور:

الترتيب في اللغة: من «رَتَبَ الشَّيْءُ يُرْتَبُ رُتُوباً: ثَبَتَ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ، يُقَالُ: رَتَّبَهُ تَرْتِيباً أَثْبَتَهُ»⁽²⁾، ويفهم من هذا أن الترتيب المراد به وضع الشيء في موضعه على نسق واستقامة بصورة ثابتة.

فالمراد بترتيب سور القرآن الكريم: كيفية وضع كل سورة من سور القرآن الكريم في موضعها الذي هي عليه اليوم في المصحف من حيث الترتيب بصورة ثابتة. وإنّ ترتيب القرآن توقيفي مأخوذ من الوحي الإلهي في آيات كل سورة، وفي ترتيب السور بعضها مع بعض، هذا الترتيب مبني على حكم وهي أوجه تناسب الآيات والسور بعضها مع بعض.

من المعروف أن القرآن الكريم لم ينزل مرة واحدة أو دفعة واحدة بجميع آياته على الرسول الكريم، وإنما استغرق نزوله ثلاثة وعشرون سنة وهذا يعني بأن الناس لم ينتظروا اكتمال نزوله بالكامل ليؤمنوا به، بل آمنوا ببعض ما سمعوه من آيات الذكر الحكيم، واكتفوا بها، وهذا يعني أنّ كل آية قرآنية تدل على جميع الآيات، وهي واحدة في جوهرها وشكلها البلاغي، وهذا هو الكمال في وحدة القرآن الكريم، والكمال من الإعجاز، والقرآن الكريم لا يفصح عن الإعجاز في

¹ -برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج1، ص: 43.

² -ابن منظور، لسان العرب، مادة (رتب)، ج1، ص: 409، 410.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

اجتماع آياته أو اجتماع أجزاءه فحسب وإنما في الأجزاء نفسها وفي الآية الواحدة، ويكتمل سر إعجازه في تركيبه وتلاحم آياته وسوره، «فإن كنت أعجبك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه، حيث الموضوع الواحد بطبيعته، فهلم إلى النظر في السورة منه حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة، لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز»⁽¹⁾.

وحقيقة القرآن تؤكد أنه حسن الترتيب، فما إن تحاول تقديم جزء عن آخر حتى يختل المعنى، وترتيب الآيات لا يأتي بطريقة عشوائية إذ يلاحظ المتأمل في النص القرآني مراعاة المعنى الكلي الذي يعمل على تحقيق مقتضيات الموضوع والنسق الكلي للسورة. فجاء ترتيب السور القرآنية كما هي الآن في المصحف الشريف ترتيباً غاية في المناسبة وعجباً في التلاحم، مع أن السور قد اختلفت في الترتيب الزمني، فجاء هذا الترتيب مخالفاً له غير متوافق مع ترتيب نزوله، فإن الترتيب لا يخلو من حكم وفوائد سوف أُبينها في مطلع السورة، وعلاقتها بما قبلها وما بعدها، وما أعظم ما نقله السيوطي عن الشيخ ولي الدين الملوّي: «وفصل الخطاب أنّها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً»⁽²⁾، وباعتبار القرآن الكريم معجز في حقائقه العلمية والتاريخية هو معجز في أسلوبه وبيانه الذي يظهر في حسن ترتيب السور وإحكام نسقه.

المطلب الثاني: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها:

أ - تعريف المناسبة لغة واصطلاحاً:

1 - لغة: المناسبة في اللغة مأخوذ من التناسب، وهو التقارب والتناسق والمشاكلة والترابط، قال ابن منظور (ت711هـ): «النسبة والنسبة والنسب: القرابة، وناسبه، شركه في نسبه، والنسب: المناسب، وفلان يناسب فلاناً، فهو نسيه أي قريه، وتقول: ليس بينهما مناسبة أي مشاكلة»⁽³⁾ ويبيّن الزركشي (ت794هـ) المناسبة بقوله: «المناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يناسب فلاناً، أي

¹ - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص: 144.

² - جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص: 323.

³ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (نسب)، ج1، ص: 755، 756.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

يقرب منه ويشاكله ، ومنه النسب الذي هو القريب المتصل ، كالأخوين وابن العم⁽¹⁾ ؛ فالمناسبة بهذا المعنى تُحيل إلى معنى المشاكلة أي : المشابهة والمماثلة والموافقة⁽²⁾ ، وهذا التشابه لا يتم إلا بوجود أمرٍ رابطٍ بين الشئين أو يقارب بينهما.

2 - المناسبة اصطلاحاً: لعلّ أقرب وأخصر تعريف لها أنّها علم يُبحث فيه عن الترابط الوثيق بين سور القرآن الكريم وآياته من مبدئه إلى نهايته. فالتناسب هو العلاقة الرابطة بين أي القرآن الكريم وموضوعاته ، وهو ما يشير إليه الزركشي في قوله : «المناسبة بين فواتح الآي وخواتمها مرجعها إلى رابط بينهما ، عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين والضدين ، ونحوه أو التلازم الخارجي»⁽³⁾.

هذا التناسب الدال على معرفةٍ عللٍ ترتيب أجزاء القرآن وعرضها على العقول بما يُلاقى بالقبول ، غير متكلف ولا مُصطنعة ، حتى تكون أجزاءه كالكلمة الواحدة ، مُتسقة المعاني ، مُنظمة المباني⁽⁴⁾ ، بمعنى أنّ التناسب الذي يقصده البحث قائم على أساس إيجاد علاقات ترابطية منطقية تجمع مظاهر الجمال في لطائف القرآن ، المُودعة في الترتيبات ، بألية تحكّم مُحدّات الاكتمال التركيبي والدلالي لوحدات اللفظ والمعنى.

وعلى العموم ، فإن جمال القرآن الكريم في ذلك الانسجام والتناسب والتناسق ، الذي يجمع بين أجزاءه وسوره ، وهكذا تتميز سور القرآن بالتناسب والتآلف فيما بينها ، فكل سورة مرتبطة بالسورة التي تسبقها والتي تليها ، سواء كان هذا الترابط لفظياً ، أو ترابطاً معنوياً ، أو بهما معاً ، وهذا الترابط وهذه الوحدة تشمل جميع سور القرآن الكريم.

1 - بدر الدين الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج 1 ، ص : 35.

2 - ينظر : جلال الدين السويطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ج 3 ، ص : 323.

3 - المرجع السابق ، ج 1 ، ص : 35.

4 - ينظر : برهان الدين البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ج 1 ، ص : 8.

من هنا يمكن أن يمثل التناسب بُعداً مهماً في دراسة السورة القرآنية لارتباطه بجوانب الانسجام والتناسق في أمور كثيرة يكشفها المدقق في هذا الترابط وأساراره ؛ لأنه لا يمكن أن يكون مظهرًا خطابياً واحداً من مظاهر خطابية أخرى في المستوى الدلالي بل هو مظهر خطابي مُتعدد الجوانب والأبعاد ، ولأنّ الدراسة التناسبية ليست مُنحصرة في علمٍ واحدٍ من علوم القرآن ولا في جانبٍ واحدٍ من بلاغة القرآن ، بل هي دراسة تركيبية تقوم على التقاطِ ثَمَرَاتِ عُلُومٍ كثيرة وتُسَخِرُها في تدبُّرِ خصائصِ البيانِ القرآني⁽¹⁾.

ومن أجمل ما قيل في أهميّة هذا التناول « وَقَدْ وَهَمَ مَنْ قَالَ لَا يَطْلُبُ لِلآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنَاسِبَةٌ ، لِأَنَّهَا عَلَى حَسَبِ الْوَقَائِعِ الْمَفْرُقَةِ ، وَفَصَلَ الْخَطَابِ : أَنَّهَا عَلَى حَسَابِ الْوَقَائِعِ تَنْزِيلاً ، وَعَلَى حَسَبِ الْحِكْمَةِ تَرْتِيباً وَتَأْصِيلاً ، فَالْمَصْحَفُ عَلَى وَفْقِ مَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَرْتَبَةٌ سُورُهُ كُلُّهُ وَأَيَاتُهُ بِالتَّوْقِيفِ ، كَمَا أَنْزَلَ جَمَلَةٌ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ ، وَمَنْ الْمَعْجِزُ الْبَيِّنُ أَسْلُوبُهُ وَنَظْمُهُ الْبَاهِرُ ، وَالَّذِي يَنْبَغِي فِي كُلِّ آيَةٍ أَنْ يَبْحَثَ أَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ عَنْ كَوْنِهَا مَكْمَلَةٌ لِمَا قَبْلَهَا ، أَوْ مُسْتَقْلَةٌ ، ثُمَّ الْمُسْتَقْلَةُ مَا وَجَّهَ مِنْ سَبْتِهَا لِمَا قَبْلَهَا ، فَفِي ذَلِكَ عِلْمٌ جَمٌّ ، وَهَكَذَا فِي السُّورِ يَطْلُبُ وَجْهَ اتِّصَالِهَا لِمَا قَبْلَهَا وَمَا سَيَقْتُ لَهُ»⁽²⁾.

ويُسمي "محمد بن عمر باز مور" هذا بالمناسبات الخارجية وهي أنواع⁽³⁾ :

الأول : مناسبة السورة لما قبلها ولما بعدها.

والثاني : مناسبة ختام السورة لمطلع السورة التالية لها.

¹ - ينظر: أحمد أبوزيد، التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، سلسلة رسائل وأطروحات رقم (19) مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء - المغرب، 1992، مقدمة الكتاب، ص: 5-9.

² - نقله السيوطي عن الشيخ ولي الدين الملوي، في الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص: 323، 324، ويدر الدين الرزكشي، في البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1، ص: 37.

³ - محمد بن عمر باز مور، علم المناسبات في السور والآيات، ويليه مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للسيوطي، المكتبة المكية، مكة المكرمة، السعودية، ط1، 2002، ص: 29.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

والثالث: هو مناسبة مطلع السورة لمطلع السورة التي تليها.

ولقد اهتم كثيرٌ من العلماء والمفسرين في معرفة وجوه التناسب في كتبهم مثل الزمخشري في "كشافه"، والفخر الرازي في "التفسير الكبير"، وأبي السعود في "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، والبقاعي في كتاب "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، والسيوطي في بعض كتبه الخاصة بعلوم القرآن، وغيرهم ممن كتب في هذا المجال.

يقول نصر حامد أبو زيد: «إذا كان البحث عن المناسبة بين السور قد حاول أن يقيم للنص وحدة عامة تعتمد على تأسيس علاقات مُتعدِّدة ومُختلفة ذات طابع "تأويلي" في أغلب الأحيان، فإنَّ البحثَ عن المناسبة بين الآيات يُدخلنا مباشرةً في صميم الدرس اللغوي لآليات النَّصِّ. ومن المهم أن نلاحظ هنا أنَّ عِلْمَ "المناسبة" لا يبحث عن علاقات خارجية، ولا يستند إلى شواهد من خارج النص، فالنص في هذا العلم هو شاهد ذاته، وهو الذي يؤسس معايير علاقات بناء على طريقة تركيبه اللغوي أو العقلي أو الحسي. وليس معنى ذلك أن هذه العلاقات علاقات "موضوعية" مفارقة لحركة عقل القاريء والمفسر، بل هي علاقات ناتجة عن جدل القاريء مع النص في عملية القراءة»⁽¹⁾. بهذا القول فإنَّ نصر حامد أبو زيد ينفي المناسبة الخارجية، ولعلنا حين نذهب هذا المذهب علينا أن «نستحضر التمييز الذي أقامه علماء القرآن بين ترتيب النزول وترتيب التلاوة؛ فالترتيب الأول لا يتأتى إلاَّ بمدى ما ينسجه النص من روابط إحصائية بمحيطه الخارجي؛ إذ بهذه الروابط يضمن تألفه الدلالي والتداولي مع ذلك المحيط. أما ترتيب التلاوة كما استقر عليه المسلمون الأولون في المصحف الإمام فلا يتأتى به الترتيب الأول؛ إنه يتأتى بإحالة النص على نفسه وارتباطه بذاته. وبذلك نكون أمام ترتيبين يتميز كل منهما بانتظام خصوصي مستند إلى نوعية محددة من الروابط»⁽²⁾.

¹ - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط.)، 1990، ص: 179.

² - محمد الحيرش، النص وآليات الفهم في علوم القرآن، ص: 260، 261.

وعن خصوصية انتظام ترتيب النزول يقول محمد الحيرش: «فالانتظام الخصوصي لترتيب النزول هو ماتنهض فيه المكونات النصية على ارتباطات محددة بالأسباب والوقائع الخارجية. وبما أن هذه الوقائع والأسباب لا تنفصل عن الخلفيات التكوينية للنص فقد نظر إليها القدماء على أنها مقتضيات مقامية لتلك المكونات. ولا تعتبر هذه المقتضيات، مجرد قرائن قابعة خارج النص، بل تعتبر داخلة في بنائه الدلالي والتداولي؛ الأمر الذي يجعله يحقق استناداً إليها كامل تألفه وانسجامه مع محيطه الخارجي، أي مجموع اعتباراته التكوينية المناسبة»⁽¹⁾.

أما عن الانتظام الخصوصي للترتيب الذي استقر عليه المسلمون «فلا يُبحث فيه إلا عن الروابط الذاتية التي يتوسل بها النص لتحقيق التآلف والالتحام بين أجزائه الداخلية. ومن هذا الجانب يغدو اللجوء إلى علم التناسب أمراً مطلوباً، لأنه يمكن للمفسرين من الوقوف على ضرب محدد من الانتظام الخصوصي للنص هو الضرب المتعلق بترتيبه في المصحف. وبذلك يكتسب الخوض في التناسب القرآني كامل مشروعيته المتمثلة في الكشف عن ذلك الانتظام وتجليته ملاحظته»⁽²⁾.

ولتتبع طرائق العلماء والباحثين في بيان وجه المناسبات بين سور القرآن نجدهم ينظرون إلى هذه العلاقات من زاويتين إثنتين⁽³⁾:

- الزاوية الأولى: موضوع كل سورة والحلقات المشكلة له، والبحث عن الروابط الخفية ووجه مناسبة أسبقية السورة اللاحقة من خلال موضوع كل منها.

- الزاوية الأخرى: الآيات الخاتمة والفاصلة، ووجه المناسبة بين بداية السورة ونهاية السورة السابقة لها. وفي ذلك يقول أبو حيان الأندلسي (ت745هـ): «وقد تَبَّعْتُ أوائلَ السُّورِ الْمُطَوَّلَةِ فوجدتها

¹ - محمد الحيرش، النص وآليات الفهم في علوم القرآن، ص: 261.

² - المرجع نفسه، ص: 261.

³ - حدة سابق، الوحدة الموضوعية في سورة مريم، رسالة ماجستير، إشراف: رمضان يخلف، قسم الكتاب والسنة، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2003، ص: 47.

يناسبها أو آخرها بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء... وذلك من أبداع الفصاحة حيث يتلاقى آخر الكلام المُفْرَط في الطول بأوله وهي عادة العرب في كثير من نظمهم، يكون أحدهم آخذاً في شيء ثم يَسْتَطْرِد منه شيء آخر وهكذا طويلاً ثم يعود إلى مكان آخذاً منه أولاً⁽¹⁾. وغالبا ما تكون المناسبة بين مقدمة السور وخاتمتها واضحة لا تحتاج إلى بيان، كما هو الحال في السور التي تبدأ بذكر القرآن الكريم أو الكتاب، تختتم بذكره كسورة هود ويوسف والرعد وغيرها.

ب - أنواع المناسبات بين السورة القرآنية:

1 - مناسبة اسم السورة (العنوان) للسورة:

إنَّ أوَّل ما يواجهه القارئ في أي نص هو العنوان، فهو يمثل العتبة الذي من خلاله يمكن المرور إلى باقي النص، فهو بمثابة البوابة التي أوَّل ما يواجهه مُتلقِي النص ومُحلِّله، إذ هو المفتاح لمعانيها؛ فالنص قد يكون مُكَمَّلاً للعنوان، أو مُوضَّحاً له، ولا شك في أنه يكون مُفَصَّلاً للإجمال الكائن فيه، وكذلك اسم السورة، إذ إنَّه يمثل عنوانها، بل هنالك ارتباط وثيق بين المعاني والأغراض المختلفة التي تتعرض لها آيات السورة وبين اسم السورة الذي يحتوي على الهدف العام منها.

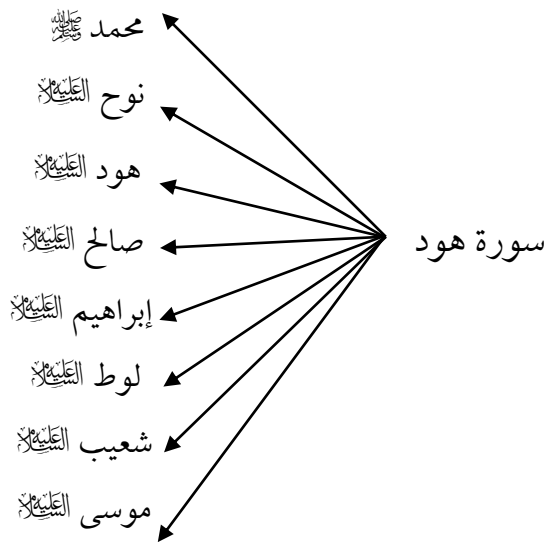
والنبي هود "عليه السلام" الذي سميت السورة باسمه يمثل مرحلة من مراحل تبليغ الرِّسالة كغيره من الأنبياء الذين ذُكروا في نفس السورة، ولهذا يتفق عنوان السورة أو اسمها مع مضمونها أو ما جاء فيها، فقد أُطْلِق عليها الجزء والمراد به الكل، إذ لا يجوز أن تُسمَّى هذه السورة بأسماء هؤلاء الرسل جميعاً، «وهذا كثير في القرآن، يُطلق الفرد ويراد به الجمع، ويُطلق الجزء ويراد به الكل، وهذا ليس على مستوى اسم السورة فقط، بين آيات السورة نفسها»⁽²⁾.

¹ - أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1993، ج2، ص: 378.

² - صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000، ج2، ص: 115.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

كما أنّ مرجعية الآيات كلّها سابقة؛ إذ كلّها ترجع إلى هود صراحة "في قصة هود"، وفي القصص الأخرى ترجع إليه ضمناً؛ لأنّ مراحل تبليغه والصدّ عنه هي المراحل نفسها التي مرّ بها الرُّسُل جميعاً، ومن ثمّ يمكن التمثيل لهذا الترابط عبر المرجعية في الشكل التالي:



فالسورة متماسكة نصياً، فالقصص في هذه السورة يتفق في كثير من الأمور؛ فكلهم أنبياء الله، وكلهم يقوم بالدعوة، وكلهم يواجه الكفر والسخرية والعناد، وهذا الاتفاق يعبر عن التماسك الدلالي للسورة، فقصة هود "عليه السلام"، متماسكة مع القصص الأخرى في السورة، ومن ثمة مع المضمون، ولذلك يتفق اسمها مع مضمونها⁽¹⁾.

¹ - ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج2، ص: 115.

2 - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المأمل لسور القرآن الكريم يجد بين فواتح هذه السور وخواتيمها مناسبة كبيرة وعلاقة تجعل السورة من السورة حلقات متماسكة بعضها مع بعض، ولا بد أولاً من التمييز بين فواتح السور ومقدماتها؛ فليست فاتحة السورة هي مقدمتها، فالفواتح حصرها بعض العلماء بعشرة أنواع وهي: الثناء على الله سبحانه، والنداء، والقسم، والجمل الخبرية، والشرط، والأمر، والاستفهام، والدعاء، والتعليل، وحروف التهجي⁽¹⁾.

أمّا فيما يخص مقدمة السورة فالمراد به ما طرحه السورة من موضوع أو عدة موضوعات تُشكّل تمهيداً موجزاً لما سوف تُبيّنهُ وتُفصّلُهُ في الآيات اللاحقة حتى إذا انتهت وأدّتْ وظيفتها تأتي آيات الخاتمة لتُجمَع خلاصة الأفكار المطروحة فتربطها بشكل دقيق مع مقدمة السورة لتصل بالنهاية إلى وضع الفكرة الرئيسية التي تهدف إليها، وهو ما وجده أبوحيان الأندلسي في تتبعه لأوائل السور: «وقد تتبعتُ أوائل السور المطولة فوجدتها يناسبها أواخرها بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء... وذلك من أبداع الفصاحة حيث يتلاقى آخر الكلام المفرط في الطول بأوله، وهي عادة العرب في كثير من نظمهم، يكون أحدهم أخذاً في شيء ثمّ يستطرد منه إلى شيء آخر ثمّ إلى آخر هكذا طويلاً، ثمّ يعود إلى ما كان أخذاً فيه أولاً»⁽²⁾.

وغالباً ما تكون المناسبة بين مقدمة السورة وخاتمتها واضحة لا تحتاج إلى بيان، كما هو الحال في السور التي تبدأ بذكر القرآن الكريم أو الكتاب، تُختتم بذكره كسورة هود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر.

والمناسبة بين افتتاحية سورة هود وخاتمتها، واضحة جليّة من خلال الحقائق التي عُرضتْ في افتتاحية السورة كرّرتْ ذاتها بأسلوب آخر في خاتمتها، وبهذا يكون أوّل السورة مترابطاً كلّ الترابط

¹ - يظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص: 164 وما بعدها. وجلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص: 316 وما بعدها.

² - أبوحيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج2، ص: 378، في كلامه عن مقدمة سورة البقرة وخاتمتها.

مع آخرها، ومتناسباً معه بما يجعل السورة وحدة متكاملة في مبناها ومعناها، نجد أنّ السورة الكريمة تبدأ ببيان إحكام الكتاب وتفصيله على أكمل صفة، إذ إنه صار من لدن حكيم خبير، ثم أتبع ذلك بالحث على عبادة الله وحده: ﴿الرِّيبَاتُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ، أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنْ بِنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (هود: 1، 2)، ثم في آخر السورة نجد كذلك الحث على العبادة والتوكل على الله - سبحانه وتعالى -، لأن الأمر كله بيده: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (هود: 123).

وكانّ الآيات الأولى مع الأخيرة يكمل بعضها البعض، نجدها بمجملها متممة لمعنى عظيم مراد، فهي مترتبة برباط وثيق، فإنّ الذي أحكم الآيات أكمل إحكام، وفصلها أجمل تفصيل، وهو الربّ الحكيم، الذي له غيب السماوات والأرض فلا تخفى عليه خافية، فالإله يرّجع الأمر كله الواحد الأحد، ومعنى ذلك أنّ السورة بدأت بالأمر بعبادة الله، وانتهت كذلك بالأمر بالعبادة، وهذا ما أورده فاضل السامرائي قائلاً: «فانظر كيف ابتدأت السورة بالتهي عن عبادة غير الله، وختمت بالأمر عن عبادته»⁽¹⁾.

إنّ سورة هود هي أكثر سور القرآن حديثاً عن أمر الله الذي يعني: ﴿أَخِذْ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخِذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: 102)، فإمّا عبادة الله الواحد الأحد، وإمّا إهلاك سبقه نذير، يقول سيد قطب: «وهكذا تُختم السورة التي بدئت بالتوحيد في العبادة، والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله في النهاية بمثل ما بدئت به من عبادة من عبادة الله وحده، والتوجه إليه وحده، والرجعة إليه في نهاية المطاف، ذلك بعد طول التطواف في آفاق الكون، وأغوار النفس، وأطواء القرون... وهكذا يلتقي جمال التنسيق الفني في البدء والختم، والتناسق بين القصص، والسياق بكمال النظرة، والفكرة، والاتجاه في هذا القرآن»⁽²⁾.

¹ -التعبير القرآني، دار عمار، عمان -الأردن، ط4، 2006، ص: 254.

² -سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد4، ج12، ص: 1934.

وهكذا نرى أنّ الترابط بين الخاتمة والمقدمة ليس أمراً عابراً اقتضته ضرورة فنية بل إنه يأتي ليؤدي وظيفة تفسيرية يكشفها ذلك الترابط بين آيات وموضوعات المقدمة والخاتمة، ومن خلال العلاقات بينها يتضح المعنى المراد إيصاله للمتلقي، والهدف الذي تتبغى وضعه بين يديه ليصل إلى فهم مراد الله - تعالى - من آياته، كما أنّ الأمر لا يقتصر على السور الطويلة فقط، ولا تتخذ علاقات الترابط داخل السورة شكلاً واحداً بل تتعدّد حسب ما يقتضيه الحال.

3 - مناسبة افتتاح السورة الخاتمة ما قبلها:

إنّ المتبوع لسور القرآن الكريم يلمس العلاقة والمناسبة الواضحة بين فاتحة السورة وخاتمة ما قبلها، وكذا مناسبة خاتمة السورة مع فاتحة التي تليها ف«إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد»⁽¹⁾، وهذا ما يؤكد بعض العلماء أمثال الزركشي (ت795هـ) حيث يقول: «إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما اختتمت به السورة قبله ثم يخفى تارة ويظهر أخرى، كافتتاح سورة الأنعام بالحمد، فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء، كما قال سبحانه: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الزمر: 75)، وكافتتاح سورة فاطر ب(الحمد) أيضاً، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ (سبأ: 54).

وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح، فإنه مناسب لختام سورة الواقعة، عن الأمر به، وكافتتاح سورة البقرة بقوله ﴿الم ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾، (البقرة: 1، 2)، إشارة إلى الصراط في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، (الفاتحة: 5)، كأنهم لما سُئِلُوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتهم الهداية إليه هو الكتاب»⁽²⁾.

¹ - مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص: 89.

² - البرهان في علوم القرآن، ج1، ص: 38، 39.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

ويقول مصطفى مسلم « وليس هذا الترابط بين السورتين المكتيتين أو المدنيتين ، بل نحو ذلك بين السور المكية والمدنية أيضاً»⁽¹⁾.

وعلم المناسبة ، علم جليل يكشف عن أهم ملامح إعجاز القرآن العظيم ، كما أنه من ناحية أخرى يعدُّ من أدق العلوم التي تحتاج جهداً وعلماً واسعاً كما نقل الزركشي عن أبي بكر بن العربي في كتاب سراح المرادين «ارتباط آية القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسعة المعاني منتظمة المباني ، علم عظيم ، لم يتعرض له إلا عالم واعد عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه ، فلما لم نجد له حملة ، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه ، وجعلنا بيننا وبين الله ورددناه إليه»⁽²⁾.

وأما المناسبة بين السور فمن المعروف أن ترتيب السور له مظهران أولهما : الترتيب النزولي ، وثانيهما : الترتيب المصحفي ، وفي معرفة التناسب فيهما علم شريف قل اعتناء المفسرين به ، لدقته كما قال السيوطي ومهما يكن فإن هذا العلم قد «ساعد على إبراز ما في القرآن من لحمة متينة ، فإن بعضه أخذ بأعناق بعض من تأليف محكم ، حاله حال البناء المتين المتلائم الأجزاء ، وكالكلمة الواحدة متسق المعاني منتظم المباني ، ومن محاسن الكلام عند الأئمة أن يرتبط بعضه ببعض»⁽³⁾.

-الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم أمر إجتهادي ، لذلك ذهب كثير من العلماء إلى عدم الإلقتداء به في إدراك أغراض ومقاصد السور القرآنية ، ولهذا سنعمد بالمعالجة في هذا المبحث للسورة الكريمة على ترتيب المصحف ، إذ تأتي سورة هود بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف -عليهم السلام -.

ومن الملاحظ «أن معظم السور المفتحة بالأحرف المقطعة جاء ترتيبها في المصحف ترتيباً متوالياً ، وقد وافق هذا الترتيب المصحفي الترتيب النزولي في معظمها ، فمثلاً نجد السورة التي

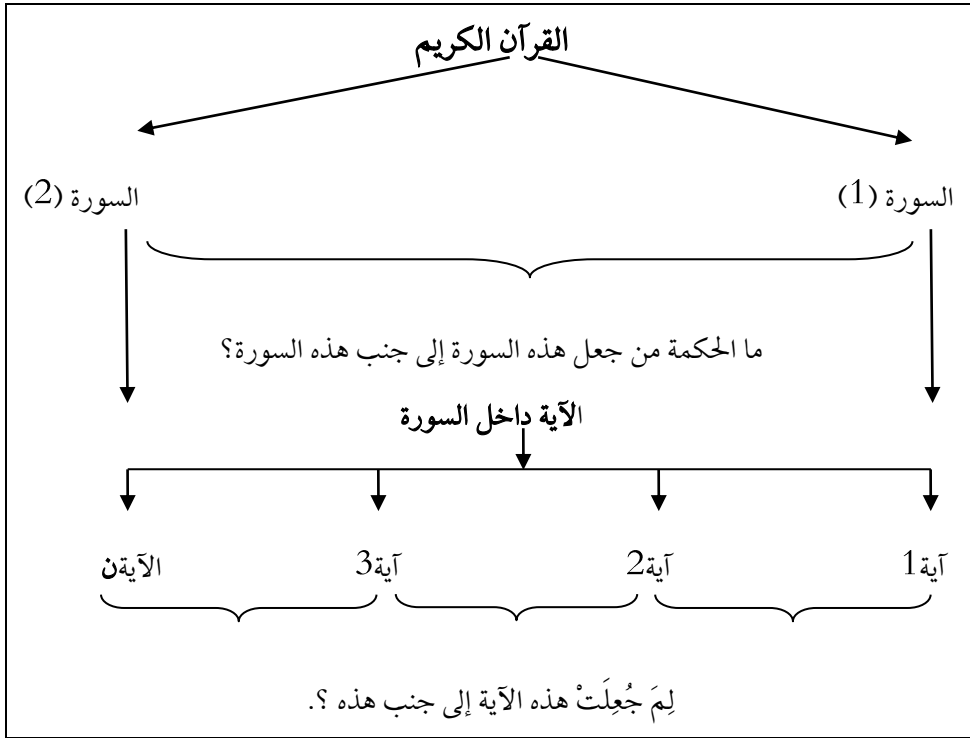
¹ -مباحث في التفسير الموضوعي ، ص : 78.

² -بدر الدين الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج 1 ، ص : 36.

³ -جلال الدين السيوطي ، الإتيان في علوم القرآن ، ج 3 ، ص : 272.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

افتتحت بـ(الر) يونس نزلت قبل هود تليها هود، وهي بعدها في النزول وبعدها سورة يوسف ترتيباً ونزولاً وتليها الرعد وابراهيم ترتيباً ثم الحجر ترتيباً ونزولاً، وكذلك مجموعة(الحواميم) حيث وردت مرتبة في المصحف والنزول، فهل هذا الترتيب جاء مصادقة أم أنه داخل في قضية الإعجاز؟⁽¹⁾.



يقول مصطفى مسلم عن الترتيب المحكم الذي لا نجد فيه آية يُنبؤ بها مكانها من السياق العتيد: «ولا نجد كلمة يتململ بها موضعها في النظم المحكم. ولقد نجد الآية المدنية في السورة المكية أو الآية تتلو الآية والفاصل في نزولهما يبلغ عدة سنوات فأبي عقل بشري يستطيع أن يراعي هذه الدقة وهذا الإحكام في التّسق والترتيب والملاءمة بحيث يكون ذلك في الذروة من الفصاحة والبلاغة والانسجام»⁽²⁾.

¹ - خليل الله بن محمد الصّحفي، سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة، إشراف: عبد العظيم إبراهيم المطعني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية اللغة العربية، 1993، ص: 39، 40.

² - مباحث في التفسير الموضوعي، ص: 90.

المطلب الثالث: تناسب سورة هود مع سورة يونس "عليه السلام":

تنتهي سورة يونس "عليه السلام" بقوله تعالى:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

وتبدأ سورة هود "عليه السلام" بقوله تعالى:

﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾

لقد تشابه صدر سوتي يونس وهود تشابهاً كبيراً، فجاءت سورة هود لتعانق أختها سورة يونس عناقاً متناسقاً متلاحماً ولعلنا نلاحظ هذا التناسب في علاقتها بسورة يونس "عليه السلام"، فقد افتتح السورة التي قبلها -سورة يونس "عليه السلام" -، بقوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ، أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ (يونس: 1، 2)؛ «فالسورة تبدأ بتحطيم الشبهة الموجودة في أذهان الناس حول القرآن ويستمر هذا المعنى لينتهي عند الآية 37: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: 37)، فالسورة مازالت تدحض شبهة المرتابين والمكذابين»⁽¹⁾، لذلك وصفت الآية في بداية السورة الكتاب بأنه "حكيم" وذكر في سورة هود من أحكمه فقال إن آياته أحكمت ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾، فقد وصف الكتب في يونس بالحكمة وكذلك في هود مع زيادة وصفه بتفصيل آياته، ووصف النبي بأنه بشير ونذير وكذلك الأمر في هود.

وقد تناول السيوطي (911هـ) هذا التناسب قائلاً: «إن سورة يونس ذكرت فيها قصة نوح مختصرة جداً، مُجْمَلَةً، فَشْرِحَتْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَبُسِّطَتْ بِمَا لَمْ يَبْسُطْ فِي غَيْرِهَا مِنَ السُّورِ، وَلَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ عَلَى طَوْلِهَا وَلَا فِي سُورَةِ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (نوح: 1)، التي أفردت

¹ -مصطفى الدباغ، وجوه من الإعجاز القرآني، مكتبة المنار، الزرقاء -الأردن، ط1، 1982، ص: 43.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

القصة، فكانت هذه السورة شارحة لما أُجْمِلَ في سورة يونس، فإنَّ قوله هناك: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يونس: 109) هو عين قوله هنا ﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1)، فكان أولُّ هو تفصيلاً لخاتمة يونس⁽¹⁾. ويقول سيد قطب: «نجد سورتي يونس وهود متواليتين في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول أيضاً، والعجيب أن هناك شَبْهاً كبيراً بين هاتين السورتين وهاتين ليقصد سورة الأنعام وسورة الأعراف مع سورة يونس وهود، في الموضوع وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك، فسورة الأنعام تتناول حقيقة العقيدة ذاتها وتواجه الجاهلية بها، وتفند هذه الجاهلية، عقيدة وشعوراً، وعبادة وعملاً، بينما سورة الأعراف تتناول حركة هذه العقيدة في الأرض، وقصتها في مواجهة الجاهلية مع مدار التاريخ، وكذلك نحن هنا مع سورتي يونس وهود، في شبه كبير في الموضوع وفي طريقة العرض أيضاً، إلا أن سورة الأنعام تتفرد عن سورة يونس بارتفاع وضخامة في الإيقاع، وسرعة وقوة في النبض، ولألاءٍ شديدٍ في التصوير والحركة، بينما تمضي سورة يونس في إيقاع رخي، ونبض هادئ، ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة، وملاحظها المميزة، بعد كل هذا التشابه والاختلاف»⁽²⁾.

تنتهي سورة يونس "عليه السلام" بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ، وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يونس: 108، 109).

وتبدأ سورة هود "عليه السلام" بقوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1).

وإذا نظرنا في سورة هود من حيث ارتباطها وتناسبها مع السورة السابقة لها وهي سورة يونس عليه السلام فإننا نجد الترابط من عدة أوجه:

¹ -تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق: أحمد عطاء، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط1، 1986، ص: 94.

² -في ظلال القرآن، المجلد 4، ج12، ص: 1843، 1844.

-سورة يونس وسورة هود "عليهما السلام" مكيتان متواليتان في الترتيب و النزول تعالجان المواضع نفسها.

-وتنتهي سورة يونس "عليه السلام" بآيات فيها الدعوة لعبادة الله واتباع الكتاب الذي أنزل بالحق ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ﴾ القرآن ﴿مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (يونس : 108)، وهذه الصيغة تفيد وجوب الهداية بالقرآن واتباعه وترك طريق الضلال، ثم أمر نبيه بالصبر على الكفار الذين لم يؤمنوا به حتى يحكم الله بالحق: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يونس : 109).

ثم ذكر في مُفْتَحِ سورة هود بيان حقيقة القرآن ﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ﴾ بما يُرْغَب فيه بوصف أن الحق الذي جاءهم هو القرآن بعجيب النظم وبديع المعاني، مما يزيد فيه ترغيباً وإيماناً، ﴿ثُمَّ فَصَّلَتْ﴾ بينت بالأحكام والقصص والمواعظ من لدن حكيم خبير، ففي آخر سورة يونس قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ...﴾ وهو عين قوله تعالى في بداية سورة هود ﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود : 1). فكان أول هود تفصيلاً لخاتمة سورة يونس.

وفي سورة يونس نلاحظ تحدي الكفار مع ما يعبدون الذين زعموا أن القرآن مفترى، أن يأتوا بسورة من مثله إن استطاعوا ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس : 38).

وتحداهم في سورة هود "عليه السلام" أن يأتوا بعشر سورٍ من مثله إن استطاعوا ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود : 13).

يقول محمد فاروق الزين حول ارتباط السورة الكريمة بما قبلها: «وقد بينت سورة التوبة أنَّ الدعوة إلى الإسلام، ومن ثمَّ، الإيمان، يجب يكونا على أساس الحجة والدليل والإقناع، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة : 6)، ثمَّ بيَّنت سورة يونس أنَّ المشيئة الإلهية اقتضت أن يُترك الناس في دنياهم أحراراً بين مؤمن وكافر: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿يونس: 99﴾، ثم تُحدّد سورة هود أنّه تعالى خلق الناس كي يمارسوا حرية الفكر والخيار، سوى أنّ المُصِرِّين على الكفر يؤول مصيرهم إلى جهنم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود: 118، 119) «⁽¹⁾».

وبهذا نلاحظ الشّبه الكبير بين السورتين في الموضوع وطريقة عرضه، وهكذا فإن سورة هود تبدو مُتمّمة لسورة يونس في المواضيع، ومُفصّلة لما أجمل سابقتها من قصص بعض الرُّسل "عليهم السلام"، من ذلك أنّه «ذكر في سورة يونس قصة نوح -عليه السلام- مختصرة جداً، مُجمّلة، فَشُرِّحَتْ في هذه السُّورة، وَبُسِّطَتْ فيها مالم تُبَسِّطْ في غيرها من السُّور، ولا في سورة الأعراف على طولها، ولا سورة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (نوح: 1) التي أُفْرِدَتْ لقصته، فكانت هذه السورة شرحاً لما أُجْمِلَ في تلك السورة وَبَسَّطاً له»⁽²⁾، مع إضافة قصص هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب، وإبراز العبر في هذه القصص من عدّة زوايا، والتأكيد على علاقة البشر بعضهم ببعض من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: 117)⁽³⁾.

¹ -محمد فاروق الزين، بيان النظم في القرآن، الربع الثاني من سورة الأعراف حتى سورة الكهف، ص: 311.

² -شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، ج11، ص: 202.

³ -ينظر: المرجع السابق، ص: 311.

المطلب الرابع: تناسب سورة هود مع سورة يوسف "عليه السلام":

تنتهي سورة هود "عليه السلام" بقوله تعالى:

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ
وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

وتبدأ سورة يوسف -عليه السلام- بقوله تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ
مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾

ارتبطت سورة هود بالسور التي قبلها والتي بعدها بعدة روابط، مما يؤكد لنا بالبرهان القاطع أن ترتيب السور ترتيب رباني، أحكمه الذي أحكم القرآن وفصله، ومن تلك الروابط، لما اشتركت فيه من الاشتغال على القصص، ومن الافتتاح بالذكر، وبذكر الكتاب، ومن كونها مكيات، وبالتسمية باسم نبي.

وبعد سورة هود تأتي سورة يوسف "عليه السلام"، فقد افتتحت سورة هود بقوله: ﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (هود: 1). فذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة أن الذي أحكم آياته هو الحكيم، فالكتاب الحكيم كما ذكره في مطلع سورة يونس ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس: 1)، صادر عن الرب الحكيم في مطلع سورة هود.

كما أنه قال في افتتاح السورة التي بعدها وهي سورة يوسف: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (يوسف: 1)، فإنه لما ذكر في سورة هود أن آياته أحكمت وفصلت دل على أنه مبين، فإنه لا يكون بعد الإحكام والتفصيل إلا مبيناً⁽¹⁾.

ومن مناسبة سورة هود لسورة يوسف ما اشتملت عليه من إثبات مئة الله على نبيه -صلى الله وسلم-، وأتباعه من بعده، فهي متممة لما جاء في سورة هود من قصص الأنبياء "عليهم السلام"، وهي أطول قصة في القرآن الكريم، وقد اختتمت سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ

¹ - ينظر: برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج10، ص: 5.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَقُلْ
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ، وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿

(هود: 120، 123).

ثم تُفْتَحُ سورة يوسف بقوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ
الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: 1، 3).

جاء في خاتمة سورة هود أن قصص الأنبياء يُثَبِّت اللهُ به فؤاد رسوله - صلى الله عليه
وسلم - للإستمرار في دعوة الحق ، لأنَّ سُنَّةَ اللهُ في النبوات الابتلاء والعناد والتأمر عليهم لكن
الغلبة في النهاية لهم وفي كل سيرهم العظة والعبرة للرسول وللمؤمنين به ، وتهديد ووعد
للمكذابين بأن ينتظروا ليروا لمن تكون العاقبة⁽¹⁾.

أما في افتتاحية سورة يوسف جاءت قصة من أحسن القصص «ليتسلى النبي - صلى الله عليه
وسلم - ، بما وقع للأنبياء من أذى الأقارب والأباعد ، عمَّا وقع له من أذى قومه الأقارب
والأباعد ، ولهذا قال في ختام السورة السابقة ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ
وَجَاءَكَ﴾ وقال هنا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ
قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾⁽²⁾ ، والقصص في القرآن الكريم بالإضافة إلى مستوياتها الفنية الرفيعة صوغاً
وتأثيراً ، أداة تثقيف وعظة ، وهذا ما نصت عليه الآية من سورة يوسف في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ
فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: 111) ، وكذلك الآية من سورة هود في قوله تعالى:
﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: 120).

¹ - ينظر: عبد الله الخطيب ومصطفى مسلم ، المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم ، مجلة جامعة الشارقة للعلوم
الشرعية والإنسانية ، المجلد 2، ع2، ربيع الثاني 1426هـ ، يونيو 2005م ، ص: 20.

² - عبد الله محمد الصديق الغماري الحسني ، جواهر البيان في تناسب سور القرآن ، مكتبة القاهرة ، (د.ط) ، (د.ت) ،
ص: 37 ، 38.

الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

فلم تكن هذه القصص غاية في ذاتها، إنما فيها من العظات والعبر والجوانب التربوية الشيء الكثير و«على الرغم مما لقيه يوسف عليه السلام» من الكيد له كانت العاقبة والانتصار الباهر، فجاءه الذين أساءوا له خاضعين طائعين... وذلك تلميح لما ينتظر النبي - عليه الصلاة والسلام - من النصر له والظفر له ولأصحابه، وكما قال إخوة يوسف له: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: 91)، فأجابهم يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: 92)، كذلك قال أهل مكة للنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد أن ظفر بهم ودخل مكة فاتحاً، وقال لهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء، فكان التثبيت والعظة والبشارة⁽¹⁾.

ويُبين البقاعي (ت 885هـ) ذلك بقوله: «فكان في سوق قصته عقب الإخبار بأن المراد بهذه القصص تثبيته - صلى الله عليه وسلم - وتسلية فؤاده إشارة إلى البشارة بما وقع له - صلى الله عليه وسلم - يوم الفتح من ملك قيادتهم وردّ عنادهم ومنه عليهم وإحسانه إليهم»⁽²⁾.

ونعود لنؤكد بعد عرض ما سبق أن وحدة السورة الداخلية ثم ترابط السور ووحدة القرآن الكريم «وهذه الحبكة المتينة الجميلة التي تنتظم القرآن بدءاً من الفاتحة وانتهاء بسورة الناس لا تفاوت فيها ولا اضطراب. فإذا أدركنا هذه الوحدة والترابط الذي ينتظم القرآن كله أدركنا من قبل الترابط داخل السورة الواحدة ثم توازن الكلمات والألفاظ القرآنية حيث كل لفظ بميزان دقيق ثم دققنا في انتظام الآيات وفواصلها المختومة بها، كل ذلك مجتمعا سيعطيك صورة مذهلة عن مدى حبكة القرآن المتينة الجميلة الرائعة فلا تملك عندها أكثر من أن تعجب ولا ينقضي عجبك من هذا القرآن العظيم»⁽³⁾، وهذا التعجب يمتد - أيضاً - حينما نرى في كل سورة من سور القرآن الكريم طابعها الخاص بها، فكل سورة بوجه جديد وألوان جديدة، ذات تركيب جديد، «وحداتها لا

¹ - عبد الله الخطيب و مصطفى مسلم، المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم، ص: 20.

² - برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج 10، ص: 2، 3.

³ - مصطفى الدباغ، وجوه من الإعجاز القرآني، ص: 45.

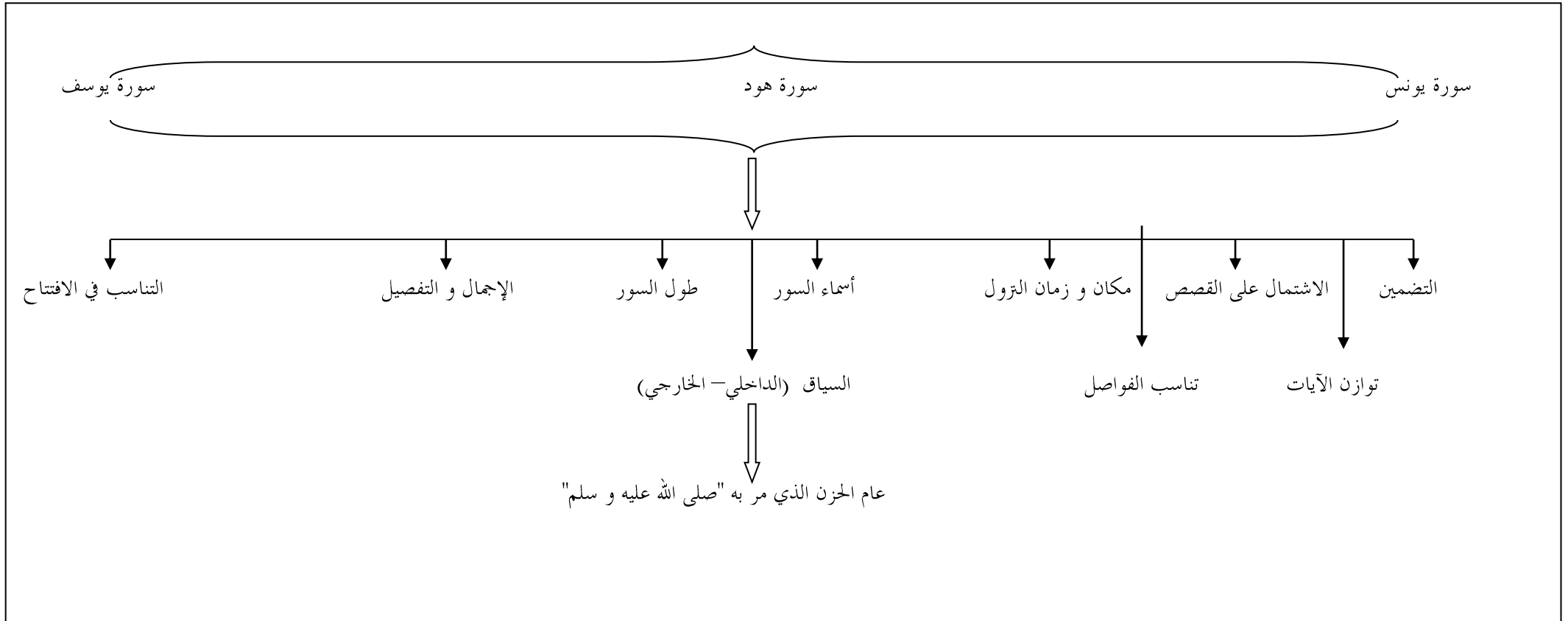
الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود عليه السلام

تتكرر، فليس هناك نموذجان فنيان من صورة واحدة ولا من طراز واحد. كل نموذج فني له شخصيته التي يفترق بها من أمثاله، وطرافته التي ينفصل بها عن نظرائه وأشباهه»⁽¹⁾، فكلما انتقنا من سورة إلى أخرى، وجدنا أفكاراً جديدة، وإذا أعاد فكرة حورها تحويراً يكاد يُنسبنا أصلها. وهذا الأمر شبيه في الاختلاف بين الأفراد «الفردية أصله وأساسه، كل وحدة فرد مستقل بنفسه، له وضعه ولونه، ووجهه وملامحه الخاصة، وكما تتغير في أصواتنا وصورنا وتقاطع وجوهنا، كذلك تتغير الوحدات الفنية، فلا توجد وحدتان تتطابقان تطابقاً تاماً، أو تتحدان اتحاداً تاماً... كل منا يشترك مع صاحبه في إنسانيته، ولكننا نختلف بعد ذلك اختلافات كثيرة في الشكل والطبع، حتى لكأنما تقوم بيننا أسوار فاصلة. وكذلك وحدات الفن [السورة القرآنية]، كل وحدة فن، ولكن كل وحدة تفترق عن زميلتها افتراق الخُلجان -على الشاطيء المتقطع - في شكلها وصورتها، وإن استمدت من موارد واحدة ومياه واحدة»⁽²⁾، ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ (الشورى: 17).

وعلى العموم مهما تعددت وجوه الترابط والتناسب، لكن تبقى وحدة الموضوع التي تربط بين تلك الآيات والهدف الكلي المراد منها، هو الذي يفرض نفسه حين نبحث عن وجه الترابط والتناسب بين تلك الآيات، وهو الذي يتجه بالسامع أو القارئ نحو بيان وتفسير قوله -تعالى - ، من أجل فهم أدق وأشمل لآياته دون الكتفاء بالوقوف على معرفة اللفظ وموقعه من الآية أو موقع نزولها وسببه بل الاستفادة من كل تلك المعطيات وتوظيفها للتفسير، فتكون عاملاً مساعداً يُعزّزه فهم التناسب بين آيات القرآن الكريم.

¹ -شوقي ضيف، في الأدب والنقد، دار المعارف، القاهرة -مصر، (د.ط.)، (د.ت)، ص: 82.

² -المرجع نفسه، ص: 82، 83.



الفصل الثالث

الهيكل المعماري للسورة ووحدته العضوية.

مدخل إلى البنائية المحكمة للسورة القرآنية.

المبحث الأول: مقدمة السورة والاستهلال.

المبحث الثاني: البنية الهيكلية القصصية ووحدتها العضوية.

المبحث الثالث: التناسق اللفظي وجسور الانتقال.

المبحث الرابع: خاتمة السورة.

مدخل إلى البنائية المحكمة للسورة القرآنية:

يتألف القرآن من سُورٍ مختلفة، لكل منها اسم خاص، أُخذ مما عالجته السورة من المعاني، أو مما تحدثت عنه من إنسان، أو حيوان، أو غيرهما، أو من بعض كلماتها.

وتنقسم السور إلى قسمين: قسم تَكُونُ من موضوع واحد، وهو الغالب في السور القصيرة، وقسم تَكُونُ من موضوعات شتى وهو القسم الغالب على السور الطوال كالبقرة، وآل عمران، والمائدة، وغيرها. يقول محمد عبد الله دراز: «إعتمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها في القرآن، فهي جمهرته وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين: كيف بُدِئت؟ وكيف خُتِمت؟ وكيف تقابلت أو ضاعها وتعادلت: وكيف تَلَاقَتْ أركانها وتَعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأتْ أولها لأخراها..؟»⁽¹⁾.

يمكننا أن نشير إلى جملة هياكل بالسورة الكريمة من حيث هذا النمط من البناء ولأنها جميعاً وكل واحدة منها ترسم نحو أو آخر في تحديد الاستجابة الكلية للنص التي تترك أثرها عند القارئ للسورة الكريمة، ذلك أن السورة في القرآن الكريم محكمة البنائية من أجل تحقيق الغايات والأهداف السامية وكل ذلك لم يأت هكذا وإنما لغاية «ولا تحسبن أن جودة السبك، وإحكام السرد، ليس أمراً بذى بال، ذلكم أن الكلام هو مرآة المعاني، فإذا اتسق واتحد وترابطت أجزاءه وتلاحمت أفرادها، وأحكم سرده: صفت معانيه وانجلت، وإلا يكن الكلام كذلك فإن المعنى حتماً سيتبدد وستتفرق أجزاءه كما تبدد الصورة على المرآة الشروخة... ورفض المعاني كرفض المباني يضعها البناء لبنة لبنة، ويضع بين اللبنة ما يربط بعضها ببعض ثم يعود عليها كلها بما يغطي أحادها ويظهرها كالسبيكة الواحدة، ثم يكر أخرى يزيل ما خرج عن سمتها أو نبا عن حدها، وعلى قدر إتقانه تكون مهارته»⁽²⁾.

¹ - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص: 154.

² - فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، خصائص القرآن الكريم، ص: 39، 40.

فإذا أدركنا ذلك في كلام البشر، ماذا نقول عن كلام رب العالمين الذي هو فوق طاقة البشر، بحيث أعجز فصحاء العرب وهم كانوا يدعون أنهم أهل بلاغة وفصاحة، بل يتفاضلون فيما بينهم في فن القول وسحر البيان، إنه إعجاز القرآن الكريم وهو يسلك طرائق متنوعة من التجانس في سوره وآياته وبكل ما حواه من خصائص ومميزات في متانة سبكه وإحكام سرده، وأشكال النسق الفني والهيكل العام وأنواع وحدته، الذي تطرب له النفوس وتحشع له الأبدان، وتجعل كل قارئ أو سامع له يتأمل في سر هذا الجمال وعن هذا السبك المحكم.

وهناك عدد كبير من مفسري القرآن الكريم لهم نظرات صائبة وتحليلات دقيقة تدخل في إطار علم النص، فقد تحدثوا عن المناسبة بين آيات القرآن وسوره، وخصصوا في ذلك كتباً، وتحدثوا عن تماسك القرآن آيات وسوراً، وكشفوا في ذلك عن مبدئين مهمين: أحدهما أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، والثاني أن سياق القرآن كالسورة الواحدة.

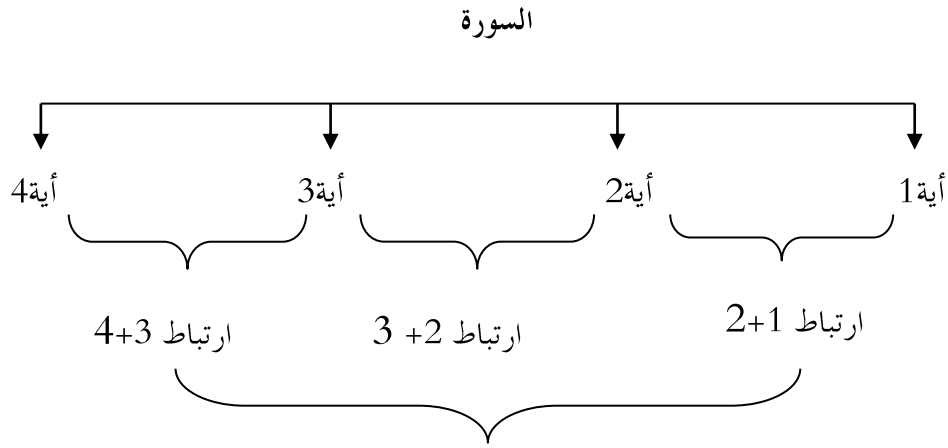
ولقد أشار البقاعي (ت885هـ) إلى قول شيخه^(*): «الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقته له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر في الأحكام والدوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك - إن شاء الله - وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة سورة»⁽¹⁾.

وعلى هذا يكون البناء الفني للسورة الكريمة من حيث انتظام الآيات في السور القرآنية، ومن حيث خضوع هذه الآيات إلى نظام خاص ألا وهو التلاحم العضوي الكامن بين هذه الآيات، من حيث صلة كل آية بأختها من جانب وصلة كل موضوع يطرح بموضوع آخر من جانب ثانٍ،

^(*) - يقصد به: أبو الفضل المشدالي البجائي المغربي (ت865هـ)، الذي أخذ عنه البقاعي المنهج الأفضل في التوصل إلى أوجه التناسب بين الآيات، وقد نص على ذلك في مطلع تفسيره، ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج1، ص: 17، 18.

¹ - برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج1، ص: 17، 18.

وبهذا تتحقق الوحدة العضوية بالتناسب بين أجزائها ومقاطعها، وقد ألمح العلماء قديما وحديثا على هذه الأهمية وأن مجموع السور القرآنية الكريمة التي تخضع لبناء هندسي خاص تضم جميع أجزاء السورة القرآنية في شكل بديع تحت هيكله معمارية مميزة.



بجعل القرآن كالكلمة الواحدة (نص موحد)

المبحث الأول: مقدمة السورة (الاستهلال):

يأتي الاستهلال بمعنى الابتداء، يقال: استهلت السماء، وذلك في أول مطرها، وحسن الابتداء والاستهلال: كما ذكر أهل البيان من البلاغة هو أن يتديء الشاعر أو الكاتب بما يدل على الغرض، وهو أن يتأق في أول الكلام لأنه أول ما يقرع السمع، ويجذب الانتباه به، ويأسر المتلقي سامعاً أو قارئاً له، مع حسن سبك، وعضوية لفظ، وصحة معنى⁽¹⁾.

وقد جاءت سور القرآن على سنن العرب في كلامهم؛ إذا يجعلون صدور خطبهم وقصائدهم دالاً على مرادهم ومُنْبئاً بمقاصدهم، ليكون السامع على بصيرة بما يتلقاه، كذلك جاءت مطالع سور القرآن متضمنة ما يُهدي قارئها وسامعها إلى مقاصدها، وقد تنبّه محمد عبد الله دراز إلى موقع مطلع السورة وخواتمها من بناء السورة فقال: «ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أنّ هناك تخطيطاً حقيقياً واضحاً محددًا، يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة، فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطها الرئيسية، ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتدخل فيه جزء مع جزء آخر، إنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة، وأخيراً تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة»⁽²⁾.

فإنّ فاتحة السورة تشير إلى أهم القضايا التي ستعالجها الآيات بعد ذلك، وتأتي خاتمة السورة لتعود للتذكير بها وتأكيدا وترسيخها. ولذلك اعتنى العلماء ببيان مناسبة مطلع السورة للموضوع الذي يغلب على آياتها تحت مُسمّى براعة الاستهلال.

إن للاستهلال أهمية كبيرة جداً، في أية سورة أو في أية قصة في الواقع يظل مُفصّحاً عمّا سوف تطرحه القصة أو السورة من أفكار ذات صفة كبيرة بهذه المقدمة أو بهذا الاستهلال، أو أنّ

¹ - ينظر: ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة مطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ج2، ص: 236. وعبد الفتاح لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1999، ص: 177. وأحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، ص: 59، 60.

² - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن: عرض تاريخي وتحليل مقارن، ص: 119.

الاستهلال في سياقات أخرى يأتي بمجرد كونه يُعنى بشيء معين فيستهل هذا الشيء المهم من خلال بداية السورة أو القصة به ثم ينتقل من ذلك إلى موضوعات أخرى، و«إن الكثير أو الغالبة من السور يمكن التنبؤ بموضوعاتها من خلال المقدمة التي تستهل السورة، حيث تطرح المقدمة بنحو مجمل موضوعاً أو أكثر، يأخذ تفصيلاته فيما بعد، أو يتكرر في مواضع متقاربة أو متباعدة من النص، حيث نجد بعض السور تحوم كلها على ما طرحته المقدمة من أفكار، ونجد بعضها تحوم - غالبيتها على ذلك، ونجد بعضاً ثالثاً يكرر موضوع المقدمة في مواقع متنوعة من النص... ولعل الكثير من السور القرآنية تخضع لهذا النمط الأخير من البناء؛ أي طرح (الموضوع) في المقدمة يتسلل بين حين وآخر إلى هذا الموضوع أو ذاك من النص ليصل بين أجزائه المتباعدة»⁽¹⁾.

فمقدمة السورة المراد به ما طرحه السورة من موضوع أو عدة موضوعات تشكل تمهيداً مُوجزًا لما سوف تُبينه وتُفصّلُه في الآيات اللاحقة حتى إذا انتهت وأدتْ وظيفتها تأتي آيات الخاتمة لتجمع خلاصة الأفكار المطروحة فتربطها بشكل دقيق مع مقدمة السورة لتصل بالنهاية إلى وضع الفكرة الرئيسية التي تهدف إليها بين يدي المتلقي، وهذا الأمر لا ينطبق فقط على الترابط في السورة الواحدة بل يتعداه إلى العلاقة بين السور، وعلى هذا يرى السيوطي (ت911هـ) أنّ كل سورة في القرآن الكريم مرتبطة بما قبلها بقوله: «إن القاعدة التي استقر بها القرآن: أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها وشرح له، وإطناج لإيجازه، وقد استقر معي في غالب سور القرآن في طولها وقصيرها»⁽²⁾.

ويضرب لذلك مثلاً بسورة الفاتحة فيقول: «افتتح الله سبحانه كتابه بهذه السورة لأنها جمعت مقاصد القرآن فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال... وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل مجملات الفاتحة... فسورة الفاتحة فيها: الإقرار بالربوبية والالتجاء إليها، وسورة البقرة

¹ - محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج1، ص: 22.

² - جلال الدين السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، ص: 65.

تضمنت قواعد الدين، فهي بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران مكملة لمقصودها، فهي بمنزلة الجواب على شبهات الخصم»⁽¹⁾.

يجب أن نؤكد بأن فواتح السور تقابل في الشعر ما يسمى بحسن الابتداءات أو براعة الاستهلال، أي حسن ابتداء الشاعر لقصيدته وإجادته فيها، لذلك تعرّض النقاد والبلاغيين لهذا الأمر بشيء من الاهتمام، فاختلفت التسميات بين (حسن الافتتاح) و(براعة المطلع) و(براعة الاستهلال)، إلّا أنها جميعاً تؤكد على التزام التأثّق في مواضع البدء وجعلها عذبة اللفظ، حسنة السبك، جزلة المعنى، فهي أول ما يطرّق الأسماع وفيها مكمّن التأثير، تتركز في بنائها الدقيق على إمكانية المبدع في الصياغة الأسلوبية بعيداً عن التكلف والتعقيد والتشاؤم والاقتضاب⁽²⁾، وهذا هو واقع طريقة العرب في كلامهم؛ فالبلاغة عندهم الإيجاز وبلوغ المعنى مؤكدين على أن يكون أول الكلام يدل على آخره، وآخره يرتبط بأوله⁽³⁾.

وعن أثر براعة الاستهلال في السامعين يقول أبو الهلال العسكري (ت395هـ): «وإذا كان الابتداء حسناً بديعاً، ومليحاً رشيّقاً، كان داعيةً إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، ولهذا المعنى يقول الله عز وجل: ألم، حم، وطس، وكهيعص، فيقرع أسمعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد، وليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده»⁽⁴⁾.

والاستفتاح بالحروف المقطعة أو بحروف التهجي في تسع وعشرين سورة، ونجد الحديث بعدها غالباً عن القرآن وإعجازه، وأنه من عند الله ربّ العالمين، وأنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم، ومن ذلك

¹ - جلال الدين السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، ص: 61، 63.

² - ينظر: والخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع، وضح حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2003، ص: 322- 325.

³ - ينظر: جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة - مصر، (د.ط.)، (د.ت.)، ج1، ص: 47، 75.

⁴ - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط1، 1952، ص: 437.

سورة البقرة ﴿الم﴾ بعدها الحديث عن القرآن ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ سورة آل عمران ﴿الم﴾ بعدها ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ سورة الأعراف ﴿المص﴾ ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة يونس ﴿الر﴾ وبعدها ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ سورة هود ﴿الر﴾ وبعدها ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ سورة يوسف ﴿الر﴾ وبعدها ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ سورة طه ﴿طه﴾ وبعدها ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ سورة النمل ﴿طس﴾ وبعدها ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ سورة يس ﴿يس﴾ وبعدها ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ سورة غافر ﴿حم﴾ وبعدها ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.. الخ.

وعند النظر في سورة هود "عليه السلام"، نجد مطلعا يتكون من حروف مقطعة وتُعدُّ في هذا

واحدة من تسع وعشرين سورة في القرآن الكريم وهي بذلك:

أولا: تتكون: من ثلاثة أحرف مقطعة في قوله تعالى: ﴿الر﴾⁽¹⁾، وقد أثار هذا النوع من

المطالع القرآنية جدلاً كبيراً في أوساط العلماء والمفسرين، وتناولها بالدرس الكثيرون قدماء ومحدثين، عرباً ومستشرقين، تعارضت آرائهم ومذاهبهم حول دلالة الحروف المفتحة بها والغرض منها، وأسفر هذا الجدل عن بروز اتجاهين نوجزهما بالآتي:

الاتجاه الأول: يرى عدم الخوض في الحروف المقطعة التي في أوائل السور القرآنية؛ لأن

فيها سرا انفرد الله بعلمه، فهي سر الله في القرآن، والله في كل كتاب من كتبه سرٌّ، وسرُّ هذا القرآن فواتح سوره؛ لذي أفضى أصحاب هذا الاتجاه بعدها من المتشابه الذي لا يعلم كنهه إلا الله - سبحانه وتعالى -، ومن المكتوم الذي لا يُفسَّر ولهذا قال أبو بكر الصديق "رضي الله عنه": «في كل كتاب سرٌّ، وسرُّه في القرآن أوائل السور. وقال الشعبي: إنها من المتشابه، نؤمن بظواهرها، ونكفل العلم فيها إلى الله عز وجل»⁽²⁾. وعن علي "رضي الله عنه" قال: «أن لكل كتاب صفوة،

¹ - وهي تشترك بهذا العدد من الحروف مع السور التالية: سورة يونس - سورة يوسف - سورة إبراهيم - سورة الحجر.

² - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص: 173. ومحمد الرازي فخر الدين، تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1981، ج 2، ص: 3.

وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي. وعن ابن عباس رضي عنهما أنه قال: عجزت العماء عن إدراكها⁽¹⁾.

ومقتضى هذا الاتجاه أن هذه الحروف مما ينبغي أن لا يتكلم فيه، ويؤمن بها كم جاءت من غير تأويل⁽²⁾.

الاتجاه الثاني: يرى ضرورة توجيه هذه الظاهرة وتخريج دلالاتها، وتلمس الفوائد التي تحتها، فاختلفت الآراء في ذلك وتشعبت إلى ما يزيد عن عشرين وجهاً، قال صاحب ملاك التأويل: «وهذا الذي نعتقد أنه الحق، لأن العرب تُحدّث بالقرآن، وطلب بمعارضته أو التسليم والانقياد. وبمعرفة أنه بلسانهم ومعروف مخاطبهم وعجرهم مع ذلك عنه قامت الحجة عليهم وعلى كافة الخلق، وإذا سلم هذا فكيف يرد في شيء منه خطابهم بما لا طريق لهم إلى فهمه؟ فلو كان هذا لتلقوا به ووجدوا السبيل إلى التعلل في العجز عنه»⁽³⁾.

وتشعبت الآراء في ذلك إلى ما يزيد عن عشرين وجهاً⁽⁴⁾، يمكن تخليص بعضها على سبيل المثال بالآتي:

1 - أن المراد منها تنبيه المخاطبين بها وإثارة استغرابهم وفضولهم فيكون ذلك داعياً لهم وباعثاً على إلقاء السمع لما يُتلى عليهم من الآيات والذكر الحكيم، قال أبو حيان الأندلسي: «وقال قوم هي تنبيه كما في النداء،... وقال قوم: إنَّ المشركين لما أعرَضوا عن سماع القرآن بمكة نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيستمعون القرآن بعدها، فتحت عليهم الحجة»⁽⁵⁾، والغرض كما ذكر الزرقاني هو: «أن قرع السمع في أول الكلام بما يعي النفوس فهمه أو بالأمر الغريب، دافع لها أن تصغي وتتيقظ وتتأمل وتزداد إقبالاً»⁽⁶⁾.

¹ - أبو السعود، تفسير أبي السعود المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 1، ص: 21.

² - ينظر: أحمد بن إبراهيم الثقفي الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من أي التنزيل، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1982، ج 1، ص: 173.

³ - المرجع نفسه، ج 1، ص: 173.

⁴ - ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص: 173-176.

⁵ - أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج 1، ص: 156، 157.

⁶ - محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج 1، ص: 189.

ومِمَّن اختار هذا الرأي صاحب تفسير (المنار) عند تفسيره لسورة الأعراف بقوله: «والمختار عندنا أنَّ حكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء حروف ليس لها معنى مفهوم غير مُسمَّى تلك الحروف التي يتركب منها الكلام هي تنبيه السامع إلى ما سيُلقي إليه بعد هذا الصوت من الكلام حتى لا يفوته شيء، فهي كأداة الإفتتاح (ألا هاء التنبيه)⁽¹⁾.

لهذا الرأي وجاهته، لا مناص من الإقرار بقوة الحجة فيه، ولا ملامة على تقبله أو الأخذ به بما أنه مقيماً لأساس الفكرة الجوهرية هنا، والتي مفادها اضطلاع هذه الحروف بمهمتها الإعجازية، وإقامتها لصروح التحدي في وجوه المشركين المبطلين.

2 - قيل أن المراد من هذه الحروف هو تحدي العرب وإعجازهم فهي «إشارة إلى حروف المعجم، كأنه قال للعرب: إنما تحديتكم بنظم هذه الحروف التي عرفتم»⁽²⁾، قال أبو السعود (ت951هـ): « وإليه جنح أهل التحقيق قالوا: إنما وردت هكذا ليكون ايقاضاً لمن تُحدِّي بالقرآن وتنبئها على أنه منتظم من عين ما ينتظمون منه كلامهم، فلولا أنه خارج عن طوق البشر، نازل من عند خلاق القوى والقدر لما تضاءلت قوتهم ولا تساقطت قدرتهم»⁽³⁾.

ودلالة التحدي تكمن هنا من حيث أن محمداً - صلى الله عليه وسلم -، أميٌّ والأمي يعرف التلفظ بالحروف فقط، وهذا يعني أن معرفة أسماء الحروف مقصورة على القراء والكتاب، فحينما يتكلم المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بهذه الحروف دون وجود أي ممارسة منه للكتابة والقراءة والدراسة فهو دليل واضح أن ذلك من عند الله "سبحانه وتعالى"⁽⁴⁾.

¹ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج8، ص: 296. وينظر: جلال الدين السيوطي، قطف الأزهار في كشف الأسرار، تحقيق: أحمد الحمادي، إصدار وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، 1994، ج1، ص: 159.

² - أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج1، ص: 157.

³ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج1، ص: 21.

⁴ - ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص: 175، وينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص: 189.

فهذا الكتاب الإلهي المعجز -الذي أوحى الحق "سبحانه وتعالى" آياته إلى نبي أمي ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه يمينه -مؤلف من جنس هذه الحروف التي افتتحت بها سورة هود ومثيلاتها. هذه الحروف هي مادة بناء هذا الكتاب وهذا الكلام، وهي في متناول المخاطبين به من العرب ومن دونهم، مع ذلك لم يستطيعوا صياغة مثله من مادة البناء تلك وقد توفرت لديهم، ثم هؤلاء زعموا أن النبي -صلى الله عليه وسلم -قد تَقَوَّلَه وافتراه، وتراهم غير قادرين على الإتيان بمثله أو بعشر سور مثله، لقد سَقَطَ في أيديهم، واستبدَّ بهم العجز، وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون.

3 -ومما قيل أيضا: هي أسماء للسور لتمييزها، فتكون علامة لما تميّزها عن غيرها من سور القرآن الكريم⁽¹⁾.

4 - كما قيل: أنه ورد عن العرب أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه... فأنزل الله هذا النظم البديع؛ ليعجبوا منه، ويكون تعجبهم هذا سبباً لاستماعهم، واستماعهم له يكون سبباً لاستماع ما بعده حينها ترقُّ القلوب وتلين الأفتدة⁽²⁾.

5 - كما قيل أنّ كلَّ حرف من هذه الحروف دال على اسم من أسماء الله -تعالى -وصفاته ويُعزَى هذا القول إلى ابن عباس رضي الله عنهما⁽³⁾.

ونحن نقول: أنّ هذه الأحرف لا يعلم مرادها إلا الله -سبحانه وتعالى -وذلك من عدة أمور منها:

¹ -ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج1، ص: 129. وينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص: 174، وينظر: جلال الدين السيوطي، قطف الأزهار في كشف الأسرار، ج1، ص: 161.

² -ينظر: الرازي فخر الدين، تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج2، ص: 7. وينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص: 175.

³ -ينظر: الرازي فخر الدين، تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج2، ص: 6.

أ - لم يثبت عن النبي الكريم ، ولا عن أصحابه أنهم أفصحوا عن معناها ، فلم يرد أي شيء من هذا.

ب - اجتهاد العلماء في تفسير هذه الأحرف فكلُّ له تفسيره الذي يختلف عن التفسير الآخر وبدون دليل قاطع.

ج - وصل العرب أعلى مستوى من الفصاحة والبلاغة فجاء القرآن بلغتهم وتحداهم بما برعوا به ، ومن بين ما تحداهم هذه الأحرف فعجزوا عن فهمها وتفسيرها.

د - أنّ هذه الأحرف تشير إلى حروف اللغة العربية التي يتكون منها القرآن الكريم. وهذا دليل الإعجاز ، ومما يدل على الترجيح أيضاً ، أنّ أغلب ما يذكره بعد هذه الحروف الكتاب.

و - ومن المحاولات الجديدة لتفسير الحروف المقطعة في فواتح السور ، تلك التي تُوضّح وجود علاقة تناسب بينها وبين موضوعات السورة عامة ، باعتبار الحروف أسماء وأدوات لها معان ترمز إلى مضامين السور ، فُتعدُّ بذلك من براعة الاستهلال للتناسب الواقع بينها وبين مضمون السورة⁽¹⁾.

ثانياً: ولتتضح لنا الروؤية أكثر يمكن الإشارة إلى علاقة هذا الاستهلال بالآية التي تليه في

قوله تعالى : ﴿ **أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** ﴾ (هود : 2).

إنّ معظم السور المفتحة بالحروف المقطعة تتحدّث بما لا يقبل الشك عن سمو القرآن ووصفه ، وإبراز مكانته ، كما أنّ الغالبية في السور القرآنية يمكننا أن نتنبأ بموضوعاتها من خلال مقدماتها التي تستهل السور بها ، حيث تطرح المقدمة بنحو مجمل مقاصدها وأفكارها ، كما أنّ هذا الإجمال في البداية سرعان ما ينحل إلى تفصيلات فيما بعد ، أو تكرر في مواقع متقاربة أو متقابلة من النص⁽²⁾.

¹ - ينظر: عبد الكريم الخزرجي ، الجوانب الفنية في فواتح السور القرآنية ، مجلة كلية الإمام الأعظم ، بغداد ، العدد 3 ، 2006 ، ص : 3.

² - ينظر: محمود البستاني ، دراسات في علوم القرآن ، مدينة العلم ، إيران ، ط 1 ، 1428 هـ ، ج 2 ، ص : 6.

ففي مقدمة سورة هود «تجيء هذه الآيات عن حقيقة دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ، أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنْ نِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ.. أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرَاهُ؟ قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟﴾. وفي قصص الرسل يرد عن حقيقة دعوتهم ؛ وعن المفاصلة بينهم وبين قومهم وأهلهم على أساس العقيدة»⁽¹⁾.

تبدأ سورة هود بهذا المقطع الذي يتحدث عن أحكام القرآن الكريم وتفصيله والمطالبة بتوحيده - تعالى - ، وبالتوبة وبالخوف من عذاب كبير. هذه الموضوعات سوف تنسحب على السورة الكريمة بنحو مُفَصَّلٍ بعد طَرَحِهَا في مقدمة السورة بهذا الإجمال.

إنّ في تفصيل ومعرفة المفردات المكونة للآية الكريمة فوائد في الإعجاز البلاغي والتّظمي وقد تنبّه إليه العلماء قديماً من ذلك يقول الخطابي (ت388هـ) : «اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا بدل مكانه غيره ، جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب... والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبيتها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضها..»⁽²⁾.

وللألفاظ ارتباط وثيق بالسياق الذي يبرز من خلالها إحكام الاتصال والتناسق والتآلف والتّظم البديع ، وهذا ما تنبّه له عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) بقوله : «وهل تجد أحداً يقول :

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد4، ج12، ص: 1844.

² - ينظر: محمد بن إبراهيم الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد، محمود زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط2، (د.ت)، ص: 29.

هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟، وهل قالوا - لفظة متمكنة ومقبولة - وفي خلافه - قلة ونايبة ومُستكرهة - إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكّن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والتنبؤ عن سوء التلاؤم، وأنّ الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً لثالية في مؤداها؟⁽¹⁾.

وبالتأمل نجد أن الآية المتصدّرة لسورة هود الكريمة مكوّنة من ألفاظ، هي: (كتاب - أحكمت، آياته - ثمّ - فصّلت - من لدن - حكيم - خبير).

كتاب: الكتاب في الأصل مصدر ثم سمي المكتوب فيه كتاباً، والكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه، وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ (النساء: 153)، فإنه يعني صحيفة فيها كتابة⁽²⁾. والكتاب يعني هذا القرآن الذي أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم -، وهو القرآن. فإطلاق صفة الكتاب على القرآن، سببها أنه مكتوب، وهو قرآن، لأنه مقروء⁽³⁾.

يقول ابن عاشور (ت 1393هـ): «والقول في الافتتاح بقوله (كتاب) وتنكيهه مماثل لما في قوله ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: 2)، في سورة الأعراف. والمعنى أنّ القرآن كتاب من عند الله فلماذا يعجب المشركون من ذلك ويكذبون به. ف (كتاب) مبتدأ، سُوِّغَ الابتداء ما فيه من التنكير للنوعية⁽⁴⁾.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 44 - 45.

² - ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط، محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت - لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص: 423. وابن منظور، لسان العرب، مادة (كتب)، ج 1، ص: 699.

³ - ينظر: محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، راجع أصله وخرّج أحاديثه: أحمد عمر هاشم، مطابع دار أخبار اليوم، مصر، (د.ط)، 1991، ج 10، ص: 6291.

⁴ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 11، ص: 314.

أما الطبري (ت 310هـ) فيقول: «ورُفِعَ قولُه: (كتاب) بِنِيَّةٍ: هذا كتاب. فأَمَّا على قولٍ من زعم أن قولَه: (آلر) مرادُ به سائر حروفِ المعجم التي نزل بها القرآنُ، وجُعِلت هذه الحروف دلالة على جميعها، وأنَّ معنى الكلام: هذه الحروفُ كتابٌ أَحكمت آياته. فإن الكتابَ على قولِه، ينبغي أن يكونَ مرفوعاً بقولِه: (آلر)»⁽¹⁾.

أُحْكِمْتُ: من حَكَمَ ف«الحاء والكاف والميم أصلٌ واحد، وهو المنع. وأوَّل ذلك هو الحُكْمُ، وهو المنع من الظلم. وسميت حَكَمَةُ الدابة لأنها تمنعها، ويقال: حَكَمْتُ الدابة وأحَكَمْتُها. ويقال: حَكَمْتُ السَّفِيهَ وأحَكَمْتُهُ، إذا أخذتَ على يديه»⁽²⁾.

وجاء في اللسان: «حكم الله سبحانه وتعالى أَحكَمُ الحاكمين، وهو الحكيمُ له الحكمُ، وقيل: الحكيمُ ذو الحكمة، والحكمةُ عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. وأحَكَمْتُ الشيءَ فاستَحَكَمَ: صار مُحَكَمًا؛ لأن حَكَمْتُ يكون بمعنى أَحَكَمْتُ فَرُدُّ إلى الأصل. وحَكَمَ الشيءَ وأحَكَمَهُ، كلاهما: منعه من الفساد»⁽³⁾، ويكون بذلك قوله (أحكمت آياته) نُظِّمَتْ نظماً رصيناً مُحَكَمًا لا يقع فيه نقض ولا خلل، كالبناء المحكم المرصف، أي: لا خلل فيها ولا باطل⁽⁴⁾.

يقول سيد قطب «أحكمت آياته، فجاءت قوية البناء، دقيقة الدلالة، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب، وكل إيحاء وكل إشارة ذات هدف معلوم. متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب، منسقة ذات نظام واحد»⁽⁵⁾. وحتى تكون قوة البناء دقيقة لا بد من «توازن هندسي لكل فتحة في البناء؛ حتى لا تكون الفتحات في البناء متوازية على خط

¹ - ابن جرير الطبري، الجامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط1، 2001، ج12، ص: 308.

² - ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (حكم)، ج2، ص: 91.

³ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (حكم)، ج12، ص: 140، 143.

⁴ - ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل في وجوه الأقاويل، ج3، ص: 181.

⁵ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص: 1851.

واحد، فتحدث شروخ في الجدران أو انهيار البناء كله، هذا هو إحكام البناء في عالم المُحسَّات. وشاء الحق سبحانه أن يصف القرآن، وهو الجامع لكل المناهج بأنه: (كتاب أحكمت آياته)⁽¹⁾.

وأحكمت آياته: في موضع رفع «صفة لـ(كتاب) ولك أن تجعل (أحكمت آياته) صفة مخصصة، وهي مسوغ الإبتداء. ولك أن تجعل (أحكمت) هو الخبر، وتجعل من لدن حكيم خبير ظرفاً متعلقاً بـ (أحكمت) (وفصلت)⁽²⁾.

أما من ناحية وجوه بلاغية في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ﴾ فيه توجيه كأنَّ الله "سبحانه وتعالى" يرشدنا للأخذ من هذا الإحكام ما يمنع فسادنا؛ لأن القرآن الكريم جاء هيئة تمنع الفساد فيه، وعقد منع الفساد يكون الإصلاح والصَّلاح⁽³⁾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف للترتيب مع للتراخي، كما هو شأنها في عطف الجمل لما في التفصيل من الاهتمام لدى النفوس؛ لأن العقول ترتاح إلى البيان والإيضاح⁽⁴⁾ فمعنى (ثم) في قوله (ثم فصلت) ليس للتراخي في الوقت، لكن في الحال، كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل، وكما تقول: فلان كريم الأصل ثم كريم الفعل⁽⁵⁾.

فصلت: والتفصيل: التوضيح والبيان، وهو مشتق من الفصل بمعنى التفريق بين الشيء وغيره بما يميزه، فصار كناية مشهورة عن البيان لما فيه من فصل المعاني، ونظيره: الفرق، كُنِيَ به عن البيان فسمي القرآن فرقاناً. وعن الفصل فسمي يوم بدر يوم الفرقان، ومنه في ذكر ليلة القدر في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (الدخان: 4)⁽⁶⁾، (ثم فصلت) فهو مُفَصَّلٌ في اللَّفْظِ أو في

1 - محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج10، ص: 6292.

2 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج11: ص: 314.

3 - المرجع السابق، ج10، ص: 6292.

4 - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج11: ص: 315.

5 - ينظر: فخر الدين الرازي، تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج17، ص: 186. وينظر:

الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل في وجوه الأقاويل، ج3، ص: 181.

6 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج11: ص: 315.

المعنى، ويتناول الجزئيات حتى أدق التفاصيل، وهو يتناول معاني كثيرة، وكل معنى تتطلبه العقيدة، قِمة في الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله⁽¹⁾.

قوله تعالى: (أحكمت... وفصلت) فيه طباق حسن؛ لأن المعنى: أحكمها حكيم وبينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور⁽²⁾.

يقول محمد عبد الله دراز: «إحكام من (حكيم) مُتقن لا خلل في صناعته، وتفصيل من (خبير) عالمٌ بدقائق الأمور وتفصيلها على ما هي عليه»⁽³⁾.

وأحكام الكتاب وتفصيله كما يذكر الشعراوي له غاية، وهي الغاية من المنهج كله، ويبينها الحق - سبحانه - في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (هود: 2)، فقد أحكمت آيات الكتاب وفُصِّلت لغاية هي: لا نعبد إلا الله، والعبادة هي طاعة المعبود للعباد فيما أمر، وفيما نهى⁽⁴⁾.

وفي قوله تعالى: ﴿فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1) ذكر ابن عاشور في شرح هذه الآية مايلي: «الحكيم مقابل... أحكمت، والخبير مقابل... فصلت، وهما إن كان متعلقى العلم والقدرة إذا القدرة لا تجري إلا على وفق العلم، إلا أنه روعي في المقابلة الفعل الذي هو أثر إحدى الصفتين أشد تبادراً فيه للناس من الآخر وهذا من بليغ المزاوجة»⁽⁵⁾.

قال سيد قطب في قوله تعالى: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ «أي يحكم الكتاب عن حكمة، ويفصله عن خبرة، هكذا جاءت الآية من لدنه، على النحو الذي أنزل على الرسول "صلى الله عليه وسلم"، لا تغيير فيها ولا تبديل»⁽⁶⁾.

1 - ينظر: تفسير الشعراوي، ج10، ص: 6293.

2 - ينظر: الزمخشري الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل في وجوه الأقاويل، ج3، ص: 182.

3 - ينظر: محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، حاشية، ص: 112.

4 - ينظر: محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج10، ص: 6298. ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،

ج11، ص: 65.

5 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج11، ص: 315.

6 - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد12، ج4، ص: 1852.

ومن خلال ما سبق تبين لنا أن هناك علاقة وثيقة بين فاصلة الآية وموضوعها حيث إن الآية تتحدث عن القرآن الكريم المعجز للعرب المحكم لآياته وتفصيلها من قبل الله الجليل - سبحانه - ، فناسب أن تكون فاصلة الآية مبينة لصفيتين عظيمتين من صفات الله تعالى :

- الأولى: (حكيم) فهو - سبحانه - حكيم في شرعه وحكمه وقضائه للناس أجمعين في الدنيا والآخرة.

- الثانية: (خير) فهو - سبحانه - خير بأحوال عباده وشؤون خلقه، فناسب أن تختتم الآية الكريمة بهذه الفاصلة لما بينهما من علاقة واضحة وجلية.

وفي هذا الشأن يقول رشيد حمداوي: «وكثيراً ما يستفتح السور القرآنية بوصف القرآن بالإحكام والتنويه بعلو مصدره وغظمة المتكلم به سبحانه تنبيهاً للقارئ على عظم قدر ما يتلقاه وسمو مضمونه، وطرده كل الوسوس التي تهجس في نفس السامع من جهة تعدد موضوعاته وتشعب معانيه أو غرابة أحكامه. ومن تأمل مطالع معظم سور القرآن التي تتسم بالطول نسبياً وجد هذا الأمر مُطرداً على نحو يجعلنا نجزم بوجود مقصود عظيم وراء ذلك، وكلما كانت السورة مجالاً فسيحاً لتعدد موضوعاتها كلما كان التأكيد على عظمة القرآن أشد، والتنبيه على إحكامه وإعجازه أقوى»⁽¹⁾.

من هنا نلاحظ كيف أن للاستهلال أهمية كبيرة جداً؛ حيث إن الاستهلال في أية سورة يظل مُفصلاً عما سوف تطرحه من أفكار ذات صفة كبيرة بهذه المقدمة أو بهذا الاستهلال، أو أن الاستهلال في سياقات أخرى يأتي بمجرد كونه يُعنى بشيء معين فيستهل هذا الشيء المهم من خلال بداية السورة أو القصة به ثم ينتقل من ذلك إلى موضوعات أخرى ولكن مجرد الاستهلال كاشف عن ما يُطرح سواء ما يطرحه سوف ينسحب على الأجزاء اللاحقة من السورة أو القصة أو كان مجرد تمهيد يحس بكونه ذا أهمية فحسب.

¹ - رشيد حمداوي، وحدة النسق في السورة القرآنية فوائدها وطرق دراستها، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد3، ص: 143.

وبهذا العرض لمعاني مفردات الآية الكريمة ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ، أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنْ نَحْنُ لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ وَبَشِيرٍ﴾ (هود: 1، 2)، تتضح لنا أمور عدّة هي:

1 - للافتتاحية في السورة خاصية مميزة في تركيز للأفكار والموضوعات، وحشدها في معانٍ عميقة، تتفرع تدريجياً لتنسحب في وشائج عضوية تمتد لمساحات واسعة في السورة بأكملها، وهو الذي سنلحظه بالدراسة والتفصيل في المباحث اللاحقة.

2 - يُعدّ المطلع هنا مقدمة ذات (بنية كلية) مكونة من ألفاظ متلاحمة ومتماسكة، ومعانٍ ذات ترابط فكري قوي، يجتمع الكل فيها ليعطي هيئة تركيبية مميّزة، لها وظيفتها الدلالية والجمالية في آن واحد.

3 - موقع الآية بعد الحروف المقطعة لتدلّ دلالة قوية على عِظَمِهَا وأهميّتها الكُبرى بالنسبة لباقي الآيات، كما لها القدرة على إثارة الانتباه وجذب العقول والقلوب بشكل لا يُدرك إعجازه غير الله - تعالي -، وذلك ما نلمسه في استهلال السورة بآية هي بالأصل كتاب محكم الآيات ومفصل من لدن عليم خبير.

المبحث الثاني: البنية الهيكلية القصصية ووحدتها العضوية:

إذا تحدثنا عن البناء الهيكلي وما يتصل ببناء السورة الكريمة، من حيث علاقة الآيات ببعضها والموضوعات بعضها مع الآخر، والعناصر مع الموضوعات والآيات بنحو يتلاحم فيها النص القرآني الكريم من خلال ما يُسمى بالبناء الفني للسور القرآنية الكريمة، كما أنّ الوصل بين أجزاء السورة القرآنية يتم إمّا من خلال التداخيات الذهنية أو من خلال النمو العضوي أي السببية، أو من خلال أساليب أخرى منها الأسلوب المجانس أي التجانس بين موضوع يتناوله قسم من السورة ثم تنتقل السورة من القسم المذكور إلى قسم جديد ولكن من خلال وجود عنصر تجانس بين هذين الموضوعين.

المطلب الأول: البناء القصصي:

تعريف القصة لغة: فالقصة لغويّاً «يدلّ على تتبّع الشيء، ومن ذلك قولهم: اقتصت الأثر، تتبعته»⁽¹⁾، وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَارْتَدًّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (الكهف: 64).

اصطلاحاً: هي: «عمل فني قائم على بناء هندسي خاص، يصنّع كاتبها واحداً أو جملة من الأحداث والمواقف والأبطال والبيئات، عبر لغة تعتمد "السرد" أو "الحوار" أو كليهما، وتتضمن هدفاً فكرياً محدداً يُخضع الكاتب عناصره إلى ما هو "ممكن" أو "محمّل" من السلوك، وذلك وفق عملية اصفاء خاصة للعناصر المذكورة»⁽²⁾.

¹ - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، 1979، مادة (قص)، ج 5، ص: 11.

² - محمود نعمة الجياشي، بحوث في النبوة الخاصة "يوسف الصديق" رؤية قرآنية، منشورات دار فرقد، ط 1، 2005، ص: 9.

وعملية القص والحكاية هي: «مجموعة أحداث مرتبة ترتيباً سببياً تنتهي إلى نتيجة طبيعية لهذه الأحداث. هذه الأحداث التي تدور حول موضوع عام هو التجربة الإنسانية»⁽¹⁾؛ فالقصة تخضع لعناصر "مُصنّعة" وهذا يعني أنّ القاص يسعى من خلالها إلى بيان المعنى^(*) من خلال نمو الأحداث فتظهر في هذه الأحداث طبيعة الشخصيات وخصائصها وصفاتها النفسية وميولها، وكذلك الوظيفة التي تشارك بها في الأحداث⁽²⁾. وهذا المفهوم للقصة هو على الضد تماماً من القصة القرآنية التي تُعنى بنقل الأحداث الحقيقية وفق اصطفاء هادف للعناصر التي تُضيء الأفكار المستهدفة من النص القرآني الكريم.

وإذا كان هذا كذلك؛ «فالبناء القصصي بناء فني ذو مقومات وعناصر وأهداف، يركز في تشكيله وتكوينه على القصة التي هي أسلوب راقٍ من أساليب التعبير عن الرؤى والأفكار وتوصيل المعاني، والتي هي عمقها وجوهرها، عبارة عن مجموعة أحداث مرتبة ترتيباً سببياً منطقياً، ومتسلسلة في حلقاتها، قائمة على التداعي^(**)، ذات بداية ونهاية ووحدّة عضوية،

¹ - محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، ط1، 1994، ص: 504.

^(*) - «فخلف الحوادث يقع المعنى، وهذا المعنى يقبله القاريء أو يرفضه، مُعتمداً على ما إذا كان المؤلف قد كان قادراً على إقناعه بأن النتيجة تتفق سواء مع خبرته بالحياة أو مع الحياة كما يصورها المؤلف... فالقصة إذاً إنما تُحدث لتقول شيئاً، لتُقرّر فكرة، والفكرة هي الأساس الذي يقوم عليه البناء الفني للقصة»، عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه: دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة مصر، (د.ط)، 2004، ص: 109.

² - شيخ شايد حسيب، أسلوب القصة في القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه، إشراف: محمد ضياء الحق يوسف زني، الجامعة القومية للغات الحديثة، إسلام آباد، باكستان، 1427هـ/2006م، ص: 53.

^(**) - «وفي مثل هذا النظام من أنظمة تشكّل المعمار الفني للقصص القرآني يتجزء المتن القصصي إلى عدة محاور تتعاصر جميعاً زمانياً ومكانياً، ويتوالد بعضها من رحم بعضها الآخر بحيث يستدعي السابق اللاحق ويمهد له في الوقت ذاته، ومن ثم يكون تقديم شخصية مناسبة وسبباً لتقديم أخرى، ويكون قصص حدث سيقاً لقصص أخرى»، عبد المطلب محمد زيد، بنية المعمار القصصي في القرآن الكريم، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الرسالة 269، الحولية رقم 28، ديسمبر 2007، ص: 51.

وحبكة تتصاعد فيها الأحداث وتنمو إلى أن تصل إلى نقطة التآزم وذروتها ومن ثم يعقبها الحل والانفراج والنهاية»⁽¹⁾.

والقصة التي تعالج عادة لمحة مُحدّدة من الحياة وقطاع معيّن من قطاعاتها، لها مقومات وعناصر لا يقوم لها ببيان ولا يستقيم لها حال إلا بوجودها، وتلك المقومات التي تستند إليها القصة مُوظّفة في سبيل الفكرة أو الموضوع العام الذي يُعدُّ أهم عنصر من عناصرها، تعقبه في الأهمية الأحداث، التي تبدأ عند نقطة وتنمو وتتصاعد بتدرج لتصل إلى النهاية، يعقبه عنصر آخر هو الشخصية المحرّكة للأحداث، ثمّ الزمان المسجّل للحدث وعنصر المكان هو الوعاء الذي يحتضن فيه الأحداث والأشخاص والحوار الدائر بينها، ومن ثم الحوار والأسلوب والحبكة^(*) القصصية والصراع والعقدة التي تتجه إلى ذروة التآزم ومنتهاه، ومنها تنحدر القصة نحو النهاية التي هي لحظة تنويرية قادرة على إقناع المتلقي وإيجاد تفسير معقول له، وكذلك غايتها وأهدافها التي تعدّ عنصراً مهماً من عناصره، هذا فضلاً عن الأسلوب المتبع في صياغة الأفكار والتعبير عن كل ذلك⁽²⁾.

¹ - فخريّة غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني، ص: 133.

^(*) - للحبكة دور بارز في حوادث القصة وفي إحكام بنائها وهي «عملية نمو للأحداث وتطورها وتخلّق من الدّاخل، فالإطار الذي تدور حوله الأحداث هو ما يُعنى به (الحبكة الفنية) للقصة، أي تترابط الأحداث في حالة صدورهما عن الشخصيات ترابطاً وثيقاً يكشف عن منطق مبرر، بحيث يتكون من مجموعها المتنامي وحدة ذات دلالة مُحدّدة، وبهذا تتكاثر الأحداث وتتغير في نمو واطراد نحو (العقدة) أو (قمة الأزمة) حيث تبدأ في (الانكشاف والتنوير)»، علي عبد الخالق علي، الفن القصصي: طبيعته، عناصره، مصادره الأولى، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة - قطر، (د.ط)، 1987، ص: 42.

ويفرّق النقاد بين (الحبكة والحدث) على أساس أنّ الحدث يرتكز على السرد والتتابع، أما الحبكة فهي تعتمد على منطقية تتابع الأحداث، وبمعنى آخر يكون السؤال في الحدث ماذا بعد ذلك؟ أمّا في الحبكة، فالسؤال هو لِمَ حدث ذلك؟، ينظر: عبد القادر أبو شريفة، حسين لافي قزق، مدخل إلى تحليل النص الأدبي، دار الفكر، عمان - الأردن، ط4، 2008، ص: 128.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص: 128، 129.

إنّ الإنسان شغوف بما يستهويه من فن القول وبراعة التعبير وحسن التصوير لما له من تأثير على النفس البالغ مَبْلَغِ السُّحْرِ، فإنّ القرآن الكريم يستعين به ويسخره في سبيل تحقيق مقاصده ويوظفه توظيفاً مُعْجِزاً في سبيل تحقيق غايته الكبرى المتمثلة في هداية الإنسان للتي هي أقوم «وفي النَّصِّ القصصي يتم تنظيم النَّصِّ تنظيمًا دلاليًا منطقيًا، تتسلسل فيه المعاني والمفاهيم والقضايا على نحو منطقي مترابط ؛ أي: إنّ يعتمد في تكوينه وفي بنائه على الإحكام والمتانة وانشداد الوحدات والمقاطع بعضها إلى بعض في سبيل تكوين موضوع محوري جوهري عائمة حول القصة ودائرة في فلكه وهذا ما يتحقق للبناء القصصي أعلى درجات الانسجام»⁽¹⁾.

وتأسيساً على ذلك ؛ فإنّ البناءات الفنية احتياجاً إلى التماسك، وأكثرها لُصُوقاً بمفهوم الانسجام الذي يُضاهي ما كان يُعبّر عنه قديماً بمصطلح الحبك^(*) القائم على التّفنن في ترتيب الأحداث، وتتابعها كما يتجلى في سور القرآن التي تقوم على معيار الانسجام⁽²⁾؛ فالانسجام يعمل على بناء النَّصِّ أكثر ترابطاً وأكثر تماسكاً، وبه يصل النَّصُّ إلى غاية إبداعه، هذا الأخير الذي «يضمن التتابع والاندماج التدريجي للمعاني حول موضوع الكلام»⁽³⁾.

وهو ما نلتمسه في القصة القرآنية التي حققت الفرادة في متانة بنائها وقيامها على منهج متكامل متسق في الشكل، منسجم في البعد الدلالي، تتسم بالفرادة في الأسلوب، والدقة في الانتقاء، والوضوح في النهج والغاية، والواقعية والصدق التام.

¹ - فخرية غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني، ص: 134.

^(*) - هناك من يطلق على معيار الانسجام بمصطلح (الحبك)؛ لأنه يتم به احتباك المفاهيم والموضوعات، من خلال العلاقات الدلالية.

² - ينظر: فخرية غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني، ص: 135.

³ - منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، بيروت - لبنان، ط1، 2004، ص: 133.

المطلب الثاني: خضوع القصة لوحدة السورة أو الغرض الديني:

إنّ البناء القصصي مشدودٌ بعضها إلى بعضٍ، فالشخص ترسم الملاحم والزمان يظهرها، والمكان يحدد أبعاد الأحداث، والأحداث تُشكّل المتن، والصراع تُثر المشاهد، والعُقدة لحظة انشداد الصراع، واللغة وسيلة لإعراب المنقول، والتّظّم إدخال المكتوب ضمن المقبول المعقول، والنهاية هي اللحظة المتظرة⁽¹⁾.

وتمتزج القصة في القرآن الكريم بموضوعاتها امتزاجاً عضوياً لا يدع مجالاً للفصل بينها وبين غيرها من موضوعات السورة، بل إنّ هذه القصة تجيء في معرض الاستشهاد على الأمر الذي تعرض له السورة، سواء في العقيدة أو في التشريع أو غير ذلك، وتتعدّد أساليب القرآن في التّخلص إلى القصة والخروج منها، وطريقة عرضها في ثنايا الموضوع.

لقد كان من أغراض القصة في القرآن الكريم هو بيان أنّ طرق الأنبياء في الدعوة مُوحّدة، وأنّ استقبال قومهم لهم أمر متشابه، إضافة إلى أنّ الدّين من عند الله واحد، وهو قائم على أساس واحد، وتبعاً لهذا كانت تردّ قصص كثيرة للأنبياء مجتمعة ومكرّرة فيها طريقة الدّعوة، على نحو ما جاء في سورة هود "عليه السلام"⁽²⁾.

ومن آثار خضوع القصة في القرآن الكريم لوحدة السورة عدم الالتزام بالترتيب الطبيعي لحلقاتها، فلا ترد القصة إلا إذا تطلبها المقام، فيذكر الجزء الذي له علاقة بموضوع السورة، فمرة تُعرض حلقة من أول القصة، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها؛ وتارة تُعرض كاملة، وتارة يُكتفى ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك، حسبما تكمن العبرة في هذا الجزء أوذاك، وبحسب موضوعات السورة وأهدافها ومقاصدها، أو للمعنى الخاص الذي عرض القصص لبيانه

¹ - ينظر: يوسف حسن حجازي، عناصر الرواية، موقع فن القصة، بحث منشور بتاريخ: 2011/4/25، على

الرابط: <http://astoryblags Pd.com>.

² - ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص: 149، 150.

وإثباته⁽¹⁾، و«من المؤكد أن القصص يردُّ في سياق السورة ليؤدي وظيفته فيه، وقلَّ أن تردَّ قصة بكل حلقاتها في سورة واحدة، وإنما يأتي في سياق كل سورة من حلقاتها ما يناسب موضوع السورة ومحورها وأهدافها، وهذا مظهر آخر من مظاهر وحدة السورة وتناسب معانيها»⁽²⁾.

ومن آثار خضوع القصة في القرآن الكريم للغرض الديني أنها تتمزج التوجيهات الدينية بسياق القصة، قبلها وبعدها وفي ثناها كذلك، وهي ما تُسمَّى (بالتعقيبات)⁽³⁾، ومن بين ما يُذكر من التوجيهات⁽³⁾:

- 1 - فمرة يأتي في مطلعها ملخص يسبقها، ثم تأتي التفصيلات بعد ذلك من مبدئها إلى نهايتها. وذلك كطريقة قصة "أهل الكهف".
- 2 - ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها، ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها. وذلك كقصة موسى في سورة القصص.
- 3 - ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص، ويكون في مفاجأتها الخاصة ما يُعني. مثل قصة مريم عند مولد عيسى، ومفاجأتها، وقصة سليمان مع النمل والهدهد وبلقيس.

¹ - ينظر: بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط1، 1994، ص: 229.

² - أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، ص: 67.

³ - استعمل هذا المصطلح بعض علماء الدراسات القرآنية كابن الزبير الغرناطي (ت708هـ) صاحب "ملاك التأويل"، والسجلماسي (ت704هـ) صاحب "المنزح البديع"، وأحمد أبو زيد صاحب كتاب "التناسب البياني في القرآن". والمراد "بالتعقيب" على الآيات؛ ذلك الجزء أو المقطع الذي يأتي في ختامها متضمناً معنى مناسباً لمعناها، مع زيادة في البيان ومحافظته على وحدة الإيقاع، ومن أمثلته: قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: 20)، فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعقيب مناسب لما تضمنته الآية من وعيد وإنذار للمنافقين، ومناسب لوحدة الإيقاع في رؤوس الآيات.

³ - ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص: 168، 169.

4 - ومرة تكون القصة على شكل تمثيلية. فتكون ألفاظها نفسها هي المنبهة إلى ابتداء العرض ، ثم تنساب القصة تتحدث عن نفسها بواسطة أبطالها ، كما في قصة إبراهيم وحواره مع ربه ، وأولاده في حديث طويل.

ومن آثار خضوع القصة للغرض الديني - كذلك - نجد التكرار وهو أن ترد القصة الواحدة مكررة في مواضع شتى ، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها - غالباً - إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها. أمّا جسّم القصة كله فلا يُكرّر إلا نادراً ، ولمناسبات خاصة في السياق⁽¹⁾ ؛ لأن التناسق بين حلقات القصة التي تُعرض والسياق الذي ترد فيه هو الغرض المقدم ، أمّا القصة كلها فلا تتكرر إلا نادراً ولكنها في هذه الإعادة تُلبس أسلوباً جديداً يناسب السياق الذي وردت فيه ، فالقصة ليست لذاتها بل لتتلاحم مع موضوع السورة ، وهذا في قصص القرآن كله.

أمّا عن بعض الأسرار الكامنة وراء هذا التكرار ما قاله ابن الأثير (ت 637هـ) : «فاعلم أنّه ليس في القرآن مكرّر لا فائدة في تكريره ؛ فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه ، فانظر إلى سوابقه ولواحقه لتكشف لك الفائدة منه»⁽²⁾ فكل مرة تعرض فيها القصة تكشف عن جانب مهم من جوانبها ، أو تُجسّم صورة من صورها ، أو تُكمل حدثاً من أحداثها.. الأمر الذي لا يمكن أن يتم في عرضٍ واحدٍ مستقل ، ودون أن يقع في الأسلوب اضطراب ، أو تناقض ، ولا حتى ثقل ، لهذا التكرار المتصل.

وما يؤكد خضوع القصة لوحدة السورة ، كونها تتميز بأنها تمتزج بموضوعات السورة التي ترد فيها امتزاجاً عضوياً لا مجال فيها للفصل بينها وبين غيرها من موضوعات السورة ، بحيث لو حذفنا القصة من موقعها الوارد في السورة لاختل المعنى ، لأن القصة تسهم في بيان مضمون النص وإيضاحه للقارئ ، فلو حذفنا على سبيل المثال ، قصة الغراب التي وردت أثناء الحديث عن قصة

¹ - ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص: 155، 156.

² - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2، ص: 160.

ابني آدم (قابيل وهابيل) لما استقام المعنى، لأن الغرض من ذكر الغرابين كان لحكمة إلهية لبيان حكمة دفن الموتى.

والقصة القرآنية « بيهيتها وبنائها الخاص تُعدُّ أكبر من مجرد عملية بناء فني كالتي نعرفها في القصة المُؤَلَّفة [تأليف بشري] كنوع من الأنواع الأدبية المعروفة، إنها نوع من الإعجاز البنائي أشبه ما يكون بنظام فني دقيق لعملية البناء هذه، يصعب على العقل البشري اختراق جميع أبعاده، وإن حاول الاجتهاد لإدراك بعض أسرارهِ»⁽¹⁾.

فالإبداع القصصي في القرآن لا يتأتى إعجازه وجماله وصدقه من ناحية اللفظ أو من ناحية المعنى، أو من ناحية الحدث، أو من ناحية النسق العام، ولكن يتأتى من المنهج الكامل الفريد، المتمازج، الذي يذوب كل عنصر من عناصره في قلب العنصر الآخر⁽²⁾.

إنَّ القصة إذا لم تكن مستقلة كما في قصص (سورة هود) توظف في الغالب الأفكار التي تطرحها السورة الكريمة فتكون القصة عنصراً واحداً مع العناصر المتنوعة تصب جميعاً في الهدف الذي تستهدفه السورة القرآنية الكريمة وجميع القصص في هذه البنية هو صلة هؤلاء الأنبياء الوثيقة بالله - تعالى -، من حب وولاء وطاعة وعبودية من جهة، وحول صلتهم الأسرية (الاجتماعية) مع أَرْحَامِهِمْ وَأَسْرِهِمْ ومع أقوامهم من جهة ثانية⁽³⁾.

¹ - كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم (دراسة بنائية جمالية تطبيقية)، ص: 100.

² - محمد قطب عبد العال، نظرات في قصص في القرآن، دعوة الحق، تصدرها رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة، العدد 77، 1988، ج1، ص: 44.

³ - ينظر: محمد الحسناوي، دراسة جمالية بيانية في أربع سور (الإسراء - الكهف - مريم - طه)، دار عمان للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2006، ص: 135.

المطلب الثالث: القصص المنتقاة في السورة الكريمة:

تتضمن سورة هود "عليه السلام" كما هو طابع كثير من السور، مجموعة قصصٍ تتحدث عن المجتمعات البائدة؛ أي قصص الأنبياء الذين واجهوا مجتمعات منحرفة لم تنفعها الخطابات الموجهة إليهم في الإصلاح، حيث ترتب على ذلك طابع متماثل من مصائرهم، وهو الإبادة التامة لتلك المجتمعات خلا بعض الأفراد، فجاءت مُرتبة في السورة حسب ورودها التاريخي؛ بداية بقصة نوح، ثم هود، ثم صالح ويُلمَّ بإبراهيم في الطريق إلى لوط، ثم شعيب، ثم إشارة مُقتضبة لموسى "عليه السلام"... وهذا الترتيب مقصود لأنه يُذكر التالين بمصير السالفين على التوالي⁽¹⁾؛ وقد تضمّن سبعة مقاطع متآخية في موضوع واحد هو القصص وهي:

1 - جاء القصص في سورة هود مبتدئاً بقصة نوح "عليه السلام"، من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (هود: 25) إلى قوله تعالى: ﴿تَلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: 49).

2 - قصة هود والذي سُميت السورة باسمه تخليداً لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله، من قوله تعالى: ﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (هود: 50) إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ (هود: 60).

3 - قصة صالح "عليه السلام"، مع ثمود وما آل إليه عنادهم وكفرهم وهي القصة الثالثة في السورة، من قوله تعالى: ﴿وَالِىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود: 61) إلى قوله تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ (هود: 68).

¹ - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص: 1870.

4 - قصة إبراهيم "عليه السلام" ، وبشارة الملائكة له بإسحاق ولدًا له ، وهي القصة الرابعة ، من قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾ (هود : 69) إلى قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (هود : 73).

5 - قصة نبي الله لوط "عليه السلام" ، وما حلّ بقومه من نكال ودمار وهي القصة الخامسة ، من قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (هود : 77) إلى قوله تعالى : ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود : 83).

6 - قصة شعيب "عليه السلام" ، مع أهل مدين وهي القصة السادسة ، من قوله تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (هود : 84) إلى قوله تعالى : ﴿كَانَ لَمْ يَخُنُوا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتِ ثَمُودُ﴾ (هود : 95).

7 - قصة موسى "عليه السلام" مع فرعون ، وفي جميع هذه القصص عبر وعظات ، من قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (هود : 96) إلى قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لِيُوفِّيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (هود : 111).

وما يلحظه المتأمل في هذه القصص التي وردت في مضامين سورة "هود عليه السلام" ، يجد أنّها جاءت منتقاة في حلقاتها ، ومُناسبة مع غايات التّنزيل وكلّتا الميزتين (التناسب والانتقاء) مرّدهما إلى علة واحدة وهي خضوع القصة القرآنية للغرض الديني التي تكون القصة سبقت لأجله «فالقرآن كتاب دعوة لا كتاب تاريخ حتى تأتي القصة في جملة واحدة في مكان واحد ، بحيث يستخلص منها حوادث التاريخ مُرتبة حسب وقوعها ، ولكن للقصة هدفاً آخر غير الفن والتاريخ ،

وأنّ تحقيق هذا الهدف يقتضي أمرين: عدم الاستغراق في القصة بما يزيد في الحاجة، وأن يركز من أحداثها على ما جيء شاهداً عليه لأجله⁽¹⁾.

المبحث الثالث: البناء الهيكلي العضوي لعناصر القصص في سورة هود:

تتمتع القصة بعدد من المزايا الأسلوبية منها: التفاف الأحداث حول موضوع معين على قدر من الأهمية الإنسانية، سيرها مخطط واع ينظم تعاقبها نحو غاية يترقبها المتلقي، أو تفاجئه بأسلوب لا يخلو من التشويق، والبساطة، ووضوح القصد، مع التخفيف من الشرح والوصف، والاعتماد على التلميح والاستنتاج. ومنها أيضاً انسجام أشخاص القصة في ترتيبهم وكلامهم، مع مراعاة الحفاظ على حيويتهم من خلال تطورهم تبعاً للأحداث، ولعل ميزة هذه المزايا هي الاهتمام بالحبكة القصصية، من حيث التمهيد لها، وتصوير تعقيداتها وكيفية حلها.

إن القصة هي مجموعة من أحداث أو مواقف أو بيئات أو أشخاص أو هي جميعاً أو هي في البعد من ذلك، نقول بما أن هذه العناصر تتأزر فيما بينها من جانب وبما أن ثمة لغة هي السرد أو الحوار تتأزر مع ذلك أيضاً بالإضافة إلى أن ثمة عناصر أخرى تتصل بالزمن وتقطيعه نقول كل ذلك لا يتم إلا وفق تركيب هندسي خاص، ويمكن أن نُشير إلى أنّ كل جزء من أجزاء القصة القرآنية الكريمة إنما يحتل موقعاً هندسياً مُعيّناً يعكس أثره أو تعكّر صداه على سائر الأقسام ويمكننا أن نشير إلى المقاطع القصصية المتداخلة في سورة هود "عليه السلام"، هذا التداخل يمكن أن يدرس عبّرَ ما يُسمّى بـ:

البناء المقطعي (العمودي): ويقصد به أن يتكوّن النص من مجموعة من المقاطع، ويُشكّل كلّ مقطع وحدة، لها كيانها الخاص ودلالاتها، ويرتبط كل مقطع بآخر ارتباطاً وثيقاً؛ ليكون بناءً متكاملًا من النواحي العضوية، والمنطقية والنفسية، وبه تُشكّل الصورة الكليّة، خاصة وأن سور

¹ - محمد عبد الله عبده دبور، أسس بناء القصة من القرآن الكريم، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، إشراف: فتحي محمد أبو عيسى، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، المنوفية - مصر، 1996، ص: 46. وينظر: كاظم الظواهري، بدائع الإضممار القصصي في القرآن الكريم، دار الصابوني، دار الهداية، ط 1، 1991، ص: 41.

القرآن الكريم أبنية متكاملة اللبنة يتحقق هذا التكامل عن طريق الانسجام والتشابك والاتحاد بين مقاطعها ووحداتها وهذا لِبُلُورَة فكرة عامة وموضوع كلي⁽¹⁾، وهناك من يطلق على هذا النوع من البناء بـ (بنية التابع)⁽²⁾.

وتعتمد "بنية التابع" تقنية مغايرة من البناءات الأخرى: "البناء الدائري"^(*)، والبناء المتموج

¹ - ينظر: رائد مصباح الداية، البناءات الجمالية في النص القرآني، ص: 297، وينظر: فخريه غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني، ص: 84.

² - ينظر: عبد المطلب محمد زيد، بنية المعمار القصصي في القرآن الكريم، ص: 62.

^(*) - البنية الدائرية أو البناء الدائري: ويطلق عليه أيضاً البناء الأفقي: «وهو بناء يبدأ بموقف معين أو لحظة نفسية تتم فيه العودة مرة أخرى إلى الموقف نفسه لتختتم به، إذ ينطلق النص من لحظة شعورية ويعود إليها في نهاية النص مُكرِّراً الكلمات ذاتها التي بدأ منها أو مضمون الفكرة نفسها الذي يبرز الموقف الشعوري». فخريه غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني، ص: 76، 77. وينظر في تفصيل هذا النوع من البناء: بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد الأدبي الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان/ الدار البيضاء - المغرب، ص: 160، 161.

والبناء الدائري الأفقي في السورة القرآنية: هو أن تبدأ السورة بموضوع معين، أو تلك البنية التي تدور حول دائرة واحدة تنظم القصة من بدايتها لنهايتها، وذلك مثلما يتجلى بنية (الخروج والعودة) التي تضفر قصة أهل الكهف في ظفيرة واحدة، وأيضاً قصة يوسف التي تنظمها بنية (الحلم والنبوة) وتنتهي بطرح الموضوع ذاته، ينظر: فخريه غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني، ص: 76، 77. وينظر: عبد المطلب محمد زيد، بنية المعمار القصصي في القرآن الكريم، ص: 19.

والبناء المتموج (البناء اللولبي): هذا الضرب من البناء يعتمد على الدوران، بحيث تتداخل مكونات الصورة والموضوع فيما يشبه الشكل الحلزوني، حتى كأنها تبدو مستقلة بالنسبة للمتلقي، في حين هي مترابطة يربط بينها الموقف الشعوري الأول، ونجد لهذا البناء من التخطيط الهندسي لسور القرآن الكريم وموضوعاتها من حيث علاقتها مع بعضها بعضاً في نطاق السورة الواحدة على «تداخل مجموعة من صور الموضوعات بحيث يكون لكل مقطع في السورة تشكيل دورة متكاملة أو حلقة متواصلة تصل إلى حد الإستقلال بذاتها، بيد أنها تظل مرتبطة ارتباطاً موضوعياً ونصياً بالحلقات الأخرى، كلما أوشكت الحلقة على الانتهاء عادت إلى نقطة البداية في حلقة جديدة، فتبدو جميع الحلقات متشابكة تشبه شكلاً لولبياً، أو حلزونياً، وهذا ما يقرر تكراراً، أو ترديداً، للفظ، أو للمعنى، أو لهما معاً بقصد الإفادة»، رائد مصباح الداية، البناءات الجمالية في النص القرآني، ص: 303، وينظر: فخريه غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني، ص: 68، 69.

والبناء التوقيعي: هذا النوع من البناء الذي يعتمد على تحقيق قدر أكبر من التركيز والتكثيف؛ «ذلك أن النص ذا المعمارية والبناء التوقيعي يتربع على عرش البلاغة من دون أن يكون له منازع، فلا نديد له ولا نظير، ... فإنه يأتي في طبيعة البناءات الفنية في بنية الخطاب القرآني، وهو أمّ بناءاته، يأتي متداخلاً ومتشابكاً مع نظرائه لتشييد الصرح الفني والدلالي المتين له، ثم إن إبداع المعنى الغزير في اللفظ القليل من مقتضيات خاتمية القرآن الكريم ومن دواعيه، وبما أن جوامع الكلم تعبير =

أو البناء اللولبي⁽¹⁾، والبناء التوقيعي⁽²⁾ «إذ تدور أحداثها [بنية التابع] في فضاء زمني أرحب وأوسع يتجاوز حدود القصة الواحدة التي تضم بين دفتيها حزمة من الأحداث والوقائع في فترة زمنية معينة إلى تناول مجموعة من القصص التي تحتضنها سورة واحدة، ويرتبط بعضها ببعض، ارتباطاً تعاقبياً مسائراً لخط الزمن»⁽³⁾؛ أي حدث في عهد نوح، ثم حدث في عهد هود، ثم حدث في عهد صالح "عليهم السلام"، «ومع هذا الترابط التعاقبي الذي يسير في خط زمني أفقي تتعاقب حلقاته دون أن تتلامس فإن وحدة المحتوى والغاية والمقصد تؤلف بينها جميعاً، وتنظمها في سلك واحد. ويتجلى ذلك في هذه المجموعة من القصص التي استوطنت سورة (هود)، على سبيل المثال، وهي قصص نوح وهود وصالح وشعيب، فضلاً على إشارات مقتضبة لعدة قصص أخرى»⁽⁴⁾.

وعلى أن نُصرِّح أن القصة القرآنية «تقوم على فن البناء والتركيب، وما في ذلك شك!! والمحور الذي تدور عليه القصة أو تستند إليه سائر عناصرها هو المقصد والهدف، وليس الأبطال أو الشخصيات أو الأحداث أو الأزمنة أو الأماكن مقصودة لذاتها، وإنما الفن في العبرة حيث تكون، وتتضافر عناصر القصة في تسلسل محكم، ومتناسق بديع لتجسيد هذه العبرة»⁽⁵⁾، وقد يرد التشابه وتعدد المواقف وتنوع الحلقات في معظم الحالات، «ولكن ليس معنى ذلك أن القصة تكرر نفسها، وإنما هي حلقات وجوانب وأجزاء لجسم واحد تدرج تحت هيكله ومُسمّاه، وما من حلقة من هذه الحلقات إلا وتشير إشارات سريعة قريبة أو بعيدة لفكرة جديدة، أو تنمّة لفكرة سابقة، أو

=مرادف للبناء الفني التوقيعي، ووصف ملازم للقرآن الكريم». فخريه غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني، ص: 51، 54، وينظر: رائد مصباح الداية، البناءات الجمالية في النص القرآني، ص: 279، 280.

1 -ينظر: بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد الأدبي الحديث، ص: 159.

2 -ينظر: فخريه غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني، ص: 53. وينظر: رائد مصباح الداية، البناءات الجمالية في النص القرآني، ص: 279.

3 -عبد المطلب محمد زيد، بنية المعمار القصصي في القرآن الكريم، ص: 62.

4 -المرجع نفسه، ص: 62.

5 -محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، دار مون للطباعة والتجليد، ط1، 1993، ص: 119.

توضيح لهذف عام أو خاص ، أو سلوك معين ، أو نموذج نفسي أو خلقي أو اجتماعي ، أو تحبيب قدوة حسنة ، أو تجنب لعادة سيئة»⁽¹⁾.

وتظل القصة القرآنية الكريمة - أيضاً - واحدة من العناصر التي تُوظفها السورة القرآنية الكريمة لكي تُلقني بإنارتها على موضوعات السورة ؛ أي أنّها هي العنصر من عناصر التوظيف لإنارة ما تتضمنه السورة من أفكار تستهدف توصيلها إلى المتلقي و«الفن القصصي : في ذلك الرباط الداخلي ، النفسي والاجتماعي الناشيء من طريقة النظم وائتلاف حروف الكلمات ، واتساق الجمل في وحدة موضوعية تبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها ، وتسمو بالوجدان إلى أعلى ذروتها»⁽²⁾.

وفي سياق الحديث عن القصة القرآنية الكريمة نقول إن بداية أية قصة لا بد أن ترتبط بما تتضمنه السورة الكريمة من آثار أي تجيء بداية قصصية أيضاً متناسبة مع الأفكار المطروحة في السورة ولذلك نجد أن القصص المتكررة كقصص موسى "عليه السلام" ، أو قصص الأنبياء وقصص مُعاد ، نجد أن هذه القصص عندما تبدأ إنما تتناسب هذه النقطة المعينة التي تبدأ بها مع طبيعة ما في السورة من موضوعات وإلا كيف نفسر أنّ آية قصة إنما تتنوع بداياتها وفي مقدمة ذلك ما نلاحظه مثلاً من قصة موسى "عليه السلام" ؛ حيث يبدأ الحديث حيناً من وسط الأحداث وحيناً آخر من آخر الأحداث وحيناً من أولها أي ؛ أنّ الحديث عن أية قصة تتمثل بدايتها حيناً من الحديث أو من الاستهلال من وسط الحوادث أو المواطن التي تربط أو ترسم هذه الشخصية فإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن أية قصة من حيث التسلسل الموضوعي حينئذٍ بأن التسلسل الزماني هو الذي يأخذ مجراه في هذا المجال ولو قلنا القصة القرآنية الكريمة وأن تنحو منحى آخر هو الزمان النفسي أي تُخضع الحوادث وتُخضع المواقف للزمان النفسي الذي يتطلبه الموقف وليس للزمان المُبعد.

¹ - محمد الدالي ، الوحدة الفنية في القصة القرآنية ، ص : 119.

² - المرجع نفسه ، ص : 13.

المطلب الأول: البناء الهيكلي والعضوي لقصة نوح "عليه السلام":

إن بداية القصة عندما تكون في سورة قرآنية كريمة إنما تتجانس هذه البداية مع مضمون أو محتويات السورة التي تطرح هذا الموضوع أو ذلك، والقصص في سورة هود "عليه السلام" إنما جاء لتقرير الحقائق الكبرى التي جاءت السورة لتقريرها والتي أجملها السياق في مقدمة السورة ﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ، أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ، وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (هود: 1 - 4)، فقد «تضمّن مطلع السورة جولات متعددة حول هذه الحقائق.. جولات في ملكوت السماوات والأرض، وفي جنّات النَّفس، وفي ساحة الحشر.. ثم أخذ في هذه الجولة الجديدة في جنات الأرض وأطواء التاريخ مع قصص الماضين.. يستعرض حركة العقيدة الإسلامية في مواجهة الجاهلية على مدار القرون»⁽¹⁾.

ونود أن نلفت النظر إلى أنّ التمهيد للموضوعات يظلُّ أحد وسائل أو يظلُّ واحداً من الطرائق، أو واحدة من الطرائق المرتبطة بالوصل بين أجزاء النص، وإلا فهناك طرائق متنوعة لإيجاد الوصلة الفنية المشار إليها من نحو التدايعات الذهنية أو النماذج العضوي أي السببية أو من خلال التجانس، ومما لا شك فيه أنّ استهلال النص أساساً بموضع ما يعني من حيث الاستجابة أنّ المتلقي سوف يتحسس بأهمية هذا الموضوع؛ أي يتحسس بأهمية الكتاب الذي أُحكمت آياته وأهميّة عبادة الله وحده والتحذير من عذاب أليم لمن يُقرن عبادته بغير الله.

فبدأت قصة نوح "عليه السلام" ملتحمة مع مقدمة السورة، جاء في تفسير المنار: «أن هذا سياق جديد في السورة أكد به ما قبله من الدلائل على أصول الدين من التوحيد والبعث والنبوة، فهو يشترك معه في جملته لا مع آخر آية منه، وعندني أن هذه القصة معطوفة على ما في أوّل هذه السورة من ذكر بعثة محمد رسول الله وخاتم النبيين "صلى الله عليه وسلم" بمثل ما بعث به من قبله من الدعوة إلى عبادة الله وحده وبعثه نذيراً وبشيراً والإيمان بالبعث والجزاء، ليُعلم قومه أنّه -

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص: 1871.

صلى الله عليه وسلم - ليس بدعاً من الرُّسل، وأنَّ حاله معهم كحال من قبله من الرسل "عليهم السلام" مع أقوامهم إجمالاً وتفصيلاً⁽¹⁾. وهذه الطريقة تنطوي على أهمية بالغة من حيث مقاصد القصة التي تهدف على إيصالها للمتلقي من خلال ما جاء في بداية السورة وما سوف يأتي بعدها من قصص مُشابهة: «إنها تكاد تكون الألفاظ ذاتها التي أرسل بها محمد" صلى الله عليه وسلم" التي تضمَّنْها الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن عليم خبير. وهذه المقاربة في ألفاظ التعبير عن المعنى الرئيسي الواحد مقصود في سياق لتقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة، حتى لتتوحد ألفاظ التعبير عن معانيه»⁽²⁾.

وهذه ميزة تُعنى بها القصة القرآنية كما يذكر سليمان الطروانة بقوله أنه: «من قواعد القص الراسخة أن القصة لا تفاجيء القاريء مفاجآت غير محسوبة فنياً، فلا بد لكلِّ حدث تمهيد يسبقه مباشرة أو قريباً من ذلك، وأحسن ما يكون هذا التمهيد عندما يكون قليل الشفافية إلى حين، حتى إذا التأم في نسيج القصة العام، وكِدْنَا نحس أنه لا يُمهّد لشيء محدد، وقع الحدث الذي جاء التمهيد من أجله في سياقه المخصوص، فيفاجأ القاريء بانكشاف المعنى المقصود أمام عينيه جلياً بورود جزئية تُمهّد لِمَا سيكون»⁽³⁾.

وقصة نوح "عليه السلام"، تُمثّل باكورة القصص في هذه السورة، ولذا فهي، إضافة إلى قيامها بالدور ذاته الذي يؤديه المشهد الافتتاحي في أي قصة، تتميز عن غيرها من القصص المصاحب لها في شمولية الأحداث والإعتناء بالتفصيلات وكثرة المشاهد⁽⁴⁾، ففي هذه السورة مجموعة من الأحداث والمواقف تتكرّر في سور أخرى لكنها هنا تظل أكثر تفصيلاً من سواها.

وتبدأ قصة نوح بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾ (25، 26)، بهذا المقطع وما بعده من سورة هود يبدأ عنصر

1 - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج12، ص: 65.

2 - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص: 1871.

3 - سليمان الطروانة، دراسات نصية أدبية في القصة القرآنية، (د. دار نشر)، ط1، 1992، ص: 114، 115.

4 - عبد المطلب محمد زيد، بنية المعمار القصصي في القرآن الكريم، ص: 62.

جديد من الصياغة الفنية : هو العنصر القصصي وهو إنعكاس للأفكار والموضوعات التي طرحتها السورة خلال عرضها لسلوك الكافرين المعاصرين لرسالة الأنبياء.

هندسة الترابط الهيكلي والعضوي في قصة نوح "عليه السلام":

1.1 -المقدمة: نجد في القسم الأول من قصة نوح "عليه السلام" أنه يخاطب قومه بأنه (نذير) لهم وأنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ ، هذه العبارات من القصة سبق أن وردت في مقدمة السورة فنلاحظ أن العبارات -فضلاً عن الأفكار - تتماثل في هذين الموقعين (مقدمة السورة، والعنصر القصصي فيها)⁽¹⁾ ، فعبارة (إني لكم نذير) وعبارة (ألا تعبدوا إلا الله) وعبارة (أخاف عليكم عذاب يوم أليم) تتكرر في هذين الموقعين. كذلك لو تابعنا الأقسام الأخرى من القصة لوجدنا هذا التماثل مُتَحَقِّقاً في أكثر من موقع، فقول نوح لقومه في نهاية المقطع السابق: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي..﴾ (هود: 28)، هذه العبارة وردت في وسط السورة أيضاً حيث قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ (هود: 17)، هذا التجانس بين العبارات والأفكار المطروحة في القصة تكشف لنا جملة من الحقائق الفنية⁽²⁾، المختلفة سواء من حيث التماثل في الموضوعات أو من حيث التماثل في الأفكار:

أ - تجانس القصة من حيث التماثل في الموضوعات: نجد أن كل قصة ترد في السورة لا بد أن ترتبط فكريا بموضوعات السورة سواء أكان هذا الموضوع مطروحاً فيها بشكل رئيسي أو ثانوي؛ لأن قصص القرآن يحتوي على أكثر من فكرة، فهي تضم عناصر متعددة لموضوعات كثيرة، وعلى ذلك تكون القصص مصوغة في كل سورة بنحو خاص يختلف عن صياغتها في السورة الأخرى، فمثلاً نجد قصة نوح "عليه السلام" ذكرت في عدة سور، وفي كل سورة منها ما ليس في سائرهما، فصياغة القصة في سورة هود مثلاً يختلف عن صياغتها في سورة الشعراء أو الصافات أو القمر وغيرها من السور الكريمة، بحيث نجد في كل قصة طرْحاً فكرياً خاصاً يتجانس مع الطرح الفكري للسورة «وإنَّ التَّنَاسُقَ بَيْنَ حَلْقَةِ الْقِصَّةِ الَّتِي تُعْرَضُ، وَالسِّيَاقِ الْعَامِ الَّذِي تُعْرَضُ فِيهِ، هُوَ الْإِعْجَازُ

¹ -ينظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج12، ص: 59، 60.

² -ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي في التفسير، ج2، ص: 291.

الفني الذي يجسد الهدف الذي من أجله سيق، فمقصد القرآن الكريم من حلقة قصة (موسى) في سورة (طه) غيره من حلقة قصة موسى في سورة (النمل)، فالموضوع واحد، والوحدة العضوية قائمة، ولكن الهدف يختلف، والصورة تتجدد، والموسيقى تتفاوت، فمن الوجهة الأدبية هذه قصة، وتلك أخرى، ومن الوجهة الموضوعية، إنما هي حلقات لقصة واحدة⁽¹⁾.

ب - **تجانس القصة من حيث التماثل في الأفكار:** كما أن التجانس لا ينحصر في تماثل الموضوعات أو في صياغتها التعبيرية كما يقول محمود البستاني «بل يتمثل في حصيلة الأفكار المطروحة، فمثلاً نجد في القسم الثاني من قصة نوح أنه يخاطب قومه بقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ (هود: 31)، إن إشارته إلى أنه ليس عنده (خزائن) الله تعالى وأنه ليس ملك، تتداعى بذهن القاريء إلى أوائل السورة الكريمة التي جاء فيها ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ (هود: 12)، فالكنز والملك فيما كان المعاصرون لمحمد - صلى الله عليه وسلم - يشيران إليهما، نجدهما مُعكسين في قصة نوح عبر نفيه لأن تكون عنده خزائن الأرض، أو يكون ملكاً⁽²⁾.

فموضوعات سائر السور الطوال والمتوسطة والقصار جميعها تخضع لبناء فكري بغض النظر عن عشرات الموضوعات وبغض النظر حتى عن موضوع واحد تتخذه سورة قصيرة أو متوسطة. والسورة القرآنية قد تُبرز فكرة واحدة أو عدة أفكار قد تكون هذه الفكرة أو الأفكار رئيسة، وقد تكون ثانوية وبغض النظر عن ذلك كله فإن الهدف هو أن تجعل المتلقي وهو ينتهي من قراءة آية سورة قرآنية كريمة هو أن تحتفظ ذاكرته سواء أكان واعياً بهذا أو كان غير واع ولكن ذاكرته سوف تحتفظ بهذه الفكرة أو بتلك التي استهدفها القرآن الكريم من خلال المجموع من الآيات وليس من خلال الآية الواحدة أو القسم الخاص بهذا الموضوع أو ذاك.

¹ - محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، ص: 119، 120.

² - محمود البستاني، المنهج البنائي في التفسير، ج2، ص: 292.

وفائدة هذا التجانس بين العنصر القصصي في السورة وبين الآيات الأخرى غير القصصية، يكشف عن إحكام بالغ الأهمية بالنسبة لعمارة السورة الكريمة، من حيث تلاحم وتنامي وتواشج موضوعاتها بعضها مع بعضها الآخر.

2.1 - مواقف القصة وردود الفعل عليها: تتمثل مواقف هذه الحكاية في⁽¹⁾:

أ - الدعوة إلى الإيمان وإنذار المخالفين: وأمّا الدعوة إلى الإيمان فتأخذ لدى الرُّسل بأجمعهم نَمَطًا مُمَثِّلًا، مع أساليب متفاوتة تبعاً للمناخ الاجتماعي الذي تتحرك الرسالة من خلاله.

ب - ردود الفعل عليها: وفيما يتصل بنوح، فقد استهل ذلك بأسلوب الإنذار مقروناً بالتخوف من نزول العذاب على قومه. وقد جاءت الاستجابة من قومه باهتة، لا علاقة لها بالإنذار الموجه إليهم، لقد أجابوه أولاً بأنّ نوحاً مثلهم ينتسب إلى سلالة البشر ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ (هود: 27).

وأجابوه ثانياً، بأنّ جماعته التي آمنت برسالته، هي: من أراذل القوم الذين لا مال لديهم ولا منزلة اجتماعية. وأجابوه ثالثاً، بأنّ هؤلاء الجماعة قد آمنوا بصورة عشوائية لم تُقْتَرَن بالتأمل والتدبر: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِي نَحْمِلُ مِنْ أَوْثَانِهِ وَنَتَّبِعُكَ إِلَّا أَن نَّأْتِيَكَ بِمِثْلِ لَحْمِ بَشَرٍ﴾ (هود: 27).

يقول تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ، قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (هود: 32، 33).

يتماشى هذا القسم من القصة حول الإنذار الذي وجهه نوح إلى قومه، بنزول العذاب عليهم، في حالة استمراريتهم على الكفر، وكان من المفروض أن يتعصّ القوم إلا أنّهم سخروا من ذلك وقالوا لقد خاصمتنا وحججتنا فأكثرت من جدالنا، فأتينا بما تعدنا به من العذاب في الدنيا والآخرة إن كنت من الصادقين. «إنه العجز يلبس ثوب القدرة، والضعف يرتدي رداء القوة؛

¹ - ينظر: محمود البستاني، دراسات فنية في قصص القرآن، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد - إيران، ط1، 1408هـ، ص: 174.

والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدي: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾⁽¹⁾ وأنزل بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا به فلسنا نصدقك، ولسنا نبالي وعيدك⁽¹⁾.

وما يهمنا في هذا الموقف الذي صدر عن قوم نوح، هو صلته بعمارة السورة الكريمة وموقعه في البناء الهندسي لها، ويتجلى من خلال التماثل الذي نجده مع استقبال قريش عندما كانت السورة تتحدث عن الكافرين المعاصرين لرسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- وقصة نوح هنا إنما جاءت لكي تُلقي الإنارة على هذا الموضوع، أي أنها وُظفت فنياً من أجل الموضوعات المطروحة في سورة هود. وكما هدّد محمد -صلى الله عليه وسلم- قومه بالعذاب، كذلك قومه سخروا عن مجيء هذا العذاب، وجاءت الإجابة تقول: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ آلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ (هود: 8)؛ أي أن القوم تساءلوا وقالوا لماذا لم ينزل علينا العذاب كما أخبر به محمد "صلى الله عليه وسلم"؟. هذا الموقف نفسه يتكرر الآن في قصة نوح (عليه السلام) مع قومه، وهذا التماثل بين الموقفين: موقف مجتمع محمد -صلى الله عليه وسلم- من نزول العذاب وموقف مجتمع نوح من نزول العذاب، إنما يفسر لنا واحداً من الأسرار الفنية الكامنة وراء صياغة قصة نوح، ويتضح ذلك في هذا التجانس بينهما من حيث المواقف التي صدر عنها الكافرون⁽²⁾.

كما أن التجانس أيضاً يكمن في طبيعة الجواب الذي قدمه كل من محمد "صلى الله عليه وسلم" ونوح "عليه السلام". نجد في قصة محمد "صلى الله عليه وسلم" أشار النص إلى هؤلاء الكافرين قائلاً: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ (هود: 20)، بمعنى أنهم سوف لن يفلتوا من العذاب الذي ينتظرهم جراء ظلمهم، كذلك تحدث نوح مع قومه بنفس اللغة قائلاً لهم: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (هود: 33)؛ أي ما أنتم بمعجزين الله أن يعاقبكم ولن تُفلتوا من العذاب الذي ينتظركم.

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص: 1875.

² - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 292، 293.

3.1 - عنصر التنامي: تتدرج القصة إلى الأحداث وسط أحداثها إلى أرض الواقع، لتذكر وتربط بالجو العام للسورة قبل أن تستأنف ما انتهى إليه الحال بين نوح وقومه بعد يأسه منهم⁽¹⁾، حيث يقول تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (هود: 35). ومع هذا التنامي في الأحداث تعقبه عدة مشاهد.

فإذا كانت القصص الأخرى تتألف في -معظمها- في مشهد الإفتتاح المائل في المحاورة بين الرسل وأقوامهم ومشهد الختام المائل في هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين، فإن هذين المشهدين تتوسطهما وتتعبهما في قصة نوح مشاهد أخرى⁽²⁾:

1 - مشهد نوح وهو يصنع السفينة: وتمثل هذا المشهد على أرض يابسة وسط سخرية قومه منه: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (هود: 38، 39)، وذكر التعبير بالمضارع هو فعل الحاضر كما يقول سيد قطب؛ لأنه: «هو الذي يُعطي المشهد حيويته وجدته. فنحن نراه مائلا لخيالنا من وراء هذا التعبير (يصنع الفلك) ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يرون به فيسخرون، يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم: إنه رسول ويدعوهم، ويجادلهم فيطيل جدالهم؛ ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً... إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر. شأنهم دائماً في إدراك الظواهر والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير، وطمأنينة واستعلاء إنه يبادلهم سخرية بسخرية: ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ نسخر منكم لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير»⁽³⁾.

كما أنّ هذا الموقف نجده متجانس للمعاصرين للنبي محمد "صلى الله عليه وسلم" وانعكاسات ذلك على العذاب الذي سوف يلحق بهم: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ [أي العذاب] لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (هود: 8). هذه الإشارة نجدها أيضاً في قصة نوح (عليه

¹ - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص: 1875، 1876.

² - ينظر: محمود البستاني، دراسات فنية في قصص القرآن، ص: 177، 178.

³ - المرجع السابق، ج4، ص: 1877.

السلام) من استهزاء القوم من نزول العذاب، وإنَّ العذاب سوف يأتيهم ويحيط بهم ما كانوا يسخرون منه⁽¹⁾.

لذلك؛ ف«إنَّ النص عندما تحدَّث عن نزول العذاب بالنسبة إلى مجتمع محمد -صلى الله عليه وسلم - إنما قال عن ذلك بأنه مؤجل (إلى أُمَّة معدودة) أي إلى حين آخر، وهذا ما يُفسِّر لنا (من زاوية فنية) عدم نزول العذاب الفعلي، وهذا على العكس من مجتمع نوح -عليه السلام -، حيث قال لهؤلاء الذين سخروا منه (وهو يصنع السفينة): ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ حيث ترهص هذه المقولة بنزول العذاب الفعلي غير المؤجل، وهو ما كشفت عنه أحداث القصة في قسمها الأخير الذي تناول حادثة غرقهم»⁽²⁾.

نجد هذه الأبعاد من التجانس بين موضوعات السورة بين المجتمعين إنما وظفت فنياً لإنارة هذه الموضوعات.

2 - مشهد التعبئة العامة: تمثّل هذا المشهد في استعدادا نوح للطوفان كما يتمثل في ركوب نوح ومن معه، السفينة واصطحاب ما يلزم من مؤن وزاد: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: 40).

3 - ثم مشهد الطوفان: الذي يأتي في إيقاع تصويري سريع تنحسب معه الأنفاس وهي تُشاهد الموج يندفع بكثافة وقوة، ونوح يُسرل النداء لابنه، والفتى المغرور يأبى الاستجابة، والموجة الغامرة تحسم الموقف بينهما في سرعة خاطفة وسط نظرات الأب الملهوف الفزوع: ﴿هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ سَأُوبِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (هود: 42، 43).

يقول عبد المطلب محمد زيد: «إذا كان الستار في بقية القصص قد أُسدِل مع مشهد النهاية هذا، فإن قصة نوح تتميز عن غيرها في هذا الصدد بسمة أخرى تتمثل في تمدد المشاهد وتتابعها إثر

¹ - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 293، 294.

² - المرجع نفسه، ج2، ص: 294.

هذا المشهد الختامي ؛ فبعد غرق الكافرين ونجاة نوح ومن معه ، يأتي مشهد انحسار الطوفان ، ثم مشهد مناجاة نوح ربّه في شأن ابنه ، وذلك في إيقاع هادئ وجرس رتيب يجسد حالة الذهول التي انتابت نوحاً بعدما قُضي الأمر وصار ابنه والكافرون مجرد عناوين في كتب التاريخ⁽¹⁾.

وهكذا تمضي القصة مُبَيَّنَةً ومُفَصَّلَةً من أولها إلى آخرها على نسق واحد من التسلسل والإحكام حول جميع الأحداث التي جرت بين نوح وقومه.

وبعامة ، فإن قصة نوح طرحت جملةً من الأفكار عبر صياغةٍ فنيةٍ مُمتعةٍ تُتَّصَلُ بعمليات التّحدي ونتائجه والمصائر التي تتعلّق بالمؤمنين والكافرين دُنيوياً كما انطوت - ضمناً - على أفكار ثانوية وصلته بالعنصر القصصي في هذه السورة وارتباطه بقصة هود "عليه السلام".

4 - بيئة الهبوط (الرسو) : يقول تعالى : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود : 44) ، لقد أفاض البلاغيين قديماً وحديثاً في الحديث عن هذه الصورة الفنية الرائعة وأبرزوا شتى مستوياتها الجميلة المدهشة ، وأكتفي هنا فقط بالإشارة إلى بيئة القصة من حيث هبوط السفينة ، ورُسُوها بعد تلك الرحلة المثيرة ، ونجاة المؤمنين ، وتمّ إهلاك الكافرين ، وأترك هذي الآية وما فيها من تصوير بديعي إلى إلى الفصل الرابع.

4.1 - خاتمة القصة : وينبغي - في الختام - أن نشير إلى "التعقيب" الذي جاء من الخالق على هذه القصة بعد أن أنهتها بحادثة استواء السفينة وانقاذ المؤمنين وإبادة الكافرين ، حيث قال تعالى : ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنْتَعِبُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (هود : 48).

إن هذه الفقرة الأخيرة من التعقيب على القصة ، في قوله : (وأمم سمنتعهم ، ثم يمسهم منا عذاب أليم) هذه الفقرة لها أهميتها الفنية في الأقاويص اللاحقة من هذه السورة ، وبضمنها : القصة الرئيسية هود فيما سيمسها العذاب الأليم الذي مهَّدت به قصة نوح. وهو أمرٌ سنلحظه في

¹ - عبد المطلب محمد زيد ، بنية المعمارالقصصي في القرآن الكريم ، ص : 63.

قصة هود. وهذا الأمر يندرج في تلك الصلة الفنية أو العضوية بين قصة نوح التي مرّت معنا وبين ما يتعقبها من القصص لمجتمع هود "عليه السلام" (1).

المطلب الثاني: البناء الهيكلي والعضوي لقصة هود "عليه السلام":

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ إِلَٰهُ مُفْتَرُونَ ، يَا قَوْمِ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّي أَجْرِي إِنَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفْلَا تَعْقِلُونَ ، وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: 50-52).

وتتبع الآيات قصة نوح، بقصة هود - عليه السلام - فجاء البسط - ههنا - في عرض دعوته أيضاً إلى قومه، وجاء المشهد هنا معطوفاً على قصة نوح من عطف القصة على القصة على تقدير الفعل (أرسلنا) بعد واو العطف بدلالة حرف (إلى) عليه، مع دلالة سبق نظيره في الجملة المعطوف عليها والتقدير: وأرسلنا إلى عاد كما مر تقرير مثل ذلك من قبل، «وكان هود من عاد، فهو أخوهم منهم، تجمعهم - كانت - أسرة القربى بين أفراد القبيلة الواحدة، وتبرز هذه الأسرة هنا في السياق، لأن من شأنها أن تقوم الثقة والتعاطف والتناصح بين الأخ وإخوته، ليبدو موقف القوم من أخيهم ونيهم شاداً ومستقبِحاً! ثم لتقوم الفاصلة في النهاية بينهم على أساس افتراق العقيدة، ويبرز بذلك معنى انقطاع الوشائج كلها حين تنقطع وشيجة العقيدة» (2).

سنجد أنّ الآيات التي تحدثت عن قصة هود "عليه السلام" تتلاءم مع شخصية هود* ومع موضوع السورة نفسها، وموقف هود - ههنا - يعبر عن الموقف الصارم والموقف الأخير بعد المواقف التي مرت في سورتي الأعراف والشعراء وقد كانتا قبل هود في النزول، ودعوة هود يتضح

¹ - ينظر: محمود البستاني، دراسات فنية في قصص القرآن، ص: 184. ومحمود البستاني، قصص القرآن دلاليًا وجماليًا، مؤسسة السبطين العالمية، إيران، ط2، 1386هـ، ج1، ص: 239.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد4، ج12، ص: 1896.

* - إنّ قصة نوح في سورة هود كانت أوسع من قصة هود، وإنما سميت هذه السورة (هود)؛ لأنّ نوحاً ذُكرت له سورة خاصة به أولاً، ولأنه ليس هناك سورة ذكر فيها هود ثانياً، كما ذكر في هذه السورة، حيث ذُكر عدة مرات، (وإلى عادٍ أخاهم هوداً...) (قالوا يا هود...) (ولمّا جاء نجينا هوداً...) (ألا بعداً لعادٍ قوم هود).

من خلالها التدرُّج في الدَّعوة بين الملاينة والتَّحذير والتَّلميح بالعذاب دون التَّصريح به أمَّا هنا فموقفه صارم وصریح: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (هود: 50)، حيث لم ينفَع معهم من قبل أساليب اللُّطف والتَّحذير فواجههم بعيبهم وقرَّرهم به فهم مُفْتَرُونَ على الله في اتِّخاذهم الأصنام شركاء.

فبعد قصة نوح، نواجه قصة جديدة هي قصة هود "عليه السلام"، وسوف نجد في هذه القصة تجانساً في الهيكل القصصي مع قصة نوح "عليه السلام" ومع ما يليها من قصص أخرى بعدها، كما نجد ثانياً طرْحاً جديداً.

وعلى الرغم من أن كل قصة من قصص الواقع في سورة هود تُمثِّل حدثاً قائماً بذاته، مُستَقِلاً عمَّا يُجاوِره سواء في شخصياته أو في فضائه الزماني والمكاني، لهذا نجد أن قصة نوح كانت أوفر حظاً من غيره في العناية ببعض التفاصيل التي تتوافر لغيره في المشاهد الافتتاحية التي استهلَّت بها بقية القصص⁽¹⁾.

ويعود هذا على أن قصة نوح تحوي الشُّبهات والأباطيل ذاتها وصيغ التَّحدي والاستهانة ذاتها، التي نجد رائجتها في القصص الأخرى، «ولا بد من أن أجيالاً كثيرة من ذرية نوح عاشت بالإسلام بعده.. حتى اجتالهم الشياطين مرة أخرى فانحرفوا كذلك إلى الجاهلية. وكانت عاد وكانت ثمود بعدها من أمم الجاهلية..»⁽²⁾.

ولذلك اعتنت قصة نوح ببعض التفاصيل، بينما انصب الاهتمام في القصص الأخرى على ما هو خاصة كل قوم وشأن من شؤونهم المميزة لهم، ويعود هذا أيضاً إلى أسبقية قصة نوح "عليه السلام" سواء في مسارها الزماني أو موطنها داخل السورة، وهي الأسبقية التي سمحت لبقية القصص باختزال بعض الأحداث اعتماداً على ذكرها مفصلة في قصة نوح، وإحالة بعضها الآخر

¹ - عبد المطلب محمد زيد، بنية المعمار القصصي في القرآن الكريم، ص: 67.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص: 1895.

عليها، ولهذا جاءت افتتاحيات قصة هود وصالح وشعيب معطوفة على افتتاحية قصة نوح، مصوغة في تلازم تركيبى واحد⁽¹⁾.

وبنهاية قصة نوح "عليه السلام"، نرى القصص التالية من بعدها، تُعرض تباعاً كأنها (لوحات) مسرحية في عرض واحد متتابع، وليس بينها فاصل إلا قول معلق: ﴿وَأِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ﴿وَأِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، ﴿وَأِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (هود: 50، 61، 84)، كل ذلك من أجل إخراج السورة متكاملة في صور عرض متكامل لأهم المراحل في تاريخ البشرية، وأخطرها، وأصدقها حديثاً.

مضى قوم نوح وصاروا مجرد عناوين في كتب التاريخ، والأكثر من المكذبون طواهم الطوفان وطواهم التاريخ واستبعدوا من الحياة ومن رحمة الله سواء، والناجون استخلفوا في الأرض تحقيقاً لسنة الله ووعدته: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: 49).

ولقد كان وعد الله لنوح: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنْتَعِبُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (هود: 48)، فلماً دارت عجلة الزمن ومضت خطوات التاريخ جاء وعد الله وإذا من نسل نوح الذين تفرقوا في البلاد - ومن بعدهم ثمود - ممن حقت عليهم كلمة الله: ﴿وَأُمَّمٌ سَنُنْتَعِبُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ولذا جاءت افتتاحيات قصص هود وصالح وشعيب معطوفة على افتتاحية قصة نوح ومسوغة في تلازم تركيبى واحد كما ذكرت ذلك سابقاً.

لهذا يكرر السياق التعبير ذاته الذي ورد في أول السورة على لسان خاتم الأنبياء، فيعدهم هود ويحذرهم، ما وعدهم خاتم الأنبياء وحذرهم، هاهو (هود) يخاطبهم بنفس اللغة، ويقول (يا قوم اعبدوا الله) (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) كما أن المطالبة بالعبادة وبالإستغفار، والتوبة: هذه المفردات الثلاث تتكرر في القصتين: قصة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - مع قومه وقصة هود عليه السلام مع قومه⁽²⁾، «ولأن الغاية من العرض إبراز صور شبيهة بالقصة

¹ - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ص: 68.

² - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي، ج2، ص: 295.

الحالية الماثلة التي بدأت بها السورة، وهو دعوة محمد "صلى الله عليه وسلم" لقومه، وبيان أن هذه الصور سارت في طريق مواز لطريق دعوته بدءاً بالتكليف، فالإرسال، فالتبليغ، والتكذيب، والبينة، والإعراض والمبالغة في العنت والمخالفة، وانقطاع العذر والإهلاك، فقد توافقت بناء العرض مع هذا الغرض، حيث قدم لنا ست قصص مرتبة زمانياً، جعل أولها تتفق في طريقة بدء العرض مع مطلع السورة أي مع القصة الأصلية، لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾.

وبهذا التوافق وقد مر معنا في أول السورة أن نبينا -عليه الصلاة والسلام-، قال مثل ذلك لقومه عندما كان يدعوهم: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ (هود: 3)، وهي ذات الحقيقة التي ذكرت في مقدمة السورة بصدد دعوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقومه بمضمون الكتاب الذي أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير، فقد حثهم النبي "صلى الله عليه وسلم" على قبول دعوته والاستغفار والتوبة، وأطمعهم بالمتاع الحسن في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة، كما فعل هود (عليه السلام) الذي قال لقومه: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾* (هود: 52).

فذاك التهديد الذي وجهه محمد "صلى الله عليه وسلم" إلى قومه: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود: 3)، هذا التهديد يتكرر على لسان هود "عليه السلام" عندما قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنِّي رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ، وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (هود: 57، 58)، وكما «أن محمداً "صلى الله عليه وسلم" حذر قومه من عذاب كبير، وهذا التحذير للناس يتناسب مع طبيعة الجزاء الذي أعدّه الله تعالى للكافرين الذين يُوجَلون إلى اليوم الآخر... ولكنا حينما نتجه إلى تحذير هود -عليه السلام- لقومه، نجد أن هذا التحذير

¹ -كاظم الظاهري، بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، ط1، 1991، ص: 260.

* -قوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أي: ينزل "سبحانه" المطر عليكم متتابعاً بالخير الكثير الوفير، والمراد بالسما المطر فهو مجاز مرسل؛ لأن المطر ينزل من السماء ولفظ (مِدْرَارًا) للمبالغة. و«المدرار: الكثير المتتابع، وأصله من درّ اللبن، إذا اجتمع في الضرع، وغزّر.. والمدرار الذي يرسله الله من السماء: هو الغيث الذي تحيا به الأرض»، عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، (د.ط)، (د.ت)، الكتاب الرابع، ج7، 8، ص: 1153، 1154.

يتناسب أيضاً مع الجزء الذي أعدّه الله تعالى لأولئك البائدين حيث إنّ العذاب وقع عليهم دنوباً كما هو واضح⁽¹⁾.

إنّ الأهمية الفنية لهذه القصة سواء من حيث موقعها بالنسبة لبقية القصص أو ومن حيث «موقعها الهندسي من عمارة السورة الكريمة تتمثل في كونها تتجانس من جانبين: مع محمد "صلى الله عليه وسلم"، ومجمعه، ومن جانب آخر تتجانس مع طبيعة المجتمع الذي عاصره هود "عليه السلام"، فمجتمع هود وسواه من المجتمعات البائدة قدّر له أن يلقي الجزء دنوباً⁽²⁾.

وهذا الجزء نجده يُشكّل مُسوِّغاً فنياً لصياغة هذه القصة وتوظيفها، لأن النص القرآني يهدف من وراء عرض لأهداف هذه القصة: تحذير المجتمع المعاصر لرسالة النبي -عليه الصلاة والسلام - من العذاب الذي ينتظره، فكان لا بد من تقديم قصة تتناول قضية الجزء الذي يلحق الكافرين، ولا بد أن يكون هذا الجزء دنوباً حتى يتّعظّ به القوم المعاصرين لرسالة النبي -عليه الصلاة والسلام - وفي الوقت نفسه عرضت الجزاءات المترتبة على المؤمنين أيضاً⁽³⁾.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (هود: 58)، وهذا أيضاً من أجل طمأننة نفوس المؤمنين الذين آمنوا برسالة محمد -عليه الصلاة والسلام -، والقصص القرآني بأنواعه المتعددة، وحلقاته المترابطة، ما سبق إلاّ ليعضد الدعوة الإسلامية، ويُركّز عقيدة التوحيد، ويُدعم مفهوم الألوهية، وما سبق إلاّ لمعاوضة الرسالة النبوية المحمدية، والرّد على الذين اتهموه ظلماً وعدواناً ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (السجدة: 3)، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: 13)، «فليس الغرض من القصص القرآني مجرد التسلية أو المتعة، بل الهدف منه - إلى جانب دلالاته على اطلاع

¹ - محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 295.

² - المرجع نفسه، ج2، ص: 295.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص: 296.

محمد على الغيب التاريخي - يرتبط بمجمل هدف النص وغايته، وهو تغيير الواقع من خلال الجدل معه»⁽¹⁾.

كما أنّ هذا ليس منوط فقط بتلك الفترة التي ارتبطت ببداية الدعوة وما ينطبق عليها؛ ذلك أنّ «استعراض خط سير الدعوة الإسلامية على هذا النحو إنما يجيء في القرآن الكريم لرسم معالم الطريق في خط الحركة بهذه العقيدة على مدار القرون.. ليس فقط في ماضيها التاريخي، ولكن في مستقبلها آخر الزمان. وليس فقط للجماعة المسلمة الأولى التي تلقت هذا القرآن أول مرة. وتحركت به في وجه الجاهلية يومذاك؛ ولكن كذلك لكل جماعة مسلمة تواجه به الجاهلية إلى آخر الزمان.. وهذا ما يجعل القرآن كتاب الدعوة الإسلامية الخالدة؛ ودليلها في الحركة في كل حين»⁽²⁾.

وفيما يخص موقع هذا الجانب من حيث أثره على الإيقاع الفني سواء بالنسبة للقصة أو بالنسبة للإطار العام للسورة يقول محمود البستاني: «ينبغي أن نتنبه جداً على هذا المنحى الفني الذي سلكه القرآن الكريم في عرضه لقصة هود مع مجتمعه، حيث عرض مصائر المؤمنين الكافرين والمؤمنين بالنسبة للجزاءات الدنيوية التي لحقت بهم، حتى يتحقق بذلك عنصر (الإيقاع الفني) المتمثل في ترهيب الكافرين من المصير الذي يؤول إليه أخروياً، ثم ترغيب المؤمن بالنسبة للجزاء التي يتطلع إليها أخروياً أيضاً. ولكي تتركز هذه الدلالة بنحو أكثر، نجد أيضاً إشارة إلى ما ينتظر هذا المجتمع من الجزاء الأخروي أيضاً، حيث قالت القصة ﴿وَأْتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (هود: 60)»⁽³⁾.

وبما أنّ النص مادام مستهدفاً مخاطبة المجتمع الإسلامي المعاصر لرسالة الإسلام حينئذ لفت نظره إلى قصة تتناول كلا من المصير الدنيوي والمصير الأخروي، فهذا يظل أمراً بالغ الأهمية، مضافاً إلى أنّ هذا الربط بين مجتمع بائد ومجتمع معاصر، يكشف عن الإحكام الهندسي للسورة الكريمة، من حيث تلاحم موضوعاتها، بعضها مع الآخر.

¹ -نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، ص: 193.

² -سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص: 1901.

³ -محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 296.

المطلب الثالث : البناء الهيكلي والعضوي لقصة صالح "عليه السلام" :

جاءت دعوة صالح "عليه السلام"، امتداداً لدعوة نوح وهود إلى التوحيد، وإنَّ الدلالات التي استخلصناها من القصة السابقة تمثل الخطوط المشتركة لكلِّ الأقصيص التي وردت في سورة هود، مع ملاحظة أن كل قصة تُطرح أنماطاً مختلفة من الذهنيات التي تطبع القوم الكافرين، لكنَّها مُتماثلة من حيث الطابع العام للذهنية، وإذا نظرنا إلى قصة صالح "عليه السلام" نجد الكلمات ذاتها التي بدأت بها قصة هود.

يقول تعالى وهو أعزّ من قائل: ﴿وَالِي ثُمَّودَ أَخَاهُ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (هود: 61).

إنَّها الكلمة التي لا تتغير: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وإنَّه كذلك المنهج الذي لا يتبدل ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾، ثم هو التعريف أيضاً بحقيقة ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾. لقد سار النبي صالح "عليه السلام"، على خُطى سابقيه من الرُّسل، ودعا قومه إلى ذات القضية؛ عبادة الله وحده وعدم الشُّرك به، مُستعملاً نفس الأسلوب الذي فيه الإستعطاف وإثارة مشاعر الأخوة والإستمالة ما يحمل على سرعة الدعوة (ياقوم)، مُعللاً دعوته هذه بجعل الألوهية مختصة بالله وحده، استحقاقاً له على إيجادهم واستعمارهم في الأرض، بالدليل الحسي (الناقة)، إبرازاً لقدرة الله على الخلق، وكمظهر من مظاهر رحمته في تسخير مخلوقاته للإنسان. كما في قوله: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، هذه الآية «تفيد أنَّ الأرض كانت خراباً يباباً من بني الإنسان قبل أن يوجد الله -عزَّ وجلَّ- فيها آدم "عليه السلام"، وبعد أن أوجد الله عز وجل آدم وذريته، عمروا ذلك الخراب، وأزالوا تلك الوحشة، هذا من شأنه أن يدعو الإنسان إلى عبادة الله والرجوع إليه، فما كان هذا العمار في الأرض، والخليفة

الإنسانية إلا لتعبد الله، وتخلص له الدين، وتنصاع لأوامره، وتستجيب لشرعه الحنيف ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56)»⁽¹⁾.

هذه القضية تمضي من حيث بنائها الهندسي متجانسة مع ما سابقها مثل المطالبة بعبادة الله - تعالى -، وبالإستغفار والتوبة، وتطرح كذلك مصائر مشتركة للأقوام الذين لحقتهم الجزاءات الدنيوية مثل: الطوفان مع قصة نوح، والريح الصرصر من عهد هود، والرجفة والصيحة مع قصة قوم صالح، ونحوها من العذاب، كما تطرح تمسك أقوام الأنبياء والرسل بعقيدة الآباء كما حكي عنهم القرآن ﴿أَتْنَهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (هود: 62)، ولذلك «جاءت اعتراضاتهم واعتذاراتهم متماثلة. فكان مثلها في ذلك كمثلي مرضٍ مُعِينٍ تَنَشَأُ عَنْهُ أَعْرَاضٌ وَاحِدَةٌ أَيًّا كَانَ الْمُصَابُ، دُونَ أَنْ تَخْتَلِفَ هَذِهِ الْأَعْرَاضُ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الْقُوَّةُ وَالضَّعْفُ، وَبِحَسَبِ مَا فِي الْجِسْمِ مِنْ حِصَانَةٍ»⁽²⁾.

إنّ الملاحظ من قصص السورة الكريمة وبالرغم من تآزرها جميعاً، وانصبابها في روافد مشتركة، إلا أنّ لكل منها نُكْهَةٌ وطَرْحاً خاصاً، وإذا كان هود "عليه السلام"، لم يُؤْتِ معجزة يصدّق ويثبت بها نبوّته بل جاء هو والنذر^(*)، إلا أنّ قصة صالح امتازت بمعجزة مادية وأضحى آية يمكن للإنسان أن يراها ويسمعها ويلمسها وهي الناقة التي عقرها القوم، وكانت تلك الناقة كما هو معروف ظاهرة إعجازية لا تدع مجالاً للشك لأنها كانت لهم آية من ربهم ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾، و«كما تميزت هذه القصة بلفت النظر إلى ظاهرة خاصة هي مخاطبتها للقوم بأن الله تعالى: (أنشأكم في الأرض واستعمركم فيها). وهذا يعني أن هناك صلة فنية بين عمارة الأرض وبين الناقة، فالناقة أُخرجت - كما تقول كتب التفسير - من جوف صخرة وهي حامل، وكانت المطالبة بها هي: تركها تَأْكُلُ في أرض الله تعالى وعدم إلحاق الأذى بها كما جاء في قوله: ﴿هَذِهِ

¹ - عمر محمد عمر باحاذق، الجانب الفني في قصص القرآن الكريم، دار المأمون للتراث، دمشق - سوريا، ط1، 1993، ص: 223. وينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، ج3، ص: 212.

² - التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 1979، الشركة التونسية للتوزيع، ط1، 1974، ص: 214.

³ - جاء في سورة الأحقاف، الآية: 21، قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَهْلًا عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ (هود: 64)»⁽¹⁾، وقال في سورة الشعراء^(*): ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء: 155، 156)، «وكلمة (مس) أدخل في الإصابة، لأنها تفيد في المباشرة الفعلية، التي تتناسب مع ما صنعوه مع الناقة. وعلى هذا فالنهي عن المس بالسوء كان صائباً كل الإصابة؛ حيث إنه يدل على أن هؤلاء الكفرة صَمَمُوا على عقربها ومَسَّها بهذا السوء، ولو قيل غير القرآن (ولا تعتدوا عليها) لما أفادت هذا المعنى... وعلى هذا لا يكون المس في جانبه إلا مساً حسياً ملموساً، فكانت اللفظة القرآنية معبرة تمام التعبير، مصيبة تمام الإصابة، موحية بكل قصد، مثيرة إلى مقاصد الآية الكريمة»⁽²⁾.

وتتجلى الصلة بين عمارة الأرض وبين الناقة في كون أن القوم قد أفادوا حليب الناقة، والناقة تظل واحداً من الموارد الإقتصادية، وهذا ما نستخلصه من قصة مدين في أبعادها وهي «أن نعرف كيف تتصل المعاملات بالاعتقاد، وكيف يتدخل الدين في الإقتصاد، فيربط بين الإيمان بالله، والسلوك الشخصي في الحياة، والمعاملات المادية في الأسواق؟ وأن نعرف كيف تمر الأشياء بمراحل تحوّل نتيجةً لظروف معينة. ولكن ما يترتب عليها من نتائج الخير أو الشر لا يتغير مهما اختلفت الأزمان، وتنوعت الأشكال!»⁽³⁾.

وهذه التجربة تكشف أكثر من دلالة، منها: أن المنحرفين عن المبادئ التي وضعها الخالق يتحركون من أجل المنافع الشخصية والاستمرار في عنادهم، بحيث ينعكس ذلك على موقفهم الفكري في الحياة والكون، وهذا قد يؤدي إلى عدم ضبط النفس والتمرد على ما نهاهم عنه ربهم،

¹ - محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 297.

^(*) - لقد اشتركت سورة "الشعراء" مع سورة "هود" في الحديث عن معجزة صالح "عليه السلام" وهي الناقة مع إنذار القوم من مغبة التعرض لها بأذى سوء فيتسبب عن ذلك اتخاذ القوم بعذاب الاستئصال، ورغم هذا الاشتراك فقد تفرّدت سورة الشعراء بإضافات خلّت منها سورة هود، وتعدّ هذه الإضافات تكملة لأبعاد القصة، وهي أنّ الناقة أخرجها الله بعد طلب القوم لها آية على صدق نبوة صالح "عليه السلام"، وأنها كانت تقاسم القوم المياه بالتساوي، يوم لها ويوم لهم.

² - عمر باحاذق، الجانب الفني في قصص القرآن الكريم، ص: 224.

³ - التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، ص: 189.

وأدى إلى الإمساس بقدر من منافعهم وهي (الناقة المعجزة)، مما استتبع نزول العذاب عليهم⁽¹⁾، كما يتضح من القصة في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِتَمُودَ﴾ (هود: 67، 68)، وهنا يكون النص قدر ربط بين الكفران بالنعم وبين الجزاء الدنيوي الذي لحق بهم، ونجد نفس الربط في قصة هود السابقة: ﴿إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ (هود: 60)، وهذا التجانس بين العبارتين في القصتين (أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ - أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ) قد واكبهما تجانس بين النعم التي أغدقها الله على قوم هود وعلى النعم التي أغدقها على قوم صالح، لقد قال عن قوم هود عليه السلام: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ (هود: 52)، وقال في قصة قوم صالح عليه السلام: ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: 61)، إنه تجانس بين النعم التي أغدقها الله على مجتمع صالح وهود -عليهما السلام -، وتجانس بين موقف قوميهما حيال النعم المشار إليها وكفرهم بها، وكذلك تجانس بين العذاب الذي ترتب عن كفرهم، إنه يفصح عن تجانس وجمالية في البناء الهندسي للنص، من حيث صلة عناصر القصص بعضها ببعض⁽²⁾، إضافة إلى قيمتها الفنية التي تكمن في قدرتها على الإيحاء والتأثير.

¹ - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 298.

² - ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص: 298.

المطلب الرابع: البناء الهيكلي والعضوي لقصة إبراهيم "عليه السلام":

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ يَعْجَلُ خَبِيرٌ ، فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ، وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَّرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ، قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ، قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (هود: 69 - 73).

هذه القصة جاءت معطوفة على القصص السابقة، لذلك دخلت (قد) هنا؛ لأن السامع لقصص الأنبياء "عليهم السلام" يتوقع قصة بعد قصة، وقد للتوقع⁽¹⁾، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ يأتي الحديث في السورة عن إبراهيم "عليه السلام"؛ ولكنها لن تحدثنا عما كان بينه وبين قومه، إنما جاءت تحدثنا عن طيب الخلال، وشريف الخصال التي يتمتع بها إبراهيم "عليه السلام" وكذا عما أكرمه الله به.

ويظهر الحديث عن إبراهيم في سورة هود كان مقدمة للحديث عن قوم لوط "عليه السلام" هذا ما تشير إليه الآيات، وهذا ما يتفق مع موضوع السورة الكريمة.

ومن الواضح، أن جمال النص، يكمن في انطوائه على إمكانات تدع القارئ يكتشفها بنفسه حتى يحقق لذة الامتاع الفني في قراءته وتذوقه، فإن ما يستخلصه القارئ يظل هو الهدف الرئيس وراء القصة، ومما يلفت النظر حقاً أن نجد في النصوص القرآنية الكريمة عبر أكثر من سورة أن كلا من إبراهيم ولوط "عليهما السلام" حين الحديث عن أحدهما فإنه يستدعي أحدهما الحديث عن الآخر، حيث نستخلص من السياق المشترك بينهما في سور مختلفة مثل: سورة هود، الحجرات، الكعنكوت، الذاريات وغيرها.

وإذا عدنا إلى بعض النصوص فقد نجد بعض المسوغات التي يشير بعضها مثلاً إلى أن قرية إبراهيم وقرية لوط كانتا متقابلتين هذا من جانب، ومن جانب آخر نجد إشارة أخرى إلى أن لوط

¹ - ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج9، ص: 328.

هو في الواقع ابن أخ إبراهيم " عليه السلام"⁽¹⁾، ولذلك فهُمَا أقرباء وهذه القرابة تسوِّغ وورد قصتهما في آن واحد، وأنَّ هذه القصة ذاتها تكشف في بعض مواقعها عن وجود الرابط بين هاتين القصتين، ومن مسوغات هذا التداخل قد يعود للأسباب الآتية⁽²⁾:

1 -صلة القرابة، وكما تذكر المصادر أنَّ لوطاً ابن أخ إبراهيم، وهو أمرٌ نلاحظه في بعض القصص، ومنها قصة مريم على سبيل المثال وصلتها بالأنبياء عيسى وزكرياء ويحيى، وكذا قصص تتعلق بسليمان وداوود عليهم السلام.

2 -معاصرة إبراهيم ولوط، في الرسالة والزمان والمكان.

3 -يعتبر النبي لوط "عليه السلام" أوَّل من آمن بإبراهيم، كما يقول تعالى: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت: 26).

4 -المهاجرة؛ حيث إن إبراهيم ولوطاً قد هاجرا من مكانهما إلى آخر بحسب ما صرح به القرآن الكريم عبَّرَ قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 69 -71).

5 -إنَّ «الرسول الذين جاؤوا "إبراهيم" بالبشرى كانوا في طريقهم إلى "لوط" ولكنهم مرُّوا به إكراماً له، وهذا أمر متعارف عليه بين الناس -حتى في زماننا هذا -أن ينزلوا أولاً عند الكبير صاحب النفوذ»⁽³⁾.

6 -مناقشة إبراهيم "عليه السلام" للملائكة وإخبارهم إياه بمهمتهم لإبادة مجتمع لوط يكشف عن الاهتمام الذي يوليه إليه إبراهيم، حيث يعنيه أمر لوط ليس لأنه من أقربائه، بل لأنه المشارك له في الإيمان برسالته (العلاقة التعبدية والعلاقة الزمانية) من مسوغات التداخل.

¹ -ينظر: محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، تحقيق: محمد أبي الفضل، دار المعارف، مصر، ط1، (د.ت)، ج1، ص: 292، وسيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد4، ج12، ص: 1912.

² -ينظر: محمود البستاني، قصص القرآن دلاليًا وجماليًا، ج1، ص: 247، 248.

³ -فضل حسن عباس، القصص القرآني إبحارًا ونفحاته، دار الفرقان، عمان -الأردن، ط1، 1987، ص: 137.

وإذا تحدثنا عن البناء الفني لَتَدَاخُلِ الْقِصَّتَيْنِ فإننا نجد هذه القصة لا تخرج عن الجو العام للسورة وموضوعها المرتبط بنزول العذاب على المكذبين وإنقاذ المؤمنين كما مر معنا في القصص السابقة، وإنَّ أول ما نواجهه من القصة هو:

أ - التمهيد: المتمثل في عنصر (التشويق) أو التطلع على ما طرحته في البداية: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ (هود: 69)، «نجد أنه ثمة رسل من الله حملت إبراهيم - عليه السلام - (البشرى) من الله تعالى، ونساءل من هم الرسل؟ إنه أمر نجهله تماما، وما هي هذه البشرى؟ وهو أمر نجهله كذلك أيضاً. هذا الذي يجعلنا نتطلع إلى معرفة نوع هذه البشرى وإلى معرفة من هم حاملها»⁽¹⁾.

ب - وعنصر المفاجأة: عندما جاء إبراهيم بعجل مشوي تكريماً لضيوفه، إلّا أنّ الضيوف لم يتناولوا الطعام، وهو أمر يستثير الدهشة لسبب واضح هو «أن الضيوف الذين استهلوا مقابلتهم لإبراهيم بالسلام (قالوا سلاماً) - وهي تحية الحب - لماذا يمتنعون عن تناول الطعام الذي يجسد بدوره تعبيراً عن الحب؟ هذا هو عنصر الدهشة في الموقف. إذن لا بد أن يكون هؤلاء الضيوف من جنس آخر يختلف عن الجنس البشري، أو لا بد أن يتميزوا بصفات خاصة تحملهم على عدم تناول ما هو مألوف في السلوك البشري»⁽²⁾.

هذا يعني أن الرُّسُلَ كانوا من (الملائكة)^(*) وهم لا يأكلون طعام أهل الأرض: ﴿فَلَمَّا رَأَى

¹ - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 302.

² - ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص: 302.

^(*) - اختلفت التفاسير في ذكر عدد الرُّسُل (الملائكة) وما ذكره الفخر الرازي أن لفظ (رُسُلنا) جمع وأقْلَّة فهذا يفيد القطع بحصول ثلاثة، ينظر: تفسير الفخر الرازي، ج18، ص: 24، ويحدد القرطبي كذلك عددهم بثلاثة وهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل (عليهم السلام)، ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص: 157.

أَيْدِيَهُمْ لَّا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكْرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴿٧٠﴾ (هود: 70) ^(١) ، وهو أمر رآه إبراهيم " عليه السلام " يبدو غريباً مما أحس في نفسه من جهتهم رُعباً وتوجَّسَ خوفاً ؛ لأن امتناع الضيف عن الأكل من طعام مُضيفه - بدون سبب مقنع يشير بأن هذا الضيف يريد به سوءاً .

ج - التنامي العضوي: يتضح التنامي من خلال كون القصة تتصاعد بالكشف تدريجياً، وهو عنصر يتمثل في ملابسات الموقف، فعندما شاهدت الرُّسل أن إبراهيم توجَّس منهم خوفاً حينها بادر هؤلاء الرُّسل قائلين: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ﴾ ، فكان لا بد أن يُبين هؤلاء الرُّسل حقيقة الموقف حتى لا يخاف منهم إبراهيم " عليه السلام " ، ثم بدأت القصة تكشف عن الخيوط الأولى للموقف، وذلك حينما تحدّث الرُّسل مباشرة «مُكاشفة منهم بأنهم ملائكة، والجملة استئناف مبنية لسبب مجيئهم» ⁽¹⁾ .

د - عنصر الحوار: اختصرت القصة اختصاراً بديعياً لوقوعها في الحوار بين الرسل وإبراهيم " عليهم السلام " ، وحكاية ذلك الحوار اقتضت إتمامه بحكاية قولهم أنهم مرسلون إلى قوم لوط. إن عنصر (التشويق) (والمفاجأة) بدأ ينكشفان تدريجياً من خلال بيان أن رسل الله قد جاؤا في مهمة خاصة هي: إنزال العذاب على قوم لوط وهذا الأمر تجلّى من خلال عنصر التنامي أو النمو العضوي، وهو ما جعل القصة تترك القاريء يستخلص بنفسه أن الرسل هم ملائكة أرسلوا من

^(١) - جاء في حاشية تفسير الكشاف، ج3، ص: 216، قوله: «وردت قصة إبراهيم في ثلاثة مواضع: هذه إحداها، وهو دال على أنه أوجس منهم خيفة لعلمه أنهم ملائكة وعدم علمه فيم جاؤوا. الثاني: في سورة الحجر قوله: ﴿وَبُئِثُّهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ فلم يطمئنا بإعلامه أنهم ملائكة، ولكن بأنهم يُبشرون له، فدلّ على استشعارهم أنه علم كونهم ملائكة ووجل مما جاؤوا فيه. الثالث: في الذاريات ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَّا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ﴾ فهو أيضاً كذلك. وأما لوط فلم يشعر أنهم ملائكة حتى أعلموه بذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ فأول ما أعلموه به أنهم رسل، فالفرق بين هذه الآية وبين آي إبراهيم، مصداق لأن إبراهيم علم كونهم ملائكة ولوط لم يعلم ذلك، ولا يبعد من فضل إبراهيم على لوط أن يبعد على فراسته أن يعلم أنهم ملائكة دون لوط عليهما السلام».

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 118.

قبل الخالق في مهمة إنزال العذاب على قوم لوط "عليه السلام"، وهذا الجانب إنما يدل على إحكام النص من حيث تلاحم موضوعاته⁽¹⁾.

هـ - عنصر التجانس: يتجلى التجانس من خلال الحديث في هذه القصة عن إبراهيم وذلك للدخول في حكاية لوط عليه السلام، مع قومه وهذا ما عودتنا عليه سور القرآن فكلاً الشخصيتين (النَّبَوِيَّتين) يُجسدان قصة واحدة، ومن جانب آخر من حيث «تناسب جدالي نوح وإبراهيم عليهما السلام، في أنّ كلا منهما شفقة على الكافرين ورجاء لنجاتهم من العذاب بحسن المثاب»⁽²⁾.

لقد جاء الرسل إلى إبراهيم "عليه السلام" كما أسلفنا، وهم (ملائكة) حملوا البشارة ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ (هود: 69)، وهم مرسلين إلى قوم لوط "عليه السلام" هذه البشري تبدأ القصة في الكشف عن تفصيلاتها من خلال قول امرأة إبراهيم ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (هود: 71)؛ فالْبُشْرَى إذن تتعلق بقضية الإنجاب، ولهذا تُسَرُّ امرأة إبراهيم بولادة مولود لها: (اسحاق) ثم يكون لهذا المولود ولداً أيضاً اسمه: (يعقوب)، وإنّ دخول بطل جديد في القصة وهو (امرأة إبراهيم) من المؤكد لها دوراً مهماً من حيث (بناء الشخصية) ويتجلى ذلك:

1 - أنّ النص أبرز النتيجة وهي (الضحك)^(*).

¹ - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 302.

² - ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج9، ص: 328.

^(*) - ذكر ابن عاشور أنها ضحكت من تبشير الملائكة إبراهيم بسلام، وكان ضحكها ضحك تعجب واستبعاد، وأنّ هذا الضحك أيضاً جاء في التوراة في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين «وقالوا له: أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة، فقالوا: يكون لسارة امرأتك ابن، وكانت سارة سامعة في باب الخيمة فضحكت سارة في باطنها قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنا قد شيخت؟ فقال الرب: لماذا ضحكت سارة؟ فأنكرت سارة قائلة لم أضحك، لأنها خافت، قال لا بل ضحكت»، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 119.

2 - أن النص ارتد إلى المقدمة وهي (البشرى بالإنجاب)، وهذا أيضاً دليل لمن تعنت بطلب إنزال الملائكة⁽¹⁾ كما في قوله: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ (هود: 12).

3 - أن البشارة جاءت متناسقة مع أمر الإنجاب في كونه ليس إنجاب شخصيات عادية أي: إسحاق ومن بعده يعقوب، وهي بشرى في كونهما من أنبياء الله، يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله «لأنها ما ضحكت إلا بعد أن بشرها الملائكة بإبن، فلما تعجبت من ذلك بشرها بابن الإبن زيادة في البشرى»⁽²⁾.

4 - أن النص أبرز لنا أمراً عجبياً يتمثل في الإنجاب ذاته: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (هود: 72)، والتعجيب كما يقول ابن عاشور «بأن يولد لها ابن ويعيش وتعيش هي حتى يولد لابنها ابن»⁽³⁾، إنها من سمات الصياغة القصصية، المتمثلة في عنصر التشويق المتمثل في تنامي مواقفها وأحداثها، وهذا يفصح عن إحكامها الهندسي من حيث الصلة بين الشخصيات (الملائكة وإبراهيم ومرأته) وبين موضوعات القصة.

¹ - ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج9، ص: 328.

² - تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 119.

³ - المرجع نفسه، ج12، ص: 119.

المطلب الخامس: البناء الهيكلي والعضوي لقصة ولوط "عليه السلام":

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ، وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ، قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ، قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ، قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبًا فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: 77 - 83).

ورد المشهد في هذه القصة متكاملًا مفصلاً وقد عُرِضت مشاهد الأقوام المهلكة في تفصيل من قبل؛ فالسورة على وتيرة واحدة تعلو فيها نبرة التهديد والتهويل تحمل شحنة من الإنذار والوعيد، وكان التفصيل في المشهد يناسب التسلية والتسرية عن الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وما كان فيه من ضيق بما يعرض عليه من صور الأحداث العظيمة التي واجهت لوطاً "عليه السلام" بين قوم مشركين قد انتكست فطرتهم واشتد فسقهم وعتوهم.

تعرض هذه الآيات قصة جديدة بعد أن أسدل الستار على مشهد إبراهيم وزوجته ليرفع هناك على مشهد حافل بالحركة والإنفعال مع قوم لوط؛ حيث طبع سلوكهم انحراف وشدوذ عجيبين⁽¹⁾، وعلى غرار القصص السابقة التي اشتركت في ذكر الفكر الوثني لدى مجتمعات نوح وهود وصالح.. "عليهم السلام" غير أن قصة إبراهيم ولوط "عليهما السلام" تختلف عما سبقها من القصص، فقصة إبراهيم، جاءت لتُلَفِّتَ النَّظَرَ إِلَى الإنجاب المعجز، وقصة لوط جاءت لتتناول نمطاً من الانحرافات الاجتماعية، التي ما سبقها إليهم أحد متمثلة في الشذوذ الجنسي، وهما موضعان منفصل كل منهما عن الآخر إلا أنهما مرتبطان عضويًا بأكثر من حدث وبأكثر من موقف⁽²⁾.

¹ - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ج 12، ص: 1913.

² - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج 2، ص: 306.

ولا بد أن أشير إلى أن قصة لوط "عليه السلام" تندرج في قصة -إطار هي قصة إبراهيم -
 "عليه السلام"، «ومما يُلفت النظر حقاً أن نجد في النصوص القرآنية الكريمة عبر أكثر من سورة أن
 كلاً من إبراهيم ولوطاً "عليهما السلام"، يُجسّدان بطلين لقصة واحدة أو لقصتين لا تفصل
 أحدهما عن الأخرى، أو لبطلين كأنهما متلازمين يستدعي أحدهما الحديث عن الآخر..»⁽¹⁾.

الخطوط المشتركة بين قصة إبراهيم ولوط "عليهما السلام" وصلة ترابطهما العضوي:

| | |
|--|---|
| <p>جدال إبراهيم للملائكة في أمر قوم لوط بعد أن أخبروه بوقوع العذاب عليهم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾^(**)، هذه المجادلة مع الملائكة عليهم السلام، تُعتبر عن افصاح كافٍ عن الأهمية التي تستهدفها القصة لحادثة نزول العذاب على المجتمع المنحرف⁽²⁾.</p> | <p>جدال إبراهيم^(*) في قوم لوط</p> |
| <p>يتضح لنا في جانب إرسال الملائكة إلى إبراهيم ليُشّروه بالبنين والأحفاد وفي نفس الوقت جاؤوا ليصبوا العذاب على قوم لوط الذين كانوا يمارسون المنكر بالشكل الذي نعرفه جميعاً ويعتبر هذا التضاد واحداً من الخيوط العضوية بين القصتين حيث يستخلص القاويء بأن هناك تخطيطاً غيبياً تقوم الملائكة بتنفيذه⁽³⁾.</p> | <p>التضاد</p> |

¹ - محمود البستاني، قصص القرآن دلاليا وجماليا، ج1، ص: 257.

^(*) - جدال إبراهيم مع الملائكة كان خوف على لوط لأنه أول من آمن برسالة إبراهيم "عليه السلام"، جاء في سورة العنكبوت قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ، قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (العنكبوت: 31، 32).

^(**) - «الحليم: الذي يحتمل أسباب الغضب ويتأني ولا يثور. والأواه: الذي يتضرع في الدعاء من التقوى. والمنيب: الذي يعود سريعاً إلى ربه.. وهذه الصفات كلها قد دعت إبراهيم أن يجادل الملائكة في مصير قوم لوط وإن كُنا لا نعلم كيف كان هذا الجدل لأن النص القرآني لم يُفصِّله»، سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد4، ج12، ص: 1913.

² - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 306، 307.

³ - ينظر: محمود البستاني، قصص القرآن دلاليا وجماليا، ج1، ص: 362.

| | |
|--|----------------------------------|
| <p>هذا التقابل تمثّل في عملية التبشير من جانب: ويتصل بولادة أنبياء من أنبياء (ولادة إسحاق ثم يعقوب من إبراهيم) الذين يحملون بعده شرف النبوة والرسالة، ومن جانب آخر عملية التدمير: ويتصل بإبادة مجتمع منحط (قوم لوط⁽¹⁾).</p> | <p>التقابل الفني بين القصتين</p> |
| <p>الذي يبدو ظاهرياً في هذا المجال إذ يقابل هذا التضاد تجانس واضح كل الوضوح ألا وهو أنّ البُشْرَى بولادة ذُرِّيَّة إبراهيم في الواقع تتجانس أيضاً مع البشرية بإبادة مجتمع لوط؛ لأن لوط نفسه قال في هذه القصة: ﴿قَالَ رَبُّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت: 30)، لذلك قالت له الملائكة: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِنَّا امرَأَتِكَ كَانَتْ مِنْ الْغَايِرِينَ﴾ (العنكبوت: 33)، إذاً القصتان كلتاها تبشران بنمط واحد من البشرية هو إبادة المنحرفين وهي بشرى بالنسبة إلى لوط وولادة المصطفين وهي بشرى بالنسبة إلى إبراهيم "عليه السلام"⁽²⁾.</p> | <p>التجانس من خلال التضاد</p> |

وبالنظر لقصة لوط "عليه السلام"، نجدتها تمثّلت في أربع مشاهد:

المشهد الأول: قدوم الملائكة إلى لوط عليه السلام ضيوفاً، حيث أصابته المساءة من قدومهم، بسبب

علمه بحال قومه، وخاصة أنهم في صورة بهية.

المشهد الثاني: قدوم قومه إلى بيته، ومحاولتهم أخذ ضيوفه ليفتكوا بهم.

المشهد الثالث: خروج لوط عليه السلام ومن معه من القرية.

المشهد الرابع: نزول العذاب على القوم الظالمين بأ مطار حجارة السجل على رؤوسهم.

ومن حيث البناء الهندسي لمشاهد القصة نذكر:

أ - عنصر التشويق: كما أنّ عنصر التشويق لعبَ دوراً في قصة إبراهيم، كذلك نجد أنّ (التشويق)

ترك فاعلية في قصة لوط، لأن القاريء يظل متطلّعا إلى النتيجة التي ينتهي إليها الحدث، حيث إن

الملائكة "عليهم السلام" قد جاءوا لوطاً كما جاءوا إبراهيم "عليهما السلام"، في صورة البشر،

فظنّهم أناساً وساءةً مجيء هؤلاء الضيوف، وخاف عليهم من مجتمعه ومن شرهم، ونظراً لهجوم

¹ - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 307.

² - ينظر: محمود البستاني، قصص القرآن دلاليًا وجماليًا، ج1، 360، 361.

المنحرفين على داره: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾^(*) (هود: 78) ، حتى إنه هتف قائلاً: ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (هود: 77) ، ف«سيء لوط بأضيافه ، وهو يعلم ما ينتظرهم من قومه ، ويدرك الفضيحة التي ستناله في أضيافه»⁽¹⁾ لقد عرض عليهم بناته^(**) ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ (هود: 78) ، ثم خاطبهم من جديد محذرهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ (هود: 78) ، ثم خاطبهم أيضاً: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (هود: 78) ، ولكنه لم يفلح فقال لوط مُتْلِفَتًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ مَعَالِجَةِ الْمَوْقِفِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: 80) ، هذه العبارة الأخيرة التي نطق بها لوط (عليه السلام) ، جاءت من حيث البناء الهندسي للقصة إرهاباً بانفراج الأزمة.

ب - عنصر المفاجأة: يتمثل عنصر المفاجأة في كون ملائكة الله الذين أخبروا إبراهيم بالبشارة أولاً ، وأخبروه بأنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين ، لكي يُنكَلُوا بِهِمْ ثانياً ، ثم كشفوا عن حقيقة أمرهم ، جاءت المفاجأة: لتعلن هوية الرسل ، وأعلنوا أنهم ملائكة الله سبحانه وتعالى وإذا بهم يخاطبون لوطاً عليه السلام ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ﴾ (هود: 81) ، وهي بُشْرَى بالنسبة إلى لوط في طمأنته بإبادة المنحرفين ، كما كانت عند إبراهيم بشرى بولادة المصطفين.

وهكذا تَكشَّفَ الْمَوْقِفَ بهذه العبارة القصصية ، وحُسيَمَ الأمر ، حيث رسموا للنبي لوط "عليه السلام" ، طريقة النجاة من العذاب الذي سيلحق هؤلاء القوم ، قائلين له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: 81) ، وبهذا التخطيط لعملية الهروب من المدينة بالنسبة للوط وأهله عدا امرأته ، تعرضت القصة للنهاية المتمثلة في نزول العذاب على القوم «ثم إنَّ طلبَ قومِ لوطِ هؤلاء الرسل الثلاثة الذين هم كالغلمان المُرد ، ومحاولة الاعتداء عليهم ، جعل القصة القرآنية في هذا المجال تُشعر

^(*) - أي : جاء بعض قومه ، وأُسندَ الحُجْمِ إِلَى الْقَوْمِ ؛ لِأَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ الْحُجْمِ دَابَّهْمُ لِكُونِهِمْ تَمَالُؤًا عَلَى مِثْلِهِ ، وَهَذَا يَعْنِي إِذْ جَاءَ بَعْضُ آخَرٍ فِي وَقْتِ آخَرَ.

¹ - سيد قطب ، في ظلال القرآن ، المجلد 4 ، ج 12 ، ص : 1913.

^(**) - «يذهب بعض المفسرين إلى أن لوطاً قد عرض بناته على قومه عَرَضًا (سأبرياً) أي عَرَضٌ غَيْرُ مُؤَكَّدٍ... كما تقولُ لرجل يضرب آخر وأنت تحجزه عنه : دعه واضربني أنا ؛ لِأَنَّكَ تَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ وَأَنْتَ جَدِّ وَاثِقٌ أَنَّهُ لَا يُضْرَبُكَ» ، عبد الوهاب النجار ، قصص الأنبياء ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، ط 3 ، (د.ت) ، ص : 116.

باستحقاق العذاب، وكأن الله تبارك وتعالى وضَّح لنا أنهم ما استحقوا هذا النكال إلا بسبب حرصهم على الفاحشة بإتيانهم الذكور، حتى إن ملائكة الله - سبحانه وتعالى -، الذين أُرسِلوا لعذابهم ما سلموا من شرهم، فلقد حاولوا أن ينالوهم بسوء وهم في صورة البشر، وعلى هيئة الغلمان، فكان عذابهم عدلاً، والتنكيل بهم شيء يستحقونه»⁽¹⁾.

وهكذا نلمس الإحكام والربط بين الرُّسل التي جاءت ببشارة إبراهيم عليه السلام وزوجه، وبين محق لوط وإمطارهم بالحجارة التي هي من سجّيل منضود، وقُراهم التي جعل الله سبحانه وتعالى عليها سافلها ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَايِرِينَ، ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: 170- 173).

ومن الواضح أن خطوط القصة أفضت إلى نهايتها المشار إليها، وهي تُفصحُ عن مدى إحكام البناء الفني لها، من حيث تنامي أجزائها وتلاحمها.

وهناك ملحوظة في غاية الأهمية لا بد من ذكرها في عرض قصة لوط "عليه السلام"، جديرة بالوقفة والتأمل حيث اختلف السياق عند بدء القصة عن أنماط السياق في بدء القصص السابقة عليها، فقد بدأت قصة نوح "عليه السلام"، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (هود: 25)، ثم نسق من بعده عليه فقيل: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ (هود: 50)، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ (هود: 61)، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (هود: 84)، فعدّل عن هذا الأسلوب في قصة لوط "عليه السلام"، فلم يُقل: وإلى سدوم^(*) أخوهم لوطاً، ولا صدّر بـ(أرسلنا) كما في قصة نوح "عليه السلام"، وإذا كان من مقاصد سرد هذه القصص هو تسليية النبي "صلى الله عليه وسلم"، في مخالفة قومه له وعدم استجابتهم لدعوته، وكان من مقاصدها أيضاً انذار قومه بأن عاقبتهم مثل عاقبة الأمم السابقة، فإنّ المشابهة بين هذه الأمم السابقة - ما عدا قوم لوط - وبين قريش في الشرك بالله والتكذيب بالرُّسل، ولما تفرّد قوم لوط⁽²⁾ بأمر فظيع (شذوذ السلوك)، وإنّه شديد العار والفحش، فعدّل عن هذا النسق الذي انتظم القصص

¹ - عمر محمد عمر باحاذق، الجانب الفني في قصص القرآن الكريم، ص: 228.

^(*) - قوم لوط في مدن عمورية وسدوم بضواحي الأردن، ينظر: محمد شحرور، قصص الأنبياء - قراءة معاصرة، ج2، ص: 189 وما بعدها.

² - ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَثُونَ لِنَافِحَةٍ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، (العنكبوت: 28).

السابقة واللاحقة تهويلاً للأمر وتثنيّاً له، فما حصل على لوط مع قومه زائد على ما حصل للأنبياء قبله وبعده⁽¹⁾.

المطلب السادس: البناء الهيكلي والعضوي لقصة شعيب "عليه السلام":

يقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ، وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ، قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود: 84 - 87).

وفي موضع آخر منقصة شعيب يُكرّر الدّعوة إلى عبادة الله وحده، إنّه الخطاب نفسه المتكرر على لسان إخوانه من الأنبياء كما لاحظنا في القصص السابقة. وجاء المشهد هنا معطوفاً على ما سبقه بالواو من قبيل عطف القصة على القصة وقد جاءت القصة في ترتيبها الزمني المتسلسل بعد قصة لوط "عليه السلام".

وهذه القصة أيضاً تُطرحُ مَوْضوعاتٍ مماثلة لما لاحظناه في قصص (نوح وهود وصالح)، فهي: «تجري على نسق قصة هود مع عاد، وقصة صالح مع ثمود، وإن كانت أقرب في نهايتها وأسلوب عرضها، والتعبير عن خاتمها إلى قصة صالح، حتى لتتشارك معها في نوع العذاب وفي العبارة عن العذاب»⁽²⁾ ولكن في سابقات جديدة هو التركيز على أحد أشكال التّعامل الاقتصادي المحظور وهو: التّطيف في الكيل والميزان الذي يؤدي بدوره إلى فساد الأمة. ومما لاشك فيه أن أهم الأهداف التي تضمّنّها القصص هو: قضية (التوحيد)، كما أن الموضوع الرئيس الذي حامت حوله السورة هو التوحيد نفسه وهذا ما كان يدعوا إليه جميع الرسل كما تقدم ذكره.

¹ - ينظر: عبد الصمد عبد الله محمد، خطاب الأنبياء في القرآن الكريم: خصائصه التركيبية وصوره البيانية، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد، إشراف الدكتور: عبد اللطيف خليف، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1995، ص: 63، 64.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ج 12، ص: 1917.

ولكن حينما يعرض النص القرآني قضية ثانوية أو ما طرحه السورة الكريمة من خلال بنائها العام فكرة رئيسية من جانب، قد تطرح إلى جانبها أفكاراً ثانوية أيضاً تلتحم مع الفكرة الرئيسية، وأن ما طرحه السورة أو ما تتركه من أثر شعوري أو لا شعوري عند المتلقي وهو ينتهي من قراءة هذه السورة أو تلك إن هذا الأثر الذي يتركه النص حينما يُقرأ كاملاً إنما يجسد فكرة واحدة أو يجسد أكثر من فكرة، وقد يجسد فكرة رئيسية، وقد يجسد بالإضافة إلى الفكرة الرئيسية فكرة أو أفكاراً ثانوية، وهذا ما نلاحظه في لفت النظر إلى قضية ثانوية ونعني بها التطبيق في الميزان⁽¹⁾.

فمثلاً مسألة تخسير الميزان أو تطفيف الميزان، هذه المسألة طالما يطرحها النص القرآني الكريم، عبر عرضه لسورة الأعراف أو سورة هود أو غيرها من السور، عندما يقف عند شعيب "عليه السلام" غالباً يربط بين شخصية شعيب وبين مجتمعه الذي امتاز بجملة سمات منحرفة، وفي مقدمتها سمة التطفيف في الميزان⁽²⁾.

وهذا يعني أن هذه الفكرة جاءت واحدة من أفكار متنوعة طرحها السور القرآنية الكريمة الكثيرة التي تعرضت لحادثة الأنبياء وموقفهم من مجتمعاتهم، ولكن هذه الفكرة أي فكرة تطفيف الميزان يريدنا النص القرآني الكريم في سورة أخرى هي سورة المطففين، حيث يبدأها أو يستهل هذه السورة أساس بظاهرة التطفيف الميزان ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين: 1- 6).

هذه السورة الكريمة هنا قد استهلنا بالحديث عن التطفيف، ولقد لاحظنا من قبل كيف أنّ للاستهلال أهمية كبيرة جداً، في آية سورة أو في آية قصة يظلُّ مُفصَّحاً عما سوف طرحه القصة أو السورة من أفكار ذات صفة كبيرة بهذه المقدمة أو بهذا الاستهلال، ثم ينتقل من ذلك إلى موضوعات أخرى ولكن مجرد الاستهلال كاشف عن أهمية ما يُطرح سواء ما يُعنى بطرحه سوف

¹ - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 309.

² - ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص: 42، وص: 309.

ينسحب على الأجزاء اللاحقة من السورة أو القصة أو كان مجرد تمهيد يُحسّ بكونه ذا أهمية فحسب.

وهذا يعني أنّ قضية التّطفيّف في الميزان تكتسب مِحورًا بالغ الأهمية قد استهدفها القرآن الكريم في هذه السورة، دون أن يستهدفها بنفس الحجم من الأهمية المستهدفة في سورة أخرى، بأنّها تُردُّ في سور أخرى في سياق مجتمعات مُنحرفة متنوعة⁽¹⁾؛ «وذلك لأن بيان (الكيل) في سورة هود ليس بياناً مركزياً، كما هو الحال في سورة المطففين التي جاء بيان (الكيل)، مركزياً فيها، بل إنّ موضوعات السورة جميعاً، تختلف عضوياً عن سورة هود، بلحاظ مركزية موضوع (الكيل) ومحوريته فيها، أما مجيئه في سورة هود، فقد جاء بوصفه مكوناً من مكونات السرد القصصي والتاريخي الذي تركز عليه السورة، فأيات الكيل في سورة هود، إذاً إبانة من إبانات الآيات الأخرى في السورة ممّا هي إبانة رئيسية لغيرها من الآيات، كما هو الحال مع سورة المطففين»⁽²⁾.

إنّ القضايا التي طرحها شعيب "عليه السلام"، تُعطينا الفكرة الواضحة عن مميزاتهم السلوكية في تعاملهم مع الناس، إنهم يبخسون الناس أشياءهم، ويعيشون في الأرض فساداً بعد إصلاحها، ويمارسون الصدّ عن سبيل الله بمختلف الوسائل في كل طريق يقعدون فيه، فيهدّدون المؤمنين من أجل أن يُحرّفوهم عن الطريق المستقيم إلى الطريق المُعوجّ، بعد «أن رفض هؤلاء القوم المبدأ التشريعي الذي يحرم التّطفيّف، يرجع إلى اعتقاد خاطيء، وهو حرية التّصرف المطلق في ما يملكه الإنسان من مال، فليس لأيّ تشريع أن يقترب من هذه الحرية بأي نوع من أنواع التضييق والتقييد»⁽³⁾.

¹ - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج5، ص: 300 وما بعدها.

² - عباس أمير، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم بين الظاهرة الموضوعية والبيان النصي، العميد، مجلة فصلية محكمة تُعنى بالأبحاث والدراسات الإنسانية، تصدر عن العتبة العباسية المقدسة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، كربلاء - العراق، العددان الأول والثاني، المجلد الأول، شهر رمضان، 1433هـ / 2012م، ص: 76.

³ - ينظر: محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن الكريم: قواعده - أساليبه - معطياته، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط5، 1996، ص: 309.

وهذا ما يُعبر عنه احتجاجهم بقولهم: ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ (هود: 87)، هذه القضية الثانوية التي تُلفتُ ذهن القاريء في سورة هود، إنّما تُوحى بأهمية هذا الأمر الذي هو نوع من أنواع الاستغلال الخبيث والتّعدي على حقوق الناس وسرقة أموالهم، وهي مسألة سادت في عهد شعيب وقد تكون سائدة في عهد قريش، وتسود مع الأزمان اللاحقة، وإنّه لا بد من التوازن في تحقيق العدالة مع التعامل مع الناس وتوجيههم إلى الربح الحلال: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ (هود: 88)، وإنّ العدالة الإلهية تطرح على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ (هود: 88).

ومن حيث البناء الفني للقصة فإننا نجد تماثل مع قصص نوح وهود وصالح وما تضمّنته من دعوة إلى نُبذ الأوثان وتوحيد الله - تعالى الله -، والحثّ على مكارم الأخلاق؛ «وهي وثيقة الصلة بالعقيدة في الله، والدينونة له وحده، واتباع شرعه وأمره»⁽¹⁾ لهذا حدّر شعيب قومه من أن يصيبهم العذاب الدنيوي نفسه الذي أصاب قبلهم أمم بطغيانها، وهذا ما نلاحظه في خاتمة العنصر القصصي على لسان شعيب - عليه السلام - في قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: 89)، إن هذا التذكير على لسان (نبيهم) له أهميته الفنية الضخمة، وذلك لجملة أسباب منها⁽²⁾:

- 1 - أنّ هذه القصة تُشكّل خاتمة لقصص نوح وهود وصالح ولوط.
- 2 - أنّ القصة (زمانياً) متأخرة عن أزمنة القصص السابقة.
- 3 - أنّ الآثار المترتبة عن إبادة المجتمعات السابقة: تظل بمرأى وبمسمع من مجتمع شعيب - وبخاصة - مجتمع لوط بصفة أنّه آخر المجتمعات التي تُعرّض لها النص؛ حيث تظل آثار الجزاء الدنيوي محتفظة بفاعليتها، وهو أمر أشارت القصة إليه بوضوح حينما قالت على لسان شعيب: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾، فيذكرهم بمن اجتالتهم العقوبة وهم قريبوا عهد بهم ألا وهم قوم لوط.

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ج 12، ص: 1917.

² - محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج 2، ص: 310.

ومن هنا يتضح حرص الخطاب القرآني في قصة شعيب "عليه السلام" ، على أن يجري على نسق القصص السابقة مثل قصة لوط ، القرية منها زمانيا ، حتى أنها لشارك مع صالح في نوع العذاب ، هذا النسق التعبيري يكشف عن مدى تحذير عناد للكافرين من زاوية ، ويكشف من زاوية أخرى عن مدى احتكامهم للمنطق الفاسد مما يوقن بنزول العذاب عليهم ، وهذا كله يُفصح عن مدى تماسك القصص وإحكام الربط داخل النص ، فكل قصة توحى لِمَا يأتي بعدها وكل تالية توحى لِمَا قبلها وهكذا رفع مصرع القومواخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح ، وطويت صفحاتهم في الوجود كما حصل مع قوم ثمود ، وحق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد⁽¹⁾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ (هود: 94- 95).

وهكذا تُبرز لنا القصة نجاة شعيب "عليه السلام" ، ومن آمن به وحسن إبراز النجاة هنا بعد التهديد والتوعد من قومه لقد أنجى الله نبيه ومن معه وأخذ الظالمين كأن لم يكن لهم حياة من قبل ، وكل هذه اللمسات البديعة بما يتوافق ويلائم جوَّ السورة وسياقها وموضوعها في اهتمامها بالعقيدة واختصر في إيراد العاقبة سريعة موجزة تُلقي ظلال التحذير والرَّهبة وتُبث تبشير النَّصر والفرح للرَّسول - صلى الله عليه وسلم - ومن آمن به.

¹ - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ج 12، ص: 1923.

المطلب السابع : البناء الهيكلي والعضوي لقصة موسى "عليه السلام" :

يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ، إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ، يَقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُشْسَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ ، وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُشْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ، ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيبٍ ، وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ (هود: 96-103).

وبهذه القصة التي هي إشارة موجزة، تتحدث السورة عن قصة موسى "عليه السلام"، وهنا يُخْتَمَ العنصر القصصي الذي وظفته السورة الكريمة؛ حيث كان الهدف مُنصَباً على إبراز مفهومات مُعيَّنة تتساقق وطبيعة الأفكار المطروحة، بُغية إخراجها في سورة متكاملة وفي صورة عرض متكامل لأهم المراحل في تاريخ البشرية، وأخطرها وأصدقها حديثاً، والسِّيَاق لا يفتأ يذكر في ثنايا كلِّ قصة أو بين كلِّ قصتين بهذا وبالعلاقة بدعوة خاتم المرسلين. ويأتي هذا المقطع عابراً في إشارة إلى حكاية موسى "عليه السلام" مع فرعون «لتسجيل نهاية فرعون وملئه، ونهاية قومه الذين اتتمروا بأمره»⁽¹⁾.

وقد لا حظنا من قبل أن قصص نوح وهود وصالح قد عُرضت مُفصَّلة، بينما تُعرض الآن قصة موسى مُجمَّلة، وقد جاءت الأقصوصة^(*) سرداً لا يتخلله أي محاورة، وهو من المواضيع

¹ - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ج 12، ص: 1924.

^(*) - القصة أو الأقصوصة: هي التي تتناول قطاعاً صغيراً من الحياة، أو حادثاً كبيراً من أحداثها، فتُعرض في صورة سريعة قوية، في تعبيرات مُركَّزة مُشجَّعة، ومُهمَّتها الإيحاء والتأثير القوي، لتبلغ غايتها في أقصر وقت ومن أقرب طريق، ومن ثم كانت لا تتناول وقائع متصلة مترابطة، ولا تُعنى برسم شخصيات ولا بتفاصيل أحداث، والقصة القصيرة في القرآن الكريم - بهذا المفهوم - ألوان: فتارة تكون عبارة عن تلخيص مركز واف لأحداث طويلة تناولها القرآن في مواضع أخرى بالتفصيل كقصة موسى "عليه السلام" التي جاءت في عدة سور منها: (سورة طه والقصص والأعراف) في قصة طويلة، في حين أنها جاءت في =

النادرة التي يتخللها أطول المحاورات القصصية في القرآن الكريم، وكما نلاحظ في كل مرة تذكر فيها قصة جديدة على القصص السابقة أو شخصية على الشخصيات السابقة، أنها تقدم إضافة فكرية جديدة مضافة للأفكار السابقة التي تضمنتها القصص أو الشخصيات، وهذا له دور بارز في توضيح وظيفة المعمار في كل قصة على حدة، وفي مجموع القصص بشكل عام، ومدى تلاحمها مع السورة بشكل كلي⁽¹⁾.

وبما أن سورة هود "عليه السلام" في عرضها للعناصر القصصية وكيف كان هذا التوزيع لتلك العناصر يتبع الظروف والمناسبات، ويتأثر إلى حد كبير بالدعوة الإسلامية في تدرجها وترقيتها، وكان التركيز في تلك العناصر القصصية على العذاب الدنيوي الذي شمل كل الأقسام المكذبين بالرسلات السماوية، وبما أن «الصورة المعروضة للواحد من الرسل فنحس لساعتنا كأنها صورة محمد -صلى الله عليه وسلم- وكأنّ الحوار القائم وكأنّ الأحداث البارزة هي التي تلم به أو تقع بينه وبين من يدعوهم إلى الدين الجديد من مشركين وأهل كتاب»⁽²⁾.

ولهذا ذكر بعد قصة شعيب "عليه السلام" «مفتتحاً لها بحرف التوقع فقال مؤكداً تنبيهاً على أنّ فرعون فعّل فعلَ قريش في الإدبار عن الآيات العظيمة ولم يترك موسى "عليه السلام"، شيئاً مما أوحى إليه من إنذاره»⁽³⁾.

=سورة النازعات في شكل قصة قصيرة. أو تكون تصويراً لحادث كان معروفاً زمن التنزيل كقصة أصحاب الفيل. تارة تكون في شكل مجموعة من قصص الأنبياء تجمع بينها وحدة الموضوع ووحدة الهدف، رغم اختلاف الأمم والأزمات والأمكنة ولكنها تأتي في سياق السورة كأنها قصة قصيرة واحدة كمجموع قصص الأنبياء في سورة هود. أو تكون تثبيتاً لعنصر من عناصر الإيمان، فتصوّره في صورة واقعية، كقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها في سورة البقرة، ينظر: عمر محمد عمر باحاذق، أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز البياني، دار المأمون للتراث، بيروت، ط1، 1994، ص: 232، 233، 234.

¹ -ينظر: محمود البستاني، قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا، ج1، ص: 498.

² -محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص: 350.

³ -ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج9، ص: 368.

فكان لابد أن يُختتم العنصر القصصي في سورة هود « بقصة تجمع بين العذاب الدنيوي والعذاب الآخروي الذي ينتظرهم، وهذا ما تكفلت به أقصوصة موسى مع فرعون من حيث جمعها بين العذابين»⁽¹⁾، ولذلك لم يتعرض السرد القصصي في الآيات الواردة في سورة هود عن حوار موسى مع قومه بل تعرضت قليلاً على الإرسال وعن نهاية فرعون وملئه وكذلك تعرضت الآيات الواردة في السورة على النهاية الآخروية لهم كما هو واضح في قوله تعالى عن فرعون وملئه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَبْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (هود: 98)؛ أي كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه وإذا كان قدوة لأصحابه في الدنيا، أو رَضُوا أن يكونوا أتباعاً له فهو سيقدمهم يوم القيامة كذلك ويكونون له تبعاً ليوردتهم النار، وقال: (فأوردتهم النار) أدخلهم وجيء بصيغة الماضي للدلالة على صحة الوقوع، فكأنه قيل يقدمهم فيوردتهم النار لا محالة⁽²⁾ «(وبسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ) أي: بسُ المدخل المدخول»⁽³⁾.

من هذا الجانب نجد: **التجانس**: الذي يتمثل في الدور البارز الذي لعبه رؤساء الكفر في زمن النبي -صلى عليه وسلم- في تضليل أتباعهم، حينئذ فإن عرض قصة موسى مع فرعون يجسد صدى مماثلاً لسلوك هؤلاء؛ لأن فرعون وجماعته أيضاً كان لهم دور بارز في تضليل أتباعهم⁽⁴⁾، ولما كانوا تبعاً لفرعون في هذا الأمر، يمشون خلفه، ويتبعون خطواته الضالة بلا تدبر ولا تفكير، ودون أن يكون لهم رأي، مستهينين بأنفسهم، متخلين عن تكريم الله لهم بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق.. ولما كانوا كذلك فإن السياق يُقرّر أنّ فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعاً⁽⁵⁾، وهذا يفسر لنا واحداً من أسرار العرض القصصي الذي ختم به هذا القسم من السورة.

1 - محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 311.

2 - ينظر: أبو السعود، تفسير أبي السعود المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج4، ص: 239، وينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ص: 233.

3 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص: 204.

4 - محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 312.

5 - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد4، ج12، ص: 1924.

عناصر الترابط الهيكلي والعضوي في قصة موسى "عليه السلام":

أ -العنصر الصوري: والمقصود بالعنصر الصوري ما تجسّد من صور تمثيلية أو رمزية⁽¹⁾، ومن خلال هذا العنصر الذي يوضح مفهوم تبعية المرؤوسين لرؤسائهم، يقول تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ، يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَشْسَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ، وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَشْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (هود: 97- 99)، «والصورة هنا تتجسّد في صور تمثيلية) أو (رمزية) متمثلة في (الرفد) و(الورد) حيث تتضمن هاتان الصورتان دلالات إيحائية متنوعة»⁽²⁾.

ب -عنصر التضاد الصوري: وأبرز ما في عنصر (التضاد) ما يتجلى بين إحاءات العبارة، (فالورد والرّفد) يجسد أنّهما: الماء الذي يشربه الشخص ويجسد الآخر: العطاء الذي يقدم له، إلا أنّ النص القرآني منحهما إحاءاً مضاداً للشرب والعطاء⁽³⁾؛ «لأن الورد إنما يُراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار على ضد ذلك»⁽⁴⁾؛ بحيث يتحولان إلى تجربة مؤلمة بدلاً من تجربة المسرّة التي يفرزها الشرب بالعطاء. وهذه الصورة صيغت في سياق الحديث عن فرعون الذي يقدم قومه يوم القيامة فيوردهم النار التي رسمها النص صورة تمثيلية هي: الورد المورود والرّفد المرفود، «فهذه النار هي الرّفد والعطاء والمنة التي رقد بها فرعون قومه! ألم يعد السحرة عطاءً جزيلاً ورّفداً مرفوداً.. فما هو ذا رقد له لمن اتبه النار وبئس الورد المورود، وبئس الرّفد المرفود!. وذلك من بدائع التعبير والتصوير في هذا الكتاب العجيب»⁽⁵⁾.

ج -عنصر التجانس: الذي يتمثل من خلال إحكام عُنصرها القصصي الصوري مع بعضها ثم تجانسها مع موضوعات ومدى تلاحم أجزائها بعضها مع الآخر من حيث أن مقصد سورة هود هو

1 -محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 312.

2 -المرجع نفسه، ج2، ص: 312.

3 -ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج4، ص: 239.

4 -المرجع نفسه، ج4، ص: 239.

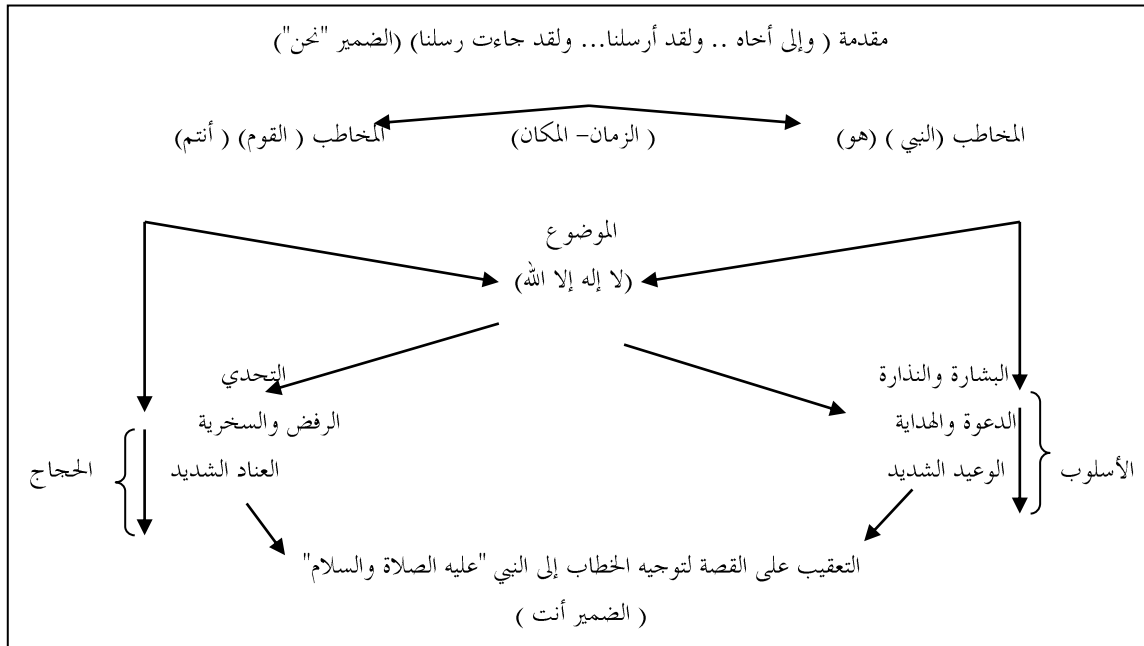
5 -سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد4، الجزء12، ص: 1924.

أثر التولي عن الرسائل إجمالاً وتفصيلاً، ومن ثم تنوعت القصص بين تفصيل أثره أو إجماله وجاءت قصة موسى "عليه السلام" على وجه الإجمال في بيان أثر التولي فمن ثم كان مطلعها موجزا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (هود: 96)، فالمقطع الأول: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ والأثر في جزائهم في قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، ومن ثم كان المقصود في السورة متناسبا مع هذا المطلع حيث بناه على هذين المحورين فجاءت القصة مفصلة لأثر إتباعهم فرعون. وهذا يكشف بوضوح مدى إحكام السورة وترابط أجزائها⁽¹⁾.

وبهذا الشكل بدت معمارية القصص وهندستها الموضوعية والعضوية تتضح لنا بوحدتها وبتلاحمها وإنّ هذه الدلالات التي استخلصناها من القصص، تمثل الخطوط المشتركة لكل الأقسام التي وردت في سورة هود، مع ملاحظة أنّ كل قصة تطرح انماطاً مختلفة من السلوك التي تطبع القوم الكافرين، لكنّها متماثلة من حيث الطابع العام لهذا السلوك المتمثل في عناد والمشركين وإصرارهم بالرغم من رؤيتهم للمعجزات.

¹ - ينظر: محمود البستاني، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ج2، ص: 313.

الهيكل القصصي لبعض المقاطع في سورة هود



وكما مرّ معنا أصبح النسق القصصي بؤرة النص المركزية في السورة التي تجاذبت أجزاءه الآخر، وتحكّمت في مسارها في سياقات السورة؛ لأنه يمثّل (بنية النص العليا) التي من شأنها أن تقوم بمهمة الترابط النصي بين عناصره.

وكخلاصة، نقول: أنّه مهما تعدّدت وجوه الترابط والتناسب، لكن تبقى وحدة الموضوع التي تربط بين تلك الآيات والهدف الكلي المراد منها، هو الذي يفرض نفسه حين نبحت عن وجه الترابط بين تلك الآيات، وهذا الذي يتّجه بالسامع أو القارئ نحو بيان وتفسير قوله -تعالى- من أجل فهم أدق، وأشمل، لآياته دون الاكتفاء بالوقوف على معرفة الآية أو موقع نزولها، بل الاستفادة من تلك المعطيات وتوظيفها للتفسير، فتكون عاملاً مساعداً يُعزّزه فهم التناسب بين آيات القرآن الكريم.

المبحث الرابع: التناسق اللفظي وجسور الإنتقال:

لكل سورة من سور القرآن الكريم ديباجة خاصة بها عن غيرها، مُلتئمة كالعقد المنظوم، عظيمة النسق بين ألفاظها، وموضوعاتها ومعانيها، يقول الزرقاني (ت1367هـ): «أنّ القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو مُحكمُ السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قويُّ الاتصال، أخذُ بعضه برقاب بعض في سورته وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكُّكٌ ولا تخاذلٌ كأنه حلقةٌ مُفرَّغةٌ! أو كأنه سِمَطٌ وحيدٌ وعقدٌ فريدٌ يأخذ بالأبصار: نُظِّمَتْ حروفُه وكلماته، ونسقت جملة وآياته، وجاء آخره مساوقاً لأوله، وبدا أوله مُواتياً لآخره!!»⁽¹⁾.

المطلب الأول: التناسق اللفظي:

والمقصود بالتناسق هو: «اتساق القرآن، وائتلاف حركاته وسكناته، ومدّاته، وغمّاته، واتصالاته، وسكناته»⁽²⁾.

اعتنى النص القرآني باختيار الكلم المناسب لكل مقام، والذي يلازم مقتضيات العقل، فلا يمكننا تغيير مفردة بأخرى في آيات القرآن الكريم كونها تحمل من المعاني في ذلك السياق ما لا تحمله المفردات الأخرى، وإضافة إلى حسن اختيار المفردات، هناك ما يؤكد النسج المتين للقرآن الكريم، هو علاقة الآية بمفرداتها، «فإن دراسة الآية تتصل اتصالاً مباشراً، بدراسة المفردة، لأن هذه أساس الآية ومنها تركيبها»⁽³⁾، وهذا يعني أن فهم السورة مرتبط بالعلاقات التي تجمع بين آياتها المكونة لها.

وهذا ما أشار إليه ابن الأثير (ت637هـ) إذ يقول: «واعلم أنّ تفاوتَ التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها؛ لأنّ التركيب أعسر وأشق، ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم من

¹ - محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص: 52، 53.

² - بكرى شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص: 190.

³ - المرجع نفسه، ص: 193.

حيث انفرادها قد استعملتها العرب ومن بعدهم، ومه ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب⁽¹⁾. وقد عبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: 44)، إذ قال في ذلك: «أنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وكذلك إلى آخرها، فإن ارتببت في ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها وأفردت من بين أخواتها كانت لا بسنة من الحسن ما لبسته في موضعها من الآية»⁽²⁾.

وهو ما يُسمى بحسن النسق و يُعرّفه السيوطي (ت911هـ) قائلاً: «هو أن يأتي المتكلم بكلمات متتاليات معطوفات متلاحمات، تلاحماً سليماً مستحسناً؛ بحيث إذا أفردت كل جملة منه قامت بنفسها، واستقل معناها بلفظها»⁽³⁾، وحسن النسق ما تجسده الآية العظيمة التي أذهلهم فيها أثر الإيجاز وحلاوة والنظم في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: 44)، يوضح السيوطي براعة النسق في الآية العظيمة فيقول: «فإنَّ جُمْلَهُ معطوفة بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة، من الابتداء بالاسم الذي هو انحسار الماء عن الأرض، المتوقف عليه غاية مطلوب أهل السفينة، من الإطلاق من سجنها، ثم انقطاع مادة السماء المتوقف عليه تمام ذلك؛ من دفع أذاه بعد الخروج، ومنع إخلاف ما كان بالأرض، ثم الإخبار بذهاب الماء بعد انقطاع المادتين الذي هو متأخر عنه قطعاً، ثم بقضاء الأمر الذي هو هلاك مَنْ قُدِّرَ هلاكه، ونجاء سبق نجاته، وأُخِّرَ عَمَّا قَبْلَهُ»⁽⁴⁾ ثم يواصل تعليقه قائلاً: «لأن علم ذلك لأهل الفيئنة بعد

¹ -ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 145.

² -المرجع نفسه، ج1، ص: 145.

³ -جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص: 276.

⁴ -المرجع نفسه، ج3، ص: 276.

خروجهم منها، وخروجهم موقوف على ما تقدم، ثم أخبر باستواء السفينة واستقرارها المفيد ذهاب الخوف وحصول الأمن من الاضطراب، ثم ختم بالدعاء على الظالمين؛ لإفادة أن العرق وإن عمَّ الأرض، فلم يشمل إلا من استحق العذاب لظلمه⁽¹⁾، فقد اشتملت الآية الكريمة على عدد من الألفاظ الموحية التي يدل كل لفظ منها على عظمة الخالق - سبحانه -، ومن خلال هذه الألفاظ تتكشف لنا قيمة النسق الفني والانسجام بين العبارات.

وكما قال بكري شيخ أمين: «إنَّ دراسة الآية تتصل اتصالاً مباشراً بدراسة المفردة لأن هذه أساس الآية ومنها تركيبها»⁽²⁾، ويتفق علماء المعاني - دون جدال - أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة هو الإعجاز ذاته، فالصلة وثيقة بين الكلمة والكلمة وبين الآية والآية في تناسق عجيب.

وكما يكون التلاحم والنسق في الألفاظ فإن للضمير واسم الإشارة العنصر الفاعل في بناء النص واتساقه، بل هما أساس الترابط النصي؛ فاسم الإشارة إنما يوظف لربط الآية بسابقتها أو بلاحتها، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (هود: 15، 16)، فقد وظف اسم الإشارة (أولئك) لربط الآية بسابقتها من خلال إشارته على الفئة الضالة المتحدث عنها في الآية التي سبقتها وهو ربط يقول عنه محمد بن عاشور: «وجملة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾، مستأنفة، ولكن اسم الإشارة يربط بين الجملتين، وأُتِيَ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ لِمَيِّزِهِمْ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ قَبْلَ اسْمِ الْإِشَارَةِ، وَفِي اسْمِ الْإِشَارَةِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الْمَشَارَإِلَيْهِ اسْتَحَقَّ مَا يَذْكَرُ بَعْدَ اخْتِيَارِهِ مِنَ الْحُكْمِ مِنْ أَجْلِ الصِّفَاتِ الَّتِي ذَكَرْتَ قَبْلَ اسْمِ الْإِشَارَةِ»⁽³⁾.

ثم تكرر اسم الإشارة، ليُمثِّل وسيلة الربط النصي، بيد أن الإشارة تحوّلت على فئة جديدة في الآية السابعة عشرة هي فئة المؤمنين مقابل الفئة الضالة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ

¹ - جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص: 276.

² - بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص: 193.

³ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 24، 25.

رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» (هود: 17)، والمراد من ذكر الفئة الجديدة بيان حقيقة مفادها أنّ «أولئك الذين كانوا على بينة من ربهم يؤمنون بالقرآن وليسوا مثلكم يا معشر المشركين... وإقحام (أولئك) هنا يشبه إقحام ضمير الفصل، وفيه تنبيه على أنّ ما بعده من الخبر مسبب على ما قبل اسم الإشارة من الأوصاف، وهي كونهم على بينة من ربهم معضدة بشواهد من الإنجيل والتوراة»⁽¹⁾، نفهم من هذا أنّ اسم الإشارة في هذه الآية قام بهمة الربط على مستويين: الأول حقق فيه ترابطاً بين هذه الآية والآيات السابقة عليها، والثاني حقق فيه ترابطاً بين السبب الواقع قبله والنتيجة المترتبة عليه بعده.

ثم تحولت الآيات اللاحقة للإشارة إلى الفئة الكافرة الضالة، كما تحوّل اسم الإشارة من الفئة الضالة إلى الفئة المؤمنة في الآية الثالثة والعشرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (هود: 23)؛ ليوصل عمله في بيان الفرق بين الفئتين من جهة، ويربط الأسباب بمسبباتها في الآية من جهة أخرى، فهو -تعالى- «لَمَّا ذَكَرَ أحوال البالغين أقصى غايات الخسارة ذكر مقابلهم الذين بلغوا أعلى درجات السعادة، فالجملة مستأنفة استانافاً بيانياً؛ لأن النفوس تشرب عند سماع حكم الشيء إلى معرفة ضده»⁽²⁾، ومن ثمّ فإنّ اسم الإشارة (أولئك) لم يفارق دلالاته على البعيد، وبقي ملازماً لها في النصّ مع الفئتين، بيد أنّه أشار على أقصى درجات الخسران مع الكافرين، في حين أشار إلى أقصى درجات الإيمان في الآخرة مع المؤمنين، وبهذا يكون اسم الإشارة (أولئك) قد تكفّل في الآية الثالثة والعشرين بمهمة ربط الأسباب التي أدخلت هؤلاء المؤمنين الجنة بالنتيجة المترتبة عليه، فالإيمان والعمل الصالح كانت أسباباً في حصول النتيجة في دخولهم الجنة.

ومن أدوات القرآن الرابطة لأجزاء النصّ: الضمير؛ ذلك أنّ «من وظائف الضمير في اللغة العربية الاختصار، لأنه يقوم مقام الظاهر ويُغني عن تكراره، ومن وظائفه الربط ووصل الجمل بعضها ببعض، ومن وظائفه أيضاً الإحالة؛ وهي عودُه على مُتقدّم بما يُغني ذكره وبما يربط آخر

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 28.

² - المرجع نفسه، ج12، ص: 39.

الكلام بأوله. هذا ولا بد للضمير من مرجع يعود إليه، ويكون المرجع إما ملفوظاً به سابقاً مطابقاً له، نحو قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ (هود: 42) و قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه: 121)، أو مُتضمناً له، نحو: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة: 8)، فإن الفعل "اعدلوا" يتضمن الاسم المرجع وهو "العدل"، أو متأخراً لفظاً لا رتبة نحو: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ (طه: 67)..⁽¹⁾

فبالنسبة لإحالة الضمائر في الآيات السابقة من سورة هود في قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ (هود: 17) وفي قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ (هود: 17)، تشير الآية على الحديث عن القرآن الذي عبّر عنه بلفظ البينة⁽²⁾، وعند ذكر فضل تلاوة القرآن ونزول التوراة قبله، وانقسام الناس إلى مؤمن به، وكافر بوجوده، ومصير كل فئة واستغني عن إعادة ذكر البينة، واستخدمت الضمائر عوضاً عن ذلك، لما في هذا الضمير من تعظيم لها، إلى جانب الإيجاز، بالإضافة إلى توضيح للمعنى الأساسي وربطه بالمعاني الأخرى، وربط العقل بالمسمى لتظل النفس على صلة مستمرة معه.

يقول سيد قطب: «وفي عائد هذه الضمائر في: (ربه) وفي (يتلوه) وفي (منه) هو أن المقصود بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾، هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبالتبعية له كل من يؤمن بما جاء به، وأن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾، أي ويتبعه شاهد من ربه على نبوته ورسالته. وهو هذا القرآن الذي يشهد بذاته أنه وحي من الله لا يقدر عليه بشر، ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾، أي من قبل هذا الشاهد وهو القرآن؛ "كتاب موسى" يشهد كذلك بصدق النبي - صلى الله عليه وسلم - سواء بما تضمنه من البشارة به، أو بموافقة أصله لما جاء به محمد من بعده»⁽³⁾.

¹ - عبد الرحمن بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن، ص: 60.

² - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 27.

³ - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد4، ج12، ص: 1864.

المطلب الثاني: جسور الانتقال:

أطلق النقاد قديماً على هذا الانتقال في القصيدة العربية باسم (حسن التخلص)^(*) وهو كما عرّفه صاحب الإتيان: «هو أن ينتقل مما ابتدء به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاصاً، دقيق المعنى؛ بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلّا وقد وقع عليه الثاني، لشدة الالتئام بينهما»⁽¹⁾؛ فالتخلص ضرب من ضروب الخروج، يشمل الشعر والنثر، وهو من محاسن الكلام، وأحد دعائم الارتباط بين أجزاء الكلام، ويعني به النقاد التلطف في الخروج والانتقال من معنى إلى معنى ومن غرض إلى آخر بصورة متدرّجة تحافظ على وحدته وترابطه، أو هو انتقال المتكلم من فن إلى فن آخر بأحسن أسلوب مع التلطف بحيث لا يشعر المتلقي بالانتقال، لشدة الالتئام كأنهما أفرغاً في قالب واحد⁽²⁾.

(*) - حسن التَّخْلُص والتَّلَطُّف يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه؛ فالشاعر المجيد هو «الذي يحسن الانتقال، فيغادر موضوعه الأول إلى الذي يليه دون خلل أو انقطاع، ويجعل معانيه تتناسب إلى الموضوع الآخر انسياباً بحيث لا يشعر قارئه بالنقلة، بل يجد نفسه في موضوع جديد هو استمرار للأول وامتداد له، وبين الموضوعين تمازج والتئام وانسجام»، داود غطاشة وحسين راضي، قضايا النقد الأدبي قديمها وحديثها، دار القدس، عمان -الأردن، ط1، 1989، ص: 66. وقد سماه ابن طباطبا (ت322هـ) "التخلص"، وهو عنده أن يتخلص من الغزل إلى المديح ومن المديح إلى الشكوى، ومن الشكوى إلى الاستماحة بألطف تخلص، ينظر: عيار الشعر، ص: 115 - 122.

ومما يجب ذكره أنّ هذا اللون وَقَعَ في القرآن على الرغم من اختلاف العلماء في (وقوع التخلص في القرآن)، بين رافض له ومؤكّد له؛ فالفريق المُنكِر لوقوع التخلص في التعبير القرآني حجّتهم ورود هذا الفن مُتكلِّفاً في الغالب وهذا ممّا لا يجوزُه العلم لأن القرآن مُنزّه عن التكلف، أما الفريق الثاني المُؤكِّد لوروده فحجّتهم أنّ هذا الفن شأنه شأن جميع الفنون البلاغية الأخرى في النظم القرآني الوادة عفواً دون تكلفٍ أو إكراهٍ، مُلتفتين إلى اتساع نطاقه البياني. ينظر: جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج3، ص: 326. وينظر: عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، (د.ط)، (د.ت)، ج4، ص: 155، 156.

¹ - جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج3، ص: 325، 326.

² - ينظر: الشحات محمد أبو ستيت، دراسات منهجية في علم البديع، دار خناجي للطباعة والنشر، القليوبية -مصر، ط1، 1994، ص: 119. وينظر: محمود السيد حسن مصطفى، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، تقديم: حسن عون، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية -مصر، ط1، 1981، ص: 82، 83.

وإنَّ أوَّلَ ما يلفت انتباه القاريء للسورة القرآنية، «تلك الانتقالات المتنوعة بين آياتها وموضوعاتها المختلفة، التي برزت لنا في بناء هندسي متلاحم متناسق لا نشعر معه عند متابعة قراءته أو التمعن في معانيه بأي نفور أو شذوذ»⁽¹⁾، وتلك العفوية في الانتقال كما يصفها محمد عبد الله دراز: «فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حُجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، ولا تُحسَّ بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام، وكل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل مُتصلاً والمُختلف مُؤتلفاً»⁽²⁾.

وذكر الزركشي (ت795هـ) بعض الأمثلة لهذا، منها كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَظِيمٌ﴾ (النور: 35)، فإنَّ فيها خمس تخلصات، وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله، ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجه وصفاتها، ثم رجع إلى ذكر النور والزيت يستمد منه، ثم تخلص منه إلى ذكر الشجرة، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت، ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه، ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء⁽³⁾.

وعلى ذلك فإن هذا الأسلوب يُعد مَوْضِعاً من مواضع حسن التأثق في الكلام^(*). فقدَرُ بلاغة المتكلم يتعلَّق كثيراً بحسن تَخْلُصه وبراعة انتقاله من معنى إلى معنى مُراعياً المُناسبة والسياق بين ما

1 - كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم، ص: 185.

2 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص: 155.

3 - ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص: 43.

*) هي ثلاثة مواضع في الكلام (حسن الابتداء - حسن التخلص - حسن الانتهاء)، ينظر: الشحات محمد أبو ستيت،

دراسات منهجية في علم البديع، ص: 114.

ابتدئ به وما انتقل إليه، هذه الطريقة «التي عدّها النقاد ضرورية لجذب السامعين ولفت انتباههم، فإن كانت في كلام البشر حسناً، فمن الطبيعي أن تكون مما نُظِم عليه القرآن سوره ومقاطعته فهو نصٌّ معجزٌ في لفظه ومعناه، وأسلوبه فاق المنظرين له من العرب وغيرهم حسناً وبهاءً ونظماً، فألجم أفواههم وأطبّقها إطباقاً لا يملكون حيّاله غير التسليم بإعجازه وعظمته»⁽¹⁾.

وفي الوقت الذي أكدّ النقاد والبلاغيين على ضرورة تحقيق التناسب بين الغرض المنتقل فيه والغرض المنتقل إليه بالتدرّج المستطاب والأسلوب المتضمن حسن اختيار مفاصل الانتقال بين أطراف القول بما لا يخلُّ ونسق الكلام ولا يُظهر التباين، كانت هذه الجسور موضع اهتمام المفسرين والعلماء فقامت حولها الدراسات التناسبية لمعرفة وجوه التناسب بين الآيات المتنوعة، كما قاموا برصد أدوات الربط اللفظية والمعنوية.

ومن حسن الانتقال الاستطراد^(*) كما جاء في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ (هود: 95)، لمّا ذكر الله - سبحانه - قصة شعيب مع قومه وتكذيبهم له، وما حلّ بهم من العذاب والعقاب بعد أن نجّاه شعيباً والذين آمنوا معه، استطراد إلى هلاك ثمود لمناسبة التشابه بين هلاكهم وهلاك مدين وهو أخذهم بعذاب الصيحة، قال ابن عاشور: «ويجوز أن يكون المقصود من التشبيه الاستطراد بدم ثمود لأنهم كانوا أشدّ جرأة في مناواة رسل الله، فلمّا تهيأ المقام لاختتام الكلام في قصص الأمم البائدة ناسب أن يُعاد ذكر أشدها كفراً وعناداً فشُبّه هلك مدين بهلكهم»⁽²⁾، يقول عبد الفتاح لاشين: «وقد ختمت نهاية قوم هود - بأن أخذهم الله بالصيحة فهلكوا غير مأسوف عليهم - بقوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ﴾، ثم تركت هذه القصة إلى

¹ - كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم، ص: 185.

^(*) - الاستطراد هو: «ذكر الشيء في غير محله - لمناسبة - بأن يخرج المتكلم من الكلام الذي هو مسترسل فيه إلى غيره - باستدعاء مناسبة - ثم يرجع إلى ما كان فيه»، عبد الفتاح لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن، ص: 72.

² - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 154.

غيرها بقوله تعالى: ﴿كَمَا بَعَدَتْ ثُمُودٌ﴾ فقد اشتركا في الذنب وسوء التصرف فاستويا في سوء المنقلب، ووخيم العاقبة⁽¹⁾. فقد خرج من قصة قوم شعيب إلى ذكر ثمود بأحسن عبارة: ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثُمُودٌ﴾.

وقد وصف بعض البلاغيين عدم تضمن البدء المالح إلى المقصود الأول بالإبداع الذي يشدُّ الإنتباه وصولاً إلى الدلالة المنشودة، وخصَّصُوهُ بمصطلح (براعة الاستهلال) كأن يأتي المتكلم بابتداء كلامه بإشارة غير مُصرَّح بالطلب الدال على مقصده كقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود: 45)، فقد أدت إشارة نبي الله نوح -عليه السلام- غرضها الدلالي المقصود غير المصرح به لطب النجاة لابنه، وهذا الأسلوب في غاية الأدب «إنه يسأل ولكن سؤالاً مطوياً ضمن ما يقرُّره من وصف العدالة والحكمة الباهرة لله جل جلاله»⁽²⁾، بعد أن تذكَّر ابنه وتمنَّى لو كان فيمن سلمهم الله من طامة الغرق «فلماذا لم يكن من الناجين وقد وعدتني -ووعدك الحق - بأن يكون أهلي في المرحومين من ذلك البلاء؟»⁽³⁾، ويشكف هذا الأسلوب عن العلاقات المتوافقة للمفردات السلسلة الواضحة مع الدلالة القرآنية للوصول إلى التعبير المتكامل المتضمن أبلغ ألفاظ الدعاء رحمة في قوله (ربّ) عدولاً عن قوله (الله)؛ وانتهى بأحسن خاتمة لدعائه في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (هود: 123).

وبهذا المعنى يؤكد حسن الانتقال على التوافق بين ابتداء السور المفتحة والسياق القرآني العام للسورة مما يحقق وحدة موضوعية هي مكمن الإبداع في التناسب الابتدائي والختامي.

¹ - عبد الفتاح لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن، ص: 72.

² - محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن: تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، (د.ط.)، 1999، ص: 275.

³ - المرجع نفسه، ص: 275.

المبحث الخامس: خاتمة السورة:

يطلق البلاغيون تسمية (الانتهاء) و (براعة المقطع) و (الاختتام) وهو موضع مهم من مواضع التأثق والبراعة وإظهار الحسن في القول؛ لأنه آخر ما يَطْرُقُ السَّمْع وهو «آخر اللّمسات الناعمة المؤثرة التي تعلّق في النفوس، وتسكنُ عندها سُكونَ ارتياح، وتظلُّ لها ذكرياتٌ تحركُ النفوس بالشوقِ إلى المزيد من الحديث»⁽¹⁾.

ولقد ذكر أبو هلال العسكري (ت395هـ) حسن المقطع فقال: «وقلما رأينا بليغاً إلا وهو يقطع كلامه على معنى بديع أو لفظ حسن رشيق... فينبغي أن يكون آخر بيت قصيدتك أوجود بيت فيها، وأدخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها»⁽²⁾.

ومن الملاحظ أنّ مواضع التأثق أُحْكمت رِبْطاً بعلاقاتٍ لا يمكن تجاوزها، وهذا وصفٌ لكلام العرب شعراً كان أم خطابة، لذا جاء القرآن بديعاً حسناً ليفوقهم براعة في كل ما برعوا فيه من فن الخطابة وصنعة الكلام، فنجد خواتم السور متضمنة للمعاني البديعة والألفاظ الموحية، من إيدان السامع بانتهاء الكلام، حتى يبقى معه للنفوس تشوّقٌ إلى ما يُذكر بعد، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض، وتحميد وتهليل ومواعظ، ووعود ووعيد إلى غير ذلك⁽³⁾.

إنّ خواتم السورة تكون - في الغالب - تركيزاً لما ورد في السورة كلها، «إنّ في النهاية شعوراً بالراحة، وطمأنينةً للنفس، وفرحةً عند المؤمن، وإحساساً بالعذاب وقلقاً في الضمير عند الكافر..، شأن ذلك حياة المؤمنين تنتهي إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وحياة الكافرين تنتهي إلى جهنم خالدين فيها وبئس المصير»⁽⁴⁾.

¹ - عبد الرحمن حسن حَبْنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ص: 563.

² - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، ص: 443.

³ - ينظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص: 320.

⁴ - بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص: 221.

وسورة هود "عليه السلام" تشتمل على مقدمة ومقاصد واختتام، مثلما تشتمل باقي السور على البناء، ولا شك أن ما يطبع النص القرآني عنصراً الاكتمال، آيةً كان أم سورةً، وهذا ما يُعبّر عنه في لسانيات النص بعنصر الاختتام (Clôture)، والنص الذي لا يُختم بجائزة يفقد اتساقه وغائيته. واكتمال النص، مُقوّمٌ من مقومات النصية، وليس طول النص أو حجمه أو أبعاده معياراً⁽¹⁾.

وإذا تأملنا ما خُتِمَ به سورة هود "عليه السلام"، نتلمّس حُسن الاختيار للفظ وللمعنى، والدقة في ملاءمة ماسبق وموافقة البدء المفتوح به، مع الأخذ بالحسبان مقياس المناسبة للسياق العام، وبذلك جاءت خواتم السورة الكريمة مثل فواتحها في الحسن، فختم الله -تعالى- ذكر هذه السورة المجيدة ببيان الحكمة من ذكر قصص الأنبياء والمرسلين وذلك بقصد الاعتبار والاتعاظ بما حدث للمكذابين في الأزمنة والعصور الغابرة ولتثبيت جنان النبي -صلى الله عليه وسلم-، أمام تلك الشدائد والأهوال قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: 120)، إلى قوله جلّت قدرته وعظمت إرادته وسَمَا كلامه: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (هود: 123)، وهكذا خُتِمَت السورة العظيمة بالتوحيد كما بدأت به ليتشابه البدء مع الختام.

ومن خلال خاتمة سورة هود المجيدة نلاحظ أنها اشتملت على الدلالات الآتية:

- 1 - إقناعها للعقل وامتاعها للعاطفة في إطار واحد موحد.
- 2 - روعة الانسجام بين مقدمتها وخاتمتها وسياقاتها العامة، وحسن الربط بين أطراف الخطاب دون تفاوت أو تباين.
- 3 - هذا التلاحم والتواشح بين التعابير يعكس الروابط الوثيقة بين الأفاظ ومعانيها، يعتمد على الجمع بين الأغراض المتعددة، فيمزج بينها مزجاً فنياً مقصوداً ممّا أخرجها في وحدة بنائية بديعة شكلاً ومضموناً تشدُّ الأذهان وتُبهر العقول.
- 4 - التلطف في تحريك المشاعر ومحاطبة الإحساس في صورة تألفها النفس، وتُنساق إليها فيصوّر المعنى تصويراً معنوياً دقيقاً بالتّقل به من شأن إلى شأن.

¹ - ينظر: محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط 1، 2008، ص: 84.

5 - مواضع الإبداع والحسن - ههنا - ليست تزويقاً لفظياً، بقدر ما هي عناصرٌ جمالية وفنية يتطلبها جوهر الكلام، تتجه إلى إبراز أثرها الواضح في إطار علاقاتها المفترضة التي تشكل بنيتها الكبرى.

وهكذا فقد اختتمت هيكلتها بخاتمة متمثلة في بنية دلالية مركزة آذنة بأسلوبها إلى انتهاء السورة، بكونها كلاماً جامعاً لما احتوته السورة من قصص وعبر، لذا فإنّ خواتم سور القرآن ليست أقلّ شأناً من فواتحه في بيانها وجمالها، فكما أنّ «حُسنَ الافتتاح داعيةُ الانسراح، ومطيةُ النجاح»⁽¹⁾ فإنّ لطافة الخروج والتخلُّص تُريحُ السامع وتجعلُ الكلام مُتماسكاً مُقترناً ببعضه، وكما يقول ابن رشيّق (463هـ): «وخاتمة الكلام أبقي في السمع، وألصقُ بالنفس؛ لقرب العهد بها، فإنّ حَسُنَتْ حَسُنَ، وإن قبحت قَبِحَ»⁽²⁾.

فأسلوب الانتهاء هو العمدةُ في الكلام، مشروطاً بتمام اللفظ والمعنى، جامعاً لمضمون القول باللفظ القوي الجزل والصياغة المتكاملة، ذلك وهو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد أحكمت آياته كلها افتتاحاً واختتاماً، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

¹ - ابن رشيّق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1981، ج1، ص: 217.

² - المرجع نفسه، ج1، ص: 217.

الفصل الرابع

أدوات المعماري الأسلوبية وخصائصه في سورة هود:

تمهيد .

المبحث الأول: المعماري الجمالي في السورة القرآنية .

المبحث الثاني: الأدوات اللغوية والأسلوبية في سورة هود .

المبحث الثالث: : الأدوات البديعية ودورها المعماري في سورة هود .

المبحث الرابع: الأدوات التصويرية ودورها في معمارية سورة هود .

تمهيد:

لقد رأينا في الفصول السابقة ما مثّله سورة هود "عليه السلام"، من بناء مدهش سواء من حيث الصلة بين الموضوعات، أو من خلال التناسب والترابط داخل الآيات، أو من حيث هندسة قصصها المتمثلة في وحدتها الموضوعية والعضوية وجعلها وحدة نصية لا ينفك بعضها عن ملازمة بعضها الآخر، كما لاحظنا ذلك التناسق بين الأجزاء والتوافق في التركيب «والذين لا يهتمون بالكشف عن هذا التخطيط في السور القرآنية فإنهم يستطيعون أن يتأملوا تخطيطاً آخر ذا طابع أسلوبية، وبمقتضاه يمكن ملاحظة أن الأجزاء التي ستتجاوز مجهزة مقدماً بطريقة معينة بحيث يتزواج بعضها مع الآخر بدون تصادم أو ثغرات، كل ذلك مع تنوع الموضوعات واختلاف البعد الزمني الذي يفصل بين كل موضوع وآخر»⁽¹⁾.

ولزيد من الكشف عن جمال هذه السورة الساحر، في بنائها البلاغي ومحتواها التعبيري، يتوجب علينا أن نُظهر الخصائص الجمالية بجميع مظاهرها المتنوعة في السورة الكريمة، عبر الإشارة إلى عمارة السورة الجمالية في جزئياتها البديعية والأسلوبية^(*) التي فاقت كل إبداع وإتقان، «ولا شك أن طريقة القرآن هذه ليس لها مثل على الإطلاق، فلا يوجد أي كتاب من الكتب في الأدب أو في أي مجال آخر، يمكن أن يكون قد تم تأليفه على هذا النحو»⁽²⁾.

¹ - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم ص: 122.

^(*) - ذلك أن الأسلوبية «تتعامل مع لغة النص تعاملاً فنياً، من خلال إبراز الظواهر اللغوية المميزة ومحاوله إيجاد صلة بينها وبين الدلالات التي عن طريقها يمكن الوصول إلى المعنى الغائب في النص، وبذلك تتشكل القيمة الفنية للغة التي تشكل منها النص، ثم انتظام هذه الكلمات في جمل وانتظام الجمل في فقرات وتضافر هذه الأنساق مع المعنى»، خليل عودة المصطلح النقدي في الدراسات العربية المعاصرة بين الأصالة والتجديد: الأسلوبية أنموذجاً، مجلة جامعة الخليل للبحوث والدراسات، 2003، ص: 51، 52.

² - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص: 120، 121.

المبحث الأول: المعمار الجمالي في السورة القرآنية:

إن الخطاب القرآني هو في أصله تجلٍ جمالي لا مرء فيه، وأنّ هذا الجمال جاء ممتزجاً مع (التواصلية/الإبلاغي) في بوتقة واحدة، ضمن للخطاب القرآني تميّزاً لم يكن لأيّ خطاب أدبي أو تواصلية أن يُجاريه فيه، وقد اختصّ النصّ القرآني -دون سائر النصوص- في شكله ومضمونه -بخصائص جمالية معجزة، هي قوة البيان وسحره، والانسجام اللفظي والتماسك النصي، والايقاعية التي تُحدِّدها دقّة التوزيع الموسيقي بين الحروف والكلمات والتراكيب... مما جعل النفوس تهتز لسماعه، وتدهش لتركيبه، وتنتشي بقوة تأثيره. وإنّ الهندسة البيانية في القرآن الكريم، تُبرز أمامنا ثلاثة عناصر أو مقوّمات للجمالية القرآنية⁽¹⁾:

1 -الأداء التعبيري المناسب: ويشمل التعبير الفني بألوانه وأنواعه، وفق الدواعي النفسية والاجتماعية والإعجازية؛ ففي الكلمة القرآنية مزية لا تجدها في الكلمات التي يتكوّن منها كلام الناس وتعابيرهم مهما سمّت في مدارج الكلام ومنه:

أ -الإيجاز، ويتضمن المبادئ الكلية، واختصار مراحل ملحوظة في القصة خاصة، وتقرير حكم سائرة...

- والمكافئ، والمطنب لأغراض بلاغية جمالية تُعرّف من السياق ويقتضيها المقام.

ب -التصوير: بالكلمة المعبرة، والتّركيب الموحى، والآية أو الآيات المصورة، في مشاهد حيّة، ولوحات شاخصة، وأحوال نفسية وذهنية، وهو « يأخذ مساحة كبيرة في البيان القرآني فإنّ طريقته في التّجسيم والتّخييل والتّشخيص تُضفي على الرّغبات النّفسية والمعاني المجرّدة جمالية الحركة والحيوية والحوار حتى تجعلها حاضرة الوّقع، نابضة الروح»⁽²⁾.

ج -القدرة الفنية الفائقة: مثل طول النفس والموضوع الواحد بالعديد من الصور والتراكيب، وكذلك إفحام الخصم فكراً ووجداناً بالحقائق القرآنية التي اكتست بجمال الروعة الفنية، مع شحّنها بالمؤثرات الكلامية الملائمة، دون أن ننسى تنويع طرائق البيان والخطاب.

¹ -نذير حمدان، الظاهرة الجمالية في القرآن، دار المنارة، جدة -السعودية، ط1، 1992، ص: 432- 434.

² -المرجع نفسه، ص: 433.

2 - الجرس الصوتي: ويتمثل هذا الجانب في انتقاء الألفاظ التي تمنح تآلفاً بين الحروف والكلمات والتراكيب، ويتلَوَّن هذا الجرس الداخلي بحسب الموضوعات إلى أن ينتهي في فواصل الآيات خاتمة الجمل القرآنية الجرسية في موجات صوتية مختلفة الطول والشدة.

3 - الموضوعات المعالجة: والقرآن الكريم زاخر بالموضوعات المبتكرة والمعاني الجديدة، وفي التصورات الكبرى للوجود الجائز والواجب، وفي كل منها ألوان جمالية تُقنع الفكر وتُلبي الحاجات الجمالية الوجدانية.

وكما تجلّت لنا واحدة من صفات الجمالية في تلك الوحدة الموضوعية والعضوية والتي أبانت بترابطها وتلاحمها صورة من صور الجمال المضموني الذي سيطر على السورة في هيكلتها ومعماريتها، وكما أنّ للوحدة الفنية جوانب متعددة في التعبير، منها وحدة التشيكل ووحدة الأسلوب الفني ووحدة الفكرة أو وحدة الهدف من العمل الفني، وهذه الجوانب جميعها لا تتأثّر إلاّ من خلال علاقة الأجزاء بعضها ببعض من جهة وعلاقة الجزء بالكل من جهة ثانية ونحن «عندما نريد أن نُقدّر جمال لوحة مرسومة لا ينبغي أن نحصر نظرنا في جزء ضيق منها حيث لا نجد إلاّ ألواناً متنوعة تتجاوز أو تتنافر أحياناً، بل يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء، لنتّسع مجال الرؤية وتحيط بالكل في نظرة شاملة. تستطيع وحدها أن تلاحظ التناسق بين الأجزاء والتوافق في التركيب»⁽¹⁾، لهذا نحن بحاجة لبيان الغلاف الجمالي الذي غلف السورة الكريمة بجمال محكم في جميع مقاطعه وأجزائه.

إنّ أسس وقوانين العلاقات البنائية للتكوين الفني للعمل وطريقة تنظيمها هي التي تتم من خلالها عملية التذوق الفني، وهي تُفرز العناصر الجمالية للموضوع، ويكاد أيُّ عملٍ فني متكامل لا يستغني عنها، يعلق محمد عبد الله دراز عن هذه الفكرة قائلاً: «وليس الشأن في هذا الغلاف إلاّ كشأن الأصداف لما تحتويه من الآليء النفيسة، فإنه جلّت قدرته قد أجرى سنّته في نظام هذا العالم أن يُغشّي جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها. انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قواماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة»⁽²⁾، ويجب علينا أن ننظر: «كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قواماً

¹ - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص: 119.

² - النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص: 104.

لبقاء الإنسان فرداً وجماعة، فكذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم، قضت حكمته أن يُختار لها صواناً يجيبها إلى الناس بعدوبته، ويُغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة (الحُداء) يستحدث النفوس على السير عليها، ويهون عليها وعتاء السفر في طلب كمالها، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وأذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سرّه، وينفذون بها إلى بعيد غوره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: 9)»⁽¹⁾.

وإن ما يميز الوظيفة الجمالية لأسلوب القرآن الكريم بحسب - عبد الله دراز - هو جمعه لـ (قوة التفكير وقوة الوجدان)⁽²⁾، التي تُنقب إحداهما عن الحق لمعرفة، وعن الخير للعمل به، والثانية تُسجّل الإحساس بما في الأشياء من لذة وألم، وفي توازن للطرفين مُتقَن وتعاذل لأصحابها محكم، فلا قُصُورَ ولا تَقْصِيرَ كما يفعله الحكماء والعقلاء في اتباع الحق والخير، أو الشعراء والأدباء في اتباع الإحساس والشعور، فيطغى أمر على أمر، فتختل الموازين في توصيلها للآخرين، وتطيش الأفكار دون وصولها للهدف المنشود⁽³⁾، «فها هو الجمال البديع متمثل في الإتيان بالحقيقة البرهانية الصارمة مع الجمال الوجداني المُمتنع، فيروي عطش العقول الظمأى، ويسدّ جوع القلوب المتضررة في جرعات متساوية ومتوازنة لا تطيش إحداهما على الأخرى»⁽⁴⁾، لأنها مُنزلة «من الله رب العالمين، فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان، وأن يخرج من بينهما شراباً خاصاً سائغاً للشاربين»⁽⁵⁾.

وهذا ما تمثل حقيقة واضحة في سورة هود "عليه السلام" كونها صورة مصغرة لهذا الجمال الفسيح الذي عمّ سور القرآن كافة، ومسحة فنية دقيقة لمسحة كبرى امتدت للسور القرآنية جميعها.

1 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص: 104.

2 - المرجع نفسه، ص: 113.

3 - ينظر: المرجع نفسه، ص: 114، 115.

4 - كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم، ص: 207.

5 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص: 116.

إن الوحدة الفنية وبإشعاعاتها الجمالية «نجدها كذلك تتجلى في الأدوات والأساليب اللغوية والتعبيرية والبديعية والتصويرية والصوتية معاً، لتقدم لنا قمة التحدي والإعجاز في الأثر الجمالي والفني في نفس المتلقي، بما ترصفه من وحدات دلالية وفنية صغرى يدعم بعضه البعض، ويبني بعضه على بعض، لتكون وحدات كبرى تتناسق جمالياً ولفظياً فيما بينها، لتخدم الهدف والمقصود من السورة الكريمة ككل»⁽¹⁾.

فبالأسلوب القرآني يمتاز بخاصية الاستقامة، التي يستحيل تحققها في أي أسلوب بشري.. وههنا مكن سر الإعجاز وقاعدته، لأن القرآن يجمع على صعيد واحد بين خصائص الحق والفن والجمال، ويمزج متطلبات العقل وبواعث الوجدان.

وإن الأدوات التعبيرية الجمالية في كتاب الله - عز وجل - تُمثّل أرقى ألوان الجمال، وإحدى صور الإعجاز، فتنبعث على التأمل الذي يقود إلى الهداية و«إنّ الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة، في حين يستحيل على البشر أن يُعبّروا فيه عن مثل هذه الأغراض وذلك بأوسع مدلول، وأدقّ تعبير وأجمله وأحياء أيضاً، مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والظلال والجو، ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن واحد، بحيث لا يُغني لفظ عن لفظ في موضعه، وبحيث لا يجوز الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال، ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يُدرِك أعجازه أحد، كما يُدرِك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً، لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال ثم يتبينون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً»⁽²⁾؛ فالكلام البليغ والبيان الكامل هو الذي يُكافيء في الإنسان قوتي التفكير والوجدان، ويُؤتي المتلقي حظّه من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً.

هذا الجمال المشتمل في الأدوات التعبيرية والتصويرية إنما تُضفي في السورة الكريمة تلاحماً معمارياً متيناً شكلاً ومضموناً، بما ترصفه من وحدات دلالية وفنية صغرى يدعم بعضه البعض، ويبني بعضه على بعض، لتكون وحدات كبرى تتناسق وتتناسب جمالياً ولفظياً فيما بينها، لتخدم الهدف والمقصود من السورة.

¹ - كليثم سعيد ناصر الخطاري، المعمار القصصي في سورة مريم، ص: 397.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج11، ص: 1787.

المبحث الثاني: الأدوات اللغوية والأسلوبية^(*) في سورة هود:

من المعروف لغوياً وبلاغياً أنّ القرآن الكريم جرى في كلماته وتراكيبه على أسلوب العرب وأنماط خطابهم، غير أنّ هذا الأسلوب يجري على نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب، وأنّ قوأم هذا البيان يعتمد على اختيار مفرداته وانتقائها لمرعاة النسق المعجز في الجملة أو الصُور القرآنية، في عقْدٍ جمالي ناتج عن تألف الأدوات اللغوية والجُمَلِ القرآنية بَعْضُهَا ببعض في لوحات أو مشاهد جمالية بالغة الروعة غاية في التلائم والتناسق والانسجام، هذا الذي جعل القرآن يُحقّق ما يُلبّي موضوعاته الفكرية والجمالية في نمط أسلوبية رائع بمختلف أساليبه وصُوره المتنوعة وتعبيراته اللغوية المتعدّدة.

المطلب الأول: الأولفاظ ودورها في تلاحم معمارية السورة:

يُلاحظ أنّ من السمات المميزة للعربية أنّها أوسع اللغات ثروة في أصول الكلمات والمفردات المختلفة نوعاً وكماً، بل ما يندر وجوده في أية لغة من لغات العالم، وقد فُسرّت هذه الظاهرة بمذاهب شتى، لكنّ البيان القرآني له القول الفصل فيما اختلف فيه، فهو يهدينا إلى سرّ الكلمة التي لا تقوم مقامها كلمة سواها من الألفاظ المقول بترادفها، و«الكلمة في القرآن أشبه ما تكون بالعضو في جسم الإنسان، هو يؤدي وظيفته عندما يكون في موضعه، فإذا زايله إلى موضع آخر تغير حال الجسم واختل توازنه، فكذلك الكلمة في القرآن»⁽¹⁾.

^(*) - لا بد من دراسة ظواهر أسلوبية وُظّفت في السورة الكريمة؛ فالدراسة الأسلوبية «تفيد في فهم [النص القرآني] النص الأدبي، واستكشاف ما فيه من جوانب جمالية، وذلك بما تتيح للدارس من قدرة على التعامل مع الاستخدامات اللغوية، ودلالاتها في العمل الأدبي، وبهذا التفاعل في الخواص الأسلوبية المميزة المستكشفة بطريقة علمية سليمة تتضح مميزات النص وخواصه الفنية»، خليل عودة، المنهج الأسلوبية في دراسة النص الأدبي، مجلة النجاح للأبحاث، العدد 8، المجلد 2، 1994، ص: 100، 101.

¹ - عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة)، دار المريخ، الرياض - السعودية، ط 1، 1983، ص: 140.

يقول عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ): «اعلم أنّ لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى، ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب وبالقبول أخلق وكان السمع له أوْعى والنفس إليه أميل»⁽¹⁾.

ويقول في الدلائل: «وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحاً، إلاّ وهو يعتبر مكانها من النّظم، وحُسْن ملاءمة معناها لمعاني جارتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟»⁽²⁾، لذلك نجد للألفاظ مكانة خاصة تنسجم بدقتها ودلالاتها انسجاماً تاماً مع السياق الذي ترد فيه، بحيث لو أبدلت غيرها لاختل السياق وانتقص المعنى⁽³⁾؛ فالقرآن الكريم حينما يستخدم الألفاظ في التعبير يُوردها في مواطنها في الآيات الكريمة، ويجرّدها من كلّ ما يعلّق بها من ثقل أو كراهية ويحيطها بالقرائن الدّالة، والعلامات الهادية، حتى تصل إلى السّامع دون أن تنحرف عن هدفها، فتكون طيّبة المجرى على اللّسان، خفيفة على الأسماع⁽⁴⁾، «وألفاظ القرآن مما يجري على اللسان في سهولة ويسر، ويعذب وقعه على الأذن، في اتساق وانسجام»⁽⁵⁾.

يتأنق أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، يستخدم ما يؤدي معناه في دقة فائقة، فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، ولذلك لا نجد في القرآن ترادفاً، بل فيه كلّ كلمة تحمل معنى جديداً، يقول المرحوم محمد الغزالي في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: 117)، «لنتدبر هذه الجملة (...) إنّ قال: وأهلها مصلحون ولم يقل وأهلها صالحون، لأن الإصلاحي الشخصي المنزوي بعيداً لا يأسى بضعف الإيمان ولا يبالي بهزيمة الخير، صلاح لا قيمة له ولا خير فيه، كن صالحاً مصلحاً وراشداً مُرشداً»⁽⁶⁾.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للروماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، ص: 117.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 44.

³ - ينظر: وليد قصاب، في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دار القلم، دبي - الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2000، ص: 50.

⁴ - ينظر: عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة)، ص: 171، 172.

⁵ - أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، (د.ط)، 2005، ص: 60.

⁶ - محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الهدى، عين مليلة - الجزائر، ص: 84.

وهو ما نجده في وصف العمل (بغير صالح) وعدم وصفه (بفاسد) في قوله تعالى: [قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿46﴾ (هود: 46)، يقول الزمخشري مجيباً عن ذلك: «فهلا قيل أنه عملٌ فاسدٌ؟ قلتُ: لمَّا نفاه عن أهله نفى عنهم صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفي، وأذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم، لا لأنهم أهلك، وأقاربك، وأن هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوتك»⁽¹⁾.

وفي التنزيل كما يقول عبد الرحمن بودرع: «الكلمات الفرائد وهي الألفاظ التي تنزل منزلة الفريدة من العقد أو كالجوهرة التي لا نظير لها تدلُّ على عِظَمِ فصاحة هذا الكلام وقوة عارضته وجزالة منطِقه، وأصالة عربيته، بحيث لو أسقطت من الكلام لعرَّ على الفصحاء الإتيانُ بمثلها، ومن فرائد النصِّ القرآني الألفاظ المتصلة بما قبلها وما بعدها اتصالاً وثيقاً»⁽²⁾، ومن أمثلة ذلك كلمة (اعتراك) من قوله تعالى: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (هود: 54).

فهي كلمة اكتسبت جزالتها وفخامتها وركبت صفوة الفصاحة، بما هيأه لها النظم القرآني من أسباب السهولة والقبول، وإن كانت من قبلُ نافرة لا تحتوي نغماً طرياً ولا تُبدي جمالاً أو زينة. هذه اللمسة السحرية التي نفخت الروح في موات الكلمات، وجعلت الرميم نابضاً بالحياة، وهي سرُّ الإعجاز الذي ارتقى به القرآن الكريم في سماوات الفصاحة والبيان، وهذه اللمسة السحرية هي التي جعلت الألفاظ ومفردات هذه السورة نغمات رخيَّة شجية تتراقص لها أسماع الناس طرباً، وتتخذ سبيلها إلى قلوبهم سرباً.

إنَّ ما نلمسه في آي القرآن الكريم، الدقة في الوضع، والغاية التي تُبتغى من دقة الوضع هي «الدقة في الوضوح لتكون جليَّة أمام الأبصار؛ لتحدد الذهن تحديداً يستوعب المعنى المقصود دون زيادة أو تقصير، لتحتمل في النفس مكانتها، فتسري في مساريها الحساسة»⁽³⁾. فالتحديد الذي نراه والدقة التي نلمسها في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا

¹ -الزمخشري، الكشاف، ج3، ص: 204، 205.

² -عبد الرحمن بودرع، الخطاب القرآني ومناهج التأويل: نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، ص: 124، 125.

³ -عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس، (د.ط.)، 1980، ص: 73.

مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ (هود: 13)، هي دقة صنعها هذه المفردة (مفتريات) إنها توجه الذهن لاستيعاب المعنى المقصود، حتى يصبح التخلي عنها إخلالاً بالمعنى وإنقاصاً من المراد، ف (مفتريات) كلمة دقيقة متمكنة في موضعها، خدومٌ للغرض الذي جاءت لأجله، إذ إن معناها: «إنها مفتريات المعاني كما تزعمون على القرآن أي بمثل قصص أهل الجاهلية وتكاذبيهم، وهذا من إرخاء العنان والتسليم الجدلي، فالمماثلة في قوله: (مثله) هي المماثلة في بلاغة الكلام وفصاحته لا في سداد معانيه»⁽¹⁾.

ومثله جاءت لفظة (ضائق) في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود: 12)، لتضطلع بأداء هذا المعنى دون سواها، فلم يقل الحق - عز وجل - (ضيق) بل قال (ضائقٌ به صدرك) «وإنما عدل عن أن يقال (ضيق) هنا إلى (ضائق) لمراعاة التظير مع قوله (تارك) لأن ذلك أحسن فصاحة، ولأن (ضائق) لا دلالة فيه على تمكن وصف الضيق من صدره بخلاف (ضيق)، إذ هو صفة مشبهة، وهي دالة على تمكن الوصف من الموصوف، إيماء إلى أن أقصى ما يتوهم توقّعه في جانبه - صلى الله عليه وسلم - هو ضيق قليل يعرض له»⁽²⁾، وقال الزمخشري: «فإن قلت لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟ قلت: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت، لأن رسول الله "صلى الله عليه وسلم"، كان أفسح الناس صدرًا. ومثله قولك: زيد سيد وجواد، وتريد السيادة والوجود الثابتين المستقرين، فإن أردت الحدوث قلت: سائد وجائد»⁽³⁾.

ومن خصائص التعبير القرآني أنه «قد يختار لفظاً في بعض الآيات ليؤدي معنى معيناً، وفي الغرض نفسه يختار لفظاً آخر، فيتوهم السامع أن اللفظين سواء في الدلالة، مثلان في المضمون، فيقع تحت وطأة الشك، ويتساءل: لماذا عبّر بهذا اللفظ هنا، وعبر بهذا اللفظ هناك؟»⁽⁴⁾.

ومثال ذلك نجده في قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ (هود: 29)، فلماذا قال: (مالاً) ولم يقل (أجراً) حكاية عن هود "عليه السلام" حينما قال:

1 - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 20.

2 - المرجع نفسه، ج12، ص: 16.

3 - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص: 186، 187.

4 - عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة)، ص: 152.

﴿يَا قَوْمِ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (هود: 51)، أليس المال أجراً؟ فلمَ اختلف اللفظان؟ ثم لماذا قال نوح: (إِنْ أَجْرِي) ولم يقل (إِنْ مَالِي) مناسبة لما قبلها؟
 إنَّ هذا الأمر قد يتجاوز التلوين في الخطاب القرآني إلى معانٍ أشرف وألطف «لعلَّ قوم نوح كانوا يقولون - في بدء دعوته - (إنه يقول ما يقول ليبترَّ منّا مالاً) فأجابهم بما يقارب لفظهم: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾ قالوا ذلك لأنهم لم يعترفوا أنه يستحقّ (أجراً) لأنه لا يقول شيئاً يهمهم أو يفيدون منه؛ لأنّ الأجر يكون مقابل (عمل) ترضاه الجماعة، ونوح لم يقدم عملاً يرضونه»⁽¹⁾،
 فلذلك قال نوح رداً عليهم: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾، ثم قال "عليه السلام": ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾؛ وهذا الكلام احتراس منه «لأنه لما نفى أن يسألهم مالاً، والمال أجر، نشأ توهم أنه لا يسأل جزاء على الدعوة فجاء بجملة ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ احتراساً، والمخالفة بين العبارتين في (مالاً) و (أجري) تفيد أنه لا يسأل من الله مالاً ولكنّه يسأل ثواباً»⁽²⁾.

وكما نلاحظ أنّ التنزيل جاء بفعل الأمر (احمل) في مشهد التعبئة العامة والاستعداد للطوفان، حين صدور الأمر الإلهي بإقلاع السفينة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ (هود: 40)، وحكاية عن القصة نفسها جاء بفعل الأمر (اسلك) في سورة المؤمنون، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ (المؤمنون: 27)، «والسبب في هذا الاختلاف مع أنّ القصة واحدة هو أنّ الله -تعالى- في سورة هود قال: (ويصنع الفلك) وفي سورة المؤمنون لم يذكر هذه العبارة، بل اكتفى بقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ﴾، ولا شك أنّ عبارة (ويصنع) إضافة إلى أنّها تضعك في قلب الحدث، فهي توحى بالجهد والتعب اللذين كان يعاني منهما نوح -عليه السلام- وهو منهمك في صنع السفينة، ومع أنّ الحمل والسلك كلّ منهما يعني أنّ نوحاً (أدخل) ما أمره ربّه في السفينة، غير أنّ (الحمل) فيه من المشقة أكثر ممّا في (السلك).

¹ - عودة الله منيع القيسي، الإعجاز اللغوي في قصص نوح -عليه السلام- في القرآن، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان -الأردن، ط1، 2002، ص: 50.

² - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 55.

فالحمل فيه معاناة واضحة، أما السلك فأمر هين يسير، ولا ريب أن الفعل الشاق: (الحمل) يتجاوب مع الفعل الشاق: (ويصنع الفلك) وينسجم معه أكثر من تجاوب الفعل غير الشاق: (فاسلك) ومن انسجامه معه كذلك»⁽¹⁾.

وهكذا عرّضتُ لبعض أمثلة الدقة في اختيار وانتقاء الألفاظ ومدى تناسبها مع السياق القرآني في السورة قد رُصفت له رصفاً من واضعها «والحقيقة أن الله تعالى يتناول المعنى من كل زواياه حتى إننا نجد أن هذه الآية لا يصلح لها إلا ذلك اللفظ، وتلك الآية التي في مثل معناها، لا يصلح لها إلا ذلك اللفظ»⁽²⁾، و ألفاظ سورة هود كانت مثلاً للدقة العالية والتساوق المتناسق مع السياق، وتجاوباً أليفاً لطيفاً بين مفردات العبارات؛ حتى أننا لا «نجد كلمة تنشز عن أختها، أو تشذ عن سابقتها أو لاحقتها في أداء الغرض وبيان المقصود»⁽³⁾.

أولاً: التعريف والتكبير: ومن المظاهر الأسلوبية والبلاغية المميزة في سورة هود أسلوب التعريف والتكبير، الذي تقتضيه أحوال المخاطبين، حيث إنهما أسلوبان يُورثان فوائد بلاغية نستفيد من خلال وجودهما في السياق.

أ - التعريف:

التعريف في الألفاظ هو «ما دلت على شيء بعينه»⁽⁴⁾، فالتعريف إذن «هو التّمييز، هو الأفراد، هو التّخصيص بعد التعميم، هو أن يكون شيء ما محددًا بين المتكلم والسامع، فيدور حوله الكلام، هذا يتحدث عنه، وذاك يفكر فيه، وهو نفسه يفرض نفسه على المتكلم والمخاطب»⁽⁵⁾، والمعارف في العربية هي: الضمائر، والأعلام، وأسماء الإشارة، ولأسماء الموصولة، والمعرفّ بأل، ثم المضاف إلى واحد من هذه المعارف، والنكرة المقصودة في النداء⁽⁶⁾، وهذه أدوات تختلف فيما بينها، فلكل واحد منها استعمال خاص بها، ولكل أداة من أدوات

1 - عودة الله منيع القيسي، الإعجاز اللغوي في قصص نوح، ص: 108.

2 - عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة)، ص: 158.

3 - المرجع نفسه، ص: 239.

4 - يحيى بن حمزة العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد هنداي، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ط1، 2002، ج2، ص: 11.

5 - منير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف، الإسكندرية - مصر، ط2، 1993، ص: 33.

6 - ينظر: عبد الرحمن حسن حبيكة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 397.

التعريف طَعْمًا وَمَذَاقًا يَخْتَلَفُ عَنِ الْآخِرِ، والذي يُحدِّد الاختلاف ثقل الكلمة، ومكانها، وقيمتها عند المخاطب، فالضمير غير اسم الموصول وغير التعريف بأل⁽¹⁾.

ولقد وردت الكثير من الألفاظ المعرفية في سورة هود، آخذاً بعضاً منها على سبيل المثال لندرك مدى التناسب الهندسي في الألفاظ مع سياق السورة وموضوعها.

1 - **التعريف بالضمير:** يُستخدم الضمير للجمع بين الاختصار الشديد، والارتباط المتين، وبين جمل الآية بعضها وبعض⁽²⁾.

ومن روائع استخدام الضمير كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَذْقَنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (هود: 10)، فالتأمل في هذه الآية يجد أن ضمير الغائب في كلمة (أذقناه) يعود على الإنسان في قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَذْقَنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (هود: 9)، وبما أن التعريف في كلمة الإنسان يدل على الاستغراق، فإن دلالة ضمير الغائب تفيد ما أفاده معاده من استغراق جميع البشر «وضمير (أذقناه) عائد إلى الإنسان فتعريفه كتعريف معاده للاستغراق المتقدم»⁽³⁾. أمّا في اختلاف الفعلين (أذقنا ومسته) حيث تم إسناد الأول إلى ضمير التكلم (أذقناه) ولم يسند الآخر (مس) إلى ذاته كما في (أذقنا)؛ وذلك للدلالة على أن مس الضر ليس مقصوداً بالذات العلية وإنما بالعرض بخلاف إذاقة النعماء⁽⁴⁾؛ «فكأنه لم يسند الشر إليه تعالى وإن كان الكل الكل منه تعالى وللتبنيه على أن مراعاة الأدب مع الربّ عدم إسناد الشر إليه تعالى وعن هذا ورد بيدك الخير مع أن الشر بيده أيضاً إيجاداً أو خلقاً وأما إسناد النزاع إليه تعالى فلأنه ليس إسناد الشر صراحة بل تلطفاً وإيماء»⁽⁵⁾.

ومن دلالات ضمير المخاطب تخصيصه مجموعة بالخطاب لبيان استحقاقهم لمعرفة هذا الخبر كما في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (هود: 39)، فإسناد العلم «إلى ضمير المخاطبين دون الضمير المشارك بأن يقال: فسوف نعلم، إيماء إلى أن

1 - ينظر: منير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، ص: 37.

2 - ينظر: أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 104.

3 - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 13.

4 - ينظر: عصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي، حاشية القنوي على تفسير الإمام البيضاوي، ضبطه وصحّحه وخرّج

آياته: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2001، ج10، ص: 31.

5 - المرجع نفسه، ج10، ص: 31.

المخاطبين هم الأحق بعلم ذلك ، وهذا يفيد أدباً شريفاً بأنّ الواثق بآئه على الحق لا يززع ثقته مقابلة السفهاء أعماله النافعة بالسخرية ، وأن عليه وعلى أتباعه أن يسخروا من الساخرين»⁽¹⁾.

2 - **التعريف باسم الإشارة:** ويأتي التعريف باسم الإشارة لتمييز المشار إليه أكمل تمييز⁽²⁾. وله العديد من الأغراض البيانية كالتعظيم والتفخيم ، والدلالة على بعد المنزلة ، والتحقير من شأن المشار إليه ، والتدليل على أن المشار إليه جدير بالخبر المذكور⁽³⁾.

ومن المعاني الأسلوبية لاسم الإشارة الدال على القريب قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (هود: 72)، وفي التعبير باسم الإشارة تمييز له أكمل تمييز بالإشارة الحسية «ووصف الحالة من الشيخوخة وصفاً مرثياً مشاهداً، وهذا أبلغ في وصفه مما لو قيل وبعلي شيخ ، واسم الإشارة يعود إلى ما ذكر من محصول الولد من عجوز عقيم وشيخ كبير، والتعبير به أبلغ مما لو قيل (إنه) بالضمير لما في اسم الإشارة من وصف كامل محسوس وتمييز مبني على المشاهدة، كما أن فيه استعظماً للمشار إليه وتفخيماً لشأنه مما يزيد التعجب، وهذا الخبر مع كونه مثبتاً للتعجب مما ذكر فهو أيضاً تعليل بطريق الاستأناف الحقيقي والاستبعاد والمستفاد من طريق الاستفهام وتأكيده»⁽⁴⁾.

وقال فخر الدين الرازي (ت604هـ): «وهذا (بعلي شيخاً) قائم مقام أن يقال أشير إلى بعلي حال كونه شيخاً، والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهي الشيخوخة»⁽⁵⁾.

ومن الدلالات الأخرى لاسم الإشارة تنكيته عن الاسم الذي لا فائدة منه، كما في قوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (هود:

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 69.

² - ينظر: محمد أبو موسى، خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط4، 1996، ص: 200.

³ - ينظر: محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 200 وما بعدها، وينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1983، ص: 183 وما بعدها.

⁴ - الشحات محمد أبو ستيت، خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1991، ص: 282، 283.

⁵ - فخر الدين الرازي، تفسير الفخر الرازي المُمَشَّهَرُ بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج18، ص: 29.

(76)، يتبين أن اسم الإشارة (هذا) يعود على الجدل وفي إثارة تمييز للمشار إليه أكمل تمييز مع الإغضاء عن ذكره وعدم الاهتمام به، لأنه لا فائدة منه⁽¹⁾.

ويأتي اسم الإشارة للقرب ليدل على التحقير في قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَشْسِرُ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (هود: 99)، حيث أسقط كلمة الدنيا واكتفى بالإشارة إليها زيادة في التحقير وأنه لا قيمة لها، يقول البقاعي (ت885هـ): «ولما كان فرعون موصوفاً بعظم الحال وكثرة الجنود والأموال وضخامة المملكة حقر الله تعالى دنياه بتحقير جميع الدنيا التي هي منها باسقاطها في الذكر اكتفاء بالإشارة إليها ولم يثبتها كما في قصة عاد»⁽²⁾.

وفي اسم الإشارة الموضوع لمعنى البعد تتنوع دلالاته وملاحمه البلاغية، يقول تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (هود: 11)، لما أراد القرآن التعبير عن بيان منزلة أهل الإيمان، واستحقاقهم للفضل العظيم، والأجر الكبير، هذه الأوصاف رشحتهم وجعلتهم أهلاً للمغفرة والثواب الواقع بعد اسم الإشارة، و«أولئك» إشارة إلى الموصوف باعتبار اتصاله بما في حيز الصلة، وما فيه من معنى البعد، للإيدان بعلو درجتهم، وبُعد منزلتهم في الفضل؛ أي أولئك الموصوفون بتلك الصفة الحميدة لهم مغفرة عظيمة وإن جمّت⁽³⁾.

كما نلاحظ الإشارة للبعد (بتلك) في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (هود: 59)، جاءت الإشارة «إلى حاضر في الذهن بسبب ما أجرى عليه من الحديث حتى صار كأنه حاضر في الحسّ والمشاهدة»⁽⁴⁾، وهذه الصيغة لتحقير قوم عاد، والتعبير عن بعدهم المكاني، إلى جانب أنها نبّهت المتلقي إلى أمرٍ جليلٍ مؤداه أخذ العظة والعبرة من الأقوام السابقة، و«أنت» اسم الإشارة باعتبار القبلية على ما قيل، فالإشارة إلى ما في الذهن، وصيغة البعيد لتحقيرهم أو لتزليلهم منزلة البعيد لعدمهم، أو الإشارة إلى قبورهم

¹ - ينظر: الشحات محمد أبو ستيت، خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، ص: 288.

² - برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج9، ص: 370.

³ - أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج4، ص: 190.

⁴ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 104.

ومصارعهم، وحينئذٍ الإشارة للبعيد المحسوس، والإسناد مجازين وكان المقصود الحث على الاعتبار بهم والاعتاظ بأحوالهم»⁽¹⁾.

3 - **التعريف بالصلة:** تُعدُّ الأسماء الموصولة من الأسماء المبهمة؛ وهذا «الإبهام الأولي في اسم الموصول يُحدثُ في نفس المتلقي تشوقاً وتشوقاً لمعرفة المراد به عن طريق صلته»⁽²⁾. وأفادت الصلة في السورة إضافة إلى دلالة الإبهام، دلالات أخرى، كالتحويل والتخصيص والتفخيم والتحقير، والدلالة على العموم.

ويأتي الاسم الموصول للتشهير بالقوم الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ آلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود: 18)، فإيراد اسم الموصول مع صلته (الَّذِينَ كَذَّبُوا) يدل على اشتهاؤ هؤلاء الكفار بالكذب، لدرجة أن جميع الخلائق تشهد عليهم يوم البعث، وفي ذلك زيادة في افتضاحهم على سوء صنيعهم، «والإتيان بالموصول في الخبر عنهم إيماءً إلى سببية ذلك الوصف الذي في الصلة فيما يرد عليهم الحكم وهو ﴿آلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، على أن المقصود تشهيرهم دون الشهادة، والمقصود من إعلان هذه الصفة التشهير والخزي لا إثبات كذبهم؛ لأن إثبات ذلك حاصل في صحف أعمالهم، ولذلك لم يسند العرض إلى أعمالهم، وأسند إلى ذواتهم في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾»⁽³⁾.

وتأتي دلالة التعميم في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (هود: 5)؛ أي الذي يسرونه ويعلنونه، فقد جاء الإبهام في الموصول مناسباً لعلم الله - سبحانه وتعالى - «وقد قدّم السر على العلن نعيماً عليهم أول الأمر ما صنعوا أو إيذاناً بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه وتحقيقاً للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه»⁽⁴⁾.

ومن دلالات اسم الموصول (ما) مع صلته على التحويل كما في قوله تعالى: ﴿لِيَقُولَنَّ مَا يَخِيسُهُ آلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (هود: 5)،

1 - شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج12، ص: 86.

2 - عبد الرحمن حسن حَبْنَكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 429.

3 - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 30.

4 - شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج11، ص: 211.

«ففي إبهام العذاب من التهويل ما فيه، مبالغة في التخويف، وكأنّ هذا المصير يلحق بكل من استهزأ بالعذاب كائناً من كان، وذلك أبلغ في تخويف هؤلاء الذين أنكروا البعث واستهزؤوا بالعذاب، مما يقوي هذا التعبير بالمعنى دليل تحقق الوقوع، وأنه نازل بهم لا محالة»⁽¹⁾.

وقد يأتي التعريف بالموصول توصيلاً لإبراز صفات المعرف كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (هود: 21)، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ (هود: 16)، ليتمكن من إبراز هذا الوصف، للذين خسوا أنفسهم ومن كان على منوالهم، ومن افتري على الله كذبا عسرة أنفسهم، وهو عدم الاهتداء، فلما ضلوا فقد خسروها، لأنهم مصرون على الكفر⁽²⁾.

4 - **التعريف بـ أل:** يستخدم القرآن التعريف بـأل «فتكون للعهد حيناً، وللجنس حيناً آخر، ومن أجمل مواقعها فيه أن تُستخدم لاستغراق خصائص الجنس»⁽³⁾.

ومن دلالاتها قصر الجنس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (هود: 17)، أفاد التعريف في كلمة (الحق) قصره على القرآن لما فيه من خير للبشرية منذ نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، «وهو قصر مبالغة؛ لكمال جنس الحق فيه حتى كأنه لا يوجد حق غيره»⁽⁴⁾.

5 - **التعريف بالإضافة:** إن من أهم التعريف بالإضافة هو «اكتساب التشريف من المضاف إليه، وقد وجد في السورة ما يحمل هذه الدلالة، خاصة في إضافة كلمة (رب) إلى الضمائر المختلفة»⁽⁵⁾، ومن المقاصد الأسلوبية للمضاف -أيضاً- معرفة دلالاته على الإيجاز؛ «لأنه ليس للمتكلّم طريق إلى إحضاره [أي المضاف] في ذهن السماع أخصر منه، أي يقصد إليه رغبة في الإيجاز»⁽⁶⁾.

¹ - دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة، إشراف: عبد العظيم إبراهيم المطعني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1993، ص: 79، 80.

² - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 32.

³ - أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 108.

⁴ - المرجع السابق، ج12، ص: 31.

⁵ - دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية، ص: 89.

⁶ - محمد أبو موسى، خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ص: 211.

ومن صلة الإضافة في دلالتها على التشريف ما جاء في قول الأنبياء حين أضيفت إلى ضمير قومهم يحثونهم على طلب المغفرة من خالقهم كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: 90)، نلاحظ دلالة الإحساس بقرب الإجابة، والتقرب إلى الله - سبحانه - بالاستغفار من الذنوب، وذلك عن طريق خطاب شعيب لهم بقوله (ربكم)، فنسبتهم إلى بائهم تُدخل الإيناس والإطمئنان إلى قلوبهم، وفي هذا تذكير لهم بالعبودية المطلقة لله وحده⁽¹⁾، ومنه أيضاً قول صالح "عليه السلام": ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود: 61)، «حيث أضيف لفظ (رب) إلى ضمير المتكلم ليشعرهم بمدى حرصه على تمسكه بخالقه فهو المنعم عليه ومريبه وينبغي أن تنظروا فيما أنا فيه لتنعموا بخيري الدنيا والآخرة»⁽²⁾.

ومن مجيئها للتشريف قوله تعالى: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ (هود: 73)، فقد جاءت الإضافة لتبين استمرار الصلة المقدسة، ولتوضيح رابطة النبوة السابقة في هذا البيت الكريم، كما أنّ فيها اظهار لشرف الرحمة وعظمتها بإضافتها إلى اسم الجلالة، وفي ذلك تشريف لأهل البيت الذين عمّتهم هذه الرحمة العظيمة⁽³⁾. أما في تعريف كلمة (البيت) يقول ابن عاشور: «وتعريف (البيت) تعريف حضور، وهو البيت الحاضر بينهم الذي جرى فيه هذا التحاور، أي بيت إبراهيم "عليه السلام" والمعنى أهل هذا البيت»⁽⁴⁾.

ومن مقاصد دلالاته على التشريف قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَدَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (هود: 64)، إنّ إضافة كلمة الناقة إلى لفظ الجلالة يفيد تشريفها وتمييزها، فهي معجزة سيدنا صالح "عليه السلام"، وكانت أمراً خارقاً للعادة، لذلك جاءت «الإضافة للتشريف والتنبية على أنّها مفارقة لسائر ما يجانسها خلقاً»⁽⁵⁾.

ومن الأمثلة الدالة على الإيجاز والاختصار قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (هود: 23)، «إنّ تعريف كلمة

1 - ينظر: دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسواره البلاغية، ص: 89.

2 - المرجع نفسه، ص: 90.

3 - ينظر: الشحات محمد أبو ستيت، خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، ص: 284.

4 - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 122.

5 - شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج12، ص: 90.

(أصحاب) بإضافتها إلى كلمة (الجَنَّة) خرجت من علاقة التعريف الوضعية إلى العلاقة الاستبدالية، التي تحقق الإيجاز، ومعلوم أنه لا مجال للتفصيل من هذا الوضع التقريري، فأصحاب الجنة أكثر لا يسمح النظم للأخذ والتفسير والتعدد، فجاء بإضافة هنا للإيجاز والاختصار، وهو غرض بلاغي أثير في القرآن بعامة⁽¹⁾.

هذه بعض النماذج لتعريف ألقاب سورة هود، والتي أسهمت في تحقيق نوع من التلاحم بين جزئياتها الصغرى التي تخدم مقصود وهذف السورة الكريمة.

ب - التنكير:

النكرة هي «مادلت على شيء لا بعينه»⁽²⁾، فالنكرة تفيد معناها مطلقاً من كل قيد، وعبر موقعها من السياق حيث يحدد معناها وقيمتها، فكأن المقام هو الذي يصف النكرة ويهبها المعاني المتعددة⁽³⁾.

ونجد لها عدة أغراض بلاغية من مثل: إفادة الجنسية والوحدة، أو التعظيم والتكثير، والتحذير والتقليل، والعموم وغيرها مما يوحي به السياق⁽⁴⁾.

جاءت دلالة التنكير على العموم في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (هود: 6)، يتبين من خلال هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى - تكفل برزقه لجميع الحيوانات، فهو عالمٌ بشأنها، ولما تحتاجه من غذاء من غير تخصيص لأي نوع من الحيوانات، فقد أفادت كلمة (دابة) جميع ما يدب على الأرض من غير الإنسان⁽⁵⁾.

ومن دلالة التعظيم والتهويل تنكير (بسلام وبركات)، و(عذاب أليم) في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (هود: 48)، «وفي قوله (مِنَّا) تأكيد يراد به زيادة الصلة والإكرام فهو أشد مبالغة من الذي

¹ - خليل قطاني، اللجنة في القرآن، رسالة ماجستير، إشراف: جامعة النجاح الوطنية، نابلس - فلسطين، 1999، ص: 72.

² - يحيى بن حمزة العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج2، ص: 11.

³ - أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 102.

⁴ - ينظر: دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية، ص: 92.

⁵ - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 5.

لا تذكره (من) ومن ذلك قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (يس: 58)، لأنه ألصق بمقام المن الإلهي في العطاء العظيم (منًا). أما قوله: (عذابٌ أليمٌ) فالمراد به تهويل وتفخيم شأن العذاب للأمم المعرضة⁽¹⁾.

وفي دلالة التنكير على التهويل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود: 3)، يقول ابن عاشور: «وتنكير (يوم) للتهويل؛ لتذهب نفوسهم للحتمال الممكن أن يكون يوماً في الدنيا أو في الآخرة، لأنهم كانوا ينكرون الحشر، فتخويفهم بعذاب الدنيا أوقع في نفوسهم، ووصفه بالكبير لزيادة تهويله، والمراد بالكبر الكبر المعنوي، وهو شدة ما يقع فيه، أعني العذاب، فوصف اليوم بالكبر مجاز عقلي⁽²⁾».

ومن دلالة التفخيم والتعظيم قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (هود: 17)، يُشير سياق الآية إلى تفخيم كلمة (بينّة) وتعظيمها، والمراد بها القرآن العظيم، ومن خلال هذه الآية يجد القارئ أن كل ما وصف به القرآن جاء بأسلوب التنكير؛ ليؤكد من معنى التفخيم له، فهذا القرآن متلو من شاهدٍ عظيم، وهو الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالإضافة أنه مؤتم به في الدين والحق، وهذا ما دلّت عليه كلمة (إماماً)، «والتنكير في (بينّة) و (شاهدٌ) لتفخيم إماماً؛ أي: مؤتماً به في الدين، ومقتدى، وفي التعرض لهذا الوصف بصدد بيان تلو الكتاب ما لا يخفى من تفخيم شأن المتلو، (ورحمة) أي نعمة عظيمة على من انزل إليهم، ومن بعدهم إلى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيدة بالقرآن العظيم، وهما حلان من الكتاب⁽³⁾».

إلى غيرها من الألفاظ المنكرة التي أسهمت في تقوية معاني ومقاصد السورة؛ هذا «وقد يظنُّ ظانُّ أن المعرفة أجلى، فهي من النكرة أولى، ويخفى عليه أن الإبهام في مواطن خليق، وأن سلوك

¹ - دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية، ص: 93.

² - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 11، ص: 319.

³ - أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 4، ص: 195.

الإيضاح ليس بسلوكٍ للطريق، وعلّة ذلك أنّ النكرة ليس لمفرد لها مقدارٌ مخصوص، بخلاف المعرفة، فإنّها لواحدٍ بعينه، يَثْبُتُ الدَّهْنُ عنده، ويسكن إليه⁽¹⁾.

المطلب الثاني: الجملة القرآنية وأساليبها التعبيرية:

الجملة القرآنية من المباحث اللغوية التي شغلت فكر النحويين والبلاغيين قديماً وحديثاً فدرسوها وألّفوا فيها مؤلفات باعتبارها أحد أساسيات التركيب، فهذا عبد القاهر الجرجاني ينظر في كيفية سرد الجمل، وتتابعها في النصّ القرآني فيقول: «ألا ترى في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ﴾ (يونس: 124).

كيف كثرت الجمل فيه؟ حتى إنّك ترى هذه الآية عشرَ جُمَلٍ إذا فصلت. وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعضٍ حتى كأنها جملةٌ واحدةٌ فإنّ ذلك لا يمنع من أن تكون صورَ الجمل معنًا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة. ثم إنّ الشبّه مُنتزِع من مجموعها من غير أن يمكن فصلُ بعضها عن بعض، وإفرادُ شطر من شطر، حتى إنّك لو حذفَ منها جملةً واحدةً من أيّ موضع كان أخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه⁽²⁾.

وقدّم العلماء على اختلاف انتماءاتهم تعريفات متقاربة للجملة؛ فالمعنى التقليدي للجملة هو أنّها تُعبّر عن معنى تام⁽³⁾، كما تُعرّف على أنّها مُرادف للكلام وهي تعني كلّ لفظٍ مستقل بنفسه مفيد لمعناه⁽⁴⁾، وهناك من جعل الكلامَ أخص من الجملة بحيث إنّ الكلام هو القول المفيد

¹ - كمال الدين بن علي الزملكاني، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد مطلوب، مطبعة الماني، بغداد، (د.ط.)، (د.ت.)، ص: 136، نقلاً عن: عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 17.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة/دار المدني بجدة، (د.ط.)، (د.ت.)، ص: 109.

³ - ينظر: فاضل صالح السامرائي، الجملة العربية والمعنى، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 2000، ص: 7.

⁴ - ينظر: أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، مكتبة عباس أحمد الباز، مكة المكرمة - السعودية، ط1، 2001، ج2، ص: 72.

بالقصد مادلاً على معنى يحسن السكوت عليه، والجملية عبارة عن الفعل وفاعله، والمبتدأ وخبره وما كان بمنزلة أحدهما⁽¹⁾.

والمقصود بالجملية المفيدة هي «كلام تام يدل على معنى أقله نسبة شيء إلى شيء إثباتاً أو نفيًا، أو إنشاءً ربطاً بين شيء وشيء آخر يكفي لإنشائه القول، مثل أمر التكوين أو الأمر بفعل ما»⁽²⁾، وهي التي تسمى عند علماء المنطق (قضية) وأقل ما تتألف منه الجملة عنصراً يُعبر عنهما باللفظ، وهما⁽³⁾:

1 - مُسْنَدٌ إليه، ويُسمى محكوماً عليه، ويسمى عند علماء المنطق موضوعاً.

2 - ومُسْنَدٌ، ويُسمى محكوماً به، ويسمى عند علماء المنطق محمولاً.

وإنَّ خَيْرَ ما تُوصَفُ به الجملة القرآنية في قوله تعالى: ﴿الرَّكَّابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1)، «فهي بناء قد أحكمت لبناته، ونُسقت أدق تنسيق، لا تُحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تُنبو عن موضوعها، أو لا تعيش مع أخواتها، حتى صار من العسير بل من المستحيل، أن تُغيّر في الجملة كلمة بكلمة، أو تُستغني فيها عن لفظ، أو تزيد فيها شيئاً... تمضي الجملة القرآنية، وقد كَوَّنت كلمات قد اُخْتِيرت، ثم نُسقت في سبيلك من النظام، فلا ضعف في تأليفه، ولا تعقيد في نظم، ولكن حُسْنُ تَنسيقٍ، ودَقَّةُ تَرْتِيبٍ»⁽⁴⁾؛ فلا تجد في الجملة القرآنية كلمة زائدة يصلح المعنى مع الاستغناء عنها، ولا تستطيع أن تُترجم معناها بألفاظ عربية من عندك إلا في عدد من الجمل مهما حاولت الإيجاز والاختصار.

والجملة القرآنية بأشكالها التعبيرية المختلفة في سورة هود "عليه السلام"، نجد لها عدة أساليب وأشكال لِمَا لها من دورٍ كبيرٍ في إحكام وتلاحم بنياتها اللغوية والدلالية والجمالية المتمثلة في البنيات الكبرى التي تحويها معمارية هذه السورة الكريمة.

¹ - ينظر: ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ترجمة: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط2، 1997، ج2، ص: 5.

² - عبد الرحمن حسن حَبَنَكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 140.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص: 140.

⁴ - ينظر: أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 85، 86.

1 - الجملة الفعلية والاسمية:

تعتبر الجملة الوسيلة التي يتحقق بها النص ، لذلك جاءت في القرآن الكريم بأساليب مختلفة ، فهي أساس التركيب التعبيري الذي يمثل النص القرآني قِمَّتَها ، ويستخدم القرآن نوعي الجملة في كثير من المواقع كونها تُسَهِّم في فهم وبناء دلالاته ، ويظلّ السيّاق الأفق الذي يستدعي نوع الجملة ، ولِمَعَانٍ فَرَضَتْها مواضع ومقاصد السورة ، وقد اهتم العلماء بتتبع هذا الاستخدام ومدى مُمَيِّزاته وفوائده وأغراضه البلاغية والسيّاقية ، يقول البلاغيون : «إنَّ الجملة الفعلية تُفيد التَّجَدُّدَ والحُدُوثَ ، والجملة الاسمية تُفيد الثُّبُوتَ والاستقرار ، ولكلُّ منهما مكان لا يَصْلُح للآخر ، والبلاغة الحقة تكون في اختيار الجملة الخاصة للمعنى الخاص»⁽¹⁾.

ومثال ذلك في قصة إبراهيم "عليه السلام" حينما دخلت عليه الملائكة وحيّته ، فردّ عليها بتحية أحسن منها. وكلّ ما فعلته الملائكة أن حيّته بالجملة الفعلية المناسبة للمقام ، فردّ عليها بخير من تحيّيها ، فحيّاها بجملة اسمية في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ (هود: 69) .

والسبب في تفضيل (سلام) لأن المحذوف اسم ، فتقدير سلام إبراهيم : سلامي سلام ، وهذا يعني أنّها جملة اسمية فهي تفيد الثبوت والدوام. أمّا سلام الملائكة ، فالمحذوف فعل ؛ أي : أسلم سلاماً ، وهذا يعني أنّها جملة فعلية وهذا يفيد التجدد والانقطاع⁽²⁾.

أولاً : الجملة الاسمية ودورها : تنوعت الجمل الاسمية الواردة في سورة هود حسب المعاني ، والدلالات المختلفة التي تُبيّن معنى الإثبات ، أو معنى النفي ، أو معنى التوكيد.

| الآية | الدلالة والفائدة |
|---|---|
| 1 - قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هود: 7) . | صُدِّرت الآية بجملة اسمية مبدوءة بضمير منفصل تعود مرجعيته على الله "سبحانه" ، وذلك لتأكيد اختصاصه عز وجلّ بالخلق والإيجاد ، فهذا الضمير يجعل الذهن مُعلقاً به وبما بعده ، أما عند ذكر الفعل قبل الإسم كأن يُقال (خلق الله |

¹ - بكري شيخ أمين ، التعبير الفني في القرآن الكريم ، ص : 194 .

² - ينظر : السمين الحلبي ، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، تحقيق : أحمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، (د.ط) ،

(د.ت) ، ج 1 ، ص : 40 .

| | |
|--|--|
| <p>السماوات والأرض)، بدلاً من الجملة الإسمية فإن الذهن سيعلق بخلق السماوات والأرض دون خالقهما.</p> | |
| <p>أفادت الجملة الإسمية المتصدرة بالضمير (أنتم) في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، الدلالة على التحقيق والتّمكن اللذين يقتضيان بأنّ عدم استجابة هؤلاء الكفار للرسول "صلى الله عليه وسلم"، بالإتيان بعشر سورٍ مثل سور القرآن، الاستسلام الكامل لله "سبحانه وتعالى" بالطّاعة، والإذعان إليه، واليقين الكامل بأنّ هذا القرآن مُنزّل من عنده عزّ وجلّ ولا جدال في ذلك، «وجيء بالجملة الإسمية الدالة على دوام الفعل وثباته، ولم يقل (فهل تُسلمون)؛ لأنّ حالة عدم الاستجابة تكسب اليقين بصحة الإسلام فتقتضي تمكّنه في النفوس، وذلك التّمكّن تدلُّ عليه الجملة الإسمية»⁽¹⁾.</p> | <p>2 - قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (هود: 14).</p> |
| <p>يدلّ السياق العام لهذه الآية في جُلّه على التّفخيم والتّعظيم لأصحاب الجنّة، حيث أفادت الجملة الإسمية المبدوءة بـ(أولئك) للدلالة على اختصاص هذه الفئة من الناس باستحقاقهم للمنزلة العالية، والمكانة المرموقة بأن يكونوا أصحاباً لهذه الجنّة وأهلاً لها، وممّا يزيد من مكانتهم العالية ذكر الضمير (هم) الذي يؤكد اختصاصهم بالخلود في جنّات النّعيم، إلى جانب أنّه ساعد في تبيينه السامع أنّ المراد من الخطاب بالجملة الإسمية التّحقيق والثّبات لهذه المكانة العالية، يقول عبد القاهر الجرجاني: «وجملة الأمر أنّه ليس إعلامك الشيء بعتّة غفلاً، مثل إعلامك له بعد التّبيين عليه والتّقدمة له، لأنّ ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام»⁽²⁾.</p> | <p>3 - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (هود: 23).</p> |

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 22.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 132.

| | |
|--|--|
| <p>أفاد الخطاب بالضمير (أنت) اختصاص الله "سبحانه وتعالى" بالحكم العادل، فلن يبطل حكمه أحد، إذ لا مردّ لقضائه في تنفيذ هذا الحكم، لذلك جيء بالجملة الإسمية المتصدّرة بالضمير (أنت)، للدلالة على ثبات حكم الله "سبحانه وتعالى"، واختصاصه بهذا الحكم الذي لا جور فيه.</p> | <p>4 - قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود: 45).</p> |
| <p>تدلُّ هذه الآية على عظمة يوم الآخرة، حيث يجمع الله "سبحانه وتعالى" جميع الخلق في يوم واحد؛ ليكون يوماً مشهوداً واضحاً للعيان، وبمجيء الخبر جملة إسمية في قوله: (وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) ما يؤكد ثبات جمع الناس في يوم القيامة؛ أي ثابت جمع الله الناس لأجل ذلك اليوم، فيدلُّ على تمكّن تعلق الجمع بالناس⁽¹⁾.</p> | <p>5 - قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (هود: 103).</p> |
| <p>في الآية الكريمة الجملة الإسمية (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ) التي تتكون من البنيات اللغوية التالية: إن حرف توكيد + الياء ضمير منفصل في محل نصب اسم + أخاف الجملة الفعلية خبر. وبهذا التكوين فإنَّ مجيء الخبر جملة فعلية يؤكد خوف النبي "صلى الله عليه وسلم" المستمر على قومه بوقوع العذاب الشديد بهم، كما لحق بالأقوام السابقة من قبلهم، وعاضد ذلك استخدام المؤكّد (إِنَّ)، يقول ابن عاشور: «وتأكيد جملة الجزاء ب(إِنَّ)، وبكون المسند إليه فيها اسماً مخبراً عنه بالجملة الفعلية لقصد شدة تأكيد توقُّع العذاب»⁽²⁾.</p> | <p>6 - قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود: 3).</p> |
| <p>أفاد النفي في هذه الآية الكريمة أسلوب التأكيد (بما) لأن هذه الجملة «مؤكدّة لضمون (وَلَوْ لَأَرْهَطُكَ لَرَجَمْنَاكَ)، لأن إذا انتفى كونه قوياً في نفوسهم تعيّن أنّ كفّهم عن رجمه مع استحقاقه إيّاه في اعتقادهم ما كان إلاّ لأجل إكرامهم رهطه، لا الخوف منهم»⁽³⁾.</p> | <p>7 - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (هود: 91).</p> |

¹ - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 161.

² - المرجع نفسه، ج11، ص: 319.

³ - المرجع نفسه، ج12، ص: 150.

ثانياً: الجملة الفعلية ودورها: وردت الجملة الفعلية بشتى أنواعها في سورة هود، كما سنرى فيما يأتي:

| الآية | الدلالة والفائدة |
|---|--|
| 1 - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (هود: 34). | وردة في هذه الآية الكريمة جملتان شرطيتان: ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾، ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾، من خلال قراءة هاتين الآيتين أو سماعهما فإنّ الملمح الأسلوبية البارز فيهما هو ورود فعل الشرط بصيغة الماضي، مع أنّ الأصل هو وروده مضارعاً، وذلك لأنّ «حقّ (إنّ) الجزائية أنّ يليها المستقبل من الأفعال، أنّك تشترط فيما يأتي أن يقع شيءٌ لوقوع غيره فإنّ وليها فعل ماضٍ أحالت معناها على الاستقبال، وذلك قولك: إن قمتَ قمتُ والمراد إن تَقُمَ أقم ⁽¹⁾ ، وتجدد الإشارة هنا إلى ذكر فعل الشرط بصيغة الماضي في الجملتين يؤذن بوقوعه في المستقبل، ففي قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ دلّ الفعل الماض (أَرَدْتُ) على صيغة الحاضر، وذلك لأنّ النصيح من سيدنا نوح -عليه السلام - إلى قومه متجددٌ باستمرارٍ دعوته يقول ابن عاشور: «والتعليق بالشرط في قوله ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ مؤذنٌ بعزمه على تجيد النصيح في المستقبل لأنّ واجبه هو البلاغ، وإن كرهوا ذلك ⁽²⁾ ، أما الجملة الشرطية في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ فقد عبّرت (كَانَ) بصيغة الماضي على استمرارية إرادته سبحانه وتعالى -إن شاء - بعدم هداية هؤلاء القوم وبقائهم في حالة ضلال وغواية، يقول الألوسي: «وزيادة (كان) للإشعار بتقدم إرادة الله تعالى زماناً كتقدمه رتبةً، وللدلالة على تجددّها واستمرارها ⁽³⁾ »، والملمح الأسلوبية الآخر في هذه الآية هو حذف |

¹ - ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، علم الكتب، بيروت - لبنان، مكتبة المتنبّي، القاهرة - مصر، (د.ط.)، (د.ت)، المجلد 2، ج 8، ص: 156.

² - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 12، ص: 62.

³ - شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 12، ص: 47.

| | |
|--|--|
| <p>حذف جواب إحدى الجملتين للدلالة جواب الآخر عليه وتقدير الجملة: (إن أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يغويكم)، إذ لا يُقال أن جواب الشرط مقدم على فعل الشرط لا تنفاء ذلك عند البصريين، وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ﴾ شرطٌ حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه وليس جواباً له، لا متناع تقدم الجواب على الشرط على الأصح الذي ذهب إليه البصريون، أي إن أردتم أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، والجملة كلها دليل جواب قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ والتقدير: إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي⁽¹⁾.</p> | |
| <p>في الآية الكريمة ورد أسلوب النفي بـ (ما) للفعل المضارع المفيد لمعنى الاستقبال ثلاث مرات؛ وذلك لتأكيداً هؤلاء الكفار من قوم سيدنا نوح "عليه السلام" نفيهم لا تباع نبيهم بسبب معتقدات خاطئة جعلوها أساساً في عدم تصديقهم لنبيهم، التي تتمثل في كونه بشراً مثلهم، ولم يتبعه إلا الأراذل من قومهم، بالإضافة إلى نفيهم أن يكون هذا النبي هو ومن آمن معه أصحاب فضل وشرف عليهم.</p> | <p>2 - قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود: 27).</p> |
| <p>جاء أسلوب القسم في قوله تعالى ﴿لِيُوفِّيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ للتأكيد على أن الله "سبحانه وتعالى" سيوفي جميع الخلق أجرهم على أعمالهم من غير نقصان، ويُعدُّ التوكيد في هذه الآية مَلْمَحاً أسلوبياً بارزاً، إذ ورد فيها سبعة أنواع من التوكيدات حسب رأي المفسرين كما يقول الفخر الرازي: «سمعت بعض الأفاضل قال: إنه تعالى لما أخبر عن توفيته الأجزية على المستحقين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات: أولها: كلمة (إن) وهي للتأكيد، وثانيها: كلمة (كل) وهي أيضاً للتأكيد، وثالثها: اللام الداخلة على خبر (إن) وهي تفيد التأكيد أيضاً، ورابعها: حرف</p> | <p>3 - قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لِيُوفِّيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (هود: 111).</p> |

¹ - شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج12، ص: 46.

(ما) إذا جعلناه على قول الفراء موصولاً ، وخامسها : القسم المضمر ، فإنَّ تقدير الكلام : وإنَّ جميعهم والله ليوفيتهم ، وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم ، وسابعها : النون المؤكدة في قوله : ﴿لَيُوفِيَنَّهُمْ﴾ . فجميع هذه الألفاظ السبعة الدالة على التوكيد في هذه الكلمة الواحدة تدلُّ على أنَّ أمر الرُّبُوبِيَّة ، والعبودية لا يتم إلا بالبعث والقيامة ، وأمر الحشر والنشر ، ثم أردفه بقوله : ﴿إِنَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ وهو من أعظم المؤكدات ،⁽¹⁾ فهي توكيد الوعد والوعيد ؛ لأنه "سبحانه" عالماً بجميع المعلومات عالماً بمقادير الطاعات والمعاصي فكان عالماً بالقدر اللائق بكل عمل من الجزاء ، وهنا لا يضيع شيء من الحقوق والأجزية.

2 - الجملة الخبرية والإنشائية وأغراضهما البلاغية :

أولاً : الجملة الخبرية :

الخبر في اللغة : يأتي «بمعنى النبأ ، والجمع منه أخبار ، والخبر العلم بالأشياء ، والإخبار الإعلام»⁽²⁾.

اصطلاحاً : فقد تعددت التعاريف في مفهومه فهو : إفادة المخاطب أمر في ماضٍ أو مستقبل أو دائم⁽³⁾ ، ويعني كذلك تقدير أمر من الأمور والإخبار عن قضية من القضايا⁽⁴⁾ ، كما أنَّ الخبر «هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب ، باعتبار كونه مجرد كلام ، دون النظر إلى قائله ، ودون النظر إلى كونه مقترناً بما يدلُّ على إثباته حتماً ، أو نفيه حتماً ، ومدلوله لا يتوقف على النطق به ، ويدخل فيه الوعد والوعيد ، لأنَّهما خبران عمّا سيفعله صاحب الوعد والوعيد»⁽⁵⁾.

1 - فخر الدين الرازي ، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، ج 18 ، ص : 71.

2 - ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (خبر) ، ج 4 ، ص : 227.

3 - ينظر : ابن فارس ، الصحابي في فقه اللغة ، تحقيق : عمر الطباع ، مكتبة المعارف ، بيروت - لبنان ، ط 1 ، 1993 ، ص : 179.

4 - ينظر : فضل حسن عباس ، البلاغة فنونها وأفنانها - علم المعاني ، ج 1 ، ص : 99.

5 - عبد الرحمن حسن حبّكة الميداني ، البلاغة العربية أسسها ، وعلومها ، وفونها ، ج 1 ، ص : 167.

إن بواكر علوم البلاغة وتقسيماتها نمت في ظل القرآن الكريم وشبّت على إعجازه، وقد استقر رأي الحُذّاق من النحويين والبلاغيين على أنّ الكلام ينحصر في قسمين: خبر وإنشاء⁽¹⁾، ولكل منهما أغراض يخرج إليها بحسب القرائن والسياق:

أغراض الجملة الخبرية: الأصل في توجيه الكلام الذي يتضمّن خبراً ما يكون لأحد الأغراض⁽²⁾:

1 - فائدة الخبر، أي إفادة المخاطب الحكم الذي تضمّنته الجملة أو الجمل الخبرية، وإخبار السامع لمحتواها الذي كان يجهله.

2 - هناك غرض ثاني يُسمّى لازم الفائدة، وهو الذي يراد منه توجيه الكلام الذي يتضمّن خبراً ما، وإعلام المخاطب بأن المتكلم عالم بالخبر ويريد به بيان معرفته بهذا الخبر وكونه ليس خافياً عليه.

3 - وقد تخرج الجملة عن هذين الغرضين السابقين إلى أغراض أخرى، وتستعمل في معانٍ ثانية لأسرار بلاغية، وتتعدّد تبعاً لمجالات المعاني المستفادة من السياق وقرائن الأحوال⁽³⁾.

| الآية | الغرض | الدلالة والفائدة |
|--|-------------|--|
| 1 - قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (هود: 5). | فائدة الخبر | حيث جاء الإخبار هنا في قوله ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ يتحدث عن المشركين الذين يخفون العداوة ويظهرون المحبة للبني "صلى الله عليه وسلم" والمؤمنين. |

¹ - ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع، ص: 24.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص: 27. وينظر: عبد الرحمن حسن حبّنة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج 1، ص: 173.

³ - ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة - المعاني والبيان والبدیع، ص: 29. وفضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، (علم المعاني)، ج 1، ص: 106. وأحمد مطلوب، أساليب بلاغية: الفصاحة - البلاغة - المعاني، وكالة المطبوعات، الكويت، توزيع دار القلم، ط 1، 1980، ص: 102، 103.

| | | |
|--|----------------------------|---|
| <p>أي؛ كل ما تقدم ذكره مثبت في اللوح المحفوظ لمن ينظر إليه من الملائكة "عليهم السلام"، وهذا يدل على عموم علمه "سبحانه وتعالى"، وأخبر "سبحانه" برزق الجميع، وأنه لا يغفل عن تربيته، فكيف تخفى عليه أحوال الكفار وهو الذي يرزقهم؟⁽¹⁾.</p> | <p>فائدة الخبر</p> | <p>2 - قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (هود: 6).</p> |
| <p>فالمعنى أن نوح "عليه السلام" لا يجهل أن ابنه كافر، حيث جاءت الجملة الخبرية هنا تفيد تصحيحاً للخطأ الذي تصوره نوح من حال ابنه، فقوله (ليس من أهلك) رد للخطأ في قول نوح: (إن ابني من أهلي)، وقوله (فلا تسألن) فيه زجر من الله لعبده نوح أن يعود لمثل هذا⁽²⁾.</p> | <p>لازم الفائدة</p> | <p>3 - قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود: 46).</p> |
| <p>فالمراد هنا إظهار التضرع والإنابة من قبل شعيب "عليه السلام"، ثقة في الله وركونا إلى حمّاه، فجاء الخبر مفيداً للإذعان والإنابة لأمره "سبحانه".</p> | <p>التضرع والإنابة</p> | <p>4 - قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنِّي أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: 88).</p> |
| <p>جاءت الجملة في موضع التقرير للخوف على عباده، وذلك للدلالة على أنهم صائرون إلى الله غير منقلتين منه، وإن طال الزمن، وذلك شامل للرجوع إليه سواء في الحياة أو بعد الموت.</p> | <p>التقرير</p> | <p>5 - قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (هود: 4).</p> |
| <p>أفادت الجملة الخبرية محاورة منهم لهود "عليه السلام"، بجواب دعوته وإظهار العناد، والتمسك بآلهتهم المزعومة، مع عدم الإيمان به، وجحودهم بآيات ربهم.</p> | <p>إظهار العناد</p> | <p>6 - قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: 53).</p> |

¹ - ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 11، ص: 71، 72.

² - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 12، ص: 86، 87.

| | | |
|---|---------------------------|---|
| <p>حيث جاء الخبر هنا ليبيّن المصير السيء الذي لحق بفرعون ومن معه، ويتوعددهم -جلّ جلاله - بأنّ مصيرهم النّار، وجاء التعبير بصيغة الماضي في قوله (فأورددهم النّار) والمعنى: فيورددهم النّار دلالة على أنّ ما تحقّق وجوده فكأنّه كائن⁽¹⁾.</p> | <p>الوعيد والمصير</p> | <p>7 - قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (هود: 98).</p> |
|---|---------------------------|---|

أ - أسلوب التوكيد:

سوف أعالج أسلوب التوكيد بالجملة الخبرية باعتباره غرضاً من أغراضها، كما أنّ النحاة والبلاغيين قد تتبّعوا في أغلب دراساتهم أسلوب التوكيد وتناولوا طرقه وأدواته المختلفة، ويكون التأكيد في الإثبات، كما في النفي أيضاً لما له من أهمية بالغة في تمكين المعنى بأروع صورة في ألفاظ متناسقة لها وقعها وأثرها في النفوس والآذان.

وقد عرفوا التوكيد بأنه «تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك وإماطة الشبهات عمّا أنت بصدده، وهو دقيق المآخذ، كثير الفوائد»⁽²⁾، ولهذا فإن التوكيد تمكين المعنى في النفس ويسهم في ما يلي:

- إزالة الشكوك وإماطة الشبهات التي ترد إلى الكلام و«تتبع خواص تركيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الإستحسان وغيره؛ ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضيه الحال ذكره»⁽³⁾.

- تدعيم المعنى الذي يريده المتكلم ونقله إلى السامع، وهذا يُعمّق الفائدة من الإخبار في نفسية المتلقي، «وكأن المعاني الحافة التي يشيعها التوكيد تنصرف كلها إلى لون من التعامل الشديد مع

¹ - ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص: 204.

² - يحيى بن حمزة العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج2، ص: 94. وينظر: محمد حسين أبو الفتوح، أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، مكتبة لبنان، ط1، 1995، ص: 13.

³ - الكلام للسكاكي نقله لخطيب القزويني، في الإيضاح في علوم البلاغة، ج1، ص: 23.

الموضوع قصد شدة وتوثيقه. والأسلبة والإبداع والكتابة عموماً، عمل فيه من القوة التي تتولى لشده إلى فكرة الإقناع والتأثير⁽¹⁾.

والتوكيد في سورة هود إنما له مقامات ودلالات تقتضيه وتحتّمه وكما قال الخطيب القزويني (ت739هـ): «ينبغي أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة، فإن كان خالي الذهن من الحكم أو التردد فيه استغنى عن مؤكّدات الحكم. وإذا كان متردداً فيه طالباً له، حسن تقويته بمؤكّد. وإن كان مُنكراً وجب توكيده بحسب الإنكار»⁽²⁾، وهذا الجانب يُساهم في بيان ما يدل عليه السياق خدمة لأفكار السورة ومقاصدها.

وسوف أقتصر في هذا الموضوع بذكر بعض من الأمثلة عن أدوات التوكيد التي تشكّل منها أسلوب السورة، وأذكر منها:

| المعنى المؤكّد منه | الغرض منه | أداة التوكيد | أسلوب التوكيد |
|--|-----------|-------------------------|---|
| أفادت تأكيد الخبر بما سيقع ففي قوله: (إنهم مغرّقون) إخبار وبيان لسبب الأمر بصناعة الفلك، فجاء الخبر إنكارياً مؤكداً بياناً، تأكيداً للكلام وتنزيلاً للسامع منزلة المتردد، وفي تأكيد الخبر "بأن" تنزِيل غير السائل منزلة السائل ^(*) ، إذ قدّم في الآيات السابقة ما يُلوّح ويشير إلى نوع الحكم، فإذا دخلت "إن" فإنها «ترتبط بما قبلها، وتأتلف معه، وتتحد به، حتى كأنّ الكلامين قد أُفرِغا | الإنكار | (إنّ) مع الجملة الاسمية | 1 - قال تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود: 37). |

¹ - حبيب مونسي، التردد السردى في القرآن الكريم، مقارنة لترددات السرد في قصة موسى عليه السلام، ص: 21.

² - الخطيب القزويني، التلخيص في علوم البلاغة وهو تلخيص كتاب مفتاح العلوم للسكاكي، حققه وشرحه: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 2009، ص: 11.

^(*) - وأكثر مواقع مجيء (إنّ) للتوكيد هو في الجواب عن سؤال، والسائل له ظن في الخلاف، وعقد قلبه على نفي ما ثبت أو إثبات ما تنفي، ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 325. والخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 29.

| | | | |
|---|---------------------------|-------------------------------|---|
| <p>إفراغاً واحداً، وكأنَّ أحدهما قد سُبك في الآخر... وهذا الضرب كثير في التنزيل»⁽¹⁾، وهذا كله من شأنه أن يجعل نوحاً يتساءل هل سيغرق الله قومه؟ فقليل له إنهم مغرقون تأكيداً للكلام وحسماً للموقف للرد على التردد الافتراضي حتى لا يشغل بهم وقد قضى أمرهم.</p> <p>والسبب أن الله "سبحانه" لما نهى نوح عن مخاطبته في شأن مخالفه، دفعه ذلك إلى التطلع إلى ما سيصيبهم، فجاء التأكيد تعليلاً للنهي عن التخاطب ومؤونة الطلب⁽²⁾.</p> | | | |
| <p>جاءت الجملة تأكيداً لقصده توقع العذاب، لهذا كان نصحه لهم مستمر مع قوله (أخاف عليكم) وحرصه عليه الصلاة والسلام على دخولهم في دعوته.</p> | <p>النصح والإرشاد</p> | <p>(إن) مع الجملة الفعلية</p> | <p>2 - وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود: 37).</p> |
| <p>جاءت الجملة هنا تأكيداً على مدى سخريتهم من نبيهم شعيب عليه السلام، ولام القسم بصيغة القصر في قولهم: ﴿لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ مبالغة في الاستهزاء ويظهر ذلك في وصفهم له بالحلیم والرشيد على وجه التهكم والاستهزاء والسخرية⁽³⁾.</p> | <p>الإستهزاء والسخرية</p> | <p>(أن) مع الجملة الإسمية</p> | <p>3 - قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود: 87).</p> |

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 316.

² - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 67.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ج12، ص: 142.

| | | | |
|---|---------------------------------|---|--|
| <p>جاء التقرير مؤكدا بالقصر وتقديم الجار والمجرور تنبيها على الاهتمام بأمره. والمراد من الأول التحذير من ترك ما يوحى إليه، وأما الثاني في قوله (والله على كل شيء قدير) فالتقرير قطعاً⁽¹⁾.</p> | <p>التقرير</p> | <p>(إنما) مع الجملة الإسمية</p> | <p>4 - قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود: 12).</p> |
| <p>جاء الخبر مؤكداً التهديد الشديد بـ(إن) من أن يصيب قريش مثلما أصاب قوم ثمود، وجاءت الجملة (إن ربك هو القوي العزيز) معترضة للدلالة على أن الأمر كله لله فهو المهيم والعزيز القوي الجبار.</p> | <p>التهديد والوعيد</p> | <p>(إن) مع الجملة الإسمية</p> | <p>5 - قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (هود: 66).</p> |
| <p>إنّ النبيّ شعيب -عليه السلام - يلتفت إلى قومه مخاطباً إياهم بأمرهم بالرجوع إلى طاعة الله وترك معاصيهم، والأمر بعبادة الله منوط بترك معاصيهم وتحايلهم في عملية التطفيف في الكيل والميزان، وجاء التأكيد تهديدا لهم والخوف عليهم من عذاب واقع.</p> | <p>التهديد والوعيد</p> | <p>(إن) مع الجملة الفعلية</p> | <p>6 - قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ (هود: 84).</p> |
| <p>بدأت الآية بالصيغة الخبرية (إني أشهد الله) ثم عطف عليها جملة إنشائية طلبية "وأشهدوا" فعدّل -سبحانه وتعالى - من صيغة الخبر إلى صيغة الإنشاء؛ للدلالة على الترفع واعتزازاً من مساواة شهادة المخلوق بشهادة الخالق؛ لهذا جاء التوكيد لشهادتهم له بالبراءة من الشرك، فينال المعنى حظّه من القوة والتأكيد⁽²⁾.</p> | <p>الترفع وعدم المساواة</p> | <p>(إن) مع الجملة الفعلية</p> | <p>7 - قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (هود: 54).</p> |

¹ - ينظر: دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسواره البلاغية، ص: 53.

² - ينظر: جعفر السيد باقر الحسيني، أساليب البيان في القرآن، مؤسسة بوستان كتاب، إيران، ط1، 1387 هـ / 2009م، ص: 457، 458.

ملاحظة: قال الكندي^(*): «قال: أحد فلاسفة العرب للمبرد: "إتني أجد في كلام العرب حشواً، يقولون: عبد الله قائم، وإنَّ عبد الله قائم، وإنَّ عبد الله لقائم، والمعنى واحد". فردَّ عليه المبرد قائلاً: "بل المعاني مختلفة، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه. وإنَّ عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل. وإنَّ عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر"»⁽¹⁾.

ونجد أن التوكيد جاء في سورة هود عليه السلام يحمل بعض الدلالات أهمها:

- مناسبته لتحقيق دعوة الأنبياء والرسل الذين أرسلوا لأقوامهم.
- مناسبته لتحذير أنبياء الله لأقوامهم مما سوف يُصيبهم من عذاب واقع.
- مناسبته لتحقيق وعد الله لعباده المشركين بإهلاكهم.
- مناسبته لتحقيق وعد الله للصالحين بنجاتهم.
- جاء التأكيد في السورة كي يُعطي دلالة أكثر صدقاً وهذا يناسب تسلية للنبي "عليه الصلاة والسلام" وصحابته الأبرار.

ثانياً - الجملة الإنشائية أنواعها وأغراضها:

الإنشاء لغة: «هو الإبداع والابتداء، وكلُّ من ابتداء شيئاً فقد انشأه»⁽²⁾.

أما اصطلاحاً: فهو «ما يتوقَّف تحقُّقه ووجوده على تلفُّظ المتكلم به»⁽³⁾ وقيل أنه «الكلام الذي يتوقَّف تحقُّق مدلوله على التُّطق به كالأمر والنهي، والدعاء والاستفهام، والمدح والذم، وإنشاء العقود التي يَتِمُّ تحقُّقها بالتُّطق بالجملة التي تدل عليها»⁽⁴⁾، فالأساليب التي لا يصح أن توصف بالصدق والكذب لكونها لا تُمثِّل حُكماً على واقع خارج السِّياق تسمى (الإنشاء).

^(*) -الكندي معروف بهذا الاسم وهو فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها، كان عارفاً بالطب والرياضيات والمنطق وسائر العلوم، ولد بالبصرة، وتوفي ببغداد سنة 260هـ، له المئات من المصنفات، ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، حاشية ص: 28، 29.

¹ -الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج1، ص: 28، 29.

² -عبد الرحمن حسن حَبَّكة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 223.

³ -فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها -علم المعاني، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط4، 1997، ج1، ص: 100.

⁴ -المرجع السابق، ج1، ص: 168.

باعتبار أنَّ الأساليب الإنشائية تَبَوُّأُ مَنْزِلَةً كُبْرَى بين الأساليب العربية، وتحتلُّ مكانةً عُلْيَا في جانب التعبير الجمالي، وتلك الأساليب بشَّتَى أنواعها، وبكلِّ إِيحَاءَاتِهَا تُوضِّحُ مكانة البلاغيين وما امتلكوه من حسِّ جمالي راقِي، وذوقٍ فني عالي، فقاموا بتقسيم الإنشاء في الجملة إلى قسمين: الأول الإنشاء الطلبي، والثاني الإنشاء غير الطلبي.

فالإنشاء الطلبي: «هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب، ويكون: (بالأمر والنهي - والتحذير والإغراء - النداء - التمني والترجِّي - الدعاء - الاستفهام)»⁽¹⁾.

وغير الطلبي: «هو ما لا يستدعي مطلوباً، إلاَّ أَنَّهُ يُنْشِئُ أمراً مرغوباً في إنشائه»⁽²⁾، وله أنواع وصيغٌ تدلُّ عليه منها: (التعجب والقسم - والمدح والذم - الدعاء - صيغ العقود - أفعال المقاربة مثل: (كاد وكرب وأوشك)، وأفعال الرجاء وهي: (عسى، وحري واخلولق)⁽³⁾.

وذكر محمد أبو موسى أنَّ أكثرَ العاملين في البلاغة اهتموا بدراسة الإنشاء الطلبي، ووجههم في ذلك أَنَّهُ كَثِيرُ الاعتباراتِ وتَوَارَدُ عليه المعاني التي تجعل من الأساليب الغنيَّة ذاتُ العطاءِ والتأثير⁽⁴⁾.

وسوف نقتصر على بعض الأمثلة ونحاول تبيين الدور الجمالي والدلالي الذي تلعبه هذه الصيغ ومدى مساهمتها في الوحدة الفنية كبنية صغرى داخل المعمار الأسلوبية للسورة الكريمة.

¹ - عبد الرحمن حسن حَبَّكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 224.

² - المرجع نفسه، ج1، ص: 228.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص: 224 - 227.

⁴ - ينظر: دلالات التركيب: دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة - مصر، ط2، 1987، ص: 192.

1 - أسلوب الأمر:

الأمر هو طلب تحقيق شيء ما طلباً جازماً على جهة الاستعلاء⁽¹⁾، وله صيغ متعددة ولقد ورد أسلوب الأمر⁽²⁾، في سورة هود "عليه السلام" في حدود ثلاثة وأربعين موضعاً، وكان من أكثر الأساليب الإنشائية ذكراً في السورة على غرار بقية الأساليب الأخرى، ومن أمثلة هذه المواضع ما يأتي:

| أسلوب الأمر | الغرض منه | فائدته ودلالته |
|---|------------------------|---|
| 1 - قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: 13) ⁽³⁾ . | الأمر للتعجيز والإباحة | جاء أسلوب الأمر مفيداً للتعجيز، «وهي الآية الوحيدة التي ذكر فيها الوصف "مفتريات" لأنهم تعللوا بأنهم كيف يأتون بمعانٍ مثل القرآن، فأعفاهم من ذلك وقرب لهم الغاية بأن يأتوا بمثل نظمه وسبكه وألفاظه» ⁽²⁾ ، فالأمر في قوله (فأتوا بعشر سور) للتعجيز وقمة التحدي. وجاء فعل الأمر (وادعوا) كما يرى ابن عاشور للإباحة «أي: إن شئتم حين تكونون قد عجزتم عن الإتيان بعشر سور من تلقاء أنفسكم، فلكم أن تدعوا من تتوسمون فيه القدرة على ذلك، ومن |

¹ - ينظر: صباح عبيد دراز، الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، مطبعة الأمانة، مصر، ط 1، 1986، ص: 15.

⁽²⁾ - أسلوب الأمر له أربع صيغ مختلفة تدل عليه: فعل الأمر، المضارع المقترن بلام الأمر، اسم فعل الأمر، المصدر النائب عن فعل الأمر، وقد يخرج الأمر عن صيغته الحقيقية إلى المعاني المجازية منها: (الإرشاد والنصح، التحدي، التخيير، التهديد، الإباحة، التأديب، الترغيب، التعجب، التمني، الإهانة والتحقير، التكريم، التسخير..)، ينظر: عبد الرحمن حسن حبّكة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج 1، ص: 228 وما بعدها. وفضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، (علم المعاني)، ج 1، ص: 149، 150، 151.

⁽³⁾ - يقول محمد علي الصابوني في تفسيره: «التحدي بعشر سور جاء بعد التحدي بالقرآن الكريم، فلمّا عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن تحداهم بعشر سور، ثم لمّا عجزوا تحداهم بالإتيان بسورة مثله في البلاغة والفصاحة والاشتمال على المغييات والأحكام التشريعية وأمثالها» صفوة التفاسير، ج 2، ص: 12.

² - صباح عبيد دراز، الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، ص: 39.

| | | |
|---|--------------------------|--|
| <p>ترجون أن ينفعكم بتأييده من آلهتكم وبتيسير الناس ليعاونوكم»⁽¹⁾ وقد اجتمع فنين مفتاوتين من فنون الكلام في جملة واحدة، فالأمر في قوله: (فَأْتُوا يَعَشِر) للتعجيز، والأمر في قوله (وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ) للإباحة.</p> | | |
| <p>تكرر فعل الأمر الدال على التوبة والاستغفار كثيرا في آيات سورة هود، فمرة الخالق جلا جلاله يأمر عباده بالاستغفار والتوبة إليه من الشرك والطغيان، ومرة نجد الأنبياء يأمرون أقوامهم المشركين في حثهم على التوبة والاستغفار لذنوبهم. وهكذا نرى الاستغفار دائما يأتي مقرونا بالتوبة؛ «لأن المغفرة هي الغرض المطلوب، والتوبة هي السبب إليها، فالمغفرة أول في المطلوب وآخر في السبب، ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر، وتوبوا إليه من الكبائر»⁽²⁾.</p> | <p>الاستغفار والتوبة</p> | <p>2 - قوله تعالى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود: 3).</p> <p>- قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: 52).</p> <p>- قوله تعالى: ﴿وَالِئِي نُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود: 61).</p> <p>- وقوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: 90).</p> |
| <p>استعمل التهديد في سورة هود في مواطن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، من جانب الرسل عليهم السلام، ففي قول صالح عليه السلام (تمتعوا) تهديد ووعد لقومه الذين خالفوه، متوعدا أياهم</p> | <p>التهديد</p> | <p>3 - قوله تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَٰدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ (هود: 65).</p> |

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 20.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص: 67.

| | | |
|--|--------------------------------|---|
| <p>الإهانة وتنفير قومه مما هم عليه حتى يتأملوا ما هم فيه فيرجعوا عن غيرهم.</p> | | |
| <p>أفاد الأمر أسلوب الالتماس الذي يميل إلى التلطف وحسن الخطاب وأدب التعبير، وأصل الالتماس أن يكون فيه طلب الأمر الصادر عن المتساوين قدرًا ومنزلة، فيشمل الطلب من الأدنى إلى الأعلى إذا كان مُشترَكين في البشرية، فيمكن تسميته دعاء فيكون الالتماس أحق بهذه الأساليب. لذلك جاء الأمر في هذه الآية على سبيل التلطف وفيه التماس لقوة الترغيب فيه منزلة الأمر الواجب⁽¹⁾.</p> | <p>الالتماس^(*).</p> | <p>4 - قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: 52).</p> |
| <p>وقد تضمَّنت الآية الكريمة صيغة الأمر التكويني والتسخير والفرق بينهما هو «أنَّ التسخير تبديل من حال إلى أخرى أخص منها والتكويني إنشاء من عدم الوجود، ويوجد استعمال الأمر في قوله (كن فيكون)، والتعبير عن اليجاد بـ(كن) ايماء إلى أنه يكون في أسرع لحظة وأنه طائع لما يُراد فكأنه إذا أمر ائْتَمَرَ، ويحتمل أن يكون التكويني أعم بأن يراد به مطلق التبديل إلى حالة لم تكن، ويُراد بالتسخير ما تقدم أي التبديل من حالة إلى أخرى فيها مهانة ومذلة⁽²⁾، وما نلاحظه أن المخاطب المأمور في هذا الأسلوب ينقاد وينفعل في طواعية لأمر الله ويتبدل</p> | <p>التكويني والتسخير</p> | <p>5 - قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: 44).</p> |

^(*) - يعرف الالتماس عند البلاغيين بأنه طلب الأمر من المتساوين منزلة، كما يوضحه الخطيب القزويني بقوله: «إذا استعملت فيه على سبيل التلطف كقولك لمن يساويك في الرتبة "افعل" بدون الاستعلاء»، عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، المطبعة النموذجية، القاهرة - مصر، (د.ط.)، (د.ت.)، ج 2، 55.

¹ - ينظر: يوسف عبد الله الأنصاري، أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، بحث مقدم للحصول على درجة الماجستير في البلاغة والنقد، إشراف: صباح عبيد دراز، جامعة أم القرى، السعودية، 1990، ص: 108.

وينظر: دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية، ص: 185.

² - يوسف عبد الله الأنصاري، أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، ص: 176.

| | | |
|--|----------------|--|
| <p>من حالته السابقة إلى حالة أخرى دالة على الإعجاز ومظهر تتجلى فيه قدرة الباري في خلق قوة إدراكية في الجماد تسمع فتطيع.</p> | | |
| <p>جاءت صيغة الأمر مفيدة الترغيب وهو أحد مظاهر خروج الأمر عن معناها الحقيقي، وذلك إذا كان الأمر بالشيء عقب النهي عن نقيضه، وكما جاء في الآيتين النهي عن النقصان أمر بالإيفاء يقول في ذلك الزمخشري: «فإن قلت النهي عن النقصان أمر بالإيفاء، فما فائدة قوله (أوفوا)؟ قلت: نهوا عن أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان؛ لأن في التصريح بالقبيح نعيماً على المنهي وتعبيراً له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مُصرِّحاً بلفظه؛ لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه»⁽¹⁾.</p> | <p>الترغيب</p> | <p>6 - قوله تعالى: ﴿وإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ، وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هود: 84، 85).</p> |

إن أسلوب الأمر كما مر معنا جاء بدلالته الفكرية والفنية مع الهدف الرئيسي للسورة الكريمة، مُدعماً المقصد العام في لزوم الاستغفار والتوبة إلى الله والكف عن المعاصي والشرك قبل فوات الآوان، مدعوماً بالترغيب والترهيب والتهديد في أحيان كثيرة - خاصة - عندما يتعلق الأمر بخطاب الرسل لأنبيائهم أو التّحاور معهم ومجادلتهم فيما لا يرضي الله، و«إن القرآن الكريم يسعى إلى التغيير في البناء النفسي للفرد من خلال استعمال استمالات التخويف أو التهديد.. والأمر الجدير بالملاحظة أن الآيات القرآنية التي تعمل على إثارة التوتر العاطفي نتيجة استمالات التهديد أو التخويف، تتضمن في الوقت ذاته التوصيات التي يمكن بمقتضاها تجنّب الفرد مصادر هذا التهديد. ومن خلال تجريب هذه التوصيات وتدعيمها، فإنها تتحول إلى عادات سلوكية تتفق مع

¹ -الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ص: 223، 224.

أهداف القائم بالاتصال، النبي "صلى الله عليه وسلم" [أو الأنبياء "عليهم السلام"] وهذا هو جوهر الاستراتيجية النفسية الدينامية النفسية للإقناع⁽¹⁾.

2 - أسلوب الاستفهام:

والاستفهام كما تدلُّ صيغة الاستفعال «هو طلب الفهم، وهو استخبار عن الشيء الذي لم يتقدم لك علم به»⁽²⁾، ولقد ورد الاستفهام^(*) في السورة في خمسة وعشرين موضعاً وتنوعت أغراضها وتعددت دلالاته ما بين تقرير وتعجب أو أمر وإنكار أو نفي وتكذيب، ومن أمثله مايلي:

| أسلوب الاستفهام | نوعه وغرضه | دلالاته وفائدته |
|---|--|---|
| 1 - قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: 13). | الإستفهام (بالهمزة) غرضه التوبيخ والإنكار | أفاد الاستفهام بالهمزة المضمرة التوبيخ والإنكار والتعجب، وتقدير الكلام (بل يقولون افتراه..). ف «(أم) منقطعة بمعنى (بل) التي للإضراب للانتقال من غرض إلى آخر، والكلام في إبطال مزاعم المشركين، فإنهم قالوا: هذا كلام مفترى، وقرعهم بالحجة، والاستفهام إنكاري ⁽³⁾ ، وجاء الاستفهام ليتمم المعنى في الرد على المشككين بالقرآن الكريم، فتحدهم الله - سبحانه - على أن يأتوا (بعشر سورٍ من مثله مفترياتٍ)، وهم لا يستطيعون ذلك لأنه كلام الله المحكم، فجاء الاستفهام |

¹ - معتصم باكر مصطفى، أساليب الإقناع في القرآن الكريم، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية قطر، العدد 95، جمادى الأولى 1424هـ، تموز (يوليو)، 2003، ص: 83.

² - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 19.

^(*) - للاستفهام عدة أدوات منها: حرفان هما: (الهمزة وهل) وتسعة أسماء هي (مَنْ - ما - متى - أين - أيان - أئى - كيف - كم - أي)، ولكل أداة معنى يناسبها، وقد تخرج هذه الأدوات عن طلب الإفهام والإعلام إلى أغراض أخرى تُفهم من السياق، ومن أهم الأغراض الاستفهامية (التقرير - الإنكار - النفي والتكذيب - الوعيد والتخويف - الأمر - النهي - التهكم - التعجب - الاستبعاد - التهويل - التعظيم - النفي - التنبيه - التحقير والاستهانة - التجاهل..)، ينظر: عبد الرحمن حسن حَبَّكَه الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 258 - 270، وفضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفانها - علم المعاني، ج1، ص: 190 وما بعدها.

³ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 26.

| | | |
|---|---|--|
| <p>منسجما مع سياق الآية ومع المراد من المعنى العام للسورة، وهو الإيمان بالله وبالنبوة.</p> | | |
| <p>أفاد الاستفهام بـ (الهمزة) معنى التقرير والنفي، أي «إِنْ كَفَرَ بِهِ هَؤُلَاءِ أَفِيؤْمِنُ بِهِ مِنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وهذا على نحو نظم قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ (الزمر: 19)، أي أنت تنقذ من النار من حق عليه كلمة العذب»⁽¹⁾.</p> | <p>الإستفهام (بالهمزة) وغرضة التقرير^(*).</p> | <p>2 - قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ (هود: 17).</p> |
| <p>أفاد الاستفهام بـ (هل) النفي، «وجملة الاستفهام الواقعة موقع البيان للغرض من التشبيه وهو نفي استواء حالهما، ونفي الاستواء كناية عن التفضيل بين الفريق الممثل بالسميع والبصير على الفريق الممثل بالأعمى والأصم»⁽²⁾.</p> <p>وكان الاستفهام بـ (الهمزة) إنكاري توبيخي للذين لا يفرقون بين الفريقين، وإنكار لهم، ومن المؤكد أنّ هناك فرقاً واضحاً بين الأعمى والبصير وبين الأصم والسميع، وهذا يدعو الناس إلى التنبيه واتباع الحق، لذا جاء الاستفهام ليؤكد ذلك الفرق وهو منسجم مع دلالة السورة الكريمة بشكل عام، لأنها تدعو إلى توحيد الله تعالى والتمسك بالمعارف الإلهية المتفرعة عن ذلك، فكأنّ من ترك العمل بها</p> | <p>استفهام (بهل) وبـ (الهمزة) وغرضه الإنكار</p> | <p>3 - قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود: 24).</p> |

^(*) - التقرير: هو «حَمَلُكَ الْمَخَاطَبَ عَلَى الْإِقْرَارِ وَالاعْتِرَافِ بِأَمْرٍ قَدْ اسْتَقَرَّ عِنْدَهُ»، بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص: 331. وهو «حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بصورة من صور الاستفهام، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ الأنبياء: 62، طلبوا من إبراهيم أن يقر ويعترف بأنه هو الذي كسر الأصنام، وما طلبوا منه أن يقر لهم بوجود تكسير في الأصنام. لأن التفسير واقع حاصل»، محمد شعبان علوان، و نعمان شعبان علوان، من بلاغة القرآن، الدار العربية للنشر والتوزيع، ط2، 1998، ص: 56.

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 26.

² - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 43.

| | | |
|---|---|---|
| <p>أعمى وأصم.</p> | | |
| <p>تُبين هذه الآية عظمة ظلم هؤلاء المفتريين على الله كذباً، لدرجة أنهم زعموا بأن هذا القرآن مُفترى من عند رسول الله، وأنه لم يُنزل من عند الله سبحانه وتعالى، فاستحقوا بذلك عذاب رهيب، لذلك سُئل عن شدة ظلمهم بصيغة النفي؛ للدلالة على أنه لا أحد أعظم ظلماً من هؤلاء المفتريين، فعُطفت جملة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾ على جملة ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ لبيان استحقاقهم النار على كفرهم بالقرآن، لأنهم كفروا به افتراءً على الله إذ نسبوا القرآن إلى غير من أنزله، وزعموا ان الرسول "صلى الله عليه وسلم" افتراه، فكانوا بالغين غاية الظلم حتى لقد يسأل عن وجود فريقٍ أظلم منهم سؤال إنكارٍ يؤول إلى معنى النفي، أي لا أحد أظلم⁽¹⁾.</p> | <p>استفهام (مَنْ) وغرضه النفي</p> | <p>4 - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود: 18).</p> |
| <p>تكرر في الآية الكريمة الاستفهام مرتين، وأفاد الاستفهام الأول في (أَرَأَيْتُمْ) التقرير، ولا استفهام عن الرؤية بمعنى الاعتقاد، ومعناه (أخبروني) وفيها إيماء بركاكة رأيهم ولكنه لا يستعمل إلا في طلب من حاله حال من يجحد الخبر⁽²⁾. والاستفهام الثاني جاء إنكاراً لوجود الفعل في قوله (أَنْزَلِمْكُمْوهَا) يعني أَنْكَرَهُمْ على قبول الهداية والدين «وَأَنْزَلِمْكُمْ تلك الحجة والحال أنكم كارهون لها، وهذه الكلمة تُجسّد جو الإكراه كما يدمج</p> | <p>استفهام (بالهمزة) وغرضه تقريرى إنكارى: -الاستفهام الأول تقريرى</p> | <p>5 - قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلِمْكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (هود: 28).</p> |

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 32.

² - ينظر: المرجع نفسه، ج12، ص: 51.

| | | |
|--|---------------------------------|--|
| <p>الكارهون مع ما يكرهون، ثم إنَّ الاستفهام الإنكاري يوحي بأن إكراه النفوس وقسرها حتى في شؤون العقيدة ليس وسيلة مرغوبة..⁽¹⁾، يقول ابن عاشور: «لأن الله لم يأمره بإكراههم إغراضاً عن العناية بهم، فترك أمرهم إلى الله، وذلك أشدَّ في توقع العذاب العظيم»⁽²⁾. ولقد وضَّح عبد القاهر الجرجاني المغزى من الاستفهام الإنكاري على الفعل بقوله: «وإن أردتَ بـ (تفعلُ) المستقبل، كان المعنى إذا بدأتَ بالفعل على أنك تَعْمِدُ بالإنكار إلى الفعل نفسه، وتزعم أنه لا يكون، أو أنه لا ينبغي أن يكون»⁽³⁾.</p> <p>والآية الكريمة تصور خطاب نوح عليه السلام لقومه، «وهو يتلطف في توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإضارة حساسيتهم لإثارة القيم الخفية عليهم، والخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرسالة والإختيار لها، ويبصّرهم بأنَّ الأمر ليس موكولاً إلى الظواهر السطحية التي يقيسون بها، وفي الوقت ذاته يقرر لهم المبدأ القويم العظيم والإقتناع بالنظر والتدبّر، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء»⁽⁴⁾.</p> | <p>-الاستفهام الثاني إنكاري</p> | |
|--|---------------------------------|--|

¹ -صباح عبيد دراز، الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، ص: 199.

² -محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 53.

³ -عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 116.

⁴ -سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد4، ج12، ص: 1873، 1874.

| | | |
|---|---|---|
| <p>الاستفهام هنا بمعنى الاستهزاء والسخرية ورأى الزمنشري أنهم ساقوا الكلام مساق السخرية الجزء، وجعلوا الصلاة أمرة على سبيل التهكم بصلاته، وأرادوا أن هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجهة لصحته، وقد أمرك به هذيان ووسوسة شيطان، وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك⁽¹⁾، ولهذا «جاء للتهكم أو التندر وهي روح تسري في سائر أجزاء عباراتهم من قولهم: (أصلواتك تأمرك) وما فيه من تخيل أن الصلاة تتصرف في أمره وتوجهه وجهة معينة يرفضونها وكأنها عندهم هذيان أو وسوسة الشيطان، ومروراً بقولهم: (إنك لأنت</p> | <p>الاستفهام (بالهمزة) وغرضه التَّهْكُمُ^(*) والسخرية</p> | <p>6 - قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاثُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود: 87).</p> |
|---|---|---|

^(*) - في هذه الآية الكريمة ما يُعرف بالمفارقة البنائية (structural irony) «التي تعتمد على معرفة مقصد المتكلم الساخر، الذي هو من نصيب المستمع، ولكنه مجهول عند المتكلم، ووظيفتها تدعيم بنية الدلالة في النص وتأكيدها والتهكم الذي في هذه المفارقة يحمله المنطوق بصياغته وبنيته الخاصة، وقد ورد في الآية الكريمة تسفيه المتهكم به في الحقيقة»، ماجد بن محمد الماجد، الفنون البلاغية في سورة هود، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (العلوم الانسانية والإدارية)، المجلد الخامس، العدد الثاني، 1425هـ، 2004م، ص: 51، 52.

فالمفارقة البنائية ذات بُعد مزدوج «ومن هنا تصبح المفارقة البنائية أداة لتوكيد ظهور المعنى بوجهين مختلفين dublicity of meaning؛ أي لعرض مستوى من مستويات المعنى، هو الظاهر، بغية الوصول إلى مستوى آخر، هو المعنى الباطن الذي ترمي إليه الدلالة العميقة للمنطوق أو عدد من المنطوقات التي ذكرتها في الآية الكريمة... فالمفارقة هنا في التضاد الظاهرة بين المنطوق الأخير (إنك لأنت الحليم الرشيد) والمنطوقات السابقة عليها في الآية... وإذا علمنا أن تهكمهم بنبئهم "شعيب" من أجل أنه يأمرهم باستيفاء المكيال، والميزان بالقسط، وبألا يبخسوا الناس أشياءهم، وبألا يعثوا في الأرض مفسدين، وبأن يتركوا ما يعبد آباؤهم، أدركنا أن للدلالة مستوى ثالثاً؛ يبدو في جعل تهكمهم بشعيب أداة للتهكم بهم في أنفسهم، وكشفاً عن جهالتهم وعنادهم»، محمد العبد، المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2006، ص: 104، 106.

¹ - ينظر: الزمنشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ص: 225، 226.

| | | |
|---|---|--|
| <p>الخليم الرشيد) حتى قولهم (ما نفقه كثيراً مما تقول)»⁽¹⁾.</p> | | |
| <p>يدل الاستفهام في هذه الآية الكريمة (أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ) على تعجب زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام من تبشيرها بالولد، وذلك لأنها أصبحت في مرحلة متقدمة من السن، وهي امرأة لا تنجب، وكان إبراهيم شيخاً كبيراً في العمر، فكان وقع هذا الخبر على نفسها مدعاةً لتعجبها، فجاء الاستفهام في الآية الأولى مصوراً تعجبها في عدة طرق: الندبة في قولها (ياويلتنا)، والاستفهام والخبر في قولها (إن هذا لشيء عجيب⁽²⁾)، وجملة (أنا عجوز) في موضع الحال، مناط التعجب (وهذا بعلي شيخاً) التي توضح حالها المنافية للولادة كونها عجوز عقيم وبعليها شيخ كبير⁽²⁾.</p> <p>- أما الاستفهام الآخر فيه تعجب وإنكاراً لتعجبها فقد ورد على لسان الملائكة حينما قالوا (أتعجبين من أمر الله)، «وجواب الملائكة إياها (أتعجبين</p> | <p>الاستفهام (بالهمزة) للتعجب والدهشة</p> | <p>7 - قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وجاء رد الملائكة ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (هود: 72، 73).</p> |

¹ - دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية، ص: 174.

⁽²⁾ - قال تعالى في سورة ص، الآية: 5: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾، وقوله في سورة هود: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ فقال (عجيب) و (عجَاب) على وزن (فَعِيل، فُعَال) بحيث قال الخليل: «بين العَجِب والعُجَاب فرق؛ أما العَجِبُ، فالعجب يكون مثله، وأما العُجَاب فالذي تجاوزَ حدَّ العَجَب. وقيل: بل عَجِبْتُ، معناه بل عَظُمَ فعلهم عندك. وقد أخبر الله عنهم في غير موضع بالعجب من الحقِّ، قال: أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا؛ وقال: بل عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ، وقال الكافرون إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ». ابن منظر، لسان العرب، مادة (عجب)، ج 1، ص: 581. أما الآية الثانية ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ بالنسبة إلى سنة الله المسلوكة فيما بين عباده، ومقصدها استعظام نعمة الله = عليها في ضمن الاستعجاب العادي، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرة الله تعالى؛ لأن التعجب من قدرة الله يوجب الكفر، لكونه مستلزماً للجهل بقدرة الله تعالى»، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة: محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، ط 1، 2001، ج 13، ص: 168.

² - ينظر: دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية، ص: 172.

| | | |
|--|---|--|
| <p>من أمر الله) إنكاراً لتعجبها ؛ لأنه تعجبٌ مراد منه الاستبعاد و(أمر الله) هو أمرُ التَّكْوِينِ ، أي أتعجبين من قدرة الله على خرق العادات ، وجوابهم جارٍ على ثقتهم بأنَّ خبرهم حقٌّ مُنْبِيءٌ عن أمر الله⁽¹⁾. وواضح أنَّ معنى الاستفهام الذي خرج له في معنى الآيتين الكرّيميتين يؤكد قدرة الله سبحانه وتعالى ، ولا يستحق غيره العبادة ، لأنه صاحب النعمة والألطف على عباده ، وكلها معان ترمي بترابطها مع معاني نص السورة لتحقيق الوحدة والهدف من السورة.</p> | | |
| <p>قد يخرج الإستفهام الإنكاريُّ إلى معنى التوبيخ كما جاء في الآية الكرّيمة ؛ حيث أفاد الاستفهام بالهمزة مع فعل النفي (ليس) الإنكار والتوبيخ ، والمعنى «أليس منكم رجل يهتدي إلى سبيل الحقّ ، وفعل الجميل ، والكفّ عن السوء ، وفي ذلك توبيخ عظيم لهم حيث لم يكن منهم رشيد البتة»⁽²⁾ ، والكلام موجّه إلى قوم النبي لوط عليه السلام ، وقد أنكر عليهم فعلهم ووبخهم ، لأنهم يطلبون أمراً منكراً وقد عرفوا بشذوذهم دون أن يكون لنصائح لوط "عليه السلام" أي أثر فيهم.</p> | <p>استفهام إنكاري ب(لا) وغرضه التوبيخ</p> | <p>8 - قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزُونَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (هود: 78).</p> |
| <p>يدل الاستفهام الوارد في قوله تعالى: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) على تنبيه هؤلاء المخاطبين إلى الإنقياد لأمر الله سبحانه ، وحثّهم على الإذعان إليه ، فؤلاء الكفار عجزوا عن الإتيان بعشر سورٍ من مثل القرآن ولو على سبيل الافتراء ، وبذلك أصبح</p> | | |

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 121، 122.

² - أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج5، ص: 247.

| | | |
|--|---------------------------------|---|
| <p>يتوجب عليهم الإيمان الكامل بأن هذا القرآن منزلٌ من عند الله عزّ وجلّ، وأنه معجزة سيدنا محمد "صلى الله عليه وسلم"، «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» أي داخلون في الإسلام إذا لم يبق بعد شائبة شبهة في حقيقته، وفي بطلان ما انتم عليه من الشُّرك، فيدخل فيه الإذعان بكون القرآن من عند الله تعالى دخولاً أولاً، أو منقادون للحق الذي هو كون القرآن من عند الله تعالى وتاركون ما أنتم عليه من المكابرة والعناد، وفي هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال المانع، ولهذا جيء بالفاء⁽¹⁾.</p> | <p>استفهام بهل) وغرضه الأمر</p> | <p>9 - قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، (هود: 14).</p> |
|--|---------------------------------|---|

هذه بعض أسرار القرآن الجمالية في استخدام الأسلوب الاستفهامي الذي يعد ظاهرة أسلوبية بارزة في سورة هود، الذي ساعد على الإثارة والانفعال وشد الانتباه للمواضع الفكرية والدلالية، والتي شكّلت بُعداً جمالياً بديعاً ومظهراً فنياً رائعاً، كما حقّق أغراضاً بلاغية غير المعنى الأساسي.

وإن أسلوب الاستفهام والأغراض التي أفادها في سورة هود كان لها أثر في معمارية هذه السورة الكريمة، إذا ارتبطت هذه المعاني مع معاني السورة المختلفة بعلاقات دلالية مهمة جعلت سورة هود وكأنها نسيج في بناء واحد مترابط منسجم مع بنية السورة الكبرى ونسيجها العام وأهدافها ومقاصدها.

¹ - شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، ج12، ص: 22.

3 - أسلوب النداء:

النداء هو طلب يُراد منه الانتباه من المنادى على وجه السرعة، فيكون بذلك «طلب الإجابة لأمرٍ ما بحرف من حروف النداء ينوب مناب "أدعو"»⁽¹⁾، وتجدر الإشارة إلى أن أكثر حروف النداء استعمالاً في الخطاب القرآني هو حرف (يا)؛ لأنه أصل النداء وأوسع انتشاراً⁽²⁾. ولقد ورد أسلوب النداء⁽³⁾ في اثنين وثلاثين موضعاً في السورة استأثرت "يا" منها بأحدى وثلاثين موضعاً، من أمثلته كالاتي:

| أسلوب النداء | الأداة والغرض | دلالاته وفائدته |
|--|---|--|
| 1 - قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْنِي مِن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِمْتُ عَلَيْكُمْ أَنلَزِمُكُمْوَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ مَا لَأِ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود: 28 - 30). | أداة النداء هنا هي: (يا) وغرضه زيادة تنبيه للمنادى وتوكيداً لدعائه. | وقد غلب على هذا النداء التلطف بهم في الخطاب بُغية إقبال أذهانهم لوعي كلامه؛ لأنهم أبناء عشيرته، فقد جاء نداء الأنبياء لأقوامهم بوصف القوم مضافاً إلى ضميره (يَا قَوْمِ)، الأمر الذي من شأنه أن يجعل هذا الأسلوب من النداء أكثر وقفاً، وأشد تأثيراً في عقول هؤلاء القوم، ولتذكيرهم بأصرة القرآبي، لاستنزال طائر نفورهم تذكيراً لهم بأنه منهم فلا يريد لهم إلا خيراً مع التنبيه على الاهتمام بما يلقي بعدها ⁽⁴⁾ . |

¹ - عبد الرحمن حسن حَبَنَكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 240.

² - يقول محمد أبو موسى: «أن علماء السلف سجلوا ملحوظات وأفكار ذات قيمة في هذا الباب، منها أن (يا) أكثر حروف النداء استعمالاً، وأنه لا ينادى اسم الله عز وجل إلا بها، وحين يقتضي السياق جُملاً من التوكيد كإضافة عناصر لغوية ذات تأثير في اللفت والإيقاظ (كأي) التي للإبهام و (ها) التي للتنبيه حين ذلك لا تستعمل من الأدوات سواها فيقولون: (يا أيها)، ثم إن هذه الصيغة المكثفة في النداء هي أكثر أساليب النداء وروداً في القرآن، وسر ذلك كما ذكروا هو أهمية المقاصد التي نادى الحق خلقه ليُسْمِعهم إياها»، محمد أبو موسى، دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، ص: 262، 263.

³ - وأحرف النداء ثمانية: (الهمزة، أي، يا، آ، آي، أيَا، هَيَا، وا)، ينظر: عبد الرحمن حسن حَبَنَكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 240. ولأسلوب النداء أغراض متعددة مثل (الإغراء - الاختصاص - الاستغاثة - التعجب - التنبيه - التحسر والتوجع - الزجر والملامة)، ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفانها: علم المعاني، ج1، ص: 166، 167.

⁴ - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 50.

| | | |
|---|---|--|
| <p>فقد جاء النداء في الآيتين تنبيهاً ولفتاً للمنادى، وتنشيط أذهانهم للإصغاء إليه، فقد تبع النداء الأول نهي عن نقصان المكيال والميزان، أما النداء الثاني فقد تبعه أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيداً، لزيادة الترغيب في العدل، والإيفاء في المكيال والميزان، والتنفير من التطفيف، أما عن تكرار النداء في الآيتين لزيادة الإهتمام بمضمون الجملة.</p> | <p>استخدمت أداة النداء: (يا) وغرضه زيادة تنبيه للمنادى وتوكيداً لدعائه.</p> | <p>2 - قوله تعالى: ﴿وإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشِيًا هُمْ﴾ (هود: 84، 85).</p> |
| <p>جاء النداء هنا لشد انتباههم وتنبيههم لتلقي الأمر الوارد بعده بأنهم رسل الله، وبالإعراض عن الجدل في شأن هؤلاء القوم، فأمر الله نفذ فيهم، لأن الله قد حكم على جميع المفسدين بالهلاك حكماً منتها لا عودة فيه، وفي استعمال أداة البعد (يا) مع قرب إبراهيم "عليه السلام" منهم، وحتى تُبدي الملائكة اهتماماً بسيدنا إبراهيم، وتولييه شأنًا عظيمًا وتخفف من وطأة القلق الذي بداخله مع التنبيه للكلام الذي يأتي بعدها حتى يعي ما يلقيه الملائكة من نصائح وإرشادات.</p> | <p>أداة النداء هنا هي: "يا" وغرضه زيادة تنبيه للمنادى</p> | <p>3 - قوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (هود: 76)</p> |
| <p>هذه الآية الكريمة عبرت بما فيها من معان وألفاظ عن إدخال السكينة والطمأنينة إلى قلب لوط "عليه السلام" باستخدام أسلوب النداء (يَا لُوطُ)، وتأكيدهم على أنهم رُسل الله، إلى جانب نفيهم لوصول القوم الكافرين إليه (لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ)، هذا ما يخفف من حدة الخوف والذعر اللذين خالجا نفسية لوط، وبذلك يشعر بالراحة والطمأنينة جراء الخبر السار بإهلاك القوم الضالين.</p> | <p>النداء بـ(يا) وغرضه السكينة والطمأنينة</p> | <p>4 - وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعِ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: 81).</p> |

| | | |
|---|--|---|
| <p>ورد النداء في هذه المواضع على سبيل الدعاء بحرف (يا) المحذوفة، وذلك للدلالة على تقرب سيدنا نوح "عليه السلام"، من ربه وتودده إليه فما طلبه منه، وهو إنجاء ابنه من الغرق، وحذف حرف النداء هنا للدلالة على شدة التأزم التي وصل إليها نوح. وفي الموضع الأخير (أهل البيت) فإن فيه إشعاراً بخصوصيتهم وفضلهم وقربهم من الله عز وجل فهم أهل بيت النبوة⁽¹⁾.</p> | <p>النداء هنا: (يا) المحذوفة وغرضه التعظيم ورفع الشأن والاستغاثة</p> | <p>5 - وقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود: 45)، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ (هود: 47) وقوله: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ (هود: 73).</p> |
| <p>والمأمل في سر مجيء أسلوب الأمر والنداء والاستفهام عقب النداء نجده يمثل ارتباطاً نفسياً متساوياً مع طبيعة التعبير، ذلك «أنّ النداء يصحب الأمر والنهي غالباً وكأنه إعداد النفس لهما، وأن الأكثر أن يتقدم عليهما مثل: يا زيد افعل ولا تفعل وهو في القرآن كثير جداً، وقد يتأخر، ومنه: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، (النور: 31)⁽²⁾ فالنداء: طلب إقبال، وما يصحبه من أدوات التنبيه والايقظ تجعل النفس أشدّ تهيؤاً وأقرب تقبلاً لمّا يجيء بعد النداء من أمرٍ ونهيٍ واستفهامٍ «ثم إنّ معظم أساليب الطلب جاءت مقترنة به حيث يراد تحريك العاطفة وإثارة الوجدان وشدة التأثير في النفس، والنداء وصيغ الطلب الأخرى أصلح الأساليب لبلوغ ذلك الغرض»⁽³⁾.</p> | <p>أداة النداء هنا: (يا) وغرضه الأمر والنهي والاستفهام</p> | <p>6 - وقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (هود: 42)، وقوله: ﴿يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ (هود: 64)، وقوله: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ أَهْلِكَ يقطع من الليل وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ (هود: 81)، وقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ (هود: 92).</p> |

¹ - ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 3، ص: 217.

² - محمد أبو موسى، دلالات التراكيب دراسة بلاغية، ص: 263.

³ - دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية، ص: 182.

وكما لاحظنا أن أسلوب النداء ساعد إلى تكثيف المعنى عن طريق أسلوب الحوار القائم بين كل نبي وقومه ، فكان نداء نوح لله - سبحانه وتعالى - من ناحية ، ونداء نوح لابنه من ناحية ثانية ، ونداء لله للأرض والسماء ، فبين لنا بذلك علاقة الإنسان بربه ، أو بأهله ، أو بالمجتمع الذي يحيا فيه ، كما لا يخفى علينا تلك الأسرار المعنوية في الجانب النفسي المؤثر ودوره الجمالي وما فيه مع ذلك من تلوين للأسلوب وتنويع له .

ولا بد أن ننوه إلى أن حذف أداة النداء وإظهارها في النص القرآني كله يشير إلى التمييز بين الخالق والعبد «ولا يكاد يُستخدم حرف النداء مع الرب ، بل يُنادَى مجرداً من حرف النداء ، ولعلّ في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربه من ربه»⁽¹⁾ ، فإذا كان النداء مُوجَّهاً من العبد إلى الخالق - تبارك وتعالى - يَرِدُ النداء بحذف أداة النداء والعكس كنداء نوح ربه سبحانه وتعالى : ﴿فَقَالَ رَبُّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود: 45) ، ونداء زكريا "عليه السلام" : ﴿قَالَ رَبُّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبًّا شَقِيًّا﴾ (مريم: 5) ، ونداء الخالق "عز وجل" : ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود: 46) ، ونداء الخالق لإبراهيم : ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (هود: 76) ، ونداء الخالق لزكريا : ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (هود: 7).

¹ - أحمد أحمد بدوي ، من بلاغة القرآن ، ص : 130 .

4 - أسلوب النهي: ومعناه «طلب الكف عن شيء ما، مادي أو معنوي، وتدلُّ عليه صيغة كلامية واحدة هي: (الفعل المضارع الذي دخلت عليه (لا) النهائية)»⁽¹⁾؛ فالنهي أسلوب خطابي مقنع على وجه الإلزام مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزُّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: 32).
وتتحرك صيغة النهي من موضعها، لتُفرز دلالات مُتعددة تستمد قوامها من المعنى الأصلي مُشَبَّعة بطبيعة السياق مُعتمدة على قرائن حالية أو قولية^(*)، ولقد ورد أسلوب النهي في السورة في عشرين موضعاً، وأمثله:

| أسلوب النهي | غرضه | الفائدة والدلالة |
|--|-------------------------------|---|
| 1 - قوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (هود: 2). | النهي للالتمام والوجوب | يدل النهي في قوله تعالى: (أَلَا تَعْبُدُوا) على الإلزام والوجوب، أي الزموا أنفسكم بترك عبادة غير الله سبحانه وتعالى. |
| 2 - قوله تعالى: ﴿وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (هود: 36). | النهي للتسلية والطمأننة | جاء النهي مفيداً للطمأننة والتسكين في قوله تعالى مخاطباً نوح "عليه السلام": (لَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) فهو نهى لنوح أن يتطرق إلى نفسه الحزن والكدر على ما كانوا يفعلون، أي لا تحزن حزن يائس مستكن ولا تغتم بما كانوا يفعلونه من التكذيب والاستهزاء والإيذاء والمعاناة في هذه المدة الطويلة فقد جاء الفرج والنصر ⁽²⁾ . فالنهي في قوله (فلا تبتئس) للطمأننة والتسكين، وحتى لا يتبادر إلى نفسه البؤس جيء بالفاء العاطفة «لتفريع التسلية على الخبر المحزن» ⁽³⁾ والدالة على المبادرة متصلة بـ(لا) الناهية التي امتد الصوت بها |

¹ - عبد الرحمن حسن حَبَنَكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 228.

^(*) - ومنها: (الدعاء - الالتماس - التمني - الترجي - التيسير - التخخير - التعجيز - التحقير - التسلية...).

عبد الرحمن حسن حَبَنَكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 231.

² - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 65، 66.

³ - المرجع نفسه، ج12، ص: 65.

| | | |
|---|--------------------------------------|---|
| <p>لامتداد المعنى ، وكان ذلك في غاية التلاؤم مع معاني التسلية لنوح عليه السلام كما هو واضح من السياق وللنبي الكريم في نهيه عن الابتئاس⁽¹⁾.</p> | | |
| <p>ورد الرجاء عن طريق النهي في الذكر الحكيم على لسان نبي الله لوط -عليه السلام - مخاطبا قومه ؛ فالآيات الكريمة تبين حال الكرب والخوف الذي سيطر على لوط لخوفه من العار والفضيحة فراح يرجو قومه أن لا يخزوه في ضيفه . ففي قوله : (وَلَا تُخْزُونِ) أي لا تذلونني ولا تهينوني بالتعرض لمن أجزتهم بمثل هذه الفعلة الشنيعة ، فالنهي للرجاء ويصور رغبة نفسية في المحافظة على ضيفه وعدم التعرض لهم بأذى⁽²⁾.</p> | <p>النهي للرجاء</p> | <p>3 - قوله تعالى : ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (هود : 78).</p> |
| <p>جاء النهي في الآية الكريمة على لسان نوح عليه السلام في قوله : (يا بُنَيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) فقد نهى ابنه عن الكون مع الكافرين خارج السفينة ، كما قد يدل الكون على دينهم فالنهي ههنا أفاد النصح والإرشاد⁽³⁾.</p> | <p>النهي للنصح والإرشاد</p> | <p>4 - قوله تعالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَتَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ (هود : 42).</p> |
| <p>أمر الله نوحاً "عليه السلام" أن يصنع السفينة بحراسته وعنايته الإلهية ، ودلّ النهي في قوله : (ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) «على أن كفار قومه سينزل بهم عقاب عظيم ؛ لأن المراد بالمخاطبة المنهي عنها المخاطبة التي ترفع عقابهم فتكون لنفعهم كالشفاعة ، وطلب تخفيف العقاب لا مطلق المعاقبة ، ولعل هذا</p> | <p>النهي للتهديد والوعيد</p> | <p>5 - قوله تعالى : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ يَا عَيْنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود : 37).</p> |

¹ - ينظر: يوسف عبد الله الأنصاري ، أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ، ص : 333. وينظر:

الزمخشري ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ج 3 ، ص : 197.

² - ينظر: يوسف عبد الله الأنصاري ، أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ، ص : 314 ، 315.

³ - ينظر: محمود السيد مصطفى حسن ، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية ، ص : 288.

| | | |
|--|---------------------------------------|--|
| <p>توطئة لنهيه عن مخاطبته في شأن ابنه الكافر قبل أن يخطر ببال نوح سؤال نجاته حتى يكون الرد عليه حين السؤال ألطف»⁽¹⁾، فالنهي هنا للتئيس أي: لا تطلب إمهالهم، فقد حان وقت الإنتقام منهم.</p> | | |
| <p>أفاد النهي هنا التحذير من إصابة الناقة بأي أذى من ضرب أو طرد، فضلاً عن عقرها، وقتلها، وتظهر المبالغة في النهي في استخدام (وَلَا تَمْسُوها) إذ «بُولغَ في التَّعرض لها بما يضرها حيث نهى عن المسّ الذي هو من مبادئ الإصابة ونكرِ السوء، أي لا تضربوها، ولا تطردوها»⁽²⁾.</p> | <p>النهي للتحذير</p> | <p>6 - قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوها تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوها يسوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (هود: 64).</p> |
| <p>بدأ دعوتهم أولاً إلى التوحيد كشأن جميع الأنبياء، حيث يتدثون الأهم فالأهم، ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس في المكيال والميزان دعاهم إلى ترك هذه العادة، قال الزمخشري: «فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله (أَوْفُوا)؟ قلت: نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان، لأن في التصريح بالقبيح بغياً على المنهي، وتعبيراً له ثم ورد الأمر بالإيفاء، الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه، وبعث عليه»⁽³⁾.</p> | <p>النهي للتصريح بالقبيح.</p> | <p>7 - قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَكُمُ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ (هود: 84).</p> |

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الجزء 12، ص: 67.

² - أبو السعود، تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 4، ص: 222.

³ - الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 3، ص: 223، 224.

^{*} - يقول معلق الكتاب الشيخ عادل أحمد عبد الموجود رداً على كلام الزمخشري في هذه المسألة: «ولمن قال إن الأمر بالشيء ليس نهياً عن ضده أن يستدل بهذه الآية، فإن الأمر لو كان عين النهي عن الضد، لكان وروده عقبيه تكراراً. وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه وهم، فاعتقد أن النهي في الآية قبل الأمر، وذلك سهوٌ وغفلةٌ، وكل مأخوذ من قوله ومتروك إلا =

| | | |
|--|---------------------------------------|---|
| <p>يدل النهي في الآيتين الكريميتين التأكيد على الأمر المنهي عنه ، ففي الآية الأولى يدل النهي في قوله تعالى: (وَلَا تَطْغَوْا) التأكيد على نهى النبي "صلى الله عليه وسلم" هو والمؤمنون بعدم مجاوزة الحد في الغلو في الدين كما أنّ النهي الوارد في الآية الثانية: (وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) يؤكد على عدم الركوب إلى الذين ظلموا أو موالاتهم يقول الألوسي: «هذا وخطاب النبي "صلى الله عليه وسلم" ومن معه من المؤمنين بهذين النهيين بعد الأمر بالإستقامة للتثبيت عليها، وقد تجعل تأكيداً لذلك إذا كان المراد به الدوام والثبات»⁽¹⁾.</p> | <p>النهي لتأكيد الأمر المنهي عنه.</p> | <p>8 - قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (هود: 112، 113).</p> |
|--|---------------------------------------|---|

وهكذا فإن هذه المواضع لأسلوب النهي في السورة قدّمت لنا مع جمالياتها دلالات تنويرية تتلاحم مع السورة بشكل عام، فجاء أسلوب النهي متدرّجاً في مقامات النصّح والوعظ والتّحذير؛ وذلك لأن السياق العام في هذه السورة هو مقام دعوة الأنبياء لأقوامهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة الأصنام، ولا شك أنّ النهي في القرآن الكريم من أساليب الأداء في اللغة، إتّخذ القرآن مع غيره من الأساليب لتثبيت منهجه في الدعوة إلى الله، وإلى طريق المستقيم حتّى على الخير وترغيباً فيه، وزَجْراً عن الشرّ وتنفيراً منه، واتجاهاً للخالق الواحد الأحد.

=المعصوم: وأما قوله: إنّ الإيفاء حسن في العقول، فتفريغ على قاعدة التحسين والتقييح، وقد سبق بطلانها، وبيننا أنّ التحسين والتقييح موظفان من الشرع، ولا مجال للعقل في حكم سمعي»، حاشية ص: 223 من كتاب الكشاف، ج3.

¹ - شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، ج12، ص: 155.

5 - أسلوب التمني:

التمني: هو طلب حصول أمر محبوب أو مرغوب فيه ، وقد يكون ممكناً أو مستحيلاً في اعتقاد المُتَمَنِّي ، لاستحالته في تصوُّره⁽¹⁾ ، وأداته (ليت). ويكون في التمني دائماً غير متوقع ويدخل فيه ما إلى سبيل إلى تحقيقه. «فإذا كان المطلوب الممكن مُتَوَقَّعاً كان الكلام ترجياً والعبارة عن ذلك تكون بـ (لعلّ وعسى) فإذا قُلتَ: زيد يجيء ، كان وراء ذلك إحساس بأنّ مجيء زيد من الأمور المتوقعة.. الفرق بين التمني والترجي في المطلوب الممكن هو في حقيقته فرق بين نوعين من أنواع الإحساس ، أمّا غير الممكن فلا يأتي فيه الترجي»⁽²⁾. ولقد ورد أسلوب التمني⁽³⁾ في السورة مرّةً واحدةً في قصة لوط -عليه السلام - في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: 80) ، حيث جاء تمنيه هنا بالأداة (لو) لأمر محال فيتمنى أن يكون له قوة ليُجابه أولئك الذين تجرّدوا من إنسانيتهم ، أو أنّه يأوي إلى ركن شديد يستعين به على صلافة أولئك ، وسلام على لوط فلم يكن هناك ركن أشد من الركن الذي يأوي إليه ولهذا يقول رسول الله -عليه الصلاة والسلام - : «يرحم الله لوطاً فلقد كان يأوي إلى ركن شديد»⁽⁴⁾ ، فاستعمل (لو) للتمني غير المحقق وبعيد الوقوع. فالتمني لم يرد في السورة إلا مرّةً واحدةً في هذه الآية الكريمة ، ووروده لا يقارن بالأساليب الإنشائية الأخرى السالفة الذكر ، وفي هذا دلالة على أن السورة كانت تحكي وقائع وأحداث بحسب الواقع ، وتحكي ما سوف يحدث بالفعل لا محالة في الحياة الآخروية.

¹ - ينظر: عبد الرحمن حسن حبّكة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 251. وينظر:

محمد أبو موسى، دلالات التركيب: دراسة بلاغية، ص: 194.

² - المرجع نفسه، ص: 194، 195.

³ - وعلى خلاف الأصل يلحق بها أدوات أخرى خرجت عن أصل وضعها، وهي: (هل - لعل - عسى) لإبراز التمني في صورة الممكن المطموع فيه، والتلهف في الحصول عليه، والتمني بـ(لو) لإبراز التمني في صورة الممكن عزيز المنال يصعب تحقيقه، ينظر: حسن حبّكة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 252. وينظر: محمد أبو موسى، دلالات التركيب: دراسة بلاغية، ص: 194 إلى 203.

⁴ - أخرجه الإمام مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط2، 1392هـ، ج2، ص: 183.

وكما لا حظنا فإن التحول الأسلوبية بين الخبرية والإنشائية أضفت الحيوية على الصياغة، وكسرت عناصر الثبات والاستقرار التي قد تُسيطر على الصياغة الخبرية في بعض مستوياتها الأسلوبية.

المطلب الثالث: أسلوب التقديم والتأخير:

يُعرَّف التقديم والتأخير: بأنه: «تبادل في المواقع، تترك الكلمة مكانها في المقدمة لتحل محلها أخرى، لتؤدي غرضاً بلاغياً ما كانت لتؤديه لو آتتها بقيت في مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغوي»⁽¹⁾، ووضَّح عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) أهميته بقوله: «هو بابٌ كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتَرُّ لك عن بدية، ويُفضي بك إلى لطيفة»⁽²⁾.

والتقديم والتأخير باب من العلم في البلاغة يتعلَّق بتقديم لفظ على آخر وتحويله عن مكانه الأصلي، وسنة من سنن العرب في كلامها وسبيلُ «إلى نقل المعاني في ألفاظها إلى المخاطبين كما هي مرتبة في ذهن المتكلم حسب أهميتها»⁽³⁾، وتُشكِّل هذه الظاهرة منبهاً أسلوبياً يعمد إليه المبدع لخلق صورة فنية متميزة، لها عظيم الأثر في روعة الأسلوب وإبرازه في صورة حكيمة من الوفاء بالمعاني ومطابقتها لمقتضى الحال. وهو من أقدر الفنون على كشف خبايا النفوس وسبر غورها، وقد أثنى به العرب «دلالة على تمكُّنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القوب أحسن موقع، وأعذب مذاق»⁽⁴⁾.

فهو علامة من علامات سمو التفكير اللغوي عند العرب، لدقة أسراره وتنوع دلالاته وكثرة الخصائص التركيبية الموجودة في أساليبه، لذلك نجد لهذه الظاهرة مكانة بالغة الأهمية في الدراسة النحوية والبلاغية، وإن اختلف تناول بينهما فعلى حين نرى النحويين يهتمون به انطلاقاً من مبدأ

1 - منير سلطان، بلاغة الكلمة والجمل والجمل، ص: 108.

2 - دلائل الإعجاز، ص: 106.

3 - رشيد بلحبيب، ضوابط التقديم والتأخير وحفظ المراتب في النحو العربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة - المغرب، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 1998، مقدمة الكتاب، ص: ب.

4 - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص: 233.

الرُّتبة أو مراعاة الأصل نجد البلاغيين يتناولونه انطلاقاً من مبدأ العدول عن الأصل⁽¹⁾، يقول فاضل السامرائي: «إنَّ فنَّ التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصَر بالتعبير والذين أُوتُوا حظاً من معرفة مواقع الكلام وليس ادعاء يُدعى أو كلمة تقال»⁽²⁾.

والذي نريد أن نُنبِّه إليه أنَّ القرآن الكريم قد حَوَى أسراراً جمةً في التَّقديم والتأخير، وسياق القرآن معجز ومُحكَّم للغاية، في جميع مفرداته وآياته ومقاطععه، فكلُّ كلمة تستدعي أختها وكلُّ آية تتناسب مع الأخرى، وكلُّ مقطع يتوافق مع المقاطع السابقة واللاحقة فيه، بشكل لا نستطيع فصله أو استبداله بمن ينوب عنه؛ لأنَّ الجملة القرآنية «تتبع المعنى النَّفسي، فتصوِّره بألفاظها، لتلقيه في النَّفس، حتَّى إذا استكملتُ الجملة أركانها، برز المعنى ظاهراً، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعةً لفظيةً فحسب، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضروري لا معدى عنه، وإلاَّ اختلَّ وانهار»⁽³⁾.

إنَّ أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم سمة أسلوبية وأداة فاعلة تُسهم في هذا الإحكام الرَّصين والنَّظْم البديع، فكلُّ كلمة قُدِّمت لسبب وأخرتُ الأخرى لسبب آخر يقتضيها المقام وسياق القول «والقرآن أعلىِّ مثلٍ لذلك فإنَّا نراه يقدم لفظه مرَّةً ويؤخرها مرَّةً أخرى حسبَ المقام»⁽⁴⁾؛ فالتعبير القرآني قصدَ هذه الظاهرة في مواطن معينة لأغراض بلاغية تدلُّ على أنَّ كلَّ لفظٍ وُضِعَ لِيلائم السياق.

¹ - أحمد سعد محمد، الأصول البلاغية في كتاب سبويه وأثرها في البحث البلاغي، مكتبة الأديب، ط2، 2009م، ص39.

² - فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، عمان - الأردن، ط4، 2006، ص: 53.

³ - أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 85.

⁴ - المرجع السابق، ص: 52.

ولقد ظهرت بعض استعمالاته البلاغية⁽¹⁾ في سورة هود، وسأحاول أخذ أمثلة فيما يأتي:

| الفائدة والدلالة | الغرض | جملة التقديم والتأخير |
|---|------------------------------|--|
| <p>قدم الاستغفار على التوبة في هذه المواضع لأنه لا يرجى لعاصٍ استقامة ما لم يسبقها استغفار وندامة؛ فالتوبة مطلوبة لكونها من مُتَمِّمات الاستغفار، كما أن الاستغفار طلب مغفرة ذنوب ماضية، والتوبة الالتزام بالطاعة فيما يستقبل من الزمان، كما «أن الداعي إلى التوبة والمُحرض عليها هو الاستغفار الذي هو عبارة عن طلب المغفرة»⁽²⁾ فإذا تحقق مع العبد صدق الرجوع والندم على زلات الوقوع مدله أسباب التوفيق وفتح له باب الاستقامة والتوبة، فمراعاة الترتيب الزمني اقتضت تقديم الاستغفار على التوبة، والدليل على ذلك العطف بـ(ثم) وهي لفادة الترتيب مع التراخي؛ «لأن الاعتراف بفساد ما هم فيه من عبادة الأصنام أهم من طلب المغفرة، فإنّ تصحيح العزم على عدم العودة إليها هو مسمّى التوبة، وهذا ترغيب في نبذ عبادة الأصنام وبيان لما في ذلك من الفوائد في الدنيا والآخرة»⁽³⁾.</p> | <p>مراعاة الترتيب الزمني</p> | <p>1 - قوله تعالى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود: 3).</p> <p>وقوله تعالى على لسان نبيه هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ (هود: 52).</p> <p>وقوله تعالى على لسان نبيه صالح: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (هود: 61).</p> <p>وقوله تعالى على لسان نبيه شعيب: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: 90).</p> |

¹ - ويأتي التقديم والتأخير لأغراض مُتعدِّدة على حسب استعماله في السياق القرآني ومنها: (التعظيم -بيان الأهمية - إفادة التخصيص -التعميم -التنبية -التفاؤل -التشويق -السببية) ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص: 233 - 237، ينظر: حَبَّكَة الميداني، البلاغة العربية، ج1، ص: 364، 365، 366. وينظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها: علم المعاني، ص: 237 - 242.

² -الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج17، ص: 188.

³ -محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج11، ص: 317.

| | | |
|--|-----------------------------|--|
| <p>تقدمت صفة "الندارة" على "البشارة" الآن الخطاب موجه إلى الكفار فناسب تقديم الوعيد والتهديد لأنهم على شفا حفرة من النار فإن أعرضوا وقعوا فيها، لأن القوم كانوا يعبدون غير الله، بدليل النهي الوارد في قول الرسول لهم ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وعبادة غير الله يناسبها الإنذار الذي هو أهم في شأن هؤلاء المعرضين لا التبشير؛ «لأن عبادة غير الله تقتضي نذيراً، وعبادة الله في الإسلام تقتضي بشيراً»⁽¹⁾ وهم لن يعبدوا الله إلا بعد امتثال النهي عن عبادة غيره إذن فمرحلة إقبالهم على عبادة الله - وحده - متأخرة عن مرحلة ما هم فيه من الشرك فناسب ذلك تأخير البشارة فقال: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.</p> | <p>التقديم للمناسبة</p> | <p>2 - قوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (هود: 2).</p> |
| <p>قدّم الظرف (يوم) على الفعل (يأتي) للتأكيد على وقوع العذاب بالفئة الكافرة التي كانت تُكذّب به، وتستعجل وقوعه وإن تأخر عنهم إلى أجل مسمى، يقول ابن عاشور: «وتقديم الظرف للإيمان بأن إتيان العذاب لا شك فيه حتى أنه يوقّت بوقت»⁽²⁾.</p> | <p>التقديم للتأكيد</p> | <p>3 - قوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (هود: 8).</p> |

¹ - محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج10، ص: 1307.

² - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 11.

| | | |
|--|--------------------------------|--|
| <p>في هذه الآية البليغة التي حارت فيها العقول قدّم بلع الأرض على إقلاع السماء، لأن الأهم هو رسو السفينة وهو غاية من عليها، فإنهم إن لم ترُسَ سفينتهم فلن يخرجوا منها، ومن حيث النظر إلى ترتيب الجمل «فذلك أنه قدم النداء على الأمر فقال: (يا أرض ابعلي ويا سماء اقلعي) دون أن يقال: ابعلي يا أرض واقلعي يا سماء، جريباً على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنييه ليتمكن الأمر الوارد عقبيه في نفس المنادى، قصداً بذلك لترشيع المعنى، ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء، وابتديء به لابتداء الطوفان منها وبنزولها لذلك في القصة منزلة الأصل، والأصل بالتقديم أولى»⁽¹⁾.</p> | <p>التقديم لبيان الأهمية.</p> | <p>4 - قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: 44).</p> |
| <p>جاء تقديم الجار والمجرور (عليه) في قول شعيب "عليه السلام" في الآية الكريمة للدلالة على الحصر الذي يعني أنه ينبغي للإنسان أن يتوكل على الله وحده والإنابة إليه دون سواه⁽²⁾.</p> | <p>التقديم لأفادة الحصر</p> | <p>5 - قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: 88).</p> |
| <p>جاء تقديم الخبر على المبتدأ في الجار والمجرور (لهم) وهو مسند، و (من أولياء) مسند إليه، والتقدير: ما كان أولياء لهم من دون الله، والتقديم هنا جاء للتعجيل بالحسرة لهم، «لأن (من دون الله) متعلق بـ(أولياء) لما في الولي هنا من معاني الحائل والمباعد»⁽³⁾.</p> | <p>التقديم للتعجيل بالحسرة</p> | <p>6 - قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ (هود: 20).</p> |

¹ - محمد جمال الدين القاسمي، تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، ضبطه وصحّحه وخرّج آياته وأحاديثه: محمد باسل

عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 2003، ج6، ص: 100.

² - ينظر: فخر الدين الرازي، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير، ج18، ص: 48.

³ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 37.

| | | |
|--|--|--|
| <p>فلقد قدّم أهل النار على أهل الجنة على غير العادة، ففي كثير من السور نجد فيها ذكر أهل الجنة ثم يتبعها ذكر أهل النار، وهنا في مثل هذه الحالة جاء التقديم بحسب السياق؛ لأنه لما كان الكلام مسوقاً في ذكر التخويف والتحذير الذي جاء على قصص الأولين، وما حلّ بهم من عذاب ودمار، فكان لا بد أن يوصل الكلام بما يناسبه في هذا المعنى، وهو ذكر أهل النار، فلذلك قدّموا في الذكر على أهل الجنة⁽¹⁾.</p> | <p>التقديم لدلالة السياق.</p> | <p>7 - قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِيهِ النَّارَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (هود: 106، 107).</p> <p>وقاله تعالى بعدها: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِيهِ الْجَنَّةَ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُونٍ﴾ (هود: 108).</p> |
| <p>الملاحظ في الآية الكريمة أنه قدم فيها الجار والمجرور (إلى الله) وهو خبر على المبتدأ (مرجعكم) وجاء هذا التقديم لإفادة القصر «وهو قصر صفة على موصوف حقيقي تحقيقي بالنظر إلى الواقع»⁽²⁾. بمعنى: إلى الله مرجعكم لا إلى غيره، والمقام اقتضى هذا الأسلوب، لأن الرسول يدعو الناس لعبادة الله وحده، فكان من المناسب بلاغياً أن ينص لهم على هذا المصير، المعين على الإذعان والطاعة وتحقيق المطلوب من الدعوة⁽³⁾.</p> | <p>التقديم لإفادة القصر^(*).</p> | <p>8 - قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (هود: 4).</p> |

¹ - ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2، ص: 48.

^(*) - ذكر السكاكي (ت626هـ) في مفتاحه: أن القصر ما هو إلا تأكيد للحكم على تأكيد، فهو بمنزلة تأكيدين. ينظر: مفتاح العلوم، ص: 288، 289.

² - دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية، ص: 99.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 99.

| | | |
|--|-----------------------------|---|
| <p>إنَّ الجار والمجرور (منه) تقدم على المفعول به (رحمةً)، وذلك للدلالة على أنَّ هذه الرحمة رحمةٌ خاصةٌ تجلت عظمتها من مُعطيها، تُبرز عنايته سبحانه وتعالى لنبينا صالح كونه الإنسان المُعطى لهذه الرحمة، وما نسلم به في هذا المقام ما أشار إليه ابن عاشور من نكتتين في سرِّ التقديم في الآية نفسها، من أنَّ نظم مقالة صالح غير بها نظم مقالة نوح - عليه السلام - لقومه ﴿وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾، وإنَّ اتَّفَق معه في مبتدأ الآية ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي﴾، لأجل التَّفَنُّن بعدم التزام طريقة واحدة في إعادة الكلام المتماثل، ولأجل تقييد الإيتاء بأنَّه إيتاء خاص من الله عزَّ وجلَّ. فأشار إلى النكتة الأولى بقوله: «لأن ذلك مع ما فيه من التَّفَنُّن بعدم التزام طريقة واحدة في إعادة الكلام المتماثل هو أيضاً أسعد بالبيان في وضوح الدلالة ودفْع اللُّبْس»⁽¹⁾.</p> <p>وأشار إلى النكتة الأخرى بقوله: «ولمَّا كان المجرور هنا ضمير الجلالة كان الأحسن أن يقع عقب فعل (أتاني) ليكون تقييد الإيتاء بأنَّه من الله مشيراً إلى إيتاء خاص ذي عناية بالمؤتى، إذ لولا ذلك لكان كونه من الله تحصيلاً لما أُفيد من إسناد الإيتاء إليه، فتعيَّن أن يكون المراد إيتاءً خاصاً»⁽²⁾.</p> | <p>التقديم للاختصاص</p> | <p>9 - قوله تعالى على حكاية عن صالح: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ (هود: 63).</p> <p>وقال حكاية عن نوح: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ (هود: 28).</p> |
|--|-----------------------------|---|

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 12، ص: 111.

² - المرجع نفسه، ج 12، ص: 111، 112.

| | | |
|---|---|--|
| <p>قدّم الجار والمجرور (في هذه) على الفاعل (الْحَقُّ) للدلالة على شمولية سورة هود - عليه السلام - لأخبار الأمم السَّابِقة وتفصيلها لها «وتقديم الظرف أعني (في هذه) على الفاعل، لأن المقصود بيان منافع السورة أو الأنباء المقصودة فيها، واشتمالها على ذكر المنافع المفصلة لبيان كون ذلك فيها لا في غيرها»⁽¹⁾.</p> | <p>التقديم للدلالة على الشمولية</p> | <p>10 - قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: 120).</p> |
| <p>قد يكون التقديم قصداً للإيجاز عن طريق الإضمار، مع تجنب عودة الضمير على متأخر لفظاً ورتبة، قال أبي السعود: «(وَأَلَىٰ عَادٍ) متعلق بضمير معطوف على قوله تعالى (أرسلنا) في قصة نوح وهو الناصب في قوله تعالى (أَخَاهُمْ) أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم أي: واحد منهم في النسب كقولهم: يا أخا العرب، وتقديم المجرور على المنصوب ههنا للحذار عن الإضمار قبل الذكر»⁽²⁾. وقال ابن عاشور: «وقدم المجرور على المفعول الأصلي ليتأتى الإيجاز بالإضمار حيث أُريدَ وصف هود بأنه من إخوة عاد ومن صميمهم، من غير احتياج إلى إعادة لفظ عاد، ومع تجنب عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة، فقليل وإلى عاد أخاهم هوداً»⁽³⁾.</p> | <p>التقديم قصداً للايجاز</p> | <p>11 - قوله تعالى: ﴿وَأَلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ (هود: 120).</p> |

وكما لا حظنا سار هذا الأسلوب لغايات بلاغية كثيرة، حيث يُبين أهمية الكلام المُقدّم، أو يوضّح سبب ما تأخّر منه، يُعطي جمالاً وتفاعلاً له أبلغ الأثر في نفس المتلقي، وبذلك يستطيع القارئ الوصول إلى الأبعاد الدلالية لهذا الكلام من خلال السياق الوارد فيه.

¹ - أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 4، ص: 248.

² - المرجع نفسه، ج 4، ص: 216.

³ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 8، ص: 200.

وكما يقول عبد القاهر الجرجاني: «هو بابٌ كثير الفوائد، جُمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، ولا يزال يفتَرُّ لك عن بديعة، ويُفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعراً يروك مسمَعُهُ، ويلطّفُ لديك موقعُهُ، ثم تنظر فتجد سببَ أن راقك ولطفَ عندك أن قُدِّم فيه شيءٌ، وحوّل اللفظ عن مكانٍ إلى مكانٍ»⁽¹⁾، فضلاً عن أنّه زيادة في المعنى من غير أن يُزاد في اللفظ⁽²⁾، والذي يجب أن نقرّ به أنّ القرآن الكريم مازال يحمل في طياته مزيداً من الخفايا والأسرار في ظاهرتي التقديم والتأخير، وما ذكره العلماء منها شيء يسير بالنسبة لحقيقتها، وقد يكون في الموضوع الواحد أكثر من حكمة أو فائدة.

المطلب الرابع: الإيجاز والإطناب:

إنّ لكل من الإيجاز والإطناب موضعاً يكون به أولى من الآخر، وقد قال أبو هلال العسكري (ت395هـ): «الإيجاز والإطناب يُحتاج إليهما في جميع الكلام وكلّ نوع منه، ولكل واحدٍ منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ»⁽³⁾، فهما من الأساليب البلاغية التي تحتاج إلى فطنة لدقة مسلكهما⁽⁴⁾.

أ - الإيجاز:

فالإيجاز لغة من وَجَزَ، «وَجَزَ الكلامُ وجازةً وأوجز قلّ في بلاغة، وأوجزه: اختصره، وكلام وجيز، أي: خفيف مقتصر»⁽⁵⁾.

اصطلاحاً: هو «صياغة كلام قصير يدل على معنى كثير وافٍ بالمقصود»⁽⁶⁾، أو نقول هو «قصد اللفظ مع وفاء المعنى»⁽⁷⁾، وإذا كان المعنى يعبر عنه بألفاظ قليلة فالألفاظ القليلة إيجاز⁽⁸⁾.

1 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 106.

2 - ينظر: المرجع نفسه، ص: 288.

3 - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص: 190.

4 - ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفانها: علم المعاني، ج1، ص: 453، 454.

5 - ابن منظور، لسان العرب، مادة (وجز)، ج5، ص: 427.

6 - عبد الرحمن حسن حَبْنَكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج2، ص: 27.

7 - فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفانها: علم المعاني، ج1، ص: 457.

8 - المرجع نفسه، ج1، ص: 457.

وينقسم إلى قسمين: إيجاز قِصَرٌ* ويأتي إذا تضمنت العبارة القليلة معاني كثيرة، دون أن يكون في تركيبها لفظ محذوف⁽¹⁾. وإيجاز حذف: وهو «الإيجاز الذي يكون قِصَرُ الكلام فيه بسبب استخدام حذف بعض الكلام، اكتفاءً بدلالة القرائن على ما حذف»⁽²⁾.

وقد برز الإيجاز في القرآن الكريم في كل سورة وآياته وهذا «ما امتاز به أسلوب القرآن من اجتناب الإطالة والتزام جانب الإيجاز - بقدر ما يتسع له جمال اللغة - قد جعله هو أكثر الكلام افتناناً، نعني أكثره تناولاً لشؤون القول وأسرعته تنقلاً بينها»⁽³⁾.

وبالنسبة لسورة هود الكريمة فلقد برز فيها الإيجاز بشكل ملحوظ كغيرها من سور القرآن الكريم، «وقد يحذف في التعبير القرآني لفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السياق، فقد يحذف حرفاً أو يذكره أو يجتزئها بالحركة للدلالة على المحذوف، كلٌّ لغرض بلاغي تلحظ فيه غاية الفن والجمال»⁽⁴⁾.

وهذه بعض أمثلة الإيجاز في الجدول الآتي:

| موضوع إيجاز الحذف | الغرض | دلالاته وفائدته |
|--|--------------------------|---|
| 1 - حذف حرف (الياء) في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتِي مِنْ رَبِّي﴾ وقوله ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ (هود: 28، 29). | ترقيق المشاعر والاستعطاف | وهذا الأمر تكرر في حذف الحرف الأخير أثناء مخاطبات الرسل لأقوامهم بـ(يا قوم) على لسان كل من هود وصالح وشعب، وفي هذا النداء يتم حذف ياء المكنم «وسره البلاغي هو فضيلة الإيجاز البياني، لأنه استثمار أقل ما يمكن من الألفاظ الدالة على أكثر ما يمكن من المعاني وفيه ترقيق لمشاعر |

* - القِصْرُ: لغة ضد الطول، «يقال قِصْرُ الشيء قِصْرًا وقِصْرًا، وقِصْرًا، ضدُّ طال فهو قصير، وجمعه قِصَارٌ وقِصْرَاءٌ. ونختار لفظة "القِصْر" بكسر القاف وفتح الصاد، لأن "القِصْر" بفتح القاف وإسكان الصاد مشترك بين معنيين هما: الحبس وما هو ضد الطول»، عبد الرحمن حسن حَبْنَكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج2، حاشية ص: 29.

¹ - ينظر: عبد العزيز عبد المعطي عرفه، من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط2، 1984، ج2، ص: 220.

² - ينظر: الرماني، التُّكْت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، ص: 76.

³ - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص: 144.

⁴ - فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، ص: 75.

| | | |
|--|---|---|
| <p>واستمالتهم للدخول في منهج الله الذي يدعو إليه»⁽¹⁾.</p> | | |
| <p>تمَّ حذف (الياء) في النداء في قوله (ربّ) إذ إنّ «سرّ الحذف فيه للمبالغة في تصوير قُرب المنادى (رب) حيث إنّ معناه: المربي والسيد والمالك، وهو بهذا المعنى من شأنه أن يكون قريباً حاضراً لا يحتاج في ندائه إلى وسائط»⁽²⁾.</p> | <p>المبالغة في تصوير قرب المنادى</p> | <p>2 - ومن مثل حذف (الياء) نجده في قوله تعالى حكاية عن نوح في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ (هود: 45، 46).</p> |
| <p>حُذِفَ المبتدأ في الآية الكريمة والتقدير: هذا كتابٌ، وهذا الحذف يحدث ليكون ذكر الخبر المتصف بصفة، كأنه يشير إلى هذا المبتدأ، وكأنما بلغ من الشهرة بهذا الوصف مبلغاً يغني عن ذكره⁽⁴⁾، «أما دلالة حذف اسم الإشارة الذي هو مبتدأ فهي تأتي في سياق ترفع القرآن عن الإشارة إليه، فالإشارة إلى الشيء يعني أن المشار إليه مجهول للحاضرين أو السامعين، فحذف المبتدأ في هذا السياق، وهو سياق إعجاز وتحدي، بخاصة بعد الحروف المقطعة، والوصول إلى الخبر مباشرة دون إشارة فيه إظهار للكتاب ولو لمكانته، أما الإشارة في سورة البقرة</p> | <p>تعجيل المسرّة بالمسند⁽³⁾.</p> | <p>3 - حذف المبتدأ في قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1)</p> |

¹ - دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية، ص: 129.

² - عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1992، ج2، ص: 7.

³ - ينظر: يوسف الرفاعي، حذف المرفوعات والمنصوبات في سورة هود، دراسة نحوية دلالية، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد 25، أيلول، 2011، ص: 354.

⁴ - ينظر: أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 96.

| | | |
|---|--|--|
| <p>فالأمر يختلف قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾⁽¹⁾، مختلف من منطبق أن سورة البقرة من فواتح سور القرآن وهي بادئه، والإشارة إلى الكتاب هنا يختلف عن الموضوع في سورة هود، كما أن الإشارة في البقرة في إطار نفي الربيب عن القرآن، واستعمال الإشارة في البقرة كان متوافقا مع النص العام⁽²⁾.</p> | | |
| <p>حذف المضاف، وهو في الأصل خبر (إن)، في قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، والتقدير: إبنك ذو عمل غير صالح⁽⁴⁾، فجاء «الإخبار بالمصدر عن الذات، والقصد منه تحويل الذات إلى حدث، والمعنى في الآية أن إبنك يا نوح تحوّل إلى عمل غير صالح ولم يبق فيه شيء من عنصر الذات»⁽⁵⁾، ف (عَمَلٌ) هنا مصدر أخبر به عن ابن نوح وهو المضمير المتصل في (إنّه) وهو اسم ذات، وقد أخبر عن الذات بالمصدر، و «ذلك بقصد المبالغة والتجوز، والقصد منه تحويل الذات إلى حدث، وكان ابنه تحوّل إلى عمل غير صالح ولم يبق منه شيء يصلح، لقطع الأمل من إصلاحه، ولإفادة معنى المبالغة يتطلب الحذف، وذكر المضاف يفقد</p> | <p>التجوز في الكلام والانتساع فيه⁽³⁾.</p> | <p>4 - حذف المضاف في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود: 46).</p> |

¹ -سورة البقرة، الآية: 2.

² -يوسف الرفاعي، حذف المرفوعات والمنصوبات في سورة هود، دراسة نحوية دلالية، ص: 355.

³ -ينظر: فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ط2، 2003، ج3، ص: 122، 123.

⁴ -ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص: 134.

⁵ -المرجع السابق، ج3، ص: 123.

| | | |
|--|---|--|
| <p>المعنى ، فلو قلنا: إنه ذو عمل غير صالح ، لما أدى المعنى المراد من الإخبار بالمصدر»⁽¹⁾.</p> | | |
| <p>حُذِفَ فاعل الفعل (قيل) في الآية العظيمة ، وبنى الفعل للمجهول «اختصاراً لظهور فاعل القول ؛ لأن مثله لا يصدر إلا من الله»⁽²⁾ ، فكان نداء الأرض وتوجيه الأمر المستعلي إليها لا يكون إلا من الذي خلقها فسواها وكذلك السماء ، يقول عن ذلك ابن عاشور: «كما لم يصرح بقائل (يا أرض) ، (ويا سماء) في صدر الآية ، سلوكاً في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية أن تلك الأمور العظام لا تتأتى إلا من ذي قدرة لا يكتنه قهار لا يغالب ، فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلّت عظمته قائلاً (يا أرض) و(يا سماء) ، ولا غائضاً ما غاض ، ولا قاضياً مثل ذلك الأمر الهائل ، أو أن تكون تسوية السفينة وإقرارها بتسوية غيره وإقراره»⁽³⁾ ، وكذلك الحال مع حذف الفاعل في قوله : (وغيض) وبناء الفعل للمجهول ، وحذف الفاعل في (وقضي) وبناء الفعل للمجهول ، وذلك لسرعة الأمر وحدوثه ، «وحذف الفاعل للإشارة السريعة ، فما أن أمرت الأرض بأن تبلع والسماء بأن تقلع إلا وقد غيض الماء وكأنّ قوّة هائلة مجهولة اختطفته وابتلغته فذهب معها»⁽⁴⁾ ، وكما لا حظنا فإن حذف الفاعل أضفى على التعبير القرآني معنى</p> | <p>التعظيم وسرعة الأمر وحديثه</p> | <p>5 - حذف الفاعل في قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: 44).</p> |

1 - يوسف الرفاعي ، حذف المرفوعات والمنصوبات في سورة هود ، دراسة نحوية دلالية ، ص : 361.

2 - محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير ، ج 12 ، ص : 78.

3 - المرجع نفسه ، ج 12 ، ص : 81.

4 - محمد أبو موسى ، خصائص التراكيب : دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، ص : 176 ، 177.

| | | |
|---|-----------------------------------|---|
| <p>لا يتحصل إلا بحذفه، «وخاصة إذا كان الفعل فعلاً لا يقدر عليه إلا الله»⁽¹⁾.</p> | | |
| <p>في هذه الآية العظيمة فإن الله "سبحانه وتعالى" «أمرَ فيها ونهى، وأخبر ونادى، ونعتَ وسمى، وأهلكَ وأبقى، وأسعدَ وأشقى، وقصَّ من الأنبياء ما لو شرحَ ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام»⁽²⁾.</p> | <p>تصوير الحال مع الإيجاز</p> | <p>6 - إيجاز القصر في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: 44).</p> |

هذه السورة العظيمة عامرة بمواضع الحذف، وهو ما يُشعرنا بفخامة التعبير القرآني، وعلوه، وكما يقول عبد الله دراز: «إنّ فضيلة الإيجاز، هي الفضيلة الوحيدة التي تَوَصَّى بها البلغاء في كلِّ مقام بحسبه، غير أنه ليس للإنسان ما تمنى فالمثل الكامل وإن تطاولت إليه أعناق النَّاس وتفاوتوا في طلبه قُرْباً وبعُدًا، لا يستطيع أحد منهم أن يأتي على غايته، وإنَّما يأتي عليها القرآن الحكيم، فهو المثلُّ الأعلى لحسن الإيجاز، كيف لا وهو حدُّ الإعجاز»⁽³⁾.

فالحذف لا يأتي عبثاً في الكلام، وبخاصة إذا كان الكلام كلام الله -تعالى- «والقرآن كمطر السحاب من وجوه مختلفة..، فالكلام الذي لا حذف فيه لا محل فيه للعقل والنظر»⁽⁴⁾؛ وبالإضافة إلى تقوية الأسلوب فإنَّ له تداعيات معنوية يُثيرها في ذهن المتلقي، «وإنَّ محاولة الكشف عن جمالية الإيجاز والحذف في نماذج سور القرآن يكون عزَّ الطلب ومنتهاه، خاصة ملامسة ما يحقق أكبر قدر ممكن من التأثير على المتلقي، فيجئ نحو تقدير ما حذف وما أوجز، والتوصل إلى عمق الدلالات، والاختراع بها، وكأنَّه توصل إلى ذلك من تلقاء نفسه، وظهرت على يده لا على يد مخاطبه»⁽⁵⁾.

1 - محمد أبو موسى، خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ص: 177.

2 - جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص: 165.

3 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، حاشية ص: 130.

4 - عبد الحميد الفراهي الهندي، دلائل النظام، ص: 67، 68.

5 - سعاد الناصر، بلاغة القص في القرآن الكريم وآفاق التلقي، سلسلة كتاب الأمة، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية،

قطر، العدد 169، رمضان، 1436هـ، تموز (يوليو)، 2015م، ص: 127.

ب - الإطناب:

تعريف الإطناب لغة: يقال: «أطنبَ في الكلام بالغ فيه، وأطنبَ في الوصف إذا بالغ واجتهد، وأطنبَ في الكلام إذا أبعد»⁽¹⁾.

اصطلاحاً: يعرف الإطناب في اصطلاح البلاغيين «كونُ الكلام زائداً عما يمكن أن يؤدي به من المعاني في معتاد الفصحاء، لفائدة تُقصد»⁽²⁾. وبتعبير آخر «هو أداء المعنى بلفظ زائد عنه لفائدة»⁽³⁾.

وقد حوت سورة هود مواضع متعددة للإطناب، أعرض بعض أمثله من خلال الجدول

الآتي:

| موضع الإطناب | الغرض | دلالاته وفائدته |
|---|------------------|---|
| 1 - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (هود: 113). | الإطناب للمبالغة | في الآية الكريمة لم يقل الظالمين وعدل عنه إلى قوله: (الَّذِينَ ظَلَمُوا)؛ وذلك «لما يحتمل الأول من استمرار الظلم الذي لا يلائم المساس ولا تحصل به المبالغة التي تحصل من لفظ الثاني من وقوع الظلم على سبيل الندور [التقليل] ليلائم المعنى معنى الركون ومعنى المساس وتحصل المبالغة، لأنه سبحانه إذا نهى عن الركون إلى من استمر منه الظلم بطريق أولى وإذا نهى عن الركون إلى الظالم كان النهي عن فعل الظلم أخرى» ⁽⁴⁾ . |

1 - ابن منظور، لسان العرب، مادة (طنب)، ج 1، ص: 562.

2 - عبد الرحمن حسن حبيكة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج 2، ص: 60.

3 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، هامش ص: 128.

4 - محي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيئاته، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق/بيروت، دار ابن كثير،

دمشق/بيروت، ط 3، 1993، ج 3، ص: 495.

| | | |
|---|--|---|
| <p>حيث جاء التعليل بأن الله وعد من آمن منهم بنجاتهم وذلك بأن هياً لهم هذه السفينة ليبقى نسلهم وذلك من غفرانه ورحمته، «وجملة (إنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)» تعليل للأمر بالركوب لذكر اسم الله تعالى، ففي التعليل بالمغفرة والرحمة رمز إلى أن الله وعد بنجاتهم، وذلك من غفرانه ورحمته، وأكد ب (إنَّ) ولام الابتداء تحقيقاً لأتباعه بأن الله رحمهم بالإنجاء من الغرق»⁽¹⁾.</p> | <p>الإطناب بالتذييل (*)</p> | <p>2 - قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، (هود: 41).</p> |
| <p>جاء التتميم في الآية الكريمة في قوله: (كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، «أي كل ما ذكر وغيره مثبت في اللوح المحفوظ البين لمن ينظر إليه من الملائكة "عليهم السلام"، وهذا يدل على عموم علمه سبحانه وتعالى. والجملة -على ما قال الطيبي - كالتتميم لمعنى وجوب تكفل الرزق كمن أقر بشيء في ذمته»⁽²⁾.</p> | <p>الإطناب بالتتميم (**)</p> | <p>3 - في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، (هود: 6).</p> |
| <p>تحقق الاحتراس في الآية الكريمة على لسان نوح -عليه السلام - «وجاء فيها تعبير (إن شاء) تأدباً مع الله كالاحتراس، ولعل نوحاً -عليه السلام - كان يوقن بنزوله بهم فيكون التعليق ب (إن شاء) منظوراً فيه إلى كون العذاب معجلاً أو</p> | <p>الإطناب بالاحتراس (***)</p> | <p>4 - قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾، (هود: 33).</p> |

(*) - التذييل هو: «تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها توكيداً لمنطوقها، أو لفهومها»، عبد الرحمن حسن حَبْنَكَة

الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج2، ص: 86.

1 - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص: 74.

(**) - التتميم هو: «الإتيان بفضلة مفيدة في كلام لا يوهم خلاف المراد»، المرجع السابق، ج2، ص: 88.

2 - شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج12، ص: 3.

(***) - الاحتراس أو التكميل: «هو زيادة إطنابية في الكلام يَدْفَعُ بها المتكلم إيهاماً اشتمل عليه كلامه»، عبد الرحمن حسن

حَبْنَكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج2، ص: 84.

- 270 -

| | | |
|--|--|--|
| مؤخراً، وقد جاء حديثه -عليه السلام -دفعاً لما يتوقعونه من أنه سيأتي بالعذاب» ⁽¹⁾ . | | |
|--|--|--|

لقد تبين لنا أنّ الإطناب ساعد على بيان القضايا الرئيسية التي عالجتها السورة، وأذكر في هذا المقام بما قاله عبد الله دراز رحمه الله: «دَعَّ عَنْكَ قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآنية إنها "مُقحمة" وفي بعض حروفه إنها "زائدة" زيادة معنوية، ودَعَّ عَنْكَ قول الذي يستخف كلمة "التأكيد" فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة، ولا يبالي أن تكون تلك الزيادة فيها معنى المزيد عليه فتصلح لتأكيديه أو لا تكون، ولا يبالي أن يكون بالموضع حاجة إلى هذا التأكيد أو لا حاجة له به»⁽²⁾.

المطلب الخامس: أسلوب القصر:

يُعدُّ أسلوب القصر من الأساليب البلاغية التي يستدعيها المقام، وضرباً من ضروب الإيجاز، إذ يستطيع أن يُحدِّد المعاني تحديداً كاملاً.
ويأتي القصر في اللغة: بمعنى التخصيص، «يقال: قَصَرَ الشيءَ على كذا، إذا خصَّصه به، ولم يجاوز به إلى غيره»⁽³⁾.

والقصر يأتي أيضاً بمعنى الحبس، «يقال: قَصَرْتُهُ، إذا حبستَه، وهو مقصور، أي محبوس قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، (الرحمن: 72)»⁽⁴⁾، أي محبوسات فيها.
اصطلاحاً: يُراد به في اصطلاح البلاغيين «تخصيص شيءٍ بشيءٍ بعبارة كلامية تدل عليه. وفي تعريفه أيضاً: جعلُ شيءٍ مقصوراً على شيءٍ بواحد من طُرُق مخصوصة»⁽⁵⁾. وللقصر أربعة طرق مشهورة هي: القصر بإثما، القصر بالنفي، والإستثناء بـ (إلا)، العطف بـ (لا - بل - لكن)، تقديم ما حقه التأخير⁽⁶⁾.

1 - دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية، ص: 145.

2 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص: 130، 131.

3 - عبد الرحمن حسن حَبْنَكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 523.

4 - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (قصر)، ج5، ص: 96، 97.

5 - المرجع السابق، ج1، ص: 523.

6 - عبد الرحمن حسن حَبْنَكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 531 وما بعدها.

وجاء استعمال بعض أساليب القصر في سورة هود لتوضيح الحقائق وتبيين الأمور الخاصة بمخاطبة المعاندين والمشركين، وبيان الجزاءات الأخروية للمتقين والكافرين.

ومن أمثلة أسلوب القصر بالنفي والاستثناء ما جاء في مواطن متعددة في حوار الأنبياء مع أقوامهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، (هود: 6)، ففي الآية الكريمة في جملة الرزق تداخل قصران: «الأول بما وإلا»، والثاني الواقع بعد إلا (على الله رزقها) بتقديم المسند على المسند إليه، والمثير أن لفظ الجلالة هو المقصور عليه في الأسلوبين تصريحاً في الثاني وبشيء من التأويل في الأول وقد توسط القصرين والأسلوب إجماعاً بأنه مصدر الوجود والرزق وعماد الكون فقد بنى على (لفظة التركيب) كما قامت بقدرته وقيوميته الأكوان»⁽¹⁾.

ومثل هذه الظاهرة جاءت في أساليب معدودة في الذكر الحكيم «حين يتطلب الموقف تركيزاً مضغوطاً طارقاً منزلاً، وهذا مصدر اتساع المفهوم وشموله وكثرة ظلاله والتلاؤم واضح بين جرس الكلمات ودلالاتها وقوة التأكيد والشمول مع المقام فلأن الرزق دفاق أبداً جاءت "ما" تلتها "من" داخلة على نكرة متفرقة وجاء الوصف "في الأرض" تأكيداً وتصويراً ثم تأتي بعدها "على الله" فتشير أشواق النفس إلى المبتدأ "رزقها" فهو مفتاح الآية يبدل بالجهل علماً وبلهة التشوق طمأنة ويزيد بث الثقة المطلقة في الله»⁽²⁾.

ومن أساليب القصر التي جاء فيها النفي والاستثناء قصر الصفة على الموصوف في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (هود: 63)، أما إن عصيت بالمساهلة في تبليغ الرسالة، ومجاراتكم فيما تأتون وتذرون ولا تفيدونني غير تخسيري وإبطال عملي، وقد ذكر أبو السعود أن "تزيد" بمعنى تُفيد إذ لم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيده⁽³⁾.

يقول صَبَّاح عبيد دراز: «ولم يوضح أحدهم سر استعمال الفعل زاد دون سواه، ويبدو - والله أعلم - أنه لزيادة التهويل، واستبعاد عصيان الله تعالى، وأن مجرد التفكير في ذلك يوقعه في

¹ - صَبَّاح عبيد دراز، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، مطبعة الأمانة، مصر، ط 1، 1986، ص: 195، 196.

² - المرجع نفسه، ص: 196.

³ - ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 4، ص: 221.

الخسار العظيم، ولعل مما يصعد هذا الشعور بالاستبعاد والتهويل أنه عبر بلفظ الجلالة بعد ذكر (ربي) في الآية قبلها وذكره -جلّ وعلا- أدل على مواقف الأخذ والانتقام، ولذا نفهم دلالة الصياغة (تخسير) دون خسار مثلاً، أي تجعلوني أكثر خساراً فكان اتباعهم يضاعف الخسار مرتين بالفعل "تزيد" والمصدر "تخسير" وهو مناسب في القرآن في تضعيف الجزاء خيراً حقيقة أو شراً تقديراً وفرضاً للرسل والأنبياء»⁽¹⁾.

ومن أمثلة تقديم ما حقه التأخير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَأَرْهَطُوا رَهْطَكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾، (هود: 91)، ذكر الزمخشري أن التقديم فيه للاختصاص، وأنهم يريدون نفي ذلك عن سيدنا شعيب "عليه السلام"، خصوصاً بخلاف قومه فإنهم أعزّة عليهم، فكانتهم قالوا: وما أنت بعزيز علينا بل رهطك هم الأعزّة علينا، لذلك قال في جوابهم: ﴿أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾، (هود: 92)، ولو قيل: وما عززت علينا لم يصح هذا الخبر⁽²⁾، «هذا وإن كان واضحاً في أن خصوصية هذا التركيب تفيد القصر فليس فيه دلالة على لزومه»⁽³⁾.

ومن شواهد القصر "إنما" في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، (هود: 12).

يقول ابن عاشور: «والقصر المستفاد من (إنما) قصر إضافي، أي أنت نذير لا موكل بإيقاع الإيمان في قلوبهم إذ ليس ذلك إليك بل هو الله، كما دلّ عليه قوله قبله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ فهو قصر قلب^(*). وفيه تعريض بالمشركين برد اعتقادهم أنّ الرسول يأتي بما يُسأل عنه من الخوارق فإذا لم يأتهم به جعلوا ذلك سندا لتكذيبهم إياه ردّاً حاصلًا من مستتبعات الخطاب، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ إذ كثر في القرآن ذكر نحو هذا الجملة في مقام الرد على المشركين والكافرين الذين سألوا الإتيان بمعجزات

¹ - صباغ عبيد دراز، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، ص: 59، 60.

² - الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ص: 230.

³ - محمد أبو موسى، دلالات التركيب دراسة بلاغية، ص: 181.

^(*) - قصر قلب: «وهو الوجه لمن يُراد إعلامه بخطأ تصوّره نسبة المقصور إلى غير المقصور عليه»، عبد الرحمن حسن حَبْنَكَة

الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص: 545.

على وفق هواهم. وجملة ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ لما اقتضاه القصر من إبطال أن يكون وكيلاً على إجتاههم للإيمان⁽¹⁾.

وقد ورد القصر "بإنما" حكاية عن نوح "عليه السلام": ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾، (هود: 33)، رداً على قول قومه: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (هود: 32)، إنَّ نوح "عليه السلام" لم يؤكد لهم العذاب ولم يحاول أن يزهد أمامهم بقدرة لا يملكها، فهو قد أعلن لهم -في البداية- أنه يخاف عليهم عذاب يوم إليم، ولا يزال خوفه حاضراً، لا سيما وقد تمردوا من غير حُجَّة ولا برهان، وإنهم يطلبون العذاب الذي ينذرهم به على سبيل التحدي وقد فاتهم أن الله هو الذي يملك أمر العذاب وأنَّ كلَّ شيء يأتي بإرادته وعلمه، «ولهذا جاءت جملة القصر تؤكد هذه الحقيقة ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ لا أنا كما قلت، واستعمال (إنما) خاصة للإشعار بأن ما دخلت عليه ينبغي أن يكون معلوماً، لأن نبي الله بشر مثلهم لا يملك الثواب أو العقاب ولكنه مبلغ فحسب، فهو من قصر الصفة على الموصوف قصرًا حقيقياً⁽²⁾.

وأما القصر بضمير الفصل جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (هود: 19)، برز ضمير الفصل (هم) للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة وأن غيرهم مؤمنون بها⁽³⁾، والقصر هنا لتخصيص كفرهم بالآخرة والجزاء، جاء في حاشية القنوي على تفسير البيضاوي قوله: «الاختصاص مستفاد من تقديم المسند إليه على الخبر المشتق كاستفادته من تقديمه على الخبر الفعلي كما يفيد قصر كفر الآخرة بهم، فالباء في اختصاصهم بهذا على المقصور وهذا القصر ادعائي مبالغة في كفرهم وتمردهم فيه، وهذا بناء على أن المراد كفره مخصصون وإن أريد جميع الكفرة كما هو الظاهر إذ لا قرينة قوية على الخصوص⁽⁴⁾.

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 18.

² - دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية، ص: 157.

³ - ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج3، ص: 190.

⁴ - عصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي، حاشية القنوي على تفسير الإمام البيضاوي، ج10، ص: 53.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ (هود: 22)؛ حيث برز ضمير الفصل (هم) للدلالة على أنهم أشد خسرانا في الآخرة من غيرهم، لذلك جاء ضمير الفصل يفيد القصر «وهو قصر ادّعائي، لأنهم بلغوا الحد الأقصى في الخسارة، فكأنهم انفردوا بالأخسرية»⁽¹⁾.

المبحث الثالث: الأدوات البديعية ودورها المعماري في سورة هود:

الألفاظ في أسلوب القرآن لها جمالها المميز، ووقعها النغمي وتناسقها مع المعنى، وائتلافها مع دلالات المعاني المصاحبة، إنها متماسكة مع أخواتها، متلاصقة مع رصفائها، متّحدة مع السياق، و متمشية مع المعنى والغرض، ولا تزال الدراسات البلاغية القرآنية وقبل قرون مضت إلى يومنا هذا تُجلي الأسرار البديعة في نظم القرآن فهو المعجزة البيانية التي أكتمل فيها جمال النبوة اللفظية، واندمجت بالمضمون الفكري الهادف، مما جعلهم يستلهمون من أفكاره وأساليبهم ما يُغني مُعِينهم الفكري.

فالأسلوب القرآني في بنائه التعبيري اعتمد على عناصر كثيرة، أسهمت بدورها في توصيل القيمة الفكرية والجمالية إلى ذهن المتلقي فتملكت عليه جميع أفكاره، واجتذبت لها جميع حواسه بما أسهمت من دور بارز في تحقيق الوحدة الفنية الجمالية في السور.

ولقد حفلت سورة هود بخضم زاخر من هذا الإعجاز الرائع، ساعد عليه تجسيد كل صورة بديعية في وحدة جمالية صغرى محكمة كل واحدة على حده، ومن ثم تلاحمها جميعاً في وحدات جمالية كبرى تتناسق وتنسجم مع بعضها البعض، بما يجمع بينها من نسيج جمالي واحد، ومن ثم رصفها جميعاً في صورة هندسية داخل السورة الكريمة.

ويكفي أن تمثل لخصوصية هذه السورة الكريمة في هذا الجانب ما تحمله الآية العظيمة في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود: 44، 45).

فقد اشتملت هذه الآية على عدد من الألفاظ الموحية التي يدل كل لفظ منها على عظمة الخالق - جلّ جلاله -، ومن خلال هذه الألفاظ البديعية تتكشف لنا حلاوة النظم وقيمة التسق

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 39.

الفني والانسجام بين العبارات، وقال عنها ابن أبي الإصبع المصري^(*) (ت654هـ) أنّ فيها أحد وعشرين ضرباً من البديع، على النحو التالي⁽¹⁾:

- 1 - المناسبة اللفظية التامة، بين (ابلعي) و(أقلعي). فقد جمع بين اللفظين وهما ههنا موزونان مقفيان بزنة وقافية واحدة وهذا هو معنى المناسبة التامة.
- 2 - المطابقة اللفظية بين (السماء) و (الأرض).
- 3 - الاستعارة في قوله (أقلعي) و (وابلعي).
- 4 - المجاز المرسل في قوله تعالى (يا سماء) والحقيقة: يا مطر السماء أقلعي والعلاقة: المجاورة أو المحلية؛ لأنها محلها بما يتجمع فيها من سحب.
- 5 - الإشارة: وهي أن يدل اللفظ القليل على المعنى الكثير بحيث يكون اللفظ لمحة دالة. وذلك في قوله تعالى: (وغيض الماء) لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج منها من عيون الماء، فدل هذا التركيب القليل (وغيض الماء) على أنّ كل ذلك حدث.
- 6 - الإرداف: في قوله تعالى (استوت على الجودي) وقد عرفه ابن أبي الإصبع المصري بقوله: «هو أن يريد المتكلم معنىً فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظ الإشارة الدال على المعاني الكثيرة، بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص وتابعه، قريب من لفظ المعنى الخاص قُرب الرديف من الرُدْف»⁽²⁾، فلفظ استوت كلام تام، أردفه بلفظ (على الجودي) قصداً للمبالغة في التمكن في ذلك المكان، ولذلك عبر عن استقرارها في المكان بلفظ قريب من لفظ المعنى.
- 7 - التمثيل: وعرفه ابن أبي الإصبع المصري فقال: «هو أن يريد المتكلم معنىً فلا يعبر عنه بلفظه الخاص ولا بلفظي الإشارة والإرداف بل هو أبعد من لفظ الإرداف...»⁽³⁾، كما في قوله تعالى:

^(*) - هو أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد المصري، المعروف بن أبي الإصبع، قيل أنه ولد بمصر سنة 585هـ، وهي السنة التاسعة من ولاية صلاح الدين الأيوبي على مصر، من أبوين لا يُعرف لهما =نسبا، له مؤلفات منها: (تحرير التحبير) ألفه في بديع الشعر والنثر، ومن آثاره أيضاً كتاب (بديع القرآن)، وبعض قصائده الشعرية، توفي سنة 654هـ. ينظر: ابن أبي الإصبع المصري، بديع القرآن، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، (د.ت)، ج1، ص: 67 وما بعدها.

¹ -المرجع نفسه، ج2، ص: 341، 342.

² -ابن أبي الإصبع المصري، بديع القرآن، ج2، ص: 83.

³ -المرجع نفسه، ج2، ص: 85.

(وقضي الأمر) عبّر بالأمر عن إهلاك الهالكين، ونجاة الناجين. ومنه: (واستوت على الجودي) فإن حقيقة ذلك: وجلست على هذا المكان، فعدل عما فيه زيغ إلى ما لا زيغ فيه ولا ميل ولا حركة ولا اضطراب، فإن بهذا الجلوس تسكن قلوب أهل السفينة فحصل تمام الأمن وتمام السكينة، ولا يحصل هذا من قولنا: (جلست)، فلذلك عدل عن لفظ الحقيقة إلى لفظ التمثيل⁽¹⁾.

8 - التعليل: لأن (غيض الماء) علة الاستواء.

9 - صحة التقسيم: حيث استوعب - سبحانه - حالة الماء حين نقصه، إذا ليس إلا احتباس ماء السماء، واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغيض الماء الحاصل على ظهر الأرض.

10 - الاحتراس: في قوله (وقيل بعداً للقوم الظالمين) محترساً من توهم متوهم أن الماء ربما قد عمّ من لا يستحق الهلاك، وقد تحقق (الاحتراس) بالدعاء على الهالكين بأنهم مستحقوا الهلاك.

11 - الانفصال: لأن لقائل أن يقول: إن لفظة (القوم) يستغنى عنها للمعنى إذ لو قيل (وقيل بعداً للظالمين) لتم الكلام، «والانفصال عن ذلك أن يقال لما سبق في صدر الكلام قبل الآية قوله تعالى (وكلما مر عليه ملاً من قومه سخرؤا منه)، وقال سبحانه مخاطباً نوح عليه السلام: (ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون)، فاقترضت البلاغة أن يؤتى بلفظة القوم التي آلة التعريف فيها للعهد، لتبين أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم في الآيتين السابقتين، فحصل الانفصال عن الإشكال وعلم أن لفظة القوم ليست فضلة في الكلام»⁽²⁾.

12 - المساواة: لأن لفظ الآية لا يزيد على معناه ولا ينقص عنه.

13 - في عطف القضايا والجمل في سرد القصة بعضها على بعض حسبما وقعت الأول فالأول وبحسب ما تقتضيه البلاغة.

14 - ائتلاف اللفظ مع المعنى: لكون كل لفظة لا يصلح غيرها مكانها؛ ولأن «كل لفظ فيه قد ائتلف مع معناه، فهما مُقدّران بقدر، وموضوعان بحكمة هذا اللون.. بل القرآن كله موصوف بائتلاف ألفاظه مع معانيه»⁽³⁾.

¹ - ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص: 85.

² - المرجع نفسه، ج2، ص: 341.

³ - عبد العظيم ابراهيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ج2، ص: 461.

- 15 - الإيجاز: لأن الله - سبحانه - اقتصر القصة بلفظها مستوعبة، بحيث لم يخل منها بشيء، في أخصر عبارة، وبألفاظ غير مطولة.
- 16 - التسهيم: «هو أن يكون في أول الكلام ما يدل على آخره لأنها تقتضيه»⁽¹⁾، والتسهيم في الآية من أولها إلى قوله تعالى: (أقلعي) يقتضي آخرها.
- 17 - التهذيب: لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، كل لفظة سهلة مخارج الحروف عليها رونق الفصاحة.
- 18 - حسن البيان: فإن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه.
- 19 - التمكين: لأن الفاصلة مستقرة في قرارها. مطمئنة في مكانها غير قلقة ولا مستكرهة.
- 20 - الانسجام: وهو تحدر الكلام بسهولة وعضوبة سبك مع جزالة اللفظ.
- 21 - الابداع: وهو في مجموع الآية، إذ في كل لفظة بديع وبديعان.
- وهناك إضافة مهمة في الآية العظيمة عن عظمة الخالق هي: «أنه تعالى لم يصرح بفاعل، غيظ، وقضي، وقيل، كما لم يصرح في صدر الآية بقائل قيل: وكذا لم يصرح بمن سوى السفينة تبيهاً على أن تلك الأمور العظام لا يتصور وقوعها إلا من قادر لا يُكْتَنه، وقهَّار لا يُغالب، فلا يذهب الوهم إلى فاعل غيره، ولا ينشط الخيال إلى مدى أبعد من هذا المدى، وقيل في وجه العدول عن تصريح الفاعل إشارة إلى أن هذه الأمور أهون عند الله تعالى من أن يُنسبها إلى قدرته صراحة»⁽²⁾.

وإذا عدنا إلى السورة الكريمة؛ فإننا نجد لها قد حفلت بفنون البديع والبيان، وتزيّنت آياتها بألوان متعددة من هذه الفنون.

لقد عنى البلاغيون والنقاد باستخلاص فنون البديع، وإضافة الجديد إلى فنونه، باعتباره تقنيات فنية ترتقي بالتعبير إلى تصيد المعاني والدلالات لتقديمها في قوالب لفظية تستثير إعجاب المتلقي؛ لِمَا تحمله من إبداع فني يتمثل في الأسلوب الأعمق الذي يتصل بالفصاحة المعنوية زيادةً على سعيه لضبط جهات الحسن في الكلام؛ فالبديع يجمع كل معاني الجدة والبراعة، وهو علم:

¹ - المرجع نفسه، ج2، ص: 463.

² - محي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج3، ص: 436.

«يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة»⁽¹⁾؛ فالبدائع الجمالية لا تُضاف اعتباراً دون حسٍ رفيع بالجمال، لذلك أضافوا لها شروطاً بالغة الأهمية، ومن أهمها: «الإتقان البالغ، والطبيعية، والتلقائية، وإخفاء قصد التجميل والتزيين بها، حتى لا يشعُر دَوَّاقوا الجمال الملاحظون لها في نظراتهم الأولى أنّها مصنوعة بتكلف، بل يشعرون أنّها واردة بتلقائية السلوك المعتاد»⁽²⁾.

إنّ جمال القرآن اللغوي ظاهرة اختص بها البيان الإلهي في أدائه التعبيري ضمن الأسلوب البياني الرائع، فنجد الخطاب القرآني يزخر بمختلف أصناف البديع التي سطرها أرباب البلاغة في كتبهم، ولكنها لم تكن للزينة فقط وإنما كلُّ لفظ في القرآن له معنى قائم بذاته وفيه إشعاع نوراني يتضافر مع جملة، ويساعد بعضه بعضاً في المعاني العامة للأسلوب والعبارات الجامعة⁽³⁾، ولقد مثل القرآن لهذا التصوير «تمثيلاً راقياً ترفع به عن الكلفة والصنعة التي زخرت وتزيّنت بها قصائد الشعراء وخُطب الخطباء وكتب الأدباء والبلغاء، بل قدّم لنا بأسلوبه المعجز نماذج أصلية تتسم بالوفرة في المعنى، والاقتصاد في اللفظ، والجمال في الوقع، والتلاحم في الصياغة، مما جعله مثلاً يقتدى به ونموذجاً يُحاكى على منواله لكل من طلب (الجمال مع الإحكام)»⁽⁴⁾.

قسم العلماء البديع من حيث الحسن إلى قسمين⁽⁵⁾:

أ - المحسنات الجمالية المعنوية: هي ما يشتمل عليه الكلام من زينات جمالية معنوية قد يكون بها أحياناً تحسين وتزيين في اللفظ أيضاً ولكن تبعاً لأصالة.

ب - المحسنات الجمالية اللفظية: هي ما يشتمل عليه الكلام من زينات جمالية لفظية، قد يكون بها تحسين وتزيين في المعنى أيضاً، ولكن تبعاً لأصالة.

وأحاول بيان مواضع الحسن البديعي في سورة هود "عليه السلام" من خلال عرض بعض النماذج البديعية فيها، ودورها الوظيفي في تحقيق الوحدة الفنية داخل معمارية السورة.

1 - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 255.

2 - عبد الرحمن حسن حبّكة الميداني، البلاغة العربية، أسسها، وعلومها، وفنونها، ج2، ص: 368.

3 - ينظر: محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص: 109.

4 - كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم، ص: 255.

5 - عبد الرحمن حسن حبّكة الميداني، البلاغة العربية، أسسها، وعلومها، وفنونها، ج2، ص: 369.

المطلب الأول: ألوان البديع المعنوي:

حَفَلَتْ سورة هود بألوان متعددة من المحسنات المعنوية ومنها:

أولاً - الالتفات: لعل وأسع تعريف للالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة، كما ورد في كتاب "البديع" لابن المعتز^(*) (ت296هـ) إذ يعرفه بقوله: «هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر»⁽¹⁾. وبتعريف آخر: «هو نقل الكلام من حالة إلى حالة أخرى مُطلقاً»⁽²⁾.

ويُعدُّ أسلوب الالتفات من بديع فنون البلاغة، ولون من ألوان الصياغة أضافه كثير من المتأخرين إلى البديع، وهو فن يُعين المتذوقين على الإيحاء بكثير من اللطائف والأسرار التي تكمن وراءه، وله قدرة على استجلاء النفوس الواعية، واستمالة القلوب إلى كثير من المزايا وذلك بإيقاظها وتحريكها.

وهو أسلوب لطيف من أساليب اللغة العربية، وملمح دقيق من ملامح النظرية الأسلوبية الحديثة، وهو على المستوى الفني «من المظاهر التي تتحكم في الأساليب بصيغة الحضور الفاعل المؤثر، وكأنَّ الالتفات - وهو يواصل أداء دوره الفني - يُحقق الاستجابة الطبيعية لنزوع الإنسان إلى التنوع والتجديد في أساليب تعبيره وصيغ كلامه»⁽³⁾.

^(*) - عبد الله بن المعتز: هو الخليفة أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد، الذي وُلِّيَ الخلافة يوماً وليلة ثم مات مقتولاً سنة 296هـ. وقد ذكر في كتابه (البديع) ثمانية عشرة نوعاً من أنواع البديع. ومما جاء في مقدمته: «وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحدٌ»، ابن المعتز، كتاب البديع، شرحه وحققه: محمد مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، ط1، 2012، ص: 9.

¹ - عبد الله بن المعتز، كتاب البديع، ص: 73.

² - حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة العربية، دار الفكر العربي، (د.ط.)، 1998، ص: 55.

³ - جليل رشيد فالح، فن الالتفات في مباحث البلاغيين، مجلة آداب المستنصرية، كلية الآداب بالجامعة المستنصرية، العراق، العدد9، 1984، ص: 63، 64.

ومن فوائده: - يستعمل للتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه⁽¹⁾.

- تفسير الخصوصية البلاغية تفسيراً يكشف ما وراءه من مقاصد وأسرار، وذلك غاية ما يُطلب لقبول مثل هذه المخالفات الأسلوبية⁽²⁾.

ومن أمثله في سورة هود - عليه السلام - :

| أسلوب الالتفات | نوعه | دلالاته وفائدته |
|--|-------------------------------|--|
| 1 - في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾، (هود: 3). | الالتفات من الخطاب إلى الغيبة | الالتفات في قوله تعالى: (وَإِنْ تَوَلَّوْا) بصيغة الغيبة وذلك بعد قوله تعالى: (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) بصيغة المخاطبة وكان حق هذه المخاطبة «وإن تتولوا، حذفت إحدى التائين تخفيفاً» ⁽³⁾ ولكنه "سبحانه" صرفها عنهم عند توليهم وغياب ضمائرهم وبعدهم عن الحق إلى الضلال قال ابن عطية: «(وَإِنْ تَوَلَّوْا) بفتح التاء واللام، فبعضهم قال الغيبة، أي فقل لهم: إني أخاف عليكم» ⁽⁴⁾ مغبة توليكم «عما ألقى إليكم من التوحيد والاستغفار والتوبة... لأن العذاب علق بالتولي» ⁽⁵⁾ ، ثم عاد الأسلوب مرة أخرى إلى المخاطبة في مجال النصح والحرص على ما ينجيهم من عذاب يوم عظيم «وأن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ولكنه مما قد تقدّمه قول» |

¹ - ينظر: محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، (د.ط)، (د.ت)، ص: 371.

² - ينظر: ربيع محمد عبد المحسن، الالتفات في ضوء أساليب القرآن، رسالة ماجستير، إشراف: محمد حسنين أبو موسى، جامعة الأزهر، القاهرة - مصر، 1980، ص: 45.

³ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج11، ص: 318.

⁴ - ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2001، ص: 150.

⁵ - أبو السعود، تفسير أبي السعود المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج4، ص: 184.

| | | |
|---|--------------------------------------|--|
| <p>والعرب إذا قدمت قبل الكلام قولاً، خاطبت، ثم عادت إلى الخبر عن الغائب، ثم رجعت بعدُ إلى الخطاب»⁽¹⁾، وهذا التلوين من الخطاب إلى الغيبة يستهدف أغراضاً بلاغية لا يتضح المعنى إلا بتحقيقها ولهذا كان الالتفات إلى الغيبة أبلغ في هذا المقام.</p> | | |
| <p>الالتفات في الآية الكريمة في قوله (إِنَّ رَبِّي) بصيغة التكلم وذلك بعد مخاطبتهم بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وكان حق الظاهر أن يقول "إن ربكم رحيم ودود" تمشياً مع ما سبقه، حتى يكون على صيغة واحدة وهي صيغة الخطاب، فعبر أولاً عن الذات بطريق الخطاب ثم التفت فعبر عنها بطريق التكلم، قال ابن عاشور: «وتفنن في إضافة الرب إلى ضمير نفسه مرة وإلى ضمير قومه أخرى؛ لتذكيرهم بأنه ربهم؛ كيلاً يستمروا في الإعراض، وللتشرف بالانتساب إلى مخلوقيته»⁽²⁾، فاسناد هذه الكلمة -المحبة إلى شعيب -إلى ضمير خطابهم لما عساه يزيل تلك الفجوة التي فاضت بها نفوسهم المريضة لعلهم ينتهون وينتبهون إلى ربوبيته عليهم ويستشعروا فضائلهم التي تغمرهم فقال: «(استغفروا ربكم) أيها القوم من ذنوبكم بينكم وبين ربكم التي أنتم عليها مقيمون، من عبادة الآلهة والأصنام، ونحس الناس حقوقهم في المكاييل والموازين ثم توبوا إليه»⁽³⁾، مُبيناً لهم أنّ</p> | <p>الالتفات من الخطاب إلى التكلم</p> | <p>2 - وفي قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، (هود: 90).</p> |

¹ - ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج15، ص: 232.

² - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 147.

³ - ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج15، ص: 456.

| | | |
|--|--------------------------------------|--|
| <p>سبق الكفر والمعصية منهم لا ينبغي أن يمنهم من الإيمان والطاعة لأنه تعالى رحيم ودود يقبل الإيمان والتوبة من الكافر والفاسق لأن رحمته لعباده وحبهم لهم يوجب ذلك⁽¹⁾.</p> | | |
| <p>جاء الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجِينَا﴾، بصيغة التكلم وذلك بعد صيغة الغيبة التي كانت في حكاية قوم هود وكان مقتضى السياق - ولما جاء أمر الله - ولكن هذا التغيير في الصياغة يشعر بالفصل في الحكاية وتوجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين تنبيهاً وتنشيطاً لمخيلاتهم قال الألوسي: «وفي التعبير عنه بذلك مضافاً إلى ضميره جل جلاله، وعن نزوله بالمجيء ما لا يخفي من التفخيم والتهويل»⁽²⁾، فدل هذا الالتفات إلى نون العظمة على هذا الأمر المهول الذي لا تقف في وجهه العوارض.</p> | <p>الالتفات من الغيبة إلى التكلم</p> | <p>3 - وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ، وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجِينَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ يَرْحَمُهُ مِنَّا وَنَجِينَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (هود: 57، 58).</p> |

¹ - ينظر: فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج18، ص: 49.

² - شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج12، ص: 85.

| | | |
|---|---|--|
| <p>4 - قوله تعالى: ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (هود: 54).</p> | <p>الالتفات من التكلم إلى الخطاب</p> | <p>فالالتفات في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، والأصل أن يقل -أشهد الله وأشهدكم -فعدل من التكلم إلى الخطاب ليكون موازناً بمعناه⁽¹⁾ «ولا شك أنّ معنى إشهد الله على البراءة صحيح في معنى يثبت التوحيد، بخلاف إشهدهم»⁽²⁾؛ لأن إشهداه الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت أما إشهداهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم، ولذلك عدل به عن لفظه الأول لاختلاف ما بينهما وجيء بلفظ الأمر تمييزاً بين خطاب الله -تعالى - وخطابه لهم فصيغة الخبر أجل وأشرف وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر⁽³⁾.</p> |
| <p>5 - قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود: 12).</p> | <p>الالتفات من الصفة المشبهة إلى اسم الفاعل</p> | <p>في الآية الكريمة عدول السياق عن الصفة المشبهة (ضيق) إلى اسم الفاعل (ضائق)؛ ليدل على أن ضيق صدر النبي -صلى الله عليه وسلم - إنما هو ضيق طارئ لما يعرض له في تبليغ الرسالة من الشدائد، لأنه أفسح الناس صدراً، واسم الفاعل (ضائق) لا دلالة فيه على تمكّن وصف الضيق في صدره، بخلاف (ضيق) إذ هي صفة مشبهة وهي دالة على تمكّن الوصف من الموصوف⁽⁴⁾، ولذلك فمن «يريد الدلالة على ثبوت الوصف ودوامه نصّاً، فعليه أن يجيء بالصفة المشبهة، ومن يريد</p> |

¹ - ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2، ص: 14.

² - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص: 336.

³ - ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ص: 209.

⁴ - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 16، وينظر: الزمخشري، الكشاف، ج3، ص: 186.

| | | |
|---|--------------------------------------|--|
| <p>الدلالة نصاً على حدوثه وتقييده بزمن معين دون باقي الأزمنة، فعليه أن يجيء باسم الفاعل»⁽¹⁾، وهو ما نلمسه في هذا السياق إذ المقام - هنا - مقام دلالة على الحدث، وليس مقام ثبوت واستقرار، ويضيف ابن عاشور ملحظاً آخر وهو أن العدول إلى (ضائق) جاء لمراعاة النظير مع قوله (تارك)؛ لأن ذلك أحسن فصاحة⁽²⁾.</p> | | |
| <p>الالتفات في الآية الكريمة في قوله (وأشهدوا) بصيغة الأمر وذلك بعد قوله: (أشهد الله) بصيغة المضارع، ولم يقل وأشهدكم ليكون موازناً له، «ويعناه لأن إشهده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهدهم فما هو إلا تهاونٌ بهم، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول؛ لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: أشهد عليّ أي أحبك تهكماً به واستهانة بحاله»⁽³⁾، وقال الزمخشري: «فإن قلت: هلاً قيل: إني أشهد الله وأشهدكم قلت: لأن إشهد الله على البراءة من الشرك إشهد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده، وأما إشهدهم فما هو إلا تهاونٌ بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما</p> | <p>الالتفات من المضارع إلى الأمر</p> | <p>6 - قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ، إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتْرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (هود: 53، 54).</p> |

¹ - حسن عباس، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة - مصر، ط4، (د.ت)، ج3، ص: 307.

² - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 16.

³ - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2، ص: 14.

بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة...
تهكماً بهم واستهانة بحالهم»⁽¹⁾.

هذه بعض الأمثلة من أمثلة أخرى كثيرة متنوعة داخل السورة، تُبين مدى بلاغة التنويع والتلوين في سورة هود " عليه السلام"، ومدى تأثر النفس بهذا الانتقال من حالة لحالة أخرى، والقرآن الكريم استعمل الصيغ المناسبة للتعبير عن الأحداث والمشاهد المختلفة، مما لا يتسنى لبشر الإتيان بمثله وفي هذا قال ابن الأثير (ت 637هـ): «واعلم أيها المتوحش لمعرفة علم البيان أنَّ العُدُول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارهما، وفتش عن دفتنهما، ولا تجد ذلك في كل كلام [إلا في إبداع الخالق جل جلاله] فإنه من أشكال ضروب علم البيان، وأدقها فهماً وأغمضها طريقاً»⁽²⁾.

ثانياً - الطباق:

ويُعرَّف بأنه: «الجمع بين المتضادين في الجملة»⁽³⁾، فيكون بين معنى واحد وما يقابله. وهذا النوع يتصل بالمعنى، إذ يقع ضمن المحسنات المعنوية التي يكون التحسين فيها راجعاً إلى المعنى أولاً؛ وللطباق قيمة دلالية وفنية من حيث إيضاح المعنى وتقريب الصورة والتأثير النفسي للمتلقى، ولذلك نجد هذه القيم قد انطبقت في سورة هود من حيث تركيز السياق على بعض الألفاظ المتضادة في بعض مواضع آيات السورة الكريمة.

| القيمة الفنية | الطباق |
|--|---|
| تأكيد هدف الرسالة ومضمونها وقد جاء الطباق أو التضاد ليرسخ المعنى بين البشري والندارة؛ فهو بشير لمن آمن وأطاع ونذير لمن أعرض وأعصى، ويورد ابن عطية في هذا المعنى قوله: «وإذا أطلقت هاتان اللفظتان | 1 - (نذيرٌ وبشيرٌ) في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿ (هود: 2). |

¹ - الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 3، ص: 209.

² - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج 2، ص: 14.

³ - جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 3، ص: 284.

| | |
|---|--|
| <p>فالندارة في المكروه والبشارة في المحبوب وقدم النذير لأن التحذير من النار هو الأهم»⁽¹⁾.</p> | |
| <p>بيان قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق، وتدبيره ما فيهن من عجائب، وإحاطته بكل شيء علماً «وهو سياق هنا للربط بين النظام الذي يقوم عليه الكون والنظام الذي تقوم عليه حياة الناس»⁽²⁾، مما يزيد النفوس بصراً بالحقائق، وهذا بيان لعموم عبادة الكائنات كلها لله عز وجل، ومدى تأثيرها بأقوال المفترين على الله كذبا.</p> | <p>2 - (السموات والأرض) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (هود: 7).</p> |
| <p>جاء هذا التلوين العجيب بين الحالتين حينما طابق النعماء والضراء للدلالة على المبالغة على أن الإنسان مهما أوتي من النعماء، لا يذكرها حين يمس بشيء من الضر، وهذا ما أبرزه الطباقي بين الحالين، ومما يؤكد هذا ما جاء بعده في قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾⁽³⁾.</p> | <p>3 - (نعماء وضراء) في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَدْقَنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (هود: 10).</p> |
| <p>بيان عدالة الله عز وجل وأنه - سبحانه - لا يظلم عباده مثقال ذرة؛ «فهم قد عطلوا مداركهم، وتولوا عن الهدى، وكذبوا بالآيات، واستهزأوا بالوعيد، فصاروا إلى ما صاروا إليه ظالمين لأنفسهم لا مظلومين»⁽⁴⁾، ففي هذا التضاد «نفي سبحانه وقوع ظلم منه لعباده، وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم فكانوا سبباً في إهلاكهم، وفيه إشارة إلى عدل المولى سبحانه وتعالى»⁽⁵⁾.</p> | <p>4 - طباقي السلب (وما ظلمناهم / ظلموا أنفسهم) في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ (هود: 101).</p> |

1 - ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج 3، ص: 149.

2 - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ج 12، ص: 1857.

3 - ينظر: دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية، ص: 281.

4 - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ج 12، ص: 1927.

5 - المرجع السابق، ص: 282.

يتميز الطباق في سورة هود بحسّه الذي يختلف من آية لأخرى كما يعطي نسقاً وإيقاعاً جميلاً في الأداء الذي يجعل النظم من خلاله متميزاً؛ فالطباق في القرآن الكريم -ومثله كل فنون البديع - «يؤدي دوراً هاماً في مظاهر إعجازه، وهو سمة عظيمة من سمات أسلوبية قد سلم -مع كثرته - من التكلّف، بل هو آية الحسن، ومصدره العجب، بينما نرى كلّ مسرفٍ فيه يسير ثم يكبو، ويصيب ثم يخطيء...، فأنت ترى الفرق من حيث نزاهة الألفاظ، وجزالتها في القرآن، ثم دقة التعبير، وشرف المعنى [فهل أنت واجد في قول العرب نظير لهذا؟!]»⁽¹⁾.

ثالثاً - المقابلة: فهي «أن يؤتى بمعنيين متوفقين أو معانٍ متوافقة، ثم بما يقابلهما أو يقابلهما، على الترتيب»⁽²⁾.

وللمقابلة أثر قوي في توليد التوازن والجمال بين الكلمات والمعاني، وقد استخدم القرآن هذا النوع كأداة فنية مؤثرة في النفوس، وطريقة من طرق التصوير التي تُنسّق المعاني التي ترسمها الألفاظ، كما أنّ المقابلة قد أسهمت بدور فاعل في معمارية سورة هود "عليه السلام"، لما قدمته من تحديد لوجه السرّ البنائي الناتج عن التضاد أو المخالفة أو المماثلة.

| المقابلة | القيمة الفنية |
|--|--|
| 1 - في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود: 24). | وصف أحوال المؤمنين والكافرين، فقد قابلت الآية بين الأعمى والأصمّ، وبين البصير والسميع؛ وذلك أنه «لما ذكر انسداد العين أتبعه باسناد السمع. وبضد ذلك لما ذكر انفتاح البصر أعقبه بانفتاح السمع. فما تضمنته الآية الكريمة هو الأنسب في المقابلة الأتم في الإعجاز» ⁽³⁾ ، كما يظهر في هذا التقابل مراعاة التناسب باقتران الأعمى والأصم، واقتران البصير والسميع. |
| | التأكيد على براءة التهمة من الافتراء إلى غيرها من الشرك والتكذيب، فهو من التقابل بالمحذوف، ويسميه |

¹ - عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ج 2، ص: 419.

² - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، ص: 259.

³ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 3، ص: 466.

| | |
|---|---|
| <p>الزركشي (الحذف التقابلي)، والمقصود به: «أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من واحد منها مُقابله؛ لدلالة الآخر عليه، كقوله تعالى فالأصل فيه: فإن افتريته فعلي إجرامي وأنتم برآء منه، وعليكم إجرامكم وأنا بريء مما تجرمون، فنسبة قوله تعالى (إجرامي)، وهو الأول إلى قوله: وعليكم إجرامكم - وهو الثالث - كنسبة قوله: وأنتم برآء منه - وهو الثاني إلى قوله: (وأنا بريء مما تجرمون)، وهو الرابع، واكتفى من كل متناسبين بأحدهما»⁽¹⁾.</p> | <p>2 - وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (هود: 35).</p> |
| <p>المقارنة بين حال الأشياق، وبين حال السعداء.</p> | <p>3 - وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيَسْأَلُونَ عَذَابَهَا فَيُؤَخَّضُونَ عَنْهَا وَإِنَّ لَهُمْ فِيهَا عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (هود: 106، 108).</p> |

إنّ المقابلة في القرآن الكريم تتميز بالترتيب والتوازن مما يعطي نظماً وإيقاعاً جميلاً يستهوي النفوس، وقد جاءت هذه البنية البنائية الجمالية الرائعة لتدل على «أهمية وقيمة هذا المحسن البديعي الفريد ودوره الفاعل في تقديم التوكيدات والتنبيهات التي تعمل عملها في عقل وقلب المتلقي معاً، بدفعها إياه لعقد الموازنات والمقارنات، ومن ثمة اختيار أصلحها وأنفعها منها لواقعه، فيتنبه ويتعظ، ومن بعدها يهتدي للطريق الحق، الذي يبدأ أولاً بإخلاص العبودية لله تعالى وتنزيهه عن الشريك»⁽²⁾.

وبهذا يتضح لنا معنى تعريف التقابل الجمالي في النص القرآني كما ذكره حسن جمعة قائلاً هو: «بنية تقابلية لغوية بلاغية إيقاعية نسقية، تجسد بنية نقدية وفنية وجمالية تستند إلى علاقة

¹ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص: 129.

² - كليثم سعيد ناصر الخاطري، المعمار القصصي في سورة مريم، ص: 327.

المواجهة والتناسب والموازاة والتناغم في جملتين أو أكثر على جهة الائتلاف أو الاختلاف لتحقيق وظيفة من الوظائف تتجه إلى هدف ما في كل زمان ومكان لإفادة المتلقي وإمتاعه⁽¹⁾.

المطلب الثاني: ألوان البديع اللفظي:

من أهم المحسنات التي زخرت بها سورة هود (الجناس - رعاية الفواصل).

أولا - الجناس: فن بديع في اختيار الألفاظ، ويعد من المحسنات اللفظية، وزينتها، قال البلاغيون في تعريفه: هو «أن يتشابه اللفظان في النطق ويختلفان في المعنى»⁽²⁾. ولقد تعددت آراء العلماء في أنواعه، فمنهم من يزيد ومنهم من يقلل⁽³⁾.

- القيمة الفنية للجناس⁽⁴⁾:

- تعدد الإفادة مع أن اللفظ واحد.

- الجناس يحدث توازن وانسجام في الكلام وقوة أدائه الصوتي بما ينعكس على المعنى من بالقوة فضلا عن الإشارات والدلالات المرتبطة بمقام الجناس. ومن أمثله في السورة كما يأتي:

منه قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ (هود: 44)، فقد ورد الجناس الناقص بين (اقلعي) و (ابلعي)، وقد صور المعنى وأظهره في استجابة كل من الأرض والسماء لنداء المولى - سبحانه وتعالى -.

¹ -التقابل الجمالي في النص القرآني - دراسة جمالية فكرية أسلوبية، منشورات دار النمير، دمشق - سوريا، ط1، 2005، ص: 90.

² - عبد الرحمن حسن حَبَّكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج2، ص: 485.

³ - نوجز أنواع الجناس بتقسيمها المشهور: **الجناس التام:** "هو ما تفق فيه اللفظان، في نوع الحرف، وأعدادهما، وهيئتهما، وترتيبهما". أي تشابه اللفظتين وتماثلهما مع اختلاف المعنى.

الجناس الناقص: ويسميه بعضهم المضارعة وه "ما اختلف فيه اللفظان في هيئة الحروف، واتفقا في نوعها وعددها وترتيبها"، عبد الرحمن حسن حَبَّكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ص: 487، 488، 49.

⁴ - دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية، ص: 315.

ومن الجناس الاشتقاق^(*) قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ (هود: 3)، فالفضل الأول بمعنى العمل والفضل الثاني الثواب⁽¹⁾. ومثال هذا النوع في قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُسَّ السَّوْرِدُ الْمَوْرُودُ، وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُسَّ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (هود: 98، 99)، فجناس بين: الورد والمورود، وبين: الرفد والمرفود.

فالجناس في السياق القرآني يأتي على سجيته متآلفاً متناغماً على وتيرة واحدة، في غاية الإحكام والإبداع، ويتعد عن الكلفة والتصنع الذي يعتري كلام البشر.

ثانياً - الفواصل:

الفاصة القرآنية: هي آخر كلمة في الآية كقافية الشعر وقرينة السجع⁽²⁾، وقال الباقلائي (ت403هـ): «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني»⁽³⁾، وهي الكلام المنفصل مما بعده وقد يكون رأس آية وقد لا يكون، وتقع الفاصلة عند نهاية المقطع الخطابي، وسميت كذلك لأن الكلام ينفصل عندها، وفرق أبو عمرو الداني (ت444هـ) بين الفواصل ورؤوس الآي، فقال: «أما الفاصلة فهي الكلام المنفصل عما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آي وغيرها وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية فالفاصلة تعم النوعين، وتجمع الضربين»⁽⁴⁾ لأن كل رأس آية يفصل بينها وبين ما بعدها.

ولعل تسمية الفاصلة جاءت من قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1)؛ لأن فواصله إنما هي كلها بلاغة وحكمة فقد جاءت لتوضيح المعاني التي تحتاج إلى مثل هذا النوع من الألفاظ، وليس لتتميم السجع، بل جاءت لتؤدي معنى تتم به الفائدة ويطلبه السياق، وتقع عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام⁽⁵⁾.

^(*) - وهو توافق الكلمتين في الاشتقاق مع الاختلاف في المعنى، ينظر: حَبْنَكَةُ المِيدَانِي، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج2، ص: 498.

¹ - ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج4، ص: 100.

² - ينظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص: 290.

³ - أبو بكر الباقلائي، إعجاز القرآن، ص: 270.

⁴ - المرجع السابق، ج3، 290.

⁵ - ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، 54.

ولابد من الإشارة هنا أن الفاصلة القرآنية تزيد وتتفوق على القافية الشعرية والأسجاع الشعرية بشحنة المعنى المراد، ووفرت النغم الصوتي، والسعة في الحركة الحرة؛ فجاءت الفاصلة في القرآن الكريم «متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجباً، يلائم نوع الصوت، والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب»⁽¹⁾.

إن الجملة في القرآن وفي كل سورة من سوره قد أحكمت وأتقنت وفصّلت تفصيلاً وبياناً وبلاغياً عجباً، ورصفت في هيكلية بنائية بديعة، ونظّمت فيما بينها تنظيمًا مرسومًا، فكأنما كل واحدة خلقت لمكانها دون غيرها، لتؤدي وظيفتها في التأثير دينياً وفنياً وجمالياً فتأسره بإعجازها وبنظّمها، فتبارك الله الذي أحسن كل شيء صنعه.

فكل جملة من جمل القرآن وفي كل سورة من سوره، تشع بإيقاعها الصوتي الدال على الموضوع والغرض الذي نظمت له، وهذا ما يظهر لنا جلياً في سورة هود "عليه السلام".

ومن أنواع الفواصل في السورة الكريمة ما يأتي:

1 - قوله تعالى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود: 3)،

وفي ختم هذه الآية بلفظ (كبير) علاقة بمعنى ما سبقها؛ لأن تقديم الاستغفار هنا على التوبة ظاهر بيّن وأنه من باب تقديم المتحقق على المتعلق، فإذا تحقق العبد صدق الرجوع والندم على زلات الوقوع مدّ له ربه أسباب التوفيق وفتح له باب الاستقامة وإن أعرض عن ذلك أهلكه. يقول الشعراوي: «يوصف العذاب مرة بأنه كبير، ويوصف مرة بأنه عظيم، ويوصف مرة بأنه مهين؛ لأنه عذاب لا ينتهي ويتنوع حسب ما يناسب المعذب، فضلاً عن أن العذاب الذي يوجد في دنيا الأغيار هو عذاب يجري في ظل المظنة بأنه سينقضي، أما عذاب اليوم الآخر فهو لا ينقضي بالنسبة للمشركين بالله أبداً»⁽²⁾.

2 - قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (هود: 5)، لَمَّا ذَكَرَ -سبحان- قوله: (يثنون

¹ - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ط.)، 2005، ص: 150.

² - محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، ص: 6314.

صدورهم) وهو كناية عن إعراضهم، غاير في المعنى فقال: (يستغشون ثيابهم)، لذا فالعلم بذات الصدور ومكونها أدق وأخفى مما يعتقدونه من الاستخفاء، وقد جاءت هذه الفاصلة بعد تمام المعنى فأكسبها على جمالها جمالاً، وحدد معالمها، وميّزها عن غيرها، فكان هناك انسجاماً وتآلفاً بين مضمون الآية، وبين مضمون الفاصلة.

3 - قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (هود: 18، 19)، لعل المقصود من اختيار الفاصلة (الظالمين) وإعلان هذه الصفة التشهير والحزني مما يحيق بهم حينئذ لظلمهم بالكذب على الله، لإثبات كذبهم؛ لأن إثبات ذلك حاصل في صحف أعمالهم ولذلك لم يسند العرض إلى أعمالهم وأسند إلى ذواتهم (أولئك يعرضون على ربهم)، ثم بعد أن لعنهم الله ووصفهم بالظالمين⁽¹⁾ فقد أكد كلامه في قوله: (هم كافرون) في ختام الآية الأخرى «وهو توكيد يفيد تقوية الحكم؛ لأن المقام هنا مقام تسجيل إنكارهم البعث وصددهم عن سبيل الله وتقديره اشعاراً بما يترقبهم من العقاب المناسب فحكي به من كلام الأشهاد فحكي به من كلام الأشهاد ما يناسب هذا»⁽²⁾.

4 - قوله تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ (هود: 22)، من بديع النظم في هذه الفاصلة استعمال اسم التفضيل (الأخسرون)، بينما لم يستخدم اسم الفاعل في (الخاسرون) في سورة النحل: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (النحل: 109)، والسر البلاغي في ذلك أن «آية هود فيمن صدوا عن سبيل الله، وصدوا غيرهم، وضوعف لهم العذاب، وآية النحل فيمن صد هو، ولم يصد غيره، فكان الأولون أخسر من الآخرين، فجيء لهم باسم التفضيل»⁽³⁾.

5 - قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (هود: 51)، ختمت هذه الآية بفاصلة (أفلا تعقلون)، والسر في ختمه بهذه الفاصلة؛ «لأنه لما كان الخلاف الذي لا حظ فيه جهة الدنيا لا يحتاج الإنسان في الدلالة على أن صاحبه

¹ - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 12، ص: 32، 33، 34.

² - المرجع نفسه، ج 12، ص: 34.

³ - فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، ص: 230.

ملجأ إليه من جهة الله، وأنه لا نجاة إلا به إلى غير العقل بسبب عن قوله هذا الإنكار عليهم في قوله (أفلا تعقلون)»⁽¹⁾.

6 - قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود: 45)، ورد المدح بالفاصلة (أحكم الحاكمين) في بلاغة العدول على لسان نوح "عليه السلام" في المناجاة (وأنت أحكم الحاكمين) ولم يقل (أرحم الراحمين)، قال الزمخشري: «أي أعلم الحكام وأعدلهم؛ لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، وفيه أدب الخطاب والدعاء»⁽²⁾، وقد علق الزركشي على الفاصلة (أحكم الحاكمين) قائلاً: «أفعل إذا أضيف إلى جنسه لم يكن بعضه، كقولك زيد أشجع الأسود وأجود السحب، فيصير المعنى زيد أشجع من الأسود، وأجود من السحب وعليه فمعنى (أحكم الحاكمين) أي أحكم من كل من تسمى بحاكم»⁽³⁾.

هذه بعض فواصل السورة ومعظم فواصل سورة هود انتهت بحرفي النون والميم وهما الحرفان الطبيعيان في الترتيل القرآني⁽⁴⁾، وأسلوب القرآن فريد في طريقتة، فهو يعمد إلى أنتقاء فواصل بعينها دون غيرها لتعبر عن الدلالات الفكرية المتضمنة للآيات فجاءت الفواصل «ممكّنة في مكانها مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضوعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلّقا معناها بمعنى الكلام كله، تعلقاً تاماً، بحيث لو طُرِحَتْ لا اختلّ المعنى واضطرب الفهم»⁽⁵⁾.

1 - برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج9، ص: 307.

2 - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص: 204.

3 - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج4، ص: 168.

4 - ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 150.

5 - محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، دار عمار، عمان - الأردن، ط2، 2000، ص: 286.

المبحث الرابع: الأدوات التصويرية ودورها في معمارية سورة هود:

الصور البيانية، هي المحيط الذي لا يعدوه كاتب أو أديب، بكل ما فيه من وسائل المقدره والبناء، لبناته كلماته الفصيحة، ولحمته صيغ البلاغة، وشكله الأسلوب أو الطريقة التي صيغ بها. والقرآن الكريم حافل بالكثير من الصور البيانية التي مثلت الإعجاز البلاغي في قمة الروعة والإبداع، فقد أحكم الله إعجاز نظمه، بما يجعل المتلقي على كثرة معرفته بفنون البيان، وسعة خبرته بضرور التصرف في أساليبه عاجزاً عن ملاحقة النص القرآني ومواكبته، «وإنّ كلّ كلمة من كلماته تُعطي صورة بيانية، وكلّ عبارة تجتمع من كلماته لها صورة بيانية تصور المعاني كالصورة الكاملة في تصويرها، التي تتكون أجزاءها من صور، وتتجمع من الصورة صورة متناسقة»⁽¹⁾.

-تعريف الصورة الفنية:

للتصوير جماليته الفنية التي تؤثر على العقل والقلب معاً، وتخطب الذهن بأرقى عملياته الفكرية والإدراكية، وتخرق كوامن الوجدان في أجمل هيئاته وأشكاله.

فالصورة لغة: «تخيّل الهيئة أو الشّكل الذي يتميّز به الموجودات على اختلافها وكثرتها، ولأنّ لكلّ شيء صورة خاصة وهيئة مفردة يّتميز بها»⁽²⁾.

اصطلاحاً: انحصرت الصورة لدى الباحثين القدماء في التصوير البلاغي، من مجاز واستعارة وتشبيه وكناية، وقد تجاوز النقد الحديث هذا التضييق في مفهوم الصورة الفنية^(*)، «فلم تعد الصورة البلاغية هي وحدها المقصود بالمصطلح، بل قد تحلّو الصورة -بالمعنى الحديث - من المجاز

¹ - محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، (د.ط.)، 1970، ص: 101.

² - ابن منظور، لسان العرب، مادة (صور)، ج4، ص: 473.

^(*) - اختلف مجال الصورة نتيجة لاختلاف مفاهيمها، فمن النقاد من توسع فيها بحيث تشمل العمل الأدبي بجميع أبعاده، وكأن الصورة عند هؤلاء نوع من تصور الوجود، أو كأنها تساوي ما يسميه بعض النقاد الرؤيا أو عالم الكاتب والشاعر، وفي مقابل هذا نجد نقاداً آخرين يكادون يحصرّون الصورة في الاستعارة والتشبيه، ثم كانت آراء الباحثين مختلفة في الأخذ بمفهوم الصورة، فرأي يلغي دراسة التشبيه والاستعارة والكناية على وفق منهج البلاغة العربية ويدخلها في الصورة الأدبية. ورأي يجد أن دراسة التشبيه والمجاز والكناية تحت مصطلح (الصورة والخيال)، يطمس مادة علمية ارتبطت بهذه الأبواب، ويغفل الأثر القرآني فيها. ورأي يساوي بين الدراستين، حيث يمكن القول إنّ حديث القدماء عن التشبيه والاستعارة والتمثيل والكناية والمجاز هو حديثنا اليوم عن الخيال، وعن الصورة الشعرية. ينظر: شكري محمد عياد، مدخل إلى علم الأسوب، مكتبة مبارك العامة، مصر، ط2، 1992، ص: 56. وينظر: محمد أبو موسى، التصوير البياني، ص: 18، 19.

أصلاً، فتكون عبارات حقيقية الاستعمال، مع ذلك في تشكّل صورة دالة على خيال خصب»⁽¹⁾، وصار ينظر إلى الصورة الفنية على أنها تجمع بين هذين المفهومين المفهوم البلاغي القديم، والمفهوم النقدي الحديث.

فالصورة عند النقاد «هي كل ضربٍ من ضروب المجاز يتجاوز معناها الظاهر، ولو جاء منقولاً عن الواقع»⁽²⁾.

ويعرفها الصادق العفيفي بقوله: «هي تجسيم للأفكار والخواطر النفسية والمشاهد الطبيعية حسية كانت أم خيالية على أساس التآزر الجزئي، والتكامل في بنائها والتناسق في تشكلها والوحدة في ترابطها والإيحاء في تعبيرها»⁽³⁾.

ويُعرف محمد طول الصورة الفنية بقوله هي: «بنية لغوية تتخذ منها الكلمات نسقاً معيناً في إطار من العلاقات المتميزة وفقاً لأحاسيس المبدع وأفكاره، فيخرجها في شكل يتجاوز المألوف ويغالب الدلالة الحرفية»⁽⁴⁾.

وتُعدُّ الصورة الأدبية بما تحمله من قيم جمالية ومعنوية الأساس الذي يميّز به العمل الأدبي^(*)؛ لأنّ مجال التصوير في النصّ الأدبي هو الذي يخلق التأثير في نفس السّامع أو المتلقي،

¹ - علي البطل، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983، ص: 25.

² - ساسين عساف، الصورة الشعرية، المؤسسة الجامعية لدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 1982، ص: 32.

³ - محمد الصادق العفيفي، الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث، دار الكشاف، القاهرة - مصر ط1، 1969، ص: 435.

⁴ - محمد طول، الصورة الفنية في القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تلمسان، 1995، ص: 20. نقلاً عن: بلحوسين نصيرة، الصورة الفنية في القصة القرآنية قصة سيدنا يوسف عليه السلام نموذجاً - دراسة جمالية، رسالة ماجستير، إشراف: رمضان كريب، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2006، ص: 36.

^(*) - تعتمد الصورة الأدبية «على التكامل في بنائها، الذي يُفضي إلى الوحدة الموضوعية في العمل الأدبي، وعلى التناسق في تشكلها بحيث يتم التناسب بينها وبين ماتصوره من عقل المنشئ ومزاجه تصويراً دقيقاً، وعلى الوحدة في ترابطها لتسوي عملاً فنياً، مع الإيحاء في تعبيرها، والتآزر الجزئي في تكاملها وإتمامها، فالصورة الأدبية عمل تركيبية يطلق على جزئيات العمل الأدبي في تشكل وحدته وتكامله»، محمد كريم الكواز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، مكتب الإعلام والبحوث والنشر بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، ط1، 1997، ص: 394.

«وإذا قيل الأديب، فاعلم أنه لا بدّ معه من التّصوير؛ لأنّ النّفس تخلق فتصوّر فتحسن الصورة، وإنّما يكون تمام التركيب وجمال صورته ودقة لمحاته، فإذا خلا من التّصوير عاد باباً من الاستعمال بعد أن كان باباً من التّأثير»⁽¹⁾.

-وظيفة التصوير في القرآن:

نجد التصوير ملمح أساسي في النص القرآني فهو «الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن، فهو يُعبّر بالصّورة المحسّنة المُتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأمامنا الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها فقد استوت لها كل عناصر التخييل»⁽²⁾.

كما أنّ التصوير الفني وسيلة مميزة ضمن وسائل القرآن الكريم ومنهجه التعبيري المعجز، «مّا يعطي للصورة بُعداً تجسيمياً وثقلاً تخيلياً مثيراً للذهن والوجدان. كما أنّه يوضّح العلاقة بين المعنى المراد إيجازه والتصوير المستعان به»⁽³⁾.

ومن وظائف التصوير في القرآن الكريم:

أ - إثارة النفس: التصوير في القرآن يكون تأثيره في النّفوس نافذاً حتى الأعماق و«إنّ الصورة تكون جديرة بهذا الإسم عندما تخلق الاستجابة الانفعالية، وإن لم تخلقها كُنّا أمام بلاغة فقط، وليس أمام صورة»⁽⁴⁾، فهي تصوير حي يلامس العقل والوجدان، وتحرص على إثارة الانفعالات في النّفوس على النحو الذي يؤثر في المتلقي.

1 -مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت -لبنان، ط4، 1977، ج2، ص: 211، 212.

2 -سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص: 71.

3 - محمد قطب عبد العال، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، العدد 99، 1990، ص: 42.

4 -محمد طول، الصورة الفنية في القرآن الكريم، ص: 24. نقلاً عن: بلحوسين نصيرة، الصورة الفنية في القصة القرآنية قصة سيدنا يوسف عليه السلام نموذجاً، ص: 39.

- ب - تحويل الواقع الحسي : ونقل « الأفكار التجريدية الجامدة إلى روح نابضة بالحياة والعاطفة والشعور ينصهر في الإحساس بالجمال مع الإيحاءات العميقة»⁽¹⁾، فوظيفة الصورة هنا «إقناع المتلقي بفكرة من الأفكار أو معنى من المعاني، فهي تُعتبر الخطوة الأولى في عملية الإقناع»⁽²⁾.
- ج - إثارة العقل : بتحريكه نحو التخيل الحسي والتجسيم الفني والتناسق الإبداعي.
- د - تهيئة المتلقي : فالقرآن الكريم «يجمع بين الهدف الديني والمطلب الفني من حيث الجمال في العرض، والتنسيق في الأداء، والتأثير في النفس، مما يُثير مكامن الوجدان، فتتفتح النفس لتلقي الطلب الديني في صفاء وجمال وجلال»⁽³⁾.

ومن أهم هذه التصويرات في معمارية السورة: التصوير بالتشبيه، التصوير المجازي الذي اندرج تحته التصوير بالاستعارة والمجاز المرسل، التصوير بالكناية، التصوير بالحقيقة.

المطلب الأول: التصوير بالتشبيه:

يعرف التشبيه بأنه «الدلالة على مشاركة شيءٍ لشيءٍ في معنىٍ من المعاني أو أكثر على سبيل التّطابق أو التّقارب لغرض ما»⁽⁴⁾.

وللتشبيه قيمة فنية جمالية؛ إذ إنه «يُضفي على المعنى شرفاً ووضوحاً ويزيده قوةً وتأكيذاً، ويرفع من قدر الكلام فتَهفو النفس له، ويتحرك القلب إليه، لأنه ينتقل بنا من المعنى الأصلي إلى صورة تُشبهه، وكلّما جلا التشبيه المعنى وزاده قوةً ووضوحاً، كان أملك للنفس وأبعد للتأثير»⁽⁵⁾.

1 - بلحوسين نصيرة، الصورة الفنية في القصة القرآنية قصة سيدنا يوسف عليه السلام نموذجاً، ص: 42.

2 - جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط3، 1992، ص: 332.

3 - محمد قطب عبد العال، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، ص: 5.

4 - عبد الرحمن حسن حَبَنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج2، ص: 162.

5 - عبد القادر حسين، القرآن والصورة البيانية، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط2، 1985، ص: 110.

ومن بعض مواطن التشبيه في سورة هود:

| القيمة الفنية والجمالية | الغرض | مواطن التشبيه |
|--|---|--|
| <p>تتجلى في هذه الآية عمق الصورة التشبيهية، وذلك بما يوحيه هذا التشبيه من إثارة السامع عن طريق الجمع بين الأضداد، إذ شبه الكافرين بالعمى الذين لا يستعملون أبصارهم في فهم آيات الله التي تزيدهم علماً وهُدًى وبالصم الذين لا يسمعون داعي الله إلى الرّشاد والهدى فيجيبونه ويهتدوا به، وهذا الفريق «الذي يعطلّ حواسه وجوارحه عن الغاية الكبرى منها، وهي أن تكون أدوات موصلة للقلب والعقل، ليدرك ويتدبّر فكأنما هو محروم من تلك الجوارح والحواس»⁽¹⁾، وشبه حال وشبه المؤمنين الذين انتفعوا بأسماعهم وأبصارهم، واهتدوا إلى الجنة، وتركوا ما كانوا خابطين فيه من كفر وضلال، بحال من هو سميع بصير، فيهتدي بسمعه إلى ما يُبعد من مواضع الهلاك، ويهتدي ببصره بواسطة النور حين السير في الظلام، وهذا الفريق الذي يهديه سمعه وبصره «في التدبّر والتّعقل عن الله بحال من جمع بين البصر والسمع حقيقة، في وصول الحق والهدى والرّشاد إلى النفس بسهولة في كلّ الأحوال لوجود الألات المهيأة لذلك»⁽²⁾.</p> <p>ومن لطائف هذا التشبيه أنه قدم حال الكافرين على حال المؤمنين تبعاً للسياق، فالآيات السابقات بدأت بذكر الكافرين وأحوالهم ثم ثنت بالمؤمنين ولهذا جاءت الآيات على الترتيب السابق، قال أبو</p> | <p>تقبيح المشبه والتّنفير منه في حال الكفار وتزيين المشبه والترغيب فيه في حال المؤمنين.</p> | <p>1 - قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود: 24).</p> |

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ج12، ص: 1868.

² - دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية، ص: 239.

| | | |
|---|--|--|
| <p>حيان الأندلسي: « ولما تقدّم ذكر الكفار، وأعقبَ بذكر المؤمنين، جاء التّمثيل هنا مبتدأ بالكافر، فقال: كالأعمى والأصم... ولم يجيء التركيب: كالأعمى والبصير والصم والسميع، فيكون مقابلة في لفظ الأعمى وضده، وفي لفظة الأعمى وضده، لأنّه تعالى لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع، ولما ذكر انفتاح البصر أتبعه بانفتاح السمع، وذلك هو الأسلوب في المقابلة والأتم في الإعجاز»⁽¹⁾.</p> | | |
| <p>وهذا المشهد من قصة الطوفان، حيث شبّه كلّ موجة من ذلك بالجبل في عظيمها وارتفاعها على الماء وتراكمها، وفي هذه الصورة التشبيهية تأكيد على إغراق الفئة الكافرة من قوم نوح -عليه السلام -بمن فيهم ولده، وجاءت هذه الصورة متناسقة مع السياق العام للآيات، حيث اختير تشبيه هذه الأمواج بالجبال لتأكيد غرق ابن نوح حتى وإن لاذ إلى جبل يعصمه من هذه الأمواج: ﴿قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (هود: 43)، «وإنّ الهول هنا يُقاس بمداه في النَّفس الحيّة -بين الولد والمولود -كما يُقاس بمداه في الطبيعة -حيث يطغى الموج على الذرى والوديان، وإنهما لتكافئان في الطبيعة الصامتة، وفي نفس الإنسان»⁽²⁾، إنّ السمع ليمسك نفسه في هذه اللحظات القصار ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾، ونوح الوالد يبعث بالنداء، وإبنة الفتى</p> | <p>بيان حال المشبّه وشدة الهول الذي حلّ بالناس في واقعة الطوفان.</p> | <p>2 -قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود: 42).</p> |

¹ -أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج5، ص: 214.

² -سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص: 58.

| | | |
|--|--|---|
| <p>المغرور، يأبى إجابة الدعاء، والموجة القوية العاتية تحسم الموقف في لحظة سريعة خاطفة⁽¹⁾، وهذا التشبيه يُبرز أيضاً «آثار قدرة الله في حماية عباده المؤمنين وسط هذا الخضم الزاخر الموار، الذي توحى شواهد بالهلاك المبين، كما يُبرز آثار هذه القدرة في تسخير هذا الكائن الصغير الذي هدى سيدنا نوح "عليه السلام" إلى صنعه وإتقانه إلى ما عم الأرض من الطوفان الذي ارتفعت وتراكت أمواجه، ومع ذلك فقد أحسّ ركبوه الإطمئنان والأمان والثقة بقدرة الله تعالى على انجائهم، لأنهم في معية الله لا يتخلى عنهم، وهذا هو ما يفعله الإيمان بنفس المؤمن، فلا ينهار أو يتزعزع ولو واجهته كل قوى الأرض، لأنه في كلاً الله ورعايته»⁽²⁾.</p> | | |
| <p>تشير هذه الآية أن مقاليد الخلق بيده -عزّ وجلّ- فهو المتصرّف في شؤونهم ولا يعجزه أحد، والناصية «ما انسدل على الجبهة من شعر الرأس، والأخذ بالناصية هنا تمثيلٌ للتمكّن، تشبيهاً بهيئة إمساك الإنسان من ناصيته حيث يكون رأسه بيدٍ آخذه فلا يستطيع انفلتاً، والمقصود من ذلك أنه المالك القهار لجميع ما يدبُّ على الأرض، فكونه ما لكاً للكُلِّ يقتضي أن لا يفوته أحدٌ منهم»⁽³⁾.</p> | <p>إظهار العظمة لله وهوان كل الأسباب والمسببات أمام قدرته.</p> | <p>3 - قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود: 56).</p> |

1 - ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص: 58.

2 - دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية، ص: 241.

3 - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 100، 101.

| | | |
|---|---|---|
| <p>تشبيهه بليغ، أي كالسحر، فالكلام من باب التشبيه البليغ؛ «حيث شَبَّهوا نَفْسَ العَبثِ أو القرآن المتضمن لذكره بالسحر في الخديعة، حيث زعموا أنه إنما ذكر ذلك لمنع الناس عن لذات الدنيا، وصرفهم إلى الإنقياد له، ودخولهم تحت طاعته، أو في البطلان، فإنَّ السحرَ لا شكَّ أنه تمويه، وتخييلٌ باطل، فشَبَّهوا الأمورَ المذكورة من العبث، والحساب، والجزاء في البطلان بالسحر»⁽¹⁾.</p> | <p>بيان تخيلهم الباطل والحياد عن جادة الصواب.</p> | <p>4 - قوله تعالى: ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (هود: 7).</p> |
| <p>حيث شبَّه الاستقامة بالمأمور بها بالاستقامة التي حُدِّتْ له مناهجها في التنزيل الحكيم، كالحكم بما أنزل الله، والتوكُّل عليه، والتبليغ... الخ، ذكر الألويسي عن أبي حيان قوله: «فإن قلت كيف جاء هذا التشبيه للاستقامة بالأمر؟ قلت: هو على حذف مضاف تقديره مثل مطلوب الأمر فكيف يكون مثلاً لها؟ قلت: مطلوب الأمر كلي والمأمور به جزئي فحصلت المغايرة وصح التشبيه كقولك صلِّ ركعتين كما أمرت»⁽²⁾، والحاصل أن الأمر الذي وجَّه للنبي "صلى الله عليه وسلم" «تنويهاً بشأنه فيشير إلى أنه المتلقي للأوامر الشرعية، وهذا تنويه له بمقام رسالته، ومعنى تشبيه الاستقامة بالمأمور بها بما أمر به النبيء "صلى الله عليه وسلم" لكون الاستقامة مماثلة لسائر ما أمر به، فهو تشبيه مجمل، ويؤول المعنى أن تكون الكاف في</p> | <p>وجوب امتثال الأوامر والنواهي في كل حال.</p> | <p>5 - قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود: 112).</p> |

¹ - محمد أمين بن عبد الله الأرمي العلوي، تفسير حدائق الروح والريحان في رَوَايِي علوم القرآن، إشراف ومراجعة: هاشم

محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت - لبنان، ط 1، 2001، ج 13، ص: 45.

² - شهاب الدين الألويسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 12، ص: 153.

| | |
|--|--|
| <p>معنى (على) كما يقال: كن كما أنت، أي لا تتغير ولتشبه أحوالك المستقبلية حالتك هذه»⁽¹⁾، فهو تشبيه مرسل مجل لذكره الأداة وحذف وجه الشبه: الالتزام بالحي.</p> | |
|--|--|

من خلال هذه الأمثلة ندرك بأن التشبيهات في السورة الكريمة رَسَمَتْ أروع الصور القرآنية، فكانت ذا شأن في إبراز خَفِيَّات المعاني، وتأثيرها في القلوب ما لا يؤثّرهُ وصف الشّيء في نفسه؛ لأنّ «التشبيه في القرآن يَصُبُّ اهتمامه كلّهُ على اقتراب الصورة من النَّفس، وقوّة تأثيرها ووضوحها، بالإضافة إلى أنّه ليس طرفاً إضافياً للعبارة، ولكنّه جزء هام مُتَمِّم للمعنى»⁽²⁾.

المطلب الثاني: التصوير بالمجاز:

إنّ كلّ لفظ وكل تركيب في اللغة لا بد من أن يُحمَل على أحدِ مَحْمَلين: إمّا أن يكون حقيقة، وإمّا أن يكون مجازاً، والمجاز ضد الحقيقة والمقابل لها، ولكي نتعرّف على المجاز لا بد من معرفة الحقيقة.

- الحقيقة لغة واصطلاحاً:

لغة: تعني الشيء الثابت، فحق الشيء أي ثبت⁽³⁾.

أما اصطلاحاً: فهي «اللفظ المستعمل فيما وُضِعَ له في اصطلاح به التخاطب»⁽⁴⁾.

- المجاز لغة واصطلاحاً:

لغة: «مصدر فِعْل (جَازَ) يُقال: جَازَ المسافر ونحوه الطريق، وجاز به جَوْزاً وجَوْزاً ومجازاً، إذا سار فيه حتى قطعه»⁽⁵⁾.

اصطلاحاً: هو «اللفظ المستعمل في غير ما وُضِعَ له في اصطلاح به التخاطب، على وجّه يَصِحُّ ضمن الأصول الفكرية واللغوية العامة، بقربنة صارفة عن إرادة ما وُضِعَ له اللفظ»⁽⁶⁾.

1 - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 176.

2 - بلحوسين نصيرة، الصورة الفنية في القصة القرآنية قصة سيدنا يوسف عليه السلام نموذجاً - دراسة جمالية، ص: 64.

3 - ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (حقق)، ج10، ص: 49.

4 - عبد الرحمن حسن حَبَنَكَة الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج2، ص: 217.

5 - المرجع نفسه، ج2، ص: 217.

6 - المرجع نفسه، ج2، ص: 218.

وينقسم المجاز في البلاغة إلى قسمين :

1 - المجاز اللغوي : وهو «ما كان مرجعه إلى اللغة لأنّ الكلمة استُعملت في غير ما وُضعت له ؛ أي في غير ما وُضعت له من حيث اللغة»⁽¹⁾.

2 - المجاز العقلي : «ويسمى بمجاز الإسناد وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة مع وجود قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي»⁽²⁾، وسمي مجازاً عقلياً ؛ لأنّ العقل هو الذي يتصرف في هذا الإسناد .

أ - المجاز العقلي : لهذا المجاز أثر كبير في المجال الفني فهو كما يقول عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) : «كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلح والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان، والاتساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعاً، وأن يضعه بعيداً المرام، قريباً من الأفهام»⁽³⁾.
ولمّا كان القرآن العظيم قد نزل بلغة العرب التي تحفل بالكثير من المجاز، فقد كان لا بد من أن يضم هذا الكتاب شطراً كبيراً منه .

وتجدر الإشارة إلى أنّ التعبير القرآني قد أثر المجاز في جوانب كثيرة منه على غيره وهو واحد من الأساليب المهمة التي تهيئ الجو المناسب للتأثير في المخاطب. ومن بعض مواضعه في سورة هود الكريمة :

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ (هود: 112)، يقول محمد حسين على الصغير: «لقد عبّر سبحانه وتعالى عن إرادته في الكينونة المطلقة، على سبيل المجازية (قيل) وإنما هي أمر كائن لا محالة، وكانت قرينة هذا المجاز خطاب من لا يعقل، وهو الجماد الذي لا يخاطب (يا أرض) و (يا سماء) إذ هو ليس مما يعي الخطاب، أو يدرك الأمثال، فكان ذلك قرينة لفظية في دلالة هذا المجاز العقلي. ولك أن تقول أن الله قادر على أن يخاطب الجماد، ويجب ذلك الجماد، فيكون ذلك على سبيل الحقيقة، وحتى لو حصل هذا على سبيل الإعجاز، فلا مانع

¹ - فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها: علم البيان والبديع، ج2، ص: 140.

² - محمد شعبان علوان، نعمان شعبان علوان، من بلاغة القرآن: المعاني - البيان - البديع، ص: 199.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 295.

منه ، ويبقى المدرك مجازياً لأنه في العموم خطاب لمن لا يعقل ولا يجيب ولا يسمع ولا يتكلم ، وإن سمع وأجاب وامثل على سبيل الإعجاز»⁽¹⁾.

ويظهر هذا النوع من المجاز في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتِنَا مِنْ رَبِّي وَأَنَّا نِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (هود : 28) ، وبيان ذلك أن «في إسناد العمى إلى البينة مجازٌ عقليٌّ تنزيلاً لها منزلة من يعقل ، وحقيقته أن الحجّة والبينة جعلت بصيرةً مبصرةً ، جعلت عمياً لأنّ الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره ، فعُمِّيَتْ عليكم البينة لم تهدكم ؛ كما لو عُمي على القوم رائدهم الذي يسير بهم في المتهات المظلمة ، والبوادي المتشعبة ، فبقوا حائرين يتخبطون ويلتمسون النّجاة من حيرتهم»⁽²⁾.

ومن علاقة المجاز العقلي^(*) الزمانية قوله تعالى : ﴿ أَنْ لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴾ (هود : 26) ، في هذه الآية الكريمة ينهي سيدنا نوح "عليه السلام" قومه عن عبادة غير الله - سبحانه - لأن ذلك سببٌ لعذابهم في الدنيا والآخرة ، «ووصف اليوم بالأليم مجازٌ عقليٌّ ، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم لأنّ شدة العذاب لما بلغت الغاية جعل زمانه أليماً ، أي مؤلماً»⁽³⁾ ، والعلاقة في المجاز هنا زمانية ، وقد أسند العذاب إلى اليوم وهو يوم القيامة ؛ لأن هذا اليوم هو زمان العذاب.

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ (هود : 84) ، قال ابن عاشور : «و(محيط) وصف ل (يوم) على وجه المجاز العقلي ، أي : محيط عذابه ، والقريظة هي إضافة العذاب إليه»⁽⁴⁾ ، فالיום لا عذاب له ، وإنما أشار إلى العذاب الذي سيحدث في ذلك

¹ - محمد حسين علي الصغير ، مجاز القرآن ؛ خصائصه الفنية وبلاغته العربية ، دار المؤرخ العربي ، بيروت - لبنان ، ط1 ، 1999 ، ص : 126.

² - محي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، ج3 ، ص : 339.

^(*) - والمراد بعلاقة المجاز العقلي «وجه الاستعمال المجازي وسببه الداعي إليه ، والرّكيزة المقتضية التي يُسند إليها هذا المجاز ، ولك أن تتجوّز في ذلك فتقول : إنّ العلاقة هنا هي المسوغ الفني ، أو المبرر الاستعمالي لهذه الصيغة المجازية دون الأصل الحقيقي» ، محمد حسين علي الصغير ، مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية ، ص : 132.

³ - محمد الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، ج12 ، ص : 44.

⁴ - المرجع نفسه ، ج12 ، ص : 137.

اليوم على سبيل المجاز العقلي بقرينة العلاقة الزمانية، وبلاغة المجاز هو المبالغة في هول ذلك اليوم، حتى صار كأنه الفاعل الحقيقي.

ومن صورالمجاز السببية قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي ^{*} أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: 31)، لقد جاءت الآية المباركة جزءاً من كلام رد به نبي الله نوح "عليه السلام" على الملائكة الذين كفروا من قومه، فهي إذن جواب لسؤال نشأ عن قول هؤلاء الكافرين، وهو رد على مجمل ما جادلوه به، أما المجاز العقلي فقد جاء في قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾، إذ أسند الإزدراء للأعين « وهو من أفعال النفس مجاز عقلي؛ لأنّ الأعين سبب الإزدراء غالباً؛ لأنّ الإزدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة عند الناظر»⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ (هود: 97)؛ فالعلاقة السببية في قوله (وما أمر فرعون برشيد)، فوصف أمر فرعون في هذه الآية بانتفاء الرشد عنه على سبيل المجاز العقلي، فكان اتباع قومه لهذا الأمر سبباً في ضلالهم في الدنيا والآخرة⁽²⁾.

ب - المجاز اللغوي: إن المجاز اللغوي ذو فرعين في التقسيم البلاغي، لأن مجاله رحاب اللغة في الانتقال بين الألفاظ من معنى إلى معنى، مع وجود القرينة الدالة على المعنى الجديد. فإن كانت العلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي هي المشابهة، فالمجاز يسمى استعارة، وإن كانت العلاقة غير المشابهة، فهو المجاز المرسل.

وقد قسم القزويني (ت739هـ) المجاز إلى مفرد وإلى مركب، والمركب ينقسم إلى مجاز مرسل واستعارة⁽³⁾.

^{*} -تَزْدَرِي: من الإزدراء ومعناه «الاحتقار والعيب، افتعال من الزراية، يقال: زريت عليه؛ إذا أعبته، وأزرت به إذا

قصرت»، محي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج3، ص: 413.

¹ -محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 58.

² -ينظر: أبو العسود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج4، ص: 239.

³ -ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 204، 205، 206.

أولاً: المجاز المرسل: وهو مجاز لغوي علاقته غير المشابهة «وتسميته بالمرسل نابعة من كونه غير مرتبط بقيود، فالإرسال في اللغة الإطلاق، وأرسله أطلقه، ولما كانت الإستعارة مقيدة بادعاء أن المشبه من جنس المشبه به، كان المجاز المرسل مطلقاً من هذا القيد»⁽¹⁾.

ومن أمثله في السورة الكريمة:

1 - قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (هود: 59)، تُبين الآية الكريمة فضاغة قوم هود وسوء أعمالهم، لدرجة أن عصيانهم لنبئهم كأنهم عصوا الرسل جميعاً، وإذا لاحظنا الآية وجدنا أن لفظة (رُسُلُهُ) هو من المجاز المرسل؛ أي «عصوا رسولهم هوداً وهذا يدل على فظيخ حالهم، ويبان أن عصيانهم له عصيان لجميع الرسل السابقين، واللاحقين، فهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل، وإرادة البعض»⁽²⁾، ففي هذه الآية عبر بلفظ رسله وأراد هود، والقريفة الحالية.

2 - ومن علاقات المجاز المرسل العلاقة الحالية، أي أن يذكر لفظ الحال ويراد به المحل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (هود: 103)، والمجاز في قوله (ذلك يوم مشهود) إذ وصف اليوم بصفة ما يقع فيه، أي مشهود فيه على الناس بأعمالهم، والشهود الحفظة، والجوارح، والأرض، ورب العالمين، وقد جاء هذا المجاز في جواب سؤال ضمني عن سبب الخوف في ذلك اليوم؟ فيكون الجواب بأن ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود.

3 - ومن المجاز المرسل كما في قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ (هود: 52)، في هذه الآية الكريمة نجد أن لفظة (السماء) من المجاز المرسل، والمعنى يمددكم بالغيث والمطر الغزير النافع، «ولفظ (مِدْرَارًا) للمبالغة أي الكثير الدر»⁽³⁾، ففي الآية عبر بلفظ السماء وأراد المطر، وذلك لأن المسبب لإنزال الغيث هو السماء، والعلاقة السببية، حيث أطلق السبب وأراد المسبب "المطر".

¹ - محمد حسين علي الصغير، أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، دار المؤرخ العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1999، ص: 64.

² - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج2، ص: 22.

³ - المرجع نفسه، ج2، ص: 20.

4 - ومن علاقات المجاز الزمانية قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (هود: 116)، المجاز في الآية الكريمة في لفظ (القرون) والمراد من كان يعيش في تلك القرو؛ «حيث جاء التعبير بالقرون مبالغة في انذارهم بالعذاب الذي حل بمن قبلهم في الأزمنة الماضية، وما فيه من معنى التفجع والتأسف لحالهم ولاعتبار هؤلاء القوم من مصيرهم»⁽¹⁾.

5 - وفي قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود: 102)، إن لفظ (القرى) في الآية الكريمة من المجاز المرسل، حيث عبّر بلفظ القرى وأراد أهل القرى، لوجود القرينة (الظلمة)، لأن الظالم ليس القرى ولكن أهلها؛ أي أن الله سبحانه يأخذ بعذاب أهل القرى الظلمة، والعلاقة هنا محلية حيث أطلق المحل وهو "القرى" وأراد أهل تلك القرى.

يقول محمد حسين علي الصغير: «نحن في غنى عن القول بانتشار المجاز اللغوي المرسل في القرآن، فذلك أمرٌ له دلائله وشواهد في القرآن العظيم، والسبب في هذا الذبوع وذلك الانتشار، أن المجاز المرسل هو وسيلة العربية في إضافة المعاني الجديدة، وهو وسيلة اللغة في الإضاءة والتنوير، وهو طريق المبدعين في الإضافة والبيان، وانتشار ذلك في القرآن دربة لأهل اللغة من وجه، ودليل على الإعجاز البياني من وجه آخر، ولعل من خصائص المجاز الفنية إشارة موحية بهذا الملحظ بالذات، ومعبرة عن هذا المدرك نفسه بما لا مزيد عليه»⁽²⁾.

وإلى هنا يمكننا القول أن المجاز المرسل قد لَوَّنَ التعبير القرآني بألوان واضحة من التأثير في المخاطبين به، وفي ذلك دليل واضح على أن للمجاز فضلاً في الارتقاء بالتعبير ونقله إلى مستويات عالية تزيده جمالاً وتأثيراً في النفس.

¹ - دخيل الله بن محمد الصحفي، سورة هود عليه السلام: دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية، ص: 264.

² - مجاز القرآن؛ خصائصه الفنية وبلاغته العربية، ص: 146.

ثانياً: الإستعارة:

وهي «اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي للكلمة والمعنى الذي نقلت إليه الكلمة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي»⁽¹⁾، وهي من قبيل المجاز في الاستعمال اللغوي للكلام.

أما الغرض من الإستعارة كما يقول صاحب الصناعتين: «إمّا أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه»⁽²⁾.

وتتعدد أنواع الاستعارة وأقسامها وتفرعاتها بحيث لا يتسع المقام لذكر تلك الأقسام⁽³⁾، وبالنظر إلى السورة الكريمة نجد الكثير من الاستعارات التي أسهمت في التصوير والبيان والتأثير، ومن أمثلتها ما يأتي:

تظهر الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنَّا لِيُتُوسَ كَفُورًا﴾ (هود: 9)، يتبين في الآية أنّ الإنسان إذا أعطي التّعيم من عند الله "عز وجل" ثم امتحنه "سبحانه" وتعالى بأخذها منه فإنه شديد اليأس من رحمته، عظيم الكفران والجحود، ففي الإذاعة «استعارة مكنية لأنه في الأصل تناول الشيء بالفم ثم استعير للذات تشبيهاً لها بما يُذاق ثم يزول بسرعة كما تزول الطعوم»⁽⁴⁾.

ومن أمثلة الإستعارة المكنية ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (هود: 98)، إذا لاحظنا الآية الكريمة وجدنا أن لفظ (فأوردهم النار) هو من الاستعارة المكنية؛ لأن الورود في الأصل يقال للمرور على الماء للإستسقاء منه، فشبه النار بماء يورد وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الورود، وشبه فرعون في تقدمه على

1 - عبد القادر حسين، القرآن والصورة البيانية، ص: 171.

2 - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص: 268.

3 - للإطلاع على أنواع الإستعارة وتفرعاتها، ينظر: عبد الرحمن حسن حَبَّكَ المِيدَانِي، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج2، ص: 235 وما بعدها.

4 - محي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج3، ص: 397.

قومه بمنزلة من يتقدم على الواردين إلى الماء ليكسر العطش واستعير الورود إلى الماء لمعنى ورودهم النار على سبيل الاستعارة المكنية⁽¹⁾.

كما جاء التصوير بالإستعارة التهكمية في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود: 87)، ففي قولهم لشعيب "عليه السلام"، (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) استعارة تهكمية، والعلاقة التضاد، وذلك للدلالة على سخرية قوم شعيب "عليه السلام" من نبيهم؛ ففي الآية مبالغة في التهكم على وجه يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به، «ولذلك فإنهم حينما يقولون (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)، لم يخرجوه على جهة استحقاقه المدح بهاتين الصفتين، مع كونه أهلاً لهما، ولا يريدون بهاتين الصفتين حقيقة معنيهما، وأنه أصاب وجه الأمر، وكأننا اطعمهم حلمه ولين معاملته في الجزاء على السيئة بالأناة، في التعريض به تهكماً سفيهاً: تمرداً واستكباراً، وغرضهم -سَفَّهَمُ اللهُ- وصفه بالسفه والجهل!»⁽²⁾.

ومن الإستعارة التصريحية قوله تعالى حكاية عن لوط "عليه السلام": ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي كُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: 80)، إِنَّ التَّمَلُّمَ لهذه الآية يجد أن لفظ (ركن) استطاع أن يخلق قوةً تصويرية بارعةً في التعبير عن حاجة سيدنا لوط "عليه السلام" إلى القوم أو العشيرة، حتى يستند عليهم في نصرته ومؤازرته، ويكونوا له بمنزلة البناء الرصين، الذي يعتمد في بنائه على أركانٍ قويةٍ ثابتةٍ، فشبه المعين الشديد بالركن في القوة ثم استعيرة المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية⁽³⁾.

هذه بعض أمثلة الصورة الفنية المتمثلة في الاستعارات، لتوضيح دورها البارز في تقريب المعنى عن طريق الجمع بين الأشياء المتباعدة عن بعضها، مما يسهل على متأملها تذوقها واستخراجها، وبث الخيال والحيوية في أرجائها وإدراك قيمتها الجمالية التي ساهمت في تحقيق الوحدة الفنية داخل السورة، وبذلك يتناسق فيها التعبير مع الحالة المراد تصويرها، فيساعد على جمال الصورة الحسية والمعنوية.

¹ -ينظر: محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج2، ص: 32.

² -محمد العبد، المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة، ص: 144.

³ -ينظر: المرجع السابق، ج2، ص: 27، 32.

المطلب الثالث: التصوير بالكناية:

تقترب الكناية من المجاز في كونها لا يراد بها المعنى المصرح به ، بل يراد به معنى آخر، أو هي كما يقول عبد القاهر الجرجاني: «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردُّفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه»⁽¹⁾.

والكناية من وسائل تصوير المعنى، وهي أبلغ من التصريح في الدلالة عليه، كما أنها تجمع بين الإمتاع والإقناع إذا إنها لا تأتي بالدعوى إلا ومعها دليلها، «ألا ترى أنّ قولهم (كثير الرماد)، التي يكون بها عن الكرم إنما جاءت دليلاً محسوساً لإثبات هذا الكرم، وكذلك كل كناية إن تأملتها، تجد أنها جاءت دليلاً على المعنى المراد منها»⁽²⁾.

ومن مواطن الكناية في السورة قوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ، قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (هود: 72، 73).

وقد جاءت الكناية في جواب سؤال ضمني خاص، ولكنه وقع في ذيل الجواب عن سؤال صريح، أي أن جواب السؤال الضمني كان جزءاً من الجواب عن الاستفهام الذي تصدرته الهمزة وقد ورد قوله (إنه حميد مجيد) تعليلاً لما ورد قبله؛ أي كأن السامع يريد أن يسأل عن سبب الرحمة والبركة، من -الله تعالى -، فيأتيه الجواب قبل سؤاله بأن السبب في ذلك هو أن الله - سبحانه - حميد مجيد «وفي اختيار وصف الحميد من بين الأسماء الحسنى كناية عن رضی الله تعالى على إبراهيم - عليه السلام - وأهله»⁽³⁾، وفي هذه الكناية من التشريف والتكريم ما لا يخفى، وهي بمثابة الجزاء الدنيوي لهذا النبي الكريم.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود: 37). موضع الشاهد في الآية الكريمة كلمة (بأعيننا)، وجيء بكلمة الأعين دون

1 -دلائل الإعجاز، ص: 66.

2 -فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها: علم البيان والبدیع، ص: 270.

3 -محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج12، ص: 122.

غيرها إنما لهدف إظهار العناية الشديدة، وهو ما يراه البقاعي من أنّ الأعين كناية عن الحفظ في العمل، ومن الخطأ في الصُّنع⁽¹⁾.

ومن الكناية أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (هود: 58)، وكلمة (أمرنا) كناية عن العذاب الذي أنزله الله بهم، والأمر هو وعد الله بالعذاب لمن عصاه وخالف أمره وآذى رسله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَّا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ (هود: 110)، جيء بلفظ (كلمة) كناية عن قضاء الله وقدره، أي لولا قضاء الله وقدره بتأخير حساب الناس إلى يوم القيامة لمضى حكم الله - عز وجل - بالقضاء بين هؤلاء المحسنين وهؤلاء المسيئين كلاً بأعماله، ولكن أخر هذا الجزاء إلى يوم القيامة لحكمة ربانية لا يعلمها إلا الله جلّت قدرته وعظم سلطانه.

لقد تابعت الكنايات في السورة لتسهم بوظيفة فاعلة في توضيح المعنى، وتحقيق الهدف والمقصود بتأثيرها في النفس إمتاعاً وإقناعاً.

وفي إطار المشهد التصويري الذي يشع جمالاً وجلالاً، تتضح عناصر البناء وهي تتلاصق أو تتضاد أو تتوازي ثم تلتحم العناصر جميعاً مكونة من الشكل العام للمشهد أو اللوحة الكلية التي تحتويه. وكل عنصر من عناصر البناء يحمل دلالة الخاصة التي تنامي في انسجام مع دلالات العناصر الأخرى⁽²⁾، و«تلكم سمة بارزة في أسلوب القرآن الكريم يفعم الكلمة بالحركة، والجملة بالمشاهد والصور المتحركة، حتى لتحسب نفسك في معمعة الحدث فتتفاعل مع المشهد قدر حضور ذهنك وقدر تأملك وتدبرك، ومن ثم يكون التأثير بالنص القرآني، فتلين له القلوب وتقشعر له الجلود، وتفيض منه الدموع، وتظهر علامات الدهش والعجب من حيث يدري التالي له أو من حيث لا يدري لأن القرآن بأسلوبه هذا نقله برمته، بمشاعره وأحاسيسه، بقدر ما أعطى القرآن منها إلى معانيه المجسّمة وحقائقه المصوّرة»⁽³⁾.

¹ - ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج9، ص: 283.

² - ينظر: محمد قطب عبد العال، من جماليات التصوير في القرآن، ص: 31.

³ - فهد بن عبد الرحمن بن سلميان الرومي، خصائص القرآن الكريم، ص: 54.

خاتمة

وفي نهاية هذه الدراسة أختتم بذكر أهم النتائج التي توصلت إليها، وأذكرها فيما يأتي :

- إن القرآن الكريم، دليل على نبوة محمد "صلى الله عليه وسلم"، وهو كلام الله المعجز، ومن وجوه إعجازه إحكام نظمه، وقد أكد العلماء حُسن ترتيب القرآن وتناسب آياته؛ إذ إنَّ الكلام المحكم الذي جاء من الله "العليم الحكيم" لا يحتمل التناقض، ولا الاختلاف، وإنَّ الإيمان بالإعجاز القرآني يقتضي الإيمان بحسن نظمه وإحكام ترتيبه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 82).

- إن القرآن الكريم وحدة واحدة تتناسب آياته وسوره يأخذ بعضه بأعناق بعض، يفسر بعضه بعضاً، وتتكامل آياته ذات الموضوع الواحد، كالبناء المحكم المتلاحم الأجزاء. وهذه حقيقة لا شك فيها، وقد أقرها العلماء، وحرصوا على مراعاتها في تعاملهم مع القرآن، وقد أجمع العقلاء الألباب على أنَّ القرآن معجز في أسلوبه وبيانه، وذلك يوجب أن تكون آياته متألّفة مع بعضها بعضاً، وأن تكون سوره مرتبطة ببعضها أيضاً؛ لأنَّ حسنَ تألف الكلام وتناسبه مما يحسن به كلام البلغاء ويسمو، كما أنَّ تفككه وضعف ترابطه ينزل برتبة الكلام ويضعفه، فلا بد إذاً أن يكون البيان القرآني مراعيًا للتألف والترابط، الذي يناسب سمو وإعجاز القرآن.

- وصفَ الله -تعالى- خلقه بأنَّه في غاية الإحكام، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: 88)، فكلَّ شيء في الكون وُضع في محله اللائق به، وله دور في بناء الكون المتناسق، وكذا كلَّ عضو في جسد الإنسان يتعاون ويتكامل مع غيره كوحدة واحدة متناسقة محكمة التدقيق، وقد وصف "سبحانه" أيضاً أنَّ كتابه محكم البناء: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1). وقد قال سيد قطب: ﴿أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ﴾ فجاءت قوينة البناء، دقيقة الدلالة، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب، وكل إماعة وكل إشارة ذات هدف معلوم، متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب، ومنسقة ذات نظام واحد⁽¹⁾.

- اتفق العلماء على أنَّ القرآن وحدة واحدة، وأنَّه متناسب الآيات والسور، وأنَّ هذا من دلائل الإعجاز، لذلك يجب تداركُ عِلْمِي "المناسبات" و"مقاصد السور" الذي نبني عليه النمط التفسيري الذي يستلهم الغرض المحوري للسورة، واستطاع العلماء أن يُبرهنوا من خلال أدوات

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص: 1851.

علم المناسبة وآلياته على تحقُّق الوحدة النَّصِيَّة للقرآن الكريم، غير أنه لا ينبغي الوقوف عند جهود العلماء المتقدمين في هذا المجال، بل يجب السير به قدماً نحو القدرة على بناء نموذج نظري عملي كسفي لهذه الوحدة البنائية أو المعمارية.

- لا بد من تلخيص المناسبات بين الآي من اصطلاحات البلاغة التي تخص طرائق الانتقال وأساليب الربط بين الموضوعات المختلفة، كما يجب استجلاؤها في ضوء مقصود السورة العام لا بمعزل عنه.

- وصفُ السورة بالوحدة الموضوعية لا يعني أنَّ لها موضوعاً واحداً، وإنَّما يعني أنَّ موضوعاتها لو تعدَّدت مُلتحمة في نسيجٍ واحدٍ دون تنافر أو تفكُّك؛ فالحقيقة أنَّ معظم السور القرآنية متعددة المواضيع، ولكنَّها مع تعدُّدها مُتَّحدة مع هدف عام تتجه إليه، والرابط الذي يجمعها من حيث التجانس العضوي للنص إنَّما تماسك بنائها واتساق معانيها لخدمة مقصود واحد.

- اكتشف الباحث وجود علاقاتٍ دقيقة لفظية ومعنوية في السورة القرآنية: بين مفتاح السورة وبين خاتمة سابقتها، لذا، يجب تدبُّر فواتح السور وخواتمها، وتتبع المعاني التي تضمَّنتها في سائر الآيات والسور، وبين فاتحتها وخاتمتها، وبين متنها و متن السور المجاورة لها، فالسورة القرآنية هيكل مُحدَّد يتمثَّل في المطلع والجسم والخاتمة، وكلُّ عضو مكمل للآخر، ويظهر تناسق عناصر السورة القرآنية من معاني الآيات والنظم الحسن في مطلع وخواتم السور، إذ يتم التركيز في مطلع السورة على ما سوف ينسحب على جسم السورة بكاملها، بينما يتم التركيز على مقطع الخاتمة على ماورد في السورة كُلِّها، لذلك فإنه يستحيل التدبر دون إدراك العلاقات والشائج بين الآيات والسور بعضها مع بعض في القرآن كله.

- عظمة الأسلوب القرآني واحتوائه على فنون أسلوبية وتعبيرية بليغة متعددة، لا يتوصل إلَّا لقليلها بالاجتهاد والبحث، فكثيرها في مكامن الإعجاز وأسراره، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ (الزمر: 23)، فيفهم من أنه لا يوجد كلام أحسن من كلام الله.

- لقد مثَّلت سورة هود نموذجاً مُصغَّراً من سور القرآن الكريم، فقد تعدَّدت الأغراض البلاغية والفنية التي ساهمت في بناء عمارة السورة، وما احتوته من أمور تتصل بغايات القرآن ومقاصده، وتحققت من خلال طريقة الأداء الفني المعجز، والخصائص العامة المتفردة للجمال الفني التصوري، وهذا الأداء هو في الأصل لبُّ معجزة القرآن.

- تبين لنا أنّ سورة هود الكريمة إنما تتسم بما اتّسم به القرآن العظيم من بلاغة حار فيها فصحاء العرب فسلموا به، ولم يُقدّموا على معارضته، وهذا بعض ما تضمّنته سورة واحدة من سور القرآن الكريم مما يكشف عن الدقة البالغة في تركيب النّص القرآني وانسجام ألفاظه وتآلف عباراته، وتناسب آياته المتّسقة في جملها، القارة في أماكنها، وما تضمّنه نصّ واحد معجز من فنون البلاغة المعجزة، وطرائق التعبير المختلفة المُمثّلة في جمالها الأسلوبى الذي كان أثرها الغاية في نفس سامعها، قوة السبك، وإحكام النسج، وحسن الإيقاع، فجاءت السورة لأبّلع الطرائق في تبليغ مضامين في الدعوة والتّوحيد، وسرد القصص القرآني عِظة لأولي الألباب، ولا ريب أنّ تلك الفنون المختلفة من وجوه الإعجاز القرآني الذي تحدى به الله "عز وجل" العرب، وهي سمة يمتاز بها النظم القرآني، وسر من أسرار بيانه.

- يمكن الوصول لمعرفة بعض أسرار تلاحم القصص في السورة الواحدة، ومدى تشابكها مع مقاصد السورة وأهدافها بدراسة وحداتها الثلاث "الموضوعية والعضوية والفنية" فهي وحدات تُسهم بدور فاعل في بنائية السورة وقصصها، وقد تبين لنا بجلاء مدى التماسك النصي للقصة القرآنية، فكلّ قصة تُفضي إلى التي تليها وتلك تستدعي سابقتها، وكلّها يحكمها سياق خاص، مدارٌ فلكه موضوع السورة الكريمة.

- إن معمارية السورة البديعة - كما مرّ معنا في سورة هود - ذات مخرج جمالي يُعنى بالبعد الفني في العرض بهدف الإعجاز التأثري (استيطيقيا النص)، ولانستطيع إدراك المعمار إلاّ عبر مظاهر عدة، منها: التناسب بين الحروف، وبين الكلمات، وبين الجمل في الآية الواحدة، ومنها: التناسب والتلاحم بين الآيات في السورة الواحدة، ومنها: التّكامل بين السور ذات الموضوع الواحد، ومنها التّناسب والعلاقات بين السور ذات الافتتاح الواحد، ومنها التناسب بين فاتحة السورة وخاتمها، ومنها: محاولة اقتناص الروابط المعنوية التي تصل بين المعاني الجزئية للخلوص إلى أهم القضايا التي تعالجها السورة، ومنها: الوحدة الموضوعية للسورة الواحدة وللقرآن كلّ، ذلك هو منهج القرآن؛ يتنقل بين الأغراض المختلفة، لا اعتباطاً ولا خبطاً عشواء؛ ولكن لصلاتٍ وثيقة تربط بين هذه الأغراض، بحيث تتصافر جميعها في الوصول إلى الغاية القصوى وتحقيقها، وهذا الأمر - كما صرح به العلماء - يتطلب قوّة تركيز وثقافة ووعي لفهم النّص، والقدرة في فهم روابطه الموضوعية والفنية.

- إن أهم جزء تستند عليه الدراسة البنائية والعمود الفقري الذي تقوم عليه هو معرفة نوع السورة المدروسة إن كانت (مكية أو مدنية) - وقد وضع العلماء ضوابط لمعرفة ذلك - بغية التوصل من خلالها إلى المحور أو المقصد الرئيس الذي تدور عليه السورة وقصصها؛ فالبناء على المستوى الشكلي والمضموني مقصوده الأساس فهم النص أو استنباط نماذج كلية لمفاهيم تفسيرية، فالبنائية في كلِّ وَحَدَاتِهَا تقوم على أساس نوع السورة، وتتبلور بأشكالها، وتتحدَّد بأدواتها، لتتناسب مع الطريقة المثلى لمعالجة هذا المحور أو المقصد، وهو في سورة هود (توحيد الله وعبوديته المطلقة التي تستلزم غضبه على القوم الظالمين، ورحماته وهباته لُنصرة أنبيائه وعباده المؤمنين الصالحين).

- لا يمكننا أبداً الإدعاء من خلال دراستنا لـ "سورة هود" وبراعة هندستها وجماليات بنائها، أننا قمنا بالإحاطة بكامل جوانب معماريتها المعجزة، فمهما اجتهدنا فإننا لن نستطيع أن نُلمَّ بكلِّ ما تضمَّنه معمار السورة الكريمة في جوانبه المتعدِّدة ومكامن الإعجاز في أسرارها وبديع معمارها؛ لأن القرآن الكريم مُطلق، وأيُّ دراسة للنصِّ القرآني تبقى نسبية وليس من شأن النسبي أن يحيط بالمطلق، فكلام الله يَعْلُو ولا يُعْلَى عليه.

قائمة المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع :

القرآن الكرىم برواية حفص.

الكتب :

1. ابن أبي الإصبع المصري، (ت654هـ) بديع القرآن، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، (د.ت).
2. أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى (ت982هـ)، تفسير أبي السعود المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكرىم، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، (د.ط)، (د.ت).
3. أبو زهرة محمد (ت1974م)، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، (د.ط)، (د.ت) 1970م.
4. أبو زيد أحمد، التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، منشورات كلية الآداب بالربط، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 1992م.
5. أبو زيد نصر حامد (ت2010م)، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، (د.ت) 1990م.
6. أبو شريفة عبد القادر ولافي فزق حسين، مدخل على تحليل النص الأدبي، دار الفكر، عمان - الأردن، ط4، 2008م.
7. أبو موسى محمد محمد، خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط4، 1996م.
8. أبو موسى محمد محمد، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، (د.ط)، (د.ت).
9. أبو موسى محمد محمد، دلالات التركيب: دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة - مصر، ط2، 1987م.
10. أدونيس علي أحمد سعيد، النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط2، 2010م.
11. إسماعيل عز الدين، الأدب وفنونه: دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة - مصر، (د.ط)، (د.ت) 2004م.

12. الألويسي أبو الفضل محمود (ت1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، (د.ط)، (د.ت).
13. الأندلسي أبوحيان الغرناطي محمد بن يوسف بن علي (ت745هـ)، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1993م.
14. الباقلائي أبو بكر (ت403هـ)، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط2، (د.ت).
15. البستاني محمود (ت2011م)، التفسير البنائي، مؤسسة الطبع التابعة للآستانة الرضويّة المقدّسة، مشهد - إيران، ط1، 1422هـ.
16. البستاني محمود، المنهج البنائي في التفسير، دار الهادي، بيروت - لبنان، ط1، 2001م.
17. البستاني محمود، دراسات فنية في قصص القرآن، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد - إيران، ط1، 1408هـ.
18. البستاني محمود، قصص القرآن دلاليا وجماليا، مؤسسة السبطين العالمية، إيران، ط2، 1386هـ.
19. البطل علي، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983م.
20. البقاعي برهان الدين (ت885هـ)، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط1، 1987م.
21. البقاعي برهان الدين، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، مصر، (د.ط)، (د.ت).
22. البوطي محمد سعيد رمضان (ت1913م)، من روائع القرآن: تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، (د.ط)، 1999م.
23. باجودة محمد حس، الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، تهامة للطباعة والنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، ط2، 1983م.

24. باحاذق عمر محمد عمر، أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز البياني، دار المأمون للتراث، بيروت، ط1، 1994م.
25. باحاذق عمر محمد عمر، الجانب الفني في قصص القرآن الكريم، دار المأمون للتراث، دمشق - سوريا، ط1، 1993م.
26. باز مور محمد بن عمر، علم المناسبات في السور والآيات، ويليه مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للسيوطي، المكتبة المكية، مكة المكرمة، السعودية، ط1، 2002م.
27. باشلار غاستون، الفكر العلمي الجديد، ترجمة: عادل العوا، مراجعة عبد الله الدائم، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط4، 1996م.
28. باقر الحسيني جعفر السيد، أساليب البيان في القرآن، مؤسسة بوستان كتاب، إيران، ط1، 1387هـ / 2009م.
29. بدوي أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، (د.ط)، 2005م.
30. بلحبيب رشيد، ضوابط التقديم والتأخير وحفظ المراتب في النحو العربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة - المغرب، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 1998م.
31. بودرع عبد الرحمن، الخطاب القرآني ومناهج التأويل - نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة - مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - المغرب، ط1، 2013م.
32. بوقرة نعمان، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب - دراسة معجمية، جداراً للكتاب العالمي، عمان - الأردن، ط1، 2009م.
33. التوحيدى أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدى البغدادى (ت414هـ)، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح عربيه: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، (د.ط)، (د.ت).
34. الترمذى محمد أبو عيسى (ت279هـ)، كتاب تفسير القرآن، تعليق: محمد ناصر الدين الألبانى، مكتبة المعارف، الرياض - السعودية، ط1، (د.ت).

35. الجرجاني عبد القاهر (ت471هـ)، أسرار البلاغة، قرأة وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، (د.ط.)، (د.ت).
36. الجرجاني عبد القاهر، الرسالة الشافية، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله احمد، محمود زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط2، (د.ت).
37. الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004م.
38. ابن جزيّ الكلبي أبي القاسم محمد بن أحمد (ت741هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، ضبطه وصحّحه وخرّج آياته: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م.
39. ابن الجوزي أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن (ت597هـ)، زاد الميسر في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1422هـ.
40. ابن جني أبو الفتح عثمان (ت392هـ)، الخصائص، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، مكتبة عباس أحمد الباز، مكة المكرمة - السعودية، ط1، 2001م.
41. جمعة حسن، التقابل الجمالي في النص القرآني - دراسة جمالية فكرية أسلوبية، منشورات دار النمير، دمشق - سوريا، ط1، 2005م.
42. جينيت جيرار، مدخل لجامع النص، ترجمة: عبد الرحمن أيوب، تقديم سعيد يقطين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، دار توبوقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب (د.ط.)، (د.ت).
43. حاج حمد محمد أبو القاسم، منهجية القرآن المعرفية - أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 2003م.
44. حَبْنَكَة الميداني عبد الرحمن حسن (ت2004م)، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزل وجل، دار القلم، بيروت - لبنان، ط1، 1980م.
45. حَبْنَكَة الميداني عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1996م.
46. حجازي محمد محمود، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، دار الكتب الحديثة، مصر، ط1، 1970م.

47. حسين عبد القادر، القرآن والصورة البيانية، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط2، 1985م.
48. حللي عبد الرحمن، المدخل إلى دراسة المفهومات القرآنية، دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع، حلب - سوريا، ط1، 2011م.
49. حمدان نذير، الظاهرة الجمالية في القرآن، دار المنارة، جدة - السعودية، ط1، 1992.
50. حمودة عبد العزيز(ت2006م)، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 232، أبريل، 1998م.
51. حسين عبد القادر، القرآن والصورة البيانية، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1975م.
52. الحسناوي محمد، الفاصلة في القرآن، دار عمار، عمان - الأردن، ط2، 2000م.
53. الحسناوي محمد، دراسة جمالية بيانية في أربع سور (الإسراء - الكهف - مريم - طه)، دار عمان للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2006م.
54. الحيرش محمد، النص وآليات الفهم في علوم القرآن، دراسة في ضوء التأويلات المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2013م.
55. الخازمي الصادق سالم، النظم القرآني وأثره في الأحكام، النشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان بطرابلس، ط1، 1985م.
56. الخالدي صالح، القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل إحداث، دار القلم، دمشق، دط، 1998م.
57. الخالدي صلاح عبد الفتاح، المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار عمار، عمان - الأردن، ط2، 2000م.
58. الخطابي محمد بن إبراهيم (ت388هـ)، بيان إعجاز القرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد، محمود زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط2، (د.ت).
59. الخطيب عبد الكريم(ت1390هـ)، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، (د.ط.)، (د.ت).
60. الدالي محمد، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، دار مون للطباعة والتجليد، ط1، 1993م.

61. الدباغ مصطفى محمد زكي، وجوه من الإعجاز القرآني، مكتبة المنار، الزرقاء -الأردن، ط1، 1982م.
62. الدرّوش محي الدين(ت1403هـ)، إعراب القرآن الكريم وبيانه، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق/بيروت، دار ابن كثير، دمشق/ بيروت، ط3، 1993م.
63. دراز عبيد صباح، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1986م.
64. دراز محمد عبد الله(ت1958م)، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، نشر وتوزيع دار الثقافة، الدوحة -قطر، ط1، 1985م.
65. دراز محمد عبد الله، مدخل إلى القرآن الكريم، عرض تاريخي وتحليل مقارن، ترجمت عبد العظيم علي، مراجعة السيد محمد بدوي، دار القلم، الكويت، (د.ط)، 1985م.
66. الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر(ت604هـ)، تفسير الفخر الرازي المُمَشَّهَر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت -لبنان، ط1، 1981م.
67. الراغب الأصفهاني الحسين بن محمد(ت502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت -لبنان، (د.ط)، (د.ت).
68. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط، محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت -لبنان، (د.ط)، (د.ت).
69. ابن رشيق القيرواني أبو علي الحسن (ت 456هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1981م.
70. الرافي مصطفى صادق (ت1937م)، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ط)، 2005م.
71. الرافي مصطفى صادق، وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت -لبنان، ط4، 1977م.
72. الرماني علي بن عيسى(ت348هـ)، التُّكْت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله احمد، محمود زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط2، (د.ت).

73. الزرقاني محمد عبد العظيم (ت1367هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، حققه واعتنى به: فواز أحمد زمري، دار الكتاب العربي، ط1، 1995م.
74. الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله (ت794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التراث، القاهرة - مصر، (د.ط.)، (د.ت.).
75. الزمخشري محمود بن عمر (ت538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعلق ودراسة: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1998م.
76. ابن الزبير الثقفي الغرناطي أحمد بن إبراهيم أبو جعفر (ت708هـ)، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيهه المشابه اللفظ من أي التنزيل، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.
77. السامرائي فاضل صالح، التعبير القرآني، دار عمار، عمان - الأردن، ط4، 2006م.
78. السامرائي فاضل صالح، الجملة العربية والمعنى، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 2000م.
79. السامرائي فاضل صالح، معاني النحو، العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ط2، 2003م.
80. السكاكي أبو يعقوب بن أبي بكر محمد بن علي (ت626هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1983م.
81. السلامي عمر، الإعجاز الفني في القرآن، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس، (د.ط.)، 1980م.
82. السلطان منير، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف، الإسكندرية - مصر، ط2، 1993م.
83. السيد حسن مصطفى محمود، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، تقديم: حسن عون، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية - مصر، ط1، 1981م.
84. السيوطي جلال الدين (ت911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، من إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، (د.ط.)، (د.ت.).

85. السيوطي جلال الدين (ت911هـ)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ط1، 2003م.
86. السيوطي جلال الدين، تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق: أحمد عطاء، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1986م.
87. السيوطي جلال الدين، قطف الأزهار في كشف الأسرار، تحقيق: أحمد الحمادي، إصدار وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، 1994م.
88. السيوطي جلال الدين، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة - مصر، (د.ط.)، (د.ت.).
89. السمين الحلبي أحمد بن يوسف بن محمد (ت756هـ)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، (د.ط.)، (د.ت.).
90. سعد محمد أحمد، الأصول البلاغية في كتاب سبويه وأثرها في البحث البلاغي، مكتبة الأداب، ط2، 2009م.
91. شحاتة عبد الله محمود، أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط.)، 1976م.
92. شوافي سامر عبد الرحمن، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم - دراسة نقدية، دار الملتقى، سوريا، ط1، 2009م.
93. شيخ أمين بكري، التعبير الفني في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط1، 1994م.
94. الشاطبي أبو إسحاق (ت790هـ)، الموافقات في أصول الشريعة، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، ضبط نصّه وقدم له وخرّج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسان آل سلمان، دار ابن عفان، (د.ط.)، (د.ت.).
95. الشحات محمد أبو ستيت، خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1991م.
96. الشحات محمد أبو ستيت، دراسات منهجية في علم البديع، دار خناجي للطباعة والنشر، القليوبية - مصر، ط1، 1994م.

97. الشعراوي محمد متولي (ت1998م)، تفسير الشعراوي، راجع أصله وخرّج أحاديثه: أحمد عمر هاشم، مطابع دار أخبار اليوم، (د.ط)، 1991م.
98. الشيرازي محمد بن عبد الرحمن، جامع البيان في تفسير القرآن ومعه حاشية محمد بن عبد الله الغزنوي، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م.
99. الشيرازي، ناصر بن مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط1، 2002م.
100. شكري محمد عياد، مدخل إلى علم الأسوب، مكتبة مبارك العامة، مصر، ط2، 1992م.
101. الصابوني محمد علي، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط4، 1981م.
102. الصابوني محمد علي، قبس من نور القرآن من سورة هود ويوسف والرعد - دراسة تحليلية موسعة بأهداف ومقاصد السور الكريمة - دراسات قرآنية، دار القلم، دمشق - سوريا، ط1، 1988م.
103. الصبيحي محمد الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، 2008م.
104. الصعيدي عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، المطبعة النموذجية، القاهرة - مصر، (د.ط)، (د.ت).
105. الصغير محمد حسين علي، أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، دار المؤرخ العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1999م.
106. الصغير محمد حسين علي، مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية، دار المؤرخ العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1999م.
107. صالح بشرى موسى، الصورة الشعرية في النقد الأدبي الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 1994م.
108. رضا محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنار، دار المنار، القاهرة - مصر، ط2، 1947م.
109. ضياء الدين ابن الأثير نصر الله (ت637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة مطفي البابي الحلبي وأولاده، مصر، (د.ط)، (د.ت).

110. ضيف شوقي (ت2005م)، في الأدب والنقد، دار المعارف، القاهرة - مصر، (د.ط)، (د.ت).
111. الطباطبائي محمد حسين (ت1981م)، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1997م.
112. الطبري محمد بن جرير (ت310هـ)، الجامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط1، 2001م.
113. الطبري محمد بن جرير، تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، تحقيق: محمد أبي الفضل، دار المعارف، مصر، ط1، (د.ت).
114. الطروانة سليمان، دراسات نصية أدبية في القصة القرآنية، (د. دار نشر)، ط1، 1992م.
115. طبانة بدوي، قضايا النقد الأدبي، دار المريح للنشر، الرياض - السعودية، (د.ط)، 1984م.
116. الظواهري كاظم، بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، دار الصابوني، دار الهداية، ط1، 1991م.
117. العبد محمد، المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2006م.
118. العسكري أبو هلال الحسن عبد الله بن سهل (ت395هـ)، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط1، 1952م.
119. العفيفي محمد الصادق، الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث، دار الكشاف، القاهرة - مصر ط1، 1969م. 11. ابن عاشور محمد الطاهر (ت1973م)، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، (د.ط)، 1984م.
120. ابن عبد الله الأرمي العلوي محمد الأمين، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة: محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 2001م.
121. ابن عطية الأندلسي (ت541هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2001م.

122. العلواني طه جابر(ت2016م)، الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، يناير، 2006م.
123. العلواني طه جابر، الوحدة البنائية للقرآن المجيد، دار الشروق، القاهرة -مصر، ط1، 2005م.
124. العلوي يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم(ت749هـ)، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد هندأوي، المكتبة العصرية، بيروت -لبنان، ط1، 2002م.
125. عباس حسن(ت1979م)، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة -مصر، ط4، (د.ت).
126. عباس فضل حسن(ت2011م)، البلاغة فنونها وأفنانها -علم المعاني، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط4، 1997م.
127. عباس فضل حسن، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية نقد مطاعن وردُّشُبُهَات، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان -الأردن، ط2، 1989م.
128. عباس فضل حسن، القصص القرآني إيجازُه ونفحاته، دار الفرقان، عمان -الأردن، ط1، 1987م.
129. عبد المطلب فوزي رفعت، الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، دار السلام، القاهرة، ط1، 1986م.
130. عرفه عبد المعطي عبد العزيز، من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، عالم الكتب، بيروت -لبنان، ط2، 1984م.
131. عساف ساسين، الصورة الشعرية، المؤسسة الجامعية لدراسات والنشر والتوزيع، بيروت -لبنان، ط1، 1992م.
132. عصفور جابر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء -المغرب، ط3، 1992م.
133. عطية عبد العاطي شعبان وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ومكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004م.
134. علوان محمد شعبان، نعمان شعبان علوان، من بلاغة القرآن، الدار العربية للنشر والتوزيع، ط2، 1998م.

135. علي جمعة نور الدين، مفتي الديار المصرية، النُّبراس في تفسير القرآن الكريم، قدم له وخرَّج أحاديثه: أسامة السيد محمود الأزهرى، الوابل النَّصيب للإنتاج والتوزيع والنشر، القاهرة - مصر، ط1، 2009م.
136. علي عبد الخالق علي، الفن القصصي: طبيعته، عناصره، مصادره الأولى، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة - قطر، (د.ط)، 1987م.
137. عمرو خالد، خواطر قرآنية، الدار العربية للعلوم، بيروت - لبنان، ط1، 2004م.
138. عياشي منذر، العلاماتية وعلم النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، بيروت - لبنان، ط1، 2004م.
139. عياشي منذر، القرآن من بناء النص إلى بناء العالم، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق - سوريا، ط1، 2015م.
140. غريب، فخرية قادر، الانسجام في الخطاب القرآني: دراسة نصية في السور الموسومة بالعتاق الأول، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد - الأردن، ط1، 2017م.
141. غزوان عناد، دراسات في الشعر الجاهلي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2006م.
142. غطاشة داود، راضي حسين، قضايا النقد العربي قديماً وحديثاً، دار القدس للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 1989م.
143. غنيم كمال أحمد، الأدب العربي المعاصر أوراق في الأدب والنقد، الرابطة الأدبية، غزة - فلسطين، ط2، 2006م.
144. غنيمي هلال محمد (ت1968م)، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، ط1، 1994م.
145. الغزالي محمد (ت1996م)، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الهدى، عين مليلة - الجزائر، (د.ط)، (د.ت).
146. الغماري الحسني عبد الله محمد الصديق، جواهر البيان في تناسب سور القرآن، مكتبة القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

147. فاروق الزين محمد(ت1968م)، بيان النظم في القرآن الكريم، الربع الثاني من سورة الأعراف حتى سورة الكهف دار الفكر، بيروت -لبنان، ط1، 2003م.
148. فضل الله محمد حسين، الحوار في القرآن الكريم: قواعده -أساليبه -معطياته، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط5، 1996م.
149. ابن فارس زكريا أحمد(ت395هـ)، الصحابي في فقه اللغة، تحقيق: عمر الطباع، مكتبة المعارف، بيروت -لبنان، ط1، 1993م.
150. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، خصائص القرآن الكريم، مكتبة التوبة الرياض - السعودية، ط10، 2000م.
151. الفراهي عبد الحميد الهندي(ت1930م)، إمعان في أقسام القرآن، طبع على نفقة جمعية دار المصنفين، المكتبة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349هـ.
152. الفراهي عبد الحميد الهندي، دلائل النظام، المطبعة الحميدية، الهند، 1388هـ.
153. الفراهي عبد الحميد الهندي، تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الأحمدية، الهند، ط1، 2008م.
154. الفقي إبراهيم صبحي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000م.
155. ابن فارس زكريا أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط) 1979م.
156. الفيروز آبادي محمد بن الصديق(ت817هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز تحقيق: محمد علي النجار، وزارة الأوقاف، المجلس الإسلامي الأعلى، مصر، ط3، 1996م.
157. القاسمي محمد جمال الدين(ت1332هـ)، تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، ضبطه وصححه وخرّج آياته وأحاديثه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط2، 2003م.
158. القرطبي محمد بن أحمد الأنصاري(ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن المبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، مؤسسة الرسالة، بيروت -لبنان، ط1، 2006م.

159. القزويني الخطيب (ت739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2003م.
160. القزويني الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة وهو تلخيص كتاب مفتاح العلوم للسكاكي، حققه وشرحه: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 2009م.
161. القنوي محمد الحنفي عصام الدين اسماعيل، حاشية القنوي على تفسير الإمام البيضاوي، ضبطه وصححه وخرّج آياته: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2001م.
162. قدوري غانم، محاضرات في علوم القرآن، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2003م.
163. قصاب وليد، في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دار القلم، دبي - الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2000م.
164. قطب سيد (ت1966م)، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة - مصر، ط16، 2002م.
165. قطب سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط32، 2003م.
166. الكواز محمد كريم، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، مكتب الإعلام والبحوث والنشر بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، ط1، 1997م.
167. ابن كثير اسماعيل عماد الدين (ت774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفى السيد محمد، ومحمد فضل العجماي وآخرون، مؤسسة قرطبة، للطباعة والنشر والتوزيع، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، جيزة - مصر، ط1، 2000م.
168. لاشين عبد الفتاح، من أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة)، دار المريخ، الرياض - السعودية، ط1، 1983م.
169. لاشين عبد الفتاح، البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، (د.ط.)، 1999م.
170. مسلم مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق - سوريا، ط3، 2000م.

171. مطلوب أحمد، أساليب بلاغية: الفصاحة - البلاغة - المعاني، وكالة المطبوعات، الكويت، توزيع دار القلم، ط1، 1980م.
172. منيع القيسي عودة الله، الإعجاز اللغوي في قصص نوح - عليه السلام - في القرآن، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2002م.
173. مونسي حبيب، التردد السرد في القرآن الكريم، مقارنة لترددات السرد في قصة موسى عليه السلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2010م.
174. مهنا رثيف، نظريات العمارة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط.)، 1992م.
175. المطعنى عبد العظيم، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1992م.
176. ابن المعتز عبد الله (ت296هـ)، كتاب البديع، شرحه وحققه: محمد مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، ط1، 2012م.
177. ابن مالك محمد بن عبد الله الطائي الجياني الأندلسي (ت672هـ)، شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق: عبد الرحمن السيد - محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والإعلان، جيزة - مصر، ط1، 1990م.
178. نعمة الجياشي محمود، بحوث في النبوة الخاصة "يوسف الصديق" رؤية قرآنية، منشورات دار فرقد، ط1، 2009م.
179. النيسابوري مسلم بن الحجاج (ت261هـ)، أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، وقف على طبعه، وتحقيق نصوصه وترقيمه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، توزيع دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1991م.
180. النجار عبد الوهاب، قصص الأنبياء، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط3، (د.ت.).
181. النووي يحيى بن شرف (ت676هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط2، 1392هـ.
182. النويهي محمد، الشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط.)، (د.ت.).

183. نوبي محمد، نظريات العمارة، مطبعة الأوفست الحديثة، أسيوط - مصر، (د.ط)، 2001م.
184. النيسابوري الحاكم أبو عبد الله (ت405هـ)، المستدرك على الصحيحين، مع تضمينات الإمام الذهبي في التلخيص، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 2002م.
185. هلال خالد عبد الكريم، أسس النقد الجمالي في تاريخ الفلسفة؛ دراسة لوجهات نظر بعض الفلاسفة في النقد الجمالي، منشورات قاريونس، بن غازي - ليبيا، ط1، 2003م.
186. ابن هشام الأنصاري أبو محمد عبد الله جمال الدين (ت761هـ)، مغني اللبيب، ترجمة: حنا الفاخوري، دار الجليل، بيروت - لبنان، ط2، 1997م.
187. ابن يعيش النحوي موفق الدين (ت643هـ)، شرح المفصل للزمخشري، علم الكتب، بيروت - لبنان، مكتبة المتنبي، القاهرة - مصر، (د.ط)، (د.ت).

الرسائل العلمية:

1. الأنصاري يوسف عبد الله، أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، بحث مقدم للحصول على درجة الماجستير في البلاغة والنقد، إشراف: صباح عبيد دراز، جامعة أم القرى، السعودية، 1990م.
2. بلحوسين نصيرة، الصورة الفنية في القصة القرآنية قصة سيدنا يوسف عليه السلام نموذجاً - دراسة جمالية، رسالة ماجستير، إشراف: رمضان كريب، جاة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2006م.
3. حسيب شيخ شايد، أسلوب القصة في القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه، إشراف: محمد ضياء الحق يوسف زني، الجامعة القومية للغات الحديثة، إسلام آباد، باكستان، 1427هـ / 2006م.
4. الخلف نوال، الانسجام في القرآن الكريم: سورة النور أنموذجاً، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، إشراف: محمد العيد رتيمة، كلية اللغات والآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 2007م.
5. الداية رائد مصباح، البناءات الجمالية في النص القرآني، البناءات الجمالية في النص القرآني، رسالة ماجستير في الأدب والنقد، إشراف: كمال أحمد غنيم، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية غزة - فلسطين، 2011م.

6. ربيع عبد الحسن محمد ، الالتفات في ضوء أساليب القرآن ، رسالة ماجستير، إشراف : محمد حسنين أبو موسى ، جامعة الأزهر، القاهرة - مصر، 1980.
7. سابق حدة ، الوحدة الموضوعية في سورة مريم ، رسالة ماجستير، إشراف : رمضان يخلف ، قسم الكتاب والسنة ، جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة ، 2003م.
8. الصحفي دخيل الله بن محمد ، سورة هود عليه السلام : دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة ، إشراف : عبد العظيم إبراهيم المطعني ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، 1993م.
9. عبد الله محمد عبد الصمد ، خطاب الأنبياء في القرآن الكريم ، خصائصه التركيبية وصوره البيانية ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد ، إشراف الدكتور : عبد اللطيف خليف ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، 1995م.
10. عبده دبور محمد عبد الله ، أسس بناء القصة من القرآن الكريم ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه ، إشراف : فتحي محمد أبو عيسى ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، المنوفية - مصر ، 1996م.
11. قطاني خليل ، الجنة في القرآن ، رسالة ماجستير ، إشراف : جامعة النجاح الوطنية ، نابلس - فلسطين ، 1999م.
12. نقرة التهامي ، سيكولوجية القصة في القرآن ، رسالة دكتوراه ، جامعة الجزائر ، 1979 ، الشركة التونسية للتوزيع ، ط1 ، 1974م.
13. ناصر الخاطري كليثم سعيد ، المعمار القصصي في سورة مريم : دراسة بنائية جمالية ، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها ، إشراف : عبد الباسط عطايا ، كلية الدراسات العربية والإسلامية - دبي ، طبع بدعم من المكتب الخاص لسمو الشيخ ماجد بن محمد بن راشد آل مكتوم ، الإمارات العربية المتحدة ، 2012م.

المجلات والحواليات:

1. سعاد الناصر، بلاغة القص في القرآن الكريم وآفاق التلقي، سلسلة كتاب الأمة، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر، العدد 169، رمضان، 1436هـ، تموز (يوليو)، 2015م.
2. رشيد حمداوي، وحدة النسق في السورة القرآنية فوائدها وطرق دراستها، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، جدة، المملكة العربية السعودية، العدد 3، جمادى الثانية 1428هـ.
3. شيماء مهدي منصور، عناصر بناء السورة القرآنية عند الدكتور محمود البستاني: دراسة من خلال تفسيره البنائي، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، المجلد 21، العدد 88، 2015.
4. طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن المجيد: المفهوم والمسار، مجلة الترتيل في القرآن المجيد: منهج وبناء، مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - المغرب، العدد 1، رجب 1434هـ، يونيو 2013م.
5. عبادي أحمد: نحو منهجية معرفية للدراسات القرآنية، مجلة الترتيل في القرآن المجيد: منهج وبناء، مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - المغرب، ع 1، رجب 1434هـ، يونيو 2013م.
6. عودة خليل، المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي، مجلة النجاح للأبحاث، العدد 8، المجلد 2، 1994.
7. عودة خليل، المصطلح النقدي في الدراسات العربية المعاصرة بين الأصالة والتجديد: الأسلوبية أمودجاً، مجلة جامعة الخليل للبحوث والدراسات، 2003م.
8. عباس أمير، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم بين الظاهرة الموضوعية والبيان النصي، العميد، مجلة فصلية محكمة تُعنى بالأبحاث والدراسات الإنسانية، تصدر عن العتبة العباسية المقدسة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، كربلاء - العراق، العددان الأول والثاني، المجلد الأول، شهر رمضان، 1433هـ / 2012م.
9. عبد الرحمن بودرع، نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، العدد 154، ربيع الأول 1434هـ / فبراير 2013م.

10. عبد الكريم الخزرجي، الجوانب الفنية في فواتح السور القرآنية، مجلة كلية الإمام الأعظم، بغداد، العدد3، 2006م.
11. عبد الله الخطيب، مصطفى مسلم، المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، المجلد2، العدد2، ربيع الثاني 1426هـ، يونيو 2005م.
12. عبد المطلب محمد زيد، بنية المعمار القصصي في القرآن الكريم، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الرسالة 269، الحولية رقم 28، ديسمبر، 2007م.
13. فالح رشيد جليل، فن الالتفات في مباحث البلاغيين، مجلة آداب المستنصرية، كلية الآداب بالجامعة المستنصرية، العراق، العدد9، 1984م.
14. ماجد بن محمد الماجد، الفنون البلاغية في سورة هود، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (العلوم الانسانية والإدارية)، المجلد الخامس، العدد الثاني، 1425هـ، 2004م.
15. محمد المنتار، من محددات نظرية الترتيل في القرآن الكريم: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، مجلة الترتيل في القرآن المجيد - منهج وبناء، مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - المغرب، العدد1، رجب 1434هـ، يونيو 2013م.
16. محمد قطب عبد العال، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، العدد 99، 1990م.
17. محمد قطب عبد العال، نظرات في قصص في القرآن، دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة، العدد 77، 1988م.
18. معتصم باكر مصطفى، أساليب الإقناع في القرآن الكريم، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية قطر، العدد 95، جمادى الأولى 1424هـ، تموز (يوليو) 2003م.
19. هاني الحسني، التذوق الفني والجمالي للوحدة في القرآن الكريم، مجلة كلية التربية الأساسية، كلية الفنون، جامعة بغداد - العراق، العدد47، 2006م.
20. يوسف الرفاعي، حذف المرفوعات والمنصوبات في سورة هود، دراسة نحوية دلالية، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد 25، أيلول، 2011م.

المؤتمرات:

1. عبد الرحمن بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 2013/2/16م.
2. مصطفى بن عبد الله، الدراسات القرآنية في عصر العولمة، المؤتمر الدولي حول: دور الدراسات الإسلامية في المجتمع العولمي، كلية الدراسات الإسلامية، جامعة الأمير سونجيكلا فرع فطاني، جنوب تايلاند، 21 - 23 ديسمبر، 2010م.

مواقع الأنترنت:

1. محمود البستاني، الفهم المتجدد لآيات الكتاب المجيد في ضوء منهج التفسير البنائي، مجلة التقريب نت، مجلة شهرية - إلكترونية (<http://www.altaghrib.net/002/index.htm>)، العدد 2، ذي الحجة، 1433هـ، المصادف شباط، 2003م.
2. يوسف حسن حجازي، عناصر الرواية، موقع فن القصة، بحث منشور بتاريخ: 2011/4/25، على الموقع: <http://astoryblagsPd.com>.

فهرس الموضوعات

| | |
|----|---|
| أ | مقدمة: |
| | الفصل الأول : الوحدة المعمارية لسور القرآن، المفهوم والمسار. |
| 2 | تمهيد. |
| 3 | المبحث الأول: مفهوم معمار النص |
| 3 | المطلب الأول: تعريف المعمار لغة واصطلاحاً: |
| 6 | المطلب الثاني: القرآن من الوجود إلى البناء |
| 11 | المبحث الثاني: بذور القول بالوحدة البنائية |
| 13 | المطلب الأول: البذور الأولى لنظرية الوحدة البنائية |
| 15 | المطلب الثاني: العلماء ونظرية الوحدة البنائية، خطوات على الطريق |
| 30 | المبحث الثالث: حقيقة وحدة السورة، مسوغاتها الفكرية وضوابطها. |
| 30 | المطلب الأول: المسوغات الفكرية والفنية لدراسة المعمارية السورة |
| 40 | المطلب الثاني: حقيقة وحدة السورة في القرآن |
| 40 | أولاً: تعريف السورة |
| 40 | ثانياً: وحدة السورة: |
| 42 | المطلب الثالث: حقيقة التوافق بين القرآن وحياة النبي |
| 44 | المطلب الرابع: الضابط للوحدة القرآنية |
| 46 | المبحث الرابع: أشكال الربط وآلياته في السورة القرآنية |
| 46 | المطلب الأول: أشكال الربط في السورة |
| 48 | المطلب الثاني: آلية الربط في السورة |
| | الفصل الثاني: المعمار الموضوعي في سورة هود -عليه السلام -. |
| 52 | مدخل إلى المعمار الموضوعي |
| 58 | المبحث الأول: في رحاب سورة هود الكريمة: |
| 58 | المطلب الأول: اسم السورة وترتيبها وعدد آياتها: |
| 58 | أولاً: اسم السورة |

| | |
|---|---|
| 61 | ثانيا: عدد آياتها |
| 62 | المطلب الثاني: زمان ومكان نزول السورة الكريمة: |
| 62 | أولا: فترة النزول |
| 63 | ثانيا: مكان نزول السورة الكريمة |
| 65 | المطلب الثاني: تحديد موضوع السورة: |
| 70 | المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية في السورة: |
| 70 | المطلب الأول: الوحدة الموضوعية لغة واصطلاحا |
| 73 | المطلب الثاني: الفرق بين الوحدة الموضوعية والوحدة الفنية والعضوية |
| 77 | المطلب الثالث: موضوعات السورة الكريمة |
| 85 | المطلب الرابع: قضايا السورة ومقاصدها: |
| 90 | المبحث الثالث: موقع السورة بين السور وتناسبها لِمَا قبلها وما بعدها |
| 90 | المطلب الأول: ترتيب السور: |
| 91 | المطلب الثاني: مناسبة السورة لِمَا قبلها وما بعدها: |
| 91 | أ - تعريف المناسبة لغة واصطلاحا |
| 96 | ب - أنواع المناسبات بين السورة القرآنية: |
| 96 | 1 - مناسبة اسم السورة (العنوان) للسورة: |
| 98 | 2 - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها: |
| 100 | 3 - مناسبة افتتاح السورة الخاتمة ما قبلها: |
| 103 | المطلب الثالث: تناسب سورة هود مع سورة يونس -عليه السلام -. |
| 107 | المطلب الثاني: تناسب سورة هود مع سورة يوسف -عليه السلام - |
| الفصل الثالث: الهيكل المعماري للسورة ووحدته العضوية. | |
| 113 | مدخل إلى البنائية المحكمة للسورة القرآنية: |
| 116 | المبحث الأول: مقدمة السورة (الاستهلال): |
| 131 | المبحث الثاني: البنية الهيكلية القصصية ووحدتها العضوية: |

| | |
|--|--|
| 131 | المطلب الأول: البناء القصصي: |
| 135 | المطلب الثاني: خضوع القصة لوحدة السورة أو الغرض الديني: |
| 139 | المطلب الثالث: القصص المنتقاة في السورة الكريمة |
| 141 | المبحث الثالث: البناء الهيكلي العضوي لعناصر القصص في سورة هود: |
| 145 | المطلب الأول: البناء الهيكلي والعضوي لقصة نوح -عليه السلام -: |
| 154 | المطلب الثاني: البناء الهيكلي والعضوي لقصة هود -عليه السلام -: |
| 160 | المطلب الثالث: البناء الهيكلي والعضوي لقصة صالح -عليه السلام -: |
| 164 | المطلب الرابع: البناء الهيكلي والعضوي لقصة إبراهيم -عليه السلام -: |
| 170 | المطلب الخامس: البناء الهيكلي والعضوي لقصة ولوط -عليه السلام -: |
| 175 | المطلب السادس: البناء الهيكلي والعضوي لقصة شعيب -عليه السلام -: |
| 180 | المطلب السابع: البناء الهيكلي والعضوي لقصة موسى -عليه السلام -: |
| 186 | المبحث الرابع: التناسق اللفظي وجسور الانتقال: |
| 186 | المطلب الأول: التناسق اللفظي: |
| 191 | المطلب الثاني: جسور الانتقال: |
| 195 | المبحث الخامس: خاتمة السورة: |
| الفصل الرابع: أوداوت المعمار الأسلوبي وخصائه في سورة هود. | |
| 199 | تمهيد |
| 200 | المبحث الأول: المعمار الجمالي في السورة القرآنية |
| 204 | المبحث الثاني: الأداوت اللغوية والأسلوبية في سورة هود |
| 204 | المطلب الأول: الألفاظ ودورها في تلاحم معمارية السورة |
| 209 | أولاً: التعريف والتنكير: |
| 209 | أ - التعريف: |
| 210 | 1 - التعريف بالضمير: |
| 211 | 2 - التعريف باسم الإشارة: |

| | | |
|-----|-----------|--|
| 213 | | 3 - التعريف بالصلة : |
| 214 | | 4 - التعريف بـأل : |
| 214 | | 5 - التعريف بالإضافة : |
| 216 | | ب - التنكير : |
| 218 | | المطلب الثاني : الجملة القرآنية وأساليبها التعبيرية : |
| 220 | | 1 - الجملة الفعلية والاسمية : |
| 220 | | أولاً : الجملة الاسمية ودورها : |
| 223 | | ثانياً : الجملة الفعلية ودورها : |
| 225 | | 2 - الجملة الخبرية والإنشائية وأغراضهما البلاغية : |
| 225 | | أولاً : الجملة الخبرية : |
| 228 | | أ - أسلوب التوكيد |
| 232 | | ثانياً : الجملة الإنشائية : أنواعها وأغراضها : |
| 234 | | 1 - أسلوب الأمر : |
| 238 | | 2 - أسلوب الاستفهام : |
| 246 | | 3 - أسلوب النداء : |
| 250 | | 4 - أسلوب النهي : |
| 254 | | 5 - أسلوب التمني : |
| 255 | | المطلب الثالث : أسلوب التقديم والتأخير : |
| 263 | | المطلب الرابع : الإيجاز والإطناب : |
| 263 | | أ - الإيجاز : |
| 269 | | ب - الإطناب : |
| 271 | | المطلب الخامس : أسلوب القصر : |
| 275 | | المبحث الثالث : الأدوات البديعية ودورها المعماري في سورة هود : |
| 280 | | المطلب الأول : ألوان البديع المعنوي : |

| | | |
|-----|-----------|--|
| 280 | | أولا: الإلتفات: |
| 286 | | ثانيا: الطباق: |
| 288 | | ثالثا: المقابلة: |
| 290 | | المطلب الثاني: ألوان البديع اللفظي: |
| 290 | | أولا: الجناس: |
| 291 | | ثانيا: الفواصل: |
| 295 | | المبحث الرابع: الأدوات التصويرية ودورها في معمارية سورة هود: |
| 298 | | المطلب الأول: التصوير بالتشبيه: |
| 305 | | المطلب الثاني: التصوير بالمجاز: |
| 305 | | أ - المجاز العقلي: |
| 307 | | ب - المجاز اللغوي: |
| 307 | | أولا: المجاز المرسل: |
| 309 | | ثانيا: الإستعارة: |
| 311 | | المطلب الثالث: التصوير بالكناية: |
| 313 | | الخاتمة |
| 318 | | فهرس المصادر والمراجع: |
| 339 | | فهرس الموضوعات: |

ملخص:

تُعتبر معمارية السورة في القرآن الكريم مخرج جمالي يُعنى بالبعد الفني بهدف الإعجاز التأثري، وقد اخترتُ مقارنة معمارية السورة أسلوبياً؛ ذلك أن تناول السورة من حيث عمارتها يتم وفق أسلوبين أحدهما: الوقوف عند السمات الفكرية أو الموضوعية التي تربط الآيات بعضها مع الآخر، والثاني: الوقوف عند السمات (الفنية) الأدبية الجمالية؛ أي ملاحظة مجموع السورة من حيث بدايتها ووسطها ونهايتها من جانب، ثم علاقة كل آية بما سبقها ولحقها من جانب ثانٍ، ثم ملاحظة العناصر القصصية واللفظية والصورية والإيقاعية وغيرها من العناصر الجمالية التأثيرية التي تُنظّم النص المعجز وتمييزه عن غيره، مع ملاحظة هذه العناصر الفنية والجمالية التي وظّفها النص القرآني لتخدم مقاصد وأهداف سورة هود، لتُوصِلَ في النهاية القناعات الفكرية والمضمونية للمتلقي إلى جانب التأثيرات النفسية والحسية والشعورية الهادفة.

الكلمات الدالة: معمارية السورة، القرآن الكريم، مقارنة أسلوبية، سورة هود، الوحدة البنائية، البناء الميكلي، هندسة السورة، الآيات، التجانس، التناسب، التناسق، الوحدة الموضوعية، الوحدة العضوية.

Abstract :

The construction of the verse in the holy Koran is considered an aesthetic output that is concerned with the artistic dimension with the aim of affective inimitability. I have selected the approach of the structuralism of the verse from a stylistic point of view. As a matter of fact approaching the structure of the verse is usually done in two main styles: the first one is to look upon the intellectual and objective features that connect the verses with each other and the second one is to look upon the artistic, literary and aesthetic features, i.e. monitoring the verse as a whole from the beginning to the middle and the end of the verse on the one hand and the correlation between each verse with what came before and after it on the other hand. Another thing that is usually done is to monitor the story, pronunciation, image, rhythm and many other features which are considered as aesthetic and organizing factors which regulate the miraculous text and separate it from any other, giving a good attention to these aesthetic and artistic features applied by the Holy Koran Text in order to serve the goals and ends of Hud verse to deliver at the very end the intellectual and intentional beliefs to the reader along with the promising psychological, sensual and sensory effects.

Keywords: the verse structure. Holy Koran, Stylistic approach, Hud Verse, structural unity, structural building, the geometry of the verse, verses, harmony, symmetry, coordination, objective unity, organic unity.

Résumer:

La conception de la sourate dans le Saint Coran est considérée comme un débouché esthétique qui traite de la dimension artistique afin de réaliser des miracles efficaces. J'ai déjà choisi une approche stylistique pour le design de la sourate. L'étude se fait en fonction de deux styles: premièrement, en se tenant à des caractéristiques intellectuelles ou objectives qui relient les versets les uns aux autres. Deuxièmement, se tenir aux caractéristiques esthétiques littéraires (artistiques), c'est-à-dire noter le total de la sourate en termes de début, milieu et fin, ceci d'une part, et la relation de chaque verset à ce qui précède et suit de l'autre. Ensuite, des éléments narratifs, verbaux, imaginaires et rythmiques et d'autres caractéristiques esthétiques efficaces organisant le texte miraculeux et le distinguant d'autres textes, en tenant compte des éléments esthétiques employés par le texte coranique pour servir les buts et objectifs de Surah Hud. Enfin, pour atteindre les convictions intellectuelles et les contenus pour le récepteur, ainsi que les effets de la psychologie, des sens et des sentiments.

Mots clés: Conception de la sourate, Saint Coran, Approche stylistique, Sourate hud, Unité structurelle, Construction structurelle, Sourate Shema, Versets, Homogénéité, Proportionnalité, Harmony, Unité objective, Unité organique.